كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

على صخرة الأصالة..

كثيراً ما نسمع من هنا وهناك صيحات استهجان وتحذير من الأخطار التي تهدد اللغة العربية، والمصير الذي ستؤول اليه اذا ما استمرت في الانحدار غير المسبوق الذي تشهده اليوم. وكثيراً ما تذرف الدموع عند المقارنة بين ماضيها المجيد وحاضرها المشين الذي يندى له الجبين، ومستقبلها الذي لا يبشر بخير، لا بل ينذر بعظائم الأمور.

وكم قرأنا وسمعنا نداءات استغاثة أطلقها مختصون وغير مختصين مفادها أنّ حال لغتنا الجميلة قد تدهور ووضعها قد استفحل، وأنها آلت الى ما لايحب الغيورون عليها والذائدون عن حماها.

ويستدل أصحاب هذا الرأي المتشائم فيما يذهبون اليه بما نشهده اليوم من نزوع كبير لاستخدام كلمات مقترضة من لغات أجنبية، وخاصة من اللغة الانجليزية التي

باتت ترخي بظلالها على معظم لغات العالم. وتلك حقيقة تجلّت في العدد الكبير من الألفاظ الهجينة والمعربة التي تعج بها اللغة في استخداماتها اليومية، حتى بدا أنها تسرح وتمرح في لغة الضاد بلا رقيب ولا حسيب، تشوهها وتلغي صِبغتها وتضر بأصالتها، وتظهرها عاجزة عن مواكبة متطلبات العصر الحديث بالتعبير السليم.

من هذه الألفاظ، على سبيل المثال لا الحصر، أفعال من نحو «فنّش» (بمعنى أنهى)، و «فلل» (بمعنى ملأ)، و «سيف» (بمعنى حفظ)، و «فيم» (بمعنى أخفى أو غشا)، و «فرمل» (بمعنى توقف أو بطأ)، و «فيش» (بمعنى جعل له بطاقة وسجلا)، و «دوبل» (بمعنى ضاعف)، و «فبرك» (بمعنى اختلق)، و «رودج» (بمعنى هيأ ودرب)، و«مسج» (بمعنى بعث برسائل هاتفية)، الخ..

ناهيك عن عشرات الألفاظ الأجنبية التي دخلت العربية للتعبير عن مدلولات أفرزتها الحضارة في الاستخدامات اليومية. فالأطباء ينصحون باتباع «ريجيم» مدروس؛ وفي «الدراما» السينمائية والتلفزيونية، يُحوّل العمل الأدبي الى «سيناريو»، ويعرض «السكريبت» على شركة الانتاج التي تتبنى المشروع وتموله، ويدفع بالعمل الى المخرج الذي يدخل «الاستديو»، وفي بعض المشاهد يستعان بـ «الكومبرس»؛ ويسجل الفيلم على شريط «فيديو»، ويصور للأغنية «فيديو كليب» ويخضع التسجيل لـ «الميكساج» و «المونتاج». وأما «الأركسترا» فيقودها «المايسترو» في دار «الأوبرا»، ولها «ربرتوار» غني متنوع. ويعزف الموسيقيون مع أو من دون «نوتة».

وفي التلفاز، كثرت المسلسلات «المدبلجة» بمختلف أنواعها، فمنها «الدراما» و«الكوميديا» و«البسيكودراما»، فضلاً عن الأعمال المستوحاة من «الفولكلور».

وما يحدث في «كواليس» السياسة العالمية أشبه بالمسرحية «السيريالية». وأما في الادارة، فقد باتت «الأتمتة» مطلباً ملحاً وأحد معايير التطور، شأنها في ذلك شأن مسألة النوع الاجتماعي أو «الجندر» التي فرضت نفسها على الدساتير والقوانين.

وها هي الجامعات والمعاهد العليا الحكومية والخاصة تدرس «الديكور»

و«الغرافيك».. وكثيراً ما نسمع في المصطلح النقدي المسرحي عن «ديناميكية» الفعل الدرامي، و «سوسيولوجيا» المسرح و «سينوغرافيا» العرض.. حتى انتقلت عدوى «السينوغرافيا» إلى الدراسات الهندسية والعمرانية والبحوث المعلوماتية.

كما غدت مختلف أدبيات العلوم الأساسية والتطبيقية والانسانية تعجّ بالمصطلحات العلمية المعربة، التي يرى الكثيرون أنّها تقف عائقاً أمام بناء مجتمع المعرفة. ففي اللسانيات مثلاً شاع استعمال مصطلحات غريبة مثل المورفيم والفونيم والفيلولوجيا والسيميولوجيا والأنتروبولوجيا وغيرها مما يحتاج الى ترجمة من أهل العلم والاختصاص. أمّا مصطلحات مثل «الجيوسياسي» و«الاثنية» و «الببليوغرافيا» فقد شاعت على ألسنة وأقلام الدارسين والنقاد والمفكرين في حقول معرفية عدة.

لقد غدا الكمّ الهائل من الألفاظ الغريبة، الدخيلة والمعرّبة، مصدر أرق حقيقي. ومما لا شك فيه أن الخشية على لغة الضاد من أن تضعف، وعلى مفرداتها من أن يغلب الدخيل منها على الأصيل، وعلى موازينها الصرفية من أن تخل، وتراكيبها من أن تتفكك وقواعدها من أن تنتهك، انّما هو أمر مشروع، تبرره الغيرة على هويتنا الوطنية والقومية من التفكك والذوبان، والخشية على تراثنا الثقافي من الاندثار. لكن اللغة العربية الجامعة، لغة الذكر الحكيم، لغة المعلقات والخليل والمتنبي والفارابي وابن سينا وابن رشد والجاحظ والمنفلوطي وطه حسين، أعرق وأعظم من أن تضعف وتضمحل. وهي كسائر اللغات الحية، دائمة التجدد والاغتناء، وما الاقتراضات التي تلجأ اليها الا أدوات تكيف مرحلي مع الاحتياجات الراهنة، تسقط مع الزمن بعد ابتكار أدوات جديدة عادة ما تكون أكثر ملاءمة والبنى اللغوية السليمة. وأما موجة المفردات الدخيلة فهي ليست سوى موجة عابرة، تقوى وتشتد أحياناً، لكنها لا تلبث أن تتكسر على صخرة الأصالة فتتبدد وتذهب هباء.

وكما تتبادل الشعوب البضائع والأفكار والممارسات، تتبادل المفردات الدالة عليها، فإما أن تدخلها في صلب لغتها فتكيفها مع بنيتها الصوتية وأوزانها الصرفية

لتصبح جزءاً لا يتجزأ منها، وإما أن تلفظها تدريجياً وتحِلّ محلّها ألفاظاً بديلة تحفظ بها قيمة الجذر التعبيرية لتشتق منه ما يغني الفكر والمعاجم.

يخطئ من يظن أن اللغة، أياً كانت، يمكن أن تعيش متقوقعة منعزلة عمّا حولها، مكتفية بذاتها مستغنية عن كل ما سواها، فما من لغة حيّة بمنأى عن تلك التبادلات. وكما أن اللغة العربية تتأثر وتتلقى وتقترض وتغتني، فهي تؤثر بالقدر نفسه بسواها من اللغات، وبقدر درجة احتكاكها الحضاري بها. تركت بصمتها في لغات عدة كاللاتينية واليونانية واللغات المشتقة منها والمتفرعة عنها. والمفردات العربية باليونانية والقبرصية والتركية والفارسية والاسبانية والفرنسية تكاد لا تعد ولا تحصى. وفي اللغة الفرنسية وحدها اليوم عشرات المفردات من أصل عربي منها الأسماء كالمنارة، والسوق، والقهوة، والجبر، والديوان، والاكسير، والطبيب، والشربة والجبة و «شوية»، و «كليب» (أي كلب) و «الكيف» التي اشتقوا منها صيغ الفعل والصفة واسم الفاعل.

ومنها الصفات كالفقير والمسكين والزين والمهبول؛ ومنها الأفعال مثل «شوف» و«مات»، وغيرها كثير...

لا يضير اللغة العربية في شيء أن تقترض من سواها، ما لم تتهاون في قبول الدخيل وما لم يخل المقترض بقواعدها وأوزانها ويبعدها عن أصولها. ولعل من المطمئن في الأمر أن جهوداً لغوية حميدة تبذل في مجامع اللغة العربية والجامعات ومؤسسات الترجمة وصناعة المعاجم للنظر في الدخيل من الألفاظ والبحث عن مقابلات عربية لها، فاقترحت «الجنوسة» بديلاً عن «الجندر»، و «هندسة المشهدية» محل «السينوغرافيا»، والصوتم بدل «الفونيم»، الخ..

ان تعريب التعليم العالي في الجامعات والكم الكبير من الكتب المتخصصة في شتى ميادين المعرفة والتي تفتقت عنها جهود الباحثين العرب في التأليف والترجمة لأكبر دليل على أنه لا خوف على لغتنا. حية كانت وستبقى.. لغة التنزيل والبيان والعلوم.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

ذكرى القديسة والعملاق

تصادف في هذه الأيام ذكرى مرور /٣٥/ سنة على رحيل أسطورة الغناء «الأوبرالي» العالمي «ماريا كالاس» (١٩٢٣-١٩٧٧م)، وخمس سنوات على رحيل أحد أشهر أعلام «الأوبرا» في القرن العشرين «لوتشيانو بافاروتي» ونجدها مناسبة لنشير ولو باختصار شديد إلى أهمية وعظمة ما قدمه كلٌ منهما في هذا المجال الغنائي الصعب..

لقد عاشت ماريا كالاس طفولتها في ظروف صعبة، ولّدت لديها عواطف ومشاعر جعلتها تعشق الموسيقا والغناء، وتتبع دورات مكثفة في تعلم الموسيقا والغناء في أكاديمية الموسيقا في أثينا، وغنت في الأوبرا اليونانية مرات عدّة، ولكن وضع اليونان غير المستقر -حينذاك- جعل ماريا تسافر إلى إيطاليا، حيث سنحت لها فرصة ذهبية حين اضطرت بالمصادفة إلى الحلول مكان مغنيّة الأوبرا الشهيرة «كاروزيو» فتمرّنت على الغناء الأوبرالي لمدّة أسبوع واحد، وحققت نجاحاً باهراً أطلقها إلى الشهرة العالمية، وأدخلها في دوامة من القلق والخوف جعلاها تتخبط مع وزنها الزائد صعوداً ونزولاً، والغريب، كما

تشير المصادر - أن ماريا في بداية حياتها استطاعت أن تسحر الناس بصوتها فقط، فقد كانت تعاني سمنة مفرطة، شكّلت حائلاً بينها وبين اهتمام الرجال، لكنها استطاعت في سنة واحدة أن تفقد /٣٠/ كيلو غراماً من وزنها، لتتحول إلى امرأة جميلة يتمنّاها كل رجال العالم ويحلمون بها..

بعد شهرة ماريا كالاس، تزوجت «الديفا» (تعني باليونانية القديسة) من الإيطالي «جيوفاني باتيستا» الذي كان يكبرها بثلاثين سنة، وراحت تنتقل من نجاح إلى نجاح، وأصبح صوتها يدوي بقوة في صالات الأوبرا العالمية، لأنها بحق سيدة صوت «السوبرانو» الذي خلب عقول الملايين، وسحر أسماعهم، واجتذب الكثير من رجال المال والسياسة والاقتصاد والفن، وهي بالفعل معجزة الغناء الأوبرالي بلا منازع، وهناك من يقول عنها بأنها الأهم على الإطلاق بين مغنيات الأوبرا في التاريخ، وأعظم صوت درامي في تاريخ فن الأوبرا، وترجع هذه الأهمية إلى أن صوتها ٦.٧ أوكتاف أي (ديوان صوتي في الموسيقا العربية) وهذا بمقياس الصوت يقرب من درجة الإعجاز، وقد تمتعت ماريا بقدرتها على تطويع صوتها «السوبرانو» الحاد والقوي في كل المشاهد الأوبرالية الدرامية التي قامت بها على مسارح دور الأوبرا العالمية الشهيرة..

لقد جلبت لها الأوبرا الشهرة والمال، ولكنها افتقدت الحنان والحب، بسبب فارق السن بينها وبين زوجها، فعاشت مرحلة مضطربة وعلاقات عابرة سببت لها مشاكل كثيرة، حتى عام ١٩٥٧م، حيث التقت بأغنى رجل في العالم -آنذاك- (أرسطو أوناسيس) فعاشت معه أجمل أيام حياتها، ولكن هذه الأيام انتهت عندما ارتبط «أوناسيس» بعلاقة عاطفية مع أشهر أرملة في التاريخ «جاكلين كنيدي»، فأصيبت ماريا بصدمة نفسيّة حادة جعلتها تنزوي في منزلها الباريسي رافضة الكثير من عروض الحفلات والتمثيل في السينما، وراحت تدرّس الغناء بصفتها أستاذة أكاديمية في كثير من دول العالم، وبعد محاولات كثيرة لإخراجها من واقعها الذي وضعت نفسها فيه نجح المخرج الإيطالي العالمي الراحل «بيير باولو بازوليني» بإقناعها بتمثيل دور «ميديا» وفق رؤية جديدة لأسطورة «ميديا» اليونانية القديمة، وأثبتت جدارتها بقوة في فن التمثيل، وبالمناسبة الفيلم صوّر في قلعة حلب، وتمّ عرضه في صالة الكندي في دمشق، بحضور مخرجه،

وكانت فرصة للتعرّف على هذه الفنانة العالمية التي لن يجود الزمان بمثلها، وأعتقد أن هذا الفيلم حقق دعاية كبيرة لقلعة حلب..

آخر ظهور للقديسة اليونانية «ماريا كالاس» على المسرح، كان في مدينة «سابورو» اليابانية عام ١٩٧٤م.

وفي ١٦ أيلول ١٩٧٧م، كانت صدمة عشاق الفن والموسيقا في العالم، عندما أعلن نبأ رحيل أقوى صوت أوبرالي عرفه العالم، بسبب جرعة زائدة من الحبوب المهدئة، وهناك من قال (أزمة قلبية مفاجئة) وتم إحراق جسدها على الطريقة اليونانية القديمة، ووضع رمادها في جرّة فخارية، لينثر فوق البحر المتوسط بحسب وصيّتها، وقد منحت «ماريا كالاس» في العام نفسه، جائزة «غرامي» الشهيرة على مجمل أعمالها وإبداعاتها في المجال الموسيقي، وبهذا كما يقول الناقد محمد غندور، «كانت أوّل فنانة تمنح الجائزة بعد وفاتها»..

بعد مرور /٣٥/ سنة على رحيل «ماريا كالاس» نقول إنها لا تزال تعيش في أذهان عشاق ومحبي فن الأوبرا الرائع، وما زال صوتها الخارق يصدح عالياً في كثير من وسائل الإعلام، ومازالت تسجيلاتها الخالدة تحقق مبيعات لا حدود لها في كثير من دول العالم.

❁ ❁ ❁

زرت العاصمة الإيطالية «روما» في الشهر السادس من عام ١٩٩٥م، للمشاركة في افتتاح معرض الآثار السوري «إيبلا أصل التمدّن» وكانت أوّل رغباتي حضور أمسية غنائية لأشهر أعلام الأوبرا في العالم «لوتشيانو بافاروتي» الذي رحل عن عالمنا منذ خمس سنوات (١٩٣٦- ٢٠٠٧م) وقد صارحت صديقي عالم الآثار الشهير «باولو ماتييه» مكتشف مملكة إيبلا، بذلك، فقال الأمر يحتاج إلى وقت، لأن حفلاته وأمسياته يحجز لها قبل أشهر عدة، وسعر البطاقة يصل إلى أكثر من /١٠٠٠/دولار، وقد وصل سعر بطاقة إحدى حفلات «بافاروتي» المميزة في نيويورك إلى أكثر من /٢٨٠٠/دولار، فقلت: يا صديقي دعك من ذلك، وسوف أكتفي بالأسطوانات المدمجة والعادية، وبالفعل عدت من روما بمجموعة كبيرة من أجمل التسجيلات لحفلاته الشهيرة وأعماله الرائعة، وقد

استكملها لي الصديق المايسترو ناهل الحلبي، مدير المعاهد الموسيقية في وزارة الثقافة، في العام الماضي عندما قدّم لي مجموعات جديدة من الأسطوانات المدمجة لهذا الفنان العالمي الكبير الموهوب الذي وضع مقياساً جديداً لصوت «التينور». الصوت الرجولي ذي الطبقة الأعلى، منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى يومنا هذا..

منذ أكثر من ربع قرن أستمع إلى «بافاروتي» بشكل مستمر، وأتابع تسجيلاته بانتظام وشوق ومحبة، لأنني معجب بشخصيته الآسرة، وموهبته التي ساعدته على ربح الجائزة الأولى ضمن كورال شارك في مهرجان في بريطانية عام ١٩٥٥م، وما لبث أن صعد سُلّمَ الشهرة، في الغناء الأوبرالي بخطوات واسعة وسريعة خلال الستينيات من القرن الماضي، وسرعان ما أثبت نفسه كأهم مغنّي أوبرا في جيله، وحتى رحيله المحزن، بعد صراع مرير مع مرض سرطان البنكرياس..

أوّل ظهور عالمي لبافاروتي كان في دار أوبرا «لاسكالا» في ميلان الإيطالية عام ١٩٦٧م، حيث غنّى (القداس الجنائزي، لفيردي) بقيادة المايسترو العالمي الشهير «هربرت فون كارايان» وتلت هذا العرض الشهير المسجل على أسطوانات مجموعة من العروض في المدن الإيطالية الأخرى، التي انطلق منها إلى أهم صالات الأوبرا العالمية، حيث غالباً ما أدى أدواراً رئيسة للتينور في أوبرات إيطالية، وبعد سنوات أخذ «بافاروتي» بتوسيع حضوره في ساحة الغناء العالمي، على نطاق شمل قاعدة شعبية واسعة أوصلته إلى نجومية ذات طابع شعبي عالمي، أضيفت إلى الموقع المتميّز الذي تربع عليه في أوساط الغناء الأوبرالي، وقد تعززت هذه الشعبية الواسعة من خلال مشروع «مغنّيي التينور الثلاثة» الذي تعاون فيه مع «خوسيه كاريراس» و«بلاسيدو دومينغو» حيث غنّى «ثلاثي التينور» بمناسبة كأس العالم لكرة القدم عام ١٩٩٠م، وبعدها جال العالم يمتّع عشاق فنه الرفيع في حفلات عديدة..

في أوائل التسعينيات من القرن الماضي، بدأ «بافاروتي» مشروعه المرئي والمسموع مع مغنّيي البوب المشهورين في العالم، وأطلق عليه اسم «بافاروتي والأصدقاء» ونتج عنه تسجيلات مهمة مع المغني العالمي الإنكليزي «بول مكارتني» وحفلات إحياء ذكرى أميرة

ويلز «ديانا» ومن أهم ما تركه «بافاروتي» لجمهوره الكبير تسجيلات متنوعة لعدد كبير من أوبرات المؤلفين الإيطاليين أمثال: فيردي وبوتشيني، وبيلليني، إضافة إلى «ألبوماته» الإفرادية التي سجل فيها آريات (أغنيات منفردة تشكل عملاً موسيقياً متكاملاً)..

لقد كُتبت عن «بافاروتي» مقالات ودراسات كثيرة، وجميعها تشير بحب وإعجاب لا حدود له إلى كونه كان السبّاق إلى جعل الأوبرا متاحة ومحبوبة كمادة موسيقية واسعة الانتشار، حيث لم يتردد في تقديم الحفلات في الملاعب الرياضية لعشرات الآلاف من المستمعين وخصوصاً مع المغنيين «دومينغو» و«كاريراس» وكانت شخصية «بافاروتي» المرحة والجذابة والمحبّة للحياة حاضرة أينما ذهب وحلّ.. وكان الوحيد من مطربي «التينور» الذي تجرأ وأحيا حفلاً في الهواء الطلق في الهايدبارك في مدينة نيويورك أمام نصف مليون مستمع في عام ١٩٩٣م.. لقد كسر قواعد الاستماع إلى الغناء الأوبرالي، وترك العنان لمئات الآلاف من المستمعين يصرخون ملء حناجرهم، ما إن يميّزوا «الآريا» التي سيغنيها «بافاروتي» بعيد ابتداء أوّل جملة موسيقية للأوركسترا..

في التقييم العلمي لصوت «بافاروتي» تفيد الدراسات بأن مساحة صوته في طبقة «التينور» العالية كانت طبيعية، فهو لم يحتج لسنوات من التدريب حتى يتمكّن من الغناء في تلك المساحة الصوتية الصعبة، كما كان حجم صوته الكبير يساعده على ملء القاعة، والاستئثار بالانتباه، ولم يقتصر تميّز هذا الصوت على طبيعته وحجمه، بل إن أكثر ما ميّز صوت «بافاروتي» كانت قدرته العالية على التعبير، وعلى تحميل الكلمة المغنّاة أبعاداً فنية حسيّة متعددة، وعواطف مفعمة بالحياة والصدق..

مما لا شك فيه أن اهتمام «بافاروتي» المستمر بنشر الأوبرا ساهم كثيراً في تحويلها، ولو جزئياً، من فن نخبوي، صعب الفهم والمنال، إلى فن يتآلف معه الملايين ويعرفونه، بل يحفظون بعضاً من أجزائه عن ظهر قلب، وقد استطاع «بافاروتي» بقدرته الفائقة، وحسّه الجماهيري حمل الكثير من الألحان والأغنيات مباشرة إلى قلوب سامعيه لتصبح في مصاف الأغنيات الشعبية، وأغاني «البوب» الحديثة..

لقد صدق من قال بمناسبة رحيل بافاروتي: «في صوته كانت تشع الشمس»، وكان

آخر إشعاع لهذا الصوت الخارق المحبوب في جميع أنحاء العالم، في «الأولمبياد» الشتوية في تورينو الإيطالية عام ٢٠٠٦م حين شاهده العالم يغنّي للمرة الأخيرة، في أداء مهيب ومؤثر..

توفي «بافاروتي» فجر الخميس ٦أيلول ٢٠٠٧م، في منزله في مدينة مودينا شمال إيطاليا عن عمر /٧١/ عاماً، وقد كتب مدير أعماله في بيان وزع عالمياً: «الموسيقار قاتل لمدة طويلة، وخاض معركة قاسية ضد سرطان البنكرياس الذي أخذ حياته في النهاية».

تراثنا العلمي والأدبي..؟!

✿ د.سليم شبعانية

إن موضوع تراثنا يتسع زمانه اتساعاً، قد يعجز أحدنا عن تصوره، لأنه استوعب الماضي ويستوعب الحاضر، ولن يضيق عن استيعاب المستقبل.

لا تحسبوا هذا الكلام ضرباً من المديح، كانت تلهج به الشعراء فيما سلف، واليوم تسطّرُهُ أقلامُنا، بل هو الحقُّ الذي لم يَحِدْ عن سكَّتِه مطلقاً.

كما أن تراثنا لم يتسع زماناً فحسب، بل ورحُبَ مكاناً حتى شمل أصقاع الوطن العربيّ وتجاوزها إلى أوطان الآخرين الذين يدينون بدينِ الإسلام.

وينبغي على كل دارسٍ أن يعلم إذا ذكر التراث أنه لا يقصد به فقط تلك الكتب المخطوطة المخزنة في زوايا دور الكتب، وينظر إليها على أنها أثر من الآثار، كما ينظر إلى سارية أو منحوتة في متحف غَنِيّ بالآثار.

فإني أخشى أن يضيق نظر أولئك الدارسين، فتنحصر رؤيتهم للتراث في تلك المخطوطات، ولا يرون غيرها، وتقتصر دراساتهم على خدمة التراث بإحياء بعض من هذه الكتب المخطوطة، سواء أكانت في العلوم العربية (نحواً، ولغة، وبلاغة، وأدباً) أم في العلوم الشرعية من (عقيدة وفقه وأصول وحديث وتفسير وعلوم وغيرها).

ولكنَّ الذي يجب أن لا يُغفل أنَّ تراثنا يستوعب إضافة إلى ما ذكر، كلَّ ما ترك أجدادنا من نتاج فكري ومعرفي وعلمي: نظري أو تطبيقيٍّ، أي من علوم في الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والهندسة..

✿ أديب وناقد سوري.

وحينئذ تنبعث الهمم للكشف عن جذورنا وأصولِ حضارتنا، وتبرز أصالةُ تراثنا، التي لا تقف عند حدود من الحقبة الماضية بل توغل في أعماقِ الماضي.. أريد أن تتكشف للأجيال المتعاقبة قاصداً من ذلك محو أمية هذه الأجيال، لأنها إن تقبض على حفنة من التراث مكتفية بها ضاعت بين متاهات المستقبل الذي يهجم بجيشه من الاختراعات والمحدثات التي تُنسي الغلامَ ثديَ أمه.

فالوَجَلُ يتملّكنا من هذه الزاوية، وإذا سهونا قليلاً يُخشى أن يظن الجيل المقبل أن آثارَ تدمر هي بقية باقيةٌ مما صنعتها يد الأمريكان، وأنّ قلعة حلب كان لطُغمة من تل أبيب يدٌ في إقامة صرحها ولا تستغرب! أجل فهذا مما قد جنته أم الهِريَذي[1] (العولمة) وبئس ما جنت.

فالعودُ إلى التراث لهذا الغرض عودٌ أحمد.

أسفي على جيل اليوم كيف أنه تلهّى بدمىً من المحدثات افتعلها مخترعو الغرب، وغرقَ الجيلُ بها فغاص في الوحل إلى شفته السُّفلى، إلى أسفلِ سافلين، ونسي سفينة نجاته الإمساك بأصول تراثه...

ومِنْ ثَمَّ لم يجز أن نقف بالتُّراث عند حدٍّ زمني أو مكاني نحصره في نصوص محددة، أو في طائفة من العلوم والتاريخ الإسلامي، بل تمتد أبعادُه فتستوعبَ التُّراثَ القديم لكل أقطار الحضارة العربية، ولا أقصد خريطة سايكس بيكو التي مسخت الوطن العربي إلى أقلّ من نصفه، وذلك على امتداد الزمان والمكان، ألم يصر – في حقبة من الزمان- وطنُ أمتنا أقاليمَ لم تغب عنها الشمس على مدار الأربع والعشرين ساعة؟!

فيدخل في تراثنا – على هذا المبدأ – مثل نصوص البَرْدي المصري، وآثار أفاميا، وسفن الفينيقيين، والحدائق المعلَّقة، وكل ما يتعلق بتاريخ سياسي وحضاري في بابل وآشور وسبأ وحمير والسومريين، وفي المغرب العربي الكبير، من أدناه إلى أقصاه، بل إلى الأندلس فإلى جبال البرينية وجنوب فرنسا، مروراً بصقلية وجنوب إيطاليا وجزائر المتوسط، يا لسعة هذا التراث العظيم، ويا لغفلة وارثيه!! إن التراث من حيث ذاته هو مادة تاريخية لماضي هذه الأمة التي لا أدعو للتحسر عليها لما آلت إليه حديثاً، بل أدعو أن يأخذ ورّاثُها المكان المناسب، لكي يتسنى لمختلف ألوانهم وطوائفهم الالتقاء الروحي والفكري، والامتزاج باللسان والوجدان، والاتحاد بالوجود والمصير.. ألا يطربهم قول المنشد:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدادن
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

أو قول الشاعر:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا

بالرقمتين وبالفسطاط إخواني

وينبغي أن لا يجد أحد من العرب شمولية هذا التراث غريباً، لأنّـهُ في الواقع لم يكن مستغرباً في القرون الأولى، حين كانت الأمة في ذروة ازدهارها، ولقد توسّع أفقُها ورحُب فكان التراث من دون تراث الشعوب الأُخَر، من الّذين دانوا بدين الإسلام وتعرّبوا، كما أن حركة التدوين لهذا التراث منذ فجره لم تكن بأيدي العرب من دون سواهم، بل شاركهم مَنْ أسلم، وانضوى تحت قبة القرآن من كرد وترك وفرس وغيرهم من الأعجام، كما ونشطت إلى جانبها حركة تعريب التراث العلمي لشعوب الدولة الإسلامية الكبرى، واتّسعت فاستوعبت تراثَ اليونان والإغريق وعلوم الشّرق الأقصى، كل ذلك عن وعي يُدْرِك أنّ الفكر هذا لم يبدأ من نقطة الصِّفر، وإنّما سبقته حضارات شرقية رائدة عريقة منحته ميراثها، مثل الحضارة في وادي النيل وبلاد الرافدين، واليمن، والهند، وسواها.

لا شك أنّك إذا نظرت فيما بين يدي إنسان وارث قد رحل مورثه، ورأيت من المال والذهب والثروة الكثير، فإنك لن تكبر الوارث على ما بين يديه من ثروة إلاّ بقدر ما يقوم به من عناية بالموروث، طبعاً ولسان الحال يثني على من ترك هذه الثروة.

وإن هذا المثال لينطبق تماماً على ميراث أمتنا الذي آل بين يدي الأحفاد عن أولئكم الأجداد الذين ما من ريب هم مظهرٌ لوعي الأمة لذاتها، وما كان مهيئاً لدورها الريادي بالحضارة الإنسانية الرائعة التي صنعها أولئك المهرة..

أجدني وأنا أدوّن هذه الخواطر عن تراثنا المجيد، كمن قبض بين أصبعيه على إبرة يريد أن ينحت بها تمثالاً لهذا التراث، واتخذت جبل قاسيون برمته مادّةً أولى لتكون منحوتة هذا التراث.

قبل أن أتحول للحديث عن مواد التراث، فأضع القارئ في وسط الموضوع، لا بُدّ من الإفصاح بأن حيرة هيمنت عليَّ، وكادت أن تظفر هذه الحيرة بنصر عليَّ فتبقيني في شتات من أمري، فلا أستطيع شق طريق بيّنة في حديثي إلى تراثنا الّذي هو محيط عظيم جداً قد هاجت تياراته، وأريد الإبحار فيه بقارب بدائي لا يقوى مجذافه على مجابهة هيجانه.

لعلّي إذا بدأت الحديث عن الشعر العربي الذي هو من الموروثات الكريمة، التي تركها أجدادنا إلى أحفادهم لينظروا هل كانوا خيرَ خَلَفٍ لخير سلف في هذه الثروة الشعرية مفخرة الأمة؟

قــد ظل تراث مــا قبل الإسـلام الذي اصطلحَ عليه بالعصـر الجاهلي، ظل ينقل شفاهــاً من قديمه إلى الجيــل الذي بعده، فالذي بعــده، إلى أن ظهرت الحاجة الملحة إلى الجمــع والتدوين، فانصرفت الهمم إليه مـن النصف الثاني للقــرن الأول الهجري، وانبعثــت الهمم أكــثر في العقود المتلاحقة، التــي امتدت نحو ثلاثة قــرون، كان الشعر خلالها يروى شفاهاً، من جيل إلى جيل، وفي المشافهة ما فيها من آفات الانتحال والضياع والنسيان، فانبرى طبقة من الرواة في عصر التدوين ليستنقــذوا التراث مــن التشويه، ويجابهوا الشعوبيــين، الذين يصطادون في المياه العكرة، فقام الــرواة الغيارى بتقييد المرويات، وحوسب هؤلاء الرواة وفق ميزان الروايـة وقانــون الجــرح والتعديــل الذي وزن فيــه المحدثون مرويّاتهــم في الحديث والتاريخ.

فتوفــر أئمة ثقات ذوو خــبرة وبصيرة، نقــدوا الشعر ورَوَوْهُ صحيحــاً، من دون أن يختلط فيه منحول.

وكان نتيجة هذه المهــارة أن جمع تراث شعــريٍّ ضخم، ومنه استخلــص الدارسون ألفاظاً صنعوا منها المعاجم، كما ميزوا بهذا الشعر المتيقنة نسبته إلى قائليه قواعد النحو وضوابط العربية، والأساليب البيانية.

واستنفــر جيش كبير من العلماء، فمنهم من شغل بشرح ألفاظ الشعر، وتفسير غريبه، ومنهم من اهتم بتذوقــه ونقده، ومنهم من عمل على فــرز علوم ملحقة بعلوم أساسية، فتألف لدينا مجموعة لا يستهان بها من علوم العربيــة وآدابها، فتركوا لنا تراثاً خصباً من العلوم تفتقر إلى نظيره الأمم الأخرى.

وإذا أردت الاطلاع عن إمعان فيما ذكرت فعليــك بكتاب رائع لم يؤلف شبيه به في بابه هو كتــاب «المزهر في علوم اللغــة العربية» للإمام جــلال الدين السيوطــي، فإنك إن قــرأت فيه بعض الصحائف فإنك لن تتورع بأن تحجــل خفيفاً مطرباً ومنتشياً بالمزهر، علــى أن وهبت هذه الأمة مــن الميزات في لغتها ما لا يوجد في سواها.

إن أبطــأ موروث من الــتراث إلى البلى فإنه بمــا كان لصيقاً باللغــة، أو بمادة من موادها، وربما الأبعد عن البلى والفناء، هو ما أنتجه الفكر والــذوق العربي، من شعر، وخطابه، ونثر آخر، ولعــلّ سلف هذه الأمة أدركــوا ذلك، يروى[٢] أن زهير بن أبي سلمى – حكيم الشعــراء على ما قيل – قد انقطع بمديحه لهرم بن سنــان أحد أمراء العرب، وأكثر من مدحه، حتى حلف هرم ألا يمدحه زهــير إلا أعطاه، ولا يسألــه إلا أعطاه، ولا يسلــم عليــه إلا أعطاه عبــداً أو وليدة، أو فرســاً، فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه، وكان إذا رآه في ملأ قال: عموا صباحاً

غير هرم، وخيركم استثنيت، وقال عمر ابن الخطاب لبعض ولد هرم أنشدني بعض مدح زهير أباك، فأنشده:

قد جعل المبتغون الخير في هرم
والسائلون إلى أبوابه طرقا
إنْ تلق يوماً على علاته هرماً
تلق السماحة منه والندى خلقا
ليثٌ بعثر يصطاد الرجال إذا
ما كذّب الليثُ عن أقرانه صدقا
لو نال حي من الدنيا بمنزلة
أفقَ السماء لنالت كفُّه الأفقا

فقال عمر: إنْ كان ليحسن فيكم القول! قال: ونحن والله إن كنّا لنحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم، وقال عمر لابن زهير: ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك؟ قال: أبلاها الدهر، قال: لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر! ليت المتفكّر بهذا الموروث ساعة يسأل نفسه: كم بيننا وبين زهير من الزمن؟ قليل من التفكر والبحث ستعلم أن بينك الآن وبين ذلك الزمان قرون عدّة، فهل هذه القرون الطويلة كافية لإثبات ما يحمل التراث من قيمة نادرة حتى حافظ على حياته ولم يُقْبَرْ فيما قُبِرَ من الآثار؟

إن أية مكتبة حافلة، إذا طاف بصرك في كتبها فإنَّ البصر منك لن يرجع إليك إلا ومعه خبر بضع مئات من دواوين الشّعر العربي. وكم أتمنَّى أن تنبثق دراسة من الدراسات الأدبية عن شعر وشعراء بلاد الشام منذ فجر الأمة إلى العصر الحاضر، ولا أكون عنصرياً إن أحثت بالطلب هذا عن شعراء سورية منذ العصر الجاهلي.

وبيَّنَ الدارس في دراسته بعد أن يجمع ديوان الشعر الشامي جمعاً منهجياً.. بيّن خصائصه والتصوير فيه وفنونه ومدارسه، ولا يكتفي بالدراسة التقليدية، أي ما فيه من مديح وهجاء ووصف وغزل وحكم وتشبيب وغير ذلك.

إنَّ نقصاً في مكتبتنا الأدبية وفي جانب الشعر حصراً قد اعترى هذه المكتبة.. إني سألت نفسي وما زلت أسأل: هل من سفْرٍ يحوي شعر الشعراء السوريين في الجاهلية والإسلام وعَصْرَي العباسيين؟ مازلت أطمع بأن أعرف الجواب، إن كان «نعم» فأهنئ نفسي وأمتي إن لم يفتها هذا الخير، أو «لا» فأقوم معزياً، وراغباً أن لو قُيِّض قلمٌ من الأقلام الخبيرة بهذه المهمة. غير أني لا أغمط حق مجمع اللغة العربية في دمشق إذ أخرج سلسلة من دواوين الشعر، لشعراء من الشام، فهو يشكر على هذه الجهود التي نحلم بتواليها واستمرارها.

كنت قد وجدت ديواناً جمع فيه شعرٌ شاميٌّ معاصر، قام به – مشكوراً – الدكتور

سامي الدهان، وهو عضو في المجمع العلمي العربي في دمشق، تحت عنوان: (الشعراء الأعلام في سورية) وهم: بدوي الجبل، وعمر أبو ريشة، وخليل مردم، وشفيق جبري، وخير الدين الزركلي ومحمد البزم بيد أنه لم يستوعب من حيث العهد فاكتفى بالعصر الحديث ومن حيث الشعراء فاختصر على ستة منهم معاصرين، ومن حيث الشعر فليس ما جمعه شاملاً لشعرِ كلٍّ منهم.

كما وجدت من صنع الديوان الدمشقي، ولا أضن عليه بشكري، وفيه: شعر نُظِمَ في مديح دمشق قديماً وحديثاً، قام بهذا الجمع من استوجب ثنائي، إذ كان معرجاً بعض الشيء على مطمع من مطامعي الأدبية الأستاذ محمد المصري، ولكن يظل المرغوب محل طمع أكبر في تحقيقه، إذ هذا الديوان جمعَ فيه ما قيل من شعر في دمشق، وقد يكون القائل دمشقياً أو غير دمشقي.

لكنَّ نزعتي هي أن تدوّن أشعار الشاميين على سبيل الاستقصاء والاستيعاب مشمولاً هذا التدوين بدراسة مستفيضة، ولو استأهل هذا العمل موسوعة كبيرة، فهي في سبيل الوطن جهد يسير وإن كثر، أليس من حقِّ بلدنا علينا أن نسدي له معروفاً كما بادرنا بهذا المعروف؟ هذي دمشق!

شمخت لتظفر بالشموس كأنما
بين الشموس وبينها إيماء
وموائد الزهر الخضيل بأرضها
فُرُشٌ حوالمُ بالنعيم وطاءُ
يحلو بها وأحبُّ ما ترى الهوى
لك عندها السُّمَّارُ والرُّفعاء
الهائمون بها فثمَّةَ عُزوَةٌ
يشدو، وثمَّة للهوى عفراءُ
دنيا منضَّرةُ الجمالِ تزفُّها
في بابلِ الدنيا يَدٌ مِغواءُ
أبغيرِ هاروتِ البيانِ تعلَّقت
للشعرِ في آفاقِها أضواءُ
فهناكَ أشياءٌ يضلُّ بها الحِجا
ووراءَ كلِّ غوايةٍ أشياءُ
تيهاً عروس بني أمية واسلمي
فلكِ العرائسُ كلُّهُنَّ إماءُ(٣)

وأنا إن شجعت للاعتناء بالشعر الوطني أو المحلي أي شعر المناطق فليست دعوة إلى الانقطاع عن بقية الأقاليم، وهذا ليس من ثقافتنا بتاتاً، وكنت قد أحث في مطلع المقالة إلى الانتماء العربي أينما كان، ولكن هذه الدعوة محاولة إلى أن يجتهد كل أبناء إقليم بتراثهم من باب توزيع العبء على الجميع فيكون العمل أسهل، ثم إن كل صقع أهلوه أدرى به، إذ قالوا: أهل مكة أدرى بشعابها، أليس هذا أسرع وأصوب نتاجاً؟ فلو حَلَتْ لك دراسة عن أمر في المغرب العربي وأنت من المشرق، أو العكس، ألا يتطلب منك هذا الأمر جهداً غير محتمل؟ ناهيك عن

الزمـن والمال المنفقين، وأدري هذا من واقع عملي إذْ أعـددت دراسة للشهـادة العالية كانت عـن شخصية تلمسانيـة، وفي القرن التاسـع الهجري فبذلت جهوداً كبيرة لم تكن في الحسبان.

وإني إذْ أدعو الأقلام المبدعة للكتابة في تراث الشـام رواية ودراسة نقدية وفي سائر ضروب المذاهب الأدبيـة.. لم أكن بدعاً بين الكتاب في هذه الدعوة، وذلك لأني أرى ومنذ أمـد ليس قريباً الاتجاه الأدبي في سورية لا يسعى إلا بالمنطق الشمولي والقومي، ويعزب عـن المنطق المحلـي إلى درجة الإغفال غير المبرر للجهود الأدبية التي تنبعث من سورية، مثالهم مثال الأب الحنـون الرؤوف بأولاده الـذي ينفق عليهـم يميناً ويسـاراً وفي كل المناسبـات وتراه ينسى نفسـه، لا يفتكرها بجوربيـن على الأقل، وهكـذا سورية كانت على جميع الأصعـدة (سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً) قد حملت على عاتقها هذه الهموم كلهـا وحتى في المجـال الأدبـي ونسيت أو كادت تنسـى نفسها، وهذا - لا شك - أمر إيجابي محبب عند من أفعم جرابه بالضمير والأخـلاق، أمـا من فَقَدَ منهمـا ما يسمى بالضمير والأخلاق، يأتي فيلوم وهو من قبل قد تجرد مما به يطالب.

مـا أدري كيـف أنفذ إلى قلـب هؤلاء، وأوصل الحقيقـة إلى قلب كلٍّ منهم؟ وكيف أفهمـه أن بقاع الشام وأهلهـا حملت على عاتقها هذه المبادئ تطوعـاً، وانطلاقاً من تربيتهـا الرائعـة التـي نـدرت في أوساط الشعوب العربيّة؟

إنَّ الشام قـد شُغِلَتْ بهمّ كبيـر أنساها نفسَهـا، وجـاء على أثـر ذلـك الآخرون - لجهلهـم - يثبتون لأنفسهـم ويريدون أن يثبتـوا للآخريـن أنه فعـلاً لا تمتلك هذه البقاع إبداعـات في شتى الميادين.. فينبغي أن نعلـن، بل ينبغـي أن تستنفر كلُّ الأقلام الشّاميَّـة لتكتب في شتـى الميادين، حتى لا يجهل علينا أحد من الجاهلين..

وإنه لمن المؤسـف أن لا نرى فيما صدر عـن الدكتور شوقي ضيـف صاحب الكتب الكثـيرة في تاريـخ الأدب العربـي وفنونه تعرّضاً ولـو إلماماً بما كان لدمشق من أثر في ميدان الأدب من شعر ونثر ونقد ونحو وغير ذلك، علماً أنه لم يغفل مصر أبداً في أيِّ بحث من بحوثه، حتى إنه كان يقحم مصر فيما لا شأن لمصرفيه، وذلك مما أبرّره له فعلتَهُ، إذ هو مصريٌ ويريد أن يكافئ موطنه بما يراه من المكافأة؛ فهـو بنظري - وإن كان ملوماً في غمطه حقّ دمشق - مشكور! لأنَّ للوطن على القلب سلطـان. ولقد وجّهت له بعض العتب إبـان بحثي (مدرسة دمشق النحويّة) وليس عتباً مقذعاً، بل عتب المحب على مَنْ أحبَّ، إذ يا طالما كانت لي مطالعات في كتبه

ومطالعات، مما صنعت مـودّة روحيّة بيني وبينه، ولكن ولـو كان قلبي قد هوى شوقي ضيـف ومؤلفاته هوىً ثقافياً لكنّه يظلّ أقل ارتباطاً بقلبي من هـواي بوطني، الذي إن أصبح قلبـي وأمسى لا يزال يهتف: لدمشق عهدٌ عليّ قـديم.. أجل إنّ لها علينا جميعاً عهداً أيما عهد!

فكما يجـب على الجنـدي العمل على حراسـة الوطن مـن الأعـادي، فعلى رعاة الأقلام أن ينبروا حماةً عن ثقافتها، ونتاجها الفكري والأدبي، وإنّه ليس من الوفاء بالعهد التغاضـي مرة تلو الأخرى عن فضلها وعمّا لها من فضائل.

هل ينتظـر فرسان القلم مَـنْ يأمرهم ويؤجرهـم لقاء كشفهم عمّا للشام من مقام في تاريخ الأدب؟! هل ينتظرون ولي الأمر أن يرسم لهم حتى يشتغلوا! هل كان الإمام أبو القاسم ابـن عساكر الدمشقي قد تلقّى من أمير عصـره مرسوماً أميريّاً مقترناً بمكافأة مجزية، حتى جاء فأكبَّ على قلمه وقرطاسه وصدرت عنـه – بعدئـذ- موسوعة تاريخ دمشـق التي هو مفخـرة عظمى لا تدانيها مفاخر الدّهر كلّه؟!.

رحـم الله أسـتاذاً لي إذ دار بيني وبينه حـوارٌ في هذا الشأن فقـال: «كانوا يعملون لله..» ولذلـك أفلحـوا، وصنعـوا مجـداً عظيمـاً، فكانت الحضـارة (أي الإنسانية) نتـاجَ إخلاصهم. تصـوّر أنَّ الإمام النووي الذي أقام بدمشق مـن خلال بنانه انبثقت موسوعـات حديثية وفقهيّـة صارت عمدة العلمـاء فيما بعد؛ تصـوّر أنه لم يتناول من خضار دمشـق وفواكهها شيئاً، ويقتات ممَّا يُزَوّد من قريته نـوى الحورانيّة. تُرى لماذا؟ لأنّهم يريدون أن يلبّوا ضمائرهم ويترجموا عن أخلاقهم التي فُطِرُوا عليها.

وهـل ينسى التاريخ ابن النفيس صاحب دورتـي الـدم في جسم الإنسـان، أي الذي اكتشفها وشرحها، هذا الذي خرّجته دمشق عالمـاً عالميّاً، والذي هو أحـدُ مَنْ رفع رأس الأمة، هل ينسى كيـف كان يجوع فلا يجد إلاّ كسرة خبز يبست منذ أسابيع، يبلُّها بماءٍ شاميٍّ ويمضغهـا حامداً شاكراً، ثم صدرت عنه تلك الاختراعات والإبداعات؟!

لعلّ هذه النمـاذج الشاميّة تحفز أقلام بنـي قومي فيُسارعوا إلى إظهارِ المغطّى من إبداعات دمشق..

يوماً صادفت طالبـاً في كليّة الآداب في الحافلة، قد تأبّـط كتباً جامعية، وكان هذا المنظر يعجبني، ولا يزال، أن أرى من يحمل كتبـاً للدراسة، فسألته متطفّـلاً بقصد أن أبعث فيه الولَع بتراثه الشّعري: هل تذكر لي ثلاثة أبيات من شعر الوأواء؟

فنظـر إليّ مستغربـاً، وكأنـه قال: من الوأواء؟

فقلت له: في أي سنة دراسية أنت؟

- على أبواب التخرج!

- بعد قليل تتخرّج من كلية الآداب، ولا تعرف شيئاً عن الوأواء؟

- إنك تمزح .

- لا بل أنا جادٌّ.. طيّب اذكر لي خمسة أسماء من الشعراء الشاميين وبغض النظر عن عصره حديثاً كان أو قديماً..

فتأتأ وتلعثم، وتمنّى لو أنّه مشى إلى مقصده راجلاً، ولم يستقل حافلة يصادف فيها مَنْ يحرجه بسؤاله.

إذن، يجب مراجعة مناهج الدراسة المدرسيّة والجامعية، ويجب تسليط الأضواء على التراث الشامي شعراً كان أو نثراً أو أي ضرب من ضروب التراث.

ليت المسابقات التي يجريها الرائي يصوّب نحو هذه النماذج كي نعلّم أجيالنا مَنْ هي الشام؟ ليتهم يسألون المتسابقين هذا السؤال: اذكر لي اسم عالم واحد من الشّام لكلٍ من العلوم التالية: (النّحو، المنطق، الفلسفة، الهندسة، الصّيدلة، الطّب، الجغرافية، الأصول،..إلخ).

إلى متى تهمل وسائل التثقيف تراث الشّام؟ ألم نأخذ دروساً كانت قد آلمتنا، سببها الإغضاء عن قيمنا وتراثنا؟ وربّما لم يسمع مثقفو الشام بهذا الكاتب!

وهل من امرئٍ لا يهتزّ ولا يتأثر إلى حدّ الحرقة في الكبد حينما يسمع بمصير هذا الكاتب الشامي الّذي قال عنه ابن النديم: «عنه أخذ المترسّلون، ولطريقته لزموا، وهو الّذي سهّل سبيل البلاغة في الترسُّل»(٤)..؟! فمن هذا الكاتب؟!

إنه عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء ابن وهب القرشي الملقب بالكاتب(٥)، ويقول من كتبوا عنه: إنه يرجع إلى أصول فارسيّة، وإنّه كان من أهل الأنبار، وسكن الرّقة، وكان في أوّل أمره يتنقّل في البلدان معلّماً في الكتاتيب، ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق في عهد هشام بن عبد الملك، حيث خرّجه ختنُه سالم مولى هشام، ورئيس هذا الديوان، واتصل بمروان بن محمد، وكتب له أيام كان والياً، فلمّا صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه، فنهض بالعمل فيه خير نهوض.

ولما دارت الدوائر على مروان، وانتصرت عليه الجيوش العباسيّة بقيادة أبي مسلم الخراساني في موقعة الزاب، ظلَّ مخلصاً له وفيّاً، ففرّ معه إلى مصر، حيث قتلا في موقعة بوصير، في مصر.

ويروي المسعودي أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت أن تصير مع عدوّي، وتُظْهِر الغدرَ بي، فإنّ إعجابَهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابك يدعوانهم إلى حسن الظّنّ بك، فإن استطعت أن تنفعني

حياتي صنعت، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمي بعد وفاتي، فقال له عبد الحميد: إنَّ الذي أشرت بـه عليَّ أنفع الأمرين بك، وأقبحهما بي، وما عندي إلاّ الصبر، حتى يفتح الله، أو أُقتل معك، وأنشد:

أُسـرُّ وفـاءً ثـمَّ أظهـر غـدرةً
فمن لي بعُذرٍ يوسع النَّاسَ ظاهرهُ

وكان مصيرُه أن قُتلَ في بوصير مع مروان في مصر حيـث التجأ كلاهمـا، وفاجأهما الطَّلَبُ، ولقيا حتفهما بحرابِ بني العباس.

وهكـذا قضى عبد الحميـد أبلغ كتّاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضربـت ببلاغتـه الأمثال، فقيـل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن العميد».

والحقُّ، إنَّه القمّة التي وصلت إليها الكتابة الفنيّة في العصر الأموي، إذ كان زعيم البلغاءِ في عصره غير مدافع، وقد وصلتنا منثورات من رسائلِه تشهد بفصاحتِه ولسنه ومقدرته على التعبير والبيان، مع الفخامة والطلاوة، مـن ذلـك: رسالة تقـدّم بهـا إلى الكتّاب، ضمنها وصايا مختلفة لهم، وهي تدل على نموّ طبقتهم، وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزةً في حياة الدَّولة ووظائفها وأعمالها.

ونـراه يستهلُّها بـأنَّ صناعتهـم أشرف الصناعات، إذ بهم ينتظم الملك، وبتدبيرهم وسياستهـم يستقيم الحكم، وينصحهم أن يتحلَّـوا بخـلال الخير، وخصـال الفضل، ويخوض فيما ينبغـي أن يتقنوه من صنوفِ المعرفـة والثّقافة، يقـول: «فنافسوا معشر الكُتّـاب في صنوفِ العلم والأدب، وتفقّهوا في الدّيـن، وابـدأوا بعلـم كتـاب الله عز وجـلَّ والفرائض، ثم العربيّـة، فإنّها ثقافُ ألسنتكم، وأجيدوا الخطَّ فإنّه حِليَةُ كتبكم، وارووا الأشعـارَ، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيَرها، فإنّ ذلك مُعينٌ على ما تَسْمُون إليه بهممكم، ولا يضعفنَّ نظركم في الحساب، فإنَّه قوام كتّابِ الخراج منكم».

ومـن رسائلـه الطريفة[٦] التـي تصوّر مهارتـه البيانيّـة تصويراً دقيقـاً، رسالته الشخصيّـة إلى أهله، وهو منهزم مع مروان يعزّيهم عن نفسه:

«أمـا بعد: فإنَّ الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسُّرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درّت له بحلاوتها، وساعده الحظُّ فيها سكن إليهـا، ورضي بها، وأقام عليهـا، ومن قرصتـه بأظفارهـا، وعضّته بأنيابها، وتوطّأته بثقلها، قلاها نافراً عنها، وذمّها ساخطـاً عليها، وشكاهـا مستزيداً منهـا، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من دَرّها أفاويق استحلبناها، ثم شمسَت منّا نافـرة، وأعرضت عنّا متنكرةً، ورمحتنا مولّية، فملُـحَ عذبُها، وأمرَّ حلوُها، وخشن لينُها، ففرّقتنا عن الأوطان، وقطّعتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة، وطيرُنا بارحة، قـد أخذت كلّ ما أعطـت، وتباعدت مثلما

تقرّيت، وأعقبت بالرّاحـة نصباً، وبالجذل همّـاً، وبالأمن خوفاً، وبالعـزّ ذلاً، وبالجدة حاجـة، وبالسّرّاء ضـرّاء، وبالحياة موتاً، لا ترحم من استرحمها، سالكـة بنا سبيل مَنْ لا أوبة له، منفيّـين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء».

يُسْرٌ في عباراته، ومرونة في أداء المعاني، لا استطـراد فيه ولا حشو، ولا نبوٌ بأي وجه من الوجوه، فكتاباته - وهذا أنموذج منها - تروق العين والأذن، كما تروق العقل والقلب، وحسبـه أنه كان يملك لغتــه، ويصرفها في أداء معانيه كما يختار، ويملك أيضاً أسلوبه، وينظّمه تنظيمـاً تصويريّاً وموسيقيّاً بديعاً، على أساس مـن المنطق الدقيق، وجمال في أساليبهـا من التصوير الطّريـف، والإيقاع الصّوتـي الأنيـق، وكأنمـا نفـذت فيه كل جماليّة الرّوح الشاميّـة فحاكى عبير ورود الشام، وازدهـى بألوانها، وأطرب بنثره كما أطربت بلابل الشّام سامعيها..

فهل يجوز بعد ذلك أن يجهل مَن انتمى إلى الشـام كريمَ هذا الـتراث مصنوعِ أيادٍ شاميّة؟!

ومهما يكن فإنّ دمشق يجب أن تنبعث فيها الآن نهضـةٌ أدبيّةٌ عارمة، تعنى بالاستيعاب والشّرح، وينبغـي أن يُلْحَظَ في هذه النهضة السُّرعة والجـودةُ في الإنتـاج الأدبيّ، وفي تحقيـق مخطوطات التراث العلمي والأدبي، وخاصّـة عند طلاّب الدراسـات العليا، ولا أقصد بالجودة التحبيرَ والتجويدَ والتزويقَ، لأنّـه إنْ عُنـي الكُتّاب بذلـك انصرفوا إلى القشر مضربـين عن الجوهر، وعليهم إبعادُ العامل التجاري عـن مقصودهم في الإنتاج العلمي والأدبي.

وإنّي لآمـل أن تكون مقالتي هذه - على تواضعها - فاتحة خـير، لكي تتحرّض من صدور كتّابنا العزائم، فيهبّوا للعناية بالتراث العربي: «العلمي والأدبـيّ»، وخاصّة تراثنا نحن في بلاد الشّام، فيخرجُوا ما طال زمنُ رقوده، في خزائن دور الكتب، أو يبدعوا على غرار أسلافنا الّذين خلّدتهم أعمالُهم.. ونعم أجر العاملين.

الهوامش

١- أم الهريزي: هي الداهية أو الحمى، هكذا سماها العرب، وأنا سميت العولمة هكذا لشرها الطام.
٢- انظر تصدير شرح ديوان زهير لثعلب، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م/ص/١٠.
٣- هـذه الأبيات من قصيدة أحمـد علي حسن، بعنوان «غوطـة دمشق» في صيـف ١٩٦١م (انظر الديوان الدمشقي ص١٥ - ١٧).
٤- الفهرست، لابن النديم، ص١٧٠.
٥- انظـر أخبـاره في المسالك والممالـك للإصطخري، ص١٤٥ ط ليدن، وفي وفيـات ابن خلكان، ٣٠٧/١ ط الميمنية. ومروج الذهب للمسعودي، ١٧٨/٢ ط دار الرجاء. والوزراء والكتّاب للجهشياري، ص٧٣.
٦- انظر كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري، ص٧٢.

منارة الأدب النسوي

عبد الباقي يوسف ✪



يستند الأدب النسوي بدرجة هامة على ركيزة ما تتميز به المرأة من خصائص يمكن لها أن تقدم أدباً به غنى عمَّا يمكن للرجل أن يكتبه، ولذلك استمد هذا الأدب خصائصه وتمتع بجماهيرية جيدة حيث إن القارئ بدأ يقرأ المرأة بقلمها، بعد أن كان يقرأ المرأة بقلم الرجل، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة التي باتت تقرأ سيكولوجية المرأة بقلم المرأة بعد أن كانت تتعرف على سيكولوجيتها وفق تحليل ووجهات نظر وما يكتبه الرجل من أدب على لسانها.

لقد لاقى الأدب الذي تبدعه المرأة استحساناً وقبولا من مختلف

✪ أديب وكاتب سوري.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر

شرائح القراء والنقاد معاً بحيث اغتنت المكتبة الأدبية بروائع أدبية هامة قدمتها المرأة وحققت من خلالها حضوراً وتميزاً وإبداعاً حتى فازت بأكبر الجوائز الأدبية في العالم مثل جائزة نوبل للآداب.

ومن أبرز الروائيات في العالم: شارلوت برونتي- إيميلي برونتي- جورج ساند- آغاثا كريستي- فرجينا وولف- ناتالي ساروت- سيمون دي بوفوار- فرنسواز ساغان- توني موريسون- إيزابيل الليندي، نادين غورديمر، مارغريت دوراس.

ومن الفائزات بجائزة نوبل للآداب:

- نادين غورديمر من جنوب أفريقيا سنة ١٩٩١م.
- توني موريسون من أمريكا ١٩٩٣م.
- الفريدا يلنك من النمسا ٢٠٠٤م.
- دوريسن ليسينغ من المملكة المتحدة ٢٠٠٧م.
- هيرتا مولر من ألمانيا ٢٠٠٩م.

عمارة الأدب النسوي

هنا يمكنني أن أتحدث عن نجاح المرأة في إشادة عمارة أدبية نسوية تتمتع بكل مقومات الاستقلالية، بحيث استطاعت أن تقول ما لم تستطع أن تقوله بشكل مباشر، فكان الأدب أكثر بلاغة وتعبيرا، وجمالية وعذوبة.

لقد اغتنى الأدب في سائر أنحاء العالم بالكتابة النسوية التي تمكنت من تقديم المرأة بقوتها وضعفها وعاطفتها وخصائصها.

تقول ناتالي ساروت عن فرجينا وولف: /مثل بروست، جويس، كافكا، ساهمت وولف في تحويل مادة الرواية في الرواية الحديثة، في زحزحة مركز الجاذبية للرواية التي كانت مرتكزة على الشخصية والحبكة إلى جوهر الرواية نفسها/.

وتكتب عن كافكا: ماذا يجد المرء عند كافكا؟ إذا لم تكن تلك الشهوة والرغبة القلقة لتأسيس رابطة تمتد جيئة وذهابا مثل سلك التوصيل في كل أعمال ديستوفسكي؟ ولكن في كافكا أصبح الهدف أكثر تواضعا وأكثر بعداً. وتستشهد بمقطع من روايته / القلعة / : /لم يعد المرء يعرف ما إذا قاوم أو استسلم/.

عرَّفت ناتالي ساروت nathalie sarraute الرواية بأنها :«عملية بحث دائم يسعى إلى تعرية واقع مجهول وأن اكتمالها وكمالها مرهونان ببحثها المستمر،إنها مغامرة ومجازفة.

تستطيع المرأة أن تعبر عن مكونات المرأة خاصة من خلال التعبير الأدبي بحيث يرى القارئ نفسه أمام مرآة تجلو فيها سيكولوجية المرأة بوضوح، وبذلك يرى الفارق بين ما رآه من خلال ما كتبه الرجل وسعى إلى تقديم مرآة تجلو فيها المرأة، وقد حضرت المرأة

بقوة في عيون الإبداعات الأدبية مثل: مدام بوفاري، لـ غوستاف فلوبير، وآنا كارنينا، لـ تولستوي، ونادجا لـ أندريه بريتون، وبين ما كتبته المرأة على سبيل المثال إيزابيل الليندي في روايتها /إيفالونا/، أو توني موريسون في روايتها /سولا/، أو شارلوت برونتي في روايتها /جين آير/.

كما يمكننا التعرف على بعض مزايا المرأة من خلال سيرتها الذاتية كما الأمر في سيرة ساروت الذاتية /طفولة/ وسيرة مارغريت دوراس الذاتية /العاشق/.

لننظر إلى هذا المقطع من /جين آير/ لـ شارلوت برونتي:

/كان من المستحيل التنزه في ذلك النهار، فمع أننا تجولنا في الحديقة الجرداء لمدة ساعة في الصباح، والطقس كان دافئاً نوعاً ما، إلا أنه منذ الغداء، بدأت ريح الشتاء الباردة تهب، حملت معها غيوماً داكنة وأمطاراً غزيرة بحيث استحال الخروج من المنزل.

وبما أنني كرهت كثيراً النزهات الطويلة، خاصة بعد ظهر الأيام الباردة، سررت لهذا التغير المفاجئ في الطقس، فالمجيء إلى المنزل عند الغسق كان رهيباً بالنسبة إلي بأصابع أيد وأرجل مجلدة، وقلب أحزنه توبيخ المرضة بيسي والإدراك كم كان جسدي الصغير الهزيل ضعيفاً، بالمقارنة مع أجساد إليزا، جون،وجورجيانا ريد.

جلس أبناء خالي أليزا، جون، وجوجيانا الآن مع والدتهن في غرفة الجلوس في منزلهم، غايتسهد ،كانت مستلقية بالقرب من الموقد، وأطفالها الأعزاء حولها. شعرت بغاية السعادة لأنهم لم يكونوا يتشاجرون ولا يصيحون. إلا أنني طرد ت من المجموعة. فقد قالت إنها نادمة لاضطرارها إلى إبعادي، وإنها حتى أحاول بإخلاص التصرف بمزيد من اللياقة وأنمي طبيعة أكثر ودية ورقة، لن تستطيع السماح لي بالملذات المخصصة فقط للأطفال الطيبين والمطيعين.

سألتها: لكن ما الذي فعلته؟

قالت: كوني مهذبة والزمي الصمت، ياجين، فأنا لا أحب الأسئلة أو الاعتراضات. لا ينبغي للأطفال التحدث مع الأكبر سناً بهذه الطريقة. ابتعدي عن الغرفة، والزمي الصمت إلى أن تتمكني التكلم بلطف.

سرت ببطء في اتجاه غرفة طعام صغيرة مجاورة لغرفة جلوسهم. شملت الغرفة الكثير من رفوف الكتب، فتناولت كتاباً بعدما تأكدت أنه غني بالصور.

تسلقت إلى حافة النافذة، وبعدما رفعت قدمي، جلست متربعة، وبعدما سحبت الستائر الحمراء، شعرت بأنني محمية وبعيدة عن أنظار الآخرين.

كان كتاباً ذا صور ملونة جميلة. كل صورة روت قصة غامضة ومثيرة للغاية، مثيرة تماماً كالقصص التي روتها لنا بيسي أحياناً في أمسيات الشتاء عندما يصادف أن تتمتع بمزاج جيد، مستحوذة على أنفسنا وانتباهنا المتلهف لذكريات الحب والمغامرة المأخوذة من الأغنيات والروايات القديمة/.

في كتابها /غرفة خاصة بالمرء وحده/ تصف / فرجينا وولف/ شارلوت برونتي بأنها: / حُرمت من حقها في التجربة، حيث فرضت عليها حياة راكدة في بيت كاهن، ترتق الجوارب في وقت كانت تتوق فيه إلى أن تجوب العالم حرة/.

تقول شارلوت برونتي عن بطلتها: إن الكُتّاب ليخطئون إذ يصرون على أن يجعلوا من بطلاتهم جميلات، ويتخذون من هذا قاعدة، ولسوف أثبت أنهم مخطئون، سأقدم بطلة خالية من الجمال ضئيلة الجسم مثلي تماماً

وفي محاولات شعرية من قبل المرأة ترسم الشاعرة كارولينا إيليكا شخصية المرأة، وكذلك مفهومها للرجل.

تتميز هذه الشاعرة بقوة الخيال في قصائدها، وتجنح إلى الرومانسية محاولة أن ترسم طقوسا بالغة الشاعرية والحميمية، وهي بالتالي تهدف إلى أن يكون الإنسان أكثر عذوبة مع الإنسان في عواطفه.

قسمت الشاعرة ديوانها هذا إلى بابين، الباب الأول أسمته: طغيان الحُلم. والباب الثاني: ثلاث عشرة قصيدة حب.

أنا أحلم بأوفيليا مرة في الشهر تقريباً وهي تقطف زهوراً من بين الأعشاب لهملت، ولأنه لايظهر، فإنها تعطيني إياها. مؤخرا أعتقد بأنني حلمت بها أكثر، وفي الصباح أجد وروداً برية شبه ذابلة منتشرة في البيت. نزعت عنها الأشواك، وسأصنع منها حالا سريرا ينام عليه أبسل الدراويش، ص١٦.

وفي مزدوجة /مفاتن الليلة/١ تصف عالم الحلم الخصيب:

كيف أترك نفسي على يديك.. أنت الأكثر أنوثة مني

تعد بالكثير، ولاتعطي شيئاً.. تهزني في المنام.. تقبلني على كل بقعة من جسمي، ياإلها من فاجرة!

وتجعلني أحلم عندما تقولُ لي مندهشة: كم يتناسق جسمك الأبيض على شعرك الأصفر بين ذراعي الأشد سواداً من السواد، ص ٤٤.

تعقد الشاعرة كبرى آمالها على الحلم في اكتشاف دهشة وعذوبة شاعرية الكائن البشري، فليس بوسعك -بتعريف الشاعرة- أن تعيش حالة الشاعرية لديك إلا إذا استعنت بالحلم ولذلك فهي تفتتح ديوانها مستشهدة بمقولة ساول بيلو: /أولو العقول

الكبيرة ليسوا على يقين أبدا بأن كل ما حولنا ليس إلا حلما/.

في القصيدة التالية التي تعنونها / أطفالي/ تقول:

أساعدهم على عبور الشارع، أجيبهم بصبر،
أخاف عليهم كثيراً؛ فهم بسهولة يُخدعون،
وبسهولة يُسرقون، وبسهولة يدعسهم الترام
فهم الأطفال الأكثر تأملا، والذين لم يعودوا يلعبون
أقرب ذكرياتهم هي ذكريات الطفولة البعيدة
(أجسامهم المتناقصة تتجه إلى طفولة جديدة)
هل كانوا كباراً وأقوياء؟ هل كانوا أطفالا ككل الأطفال؟
يا لترددهم المقلق
يا لرجفة أيديهم الذابلة تقديسا
يا لفرحهم بكل شيء
هم ضعاف مثل صغار العصافير
هم كلهم أطفالي، أطفالي الذين شاخوا قبلي.
ص ٥٥.

ثمة سؤال يُطرح بقوة وأنت تقرأ قصائد هذا الديوان الشعري وهو لماذا كل هذا الهروب من الواقع واللجوء إلى الحلم لاكتشاف لحظات المتعة الأكثر قوة والأكثر شفافية في آن.

ثمة قصيدة تحمل لمسات من الواقع بعنوان /اسم أجمل/، قد تجيب على هذا السؤال تقول فيها:

بعيني الغائرتين، وبوجهي الشاحب
وقفت إلى الشباك أنتظر:
مطر ناعم يتساقط في الوهاد، وتلتصق زخاته في النافذة
ووقفت أنت إلى الشباك أيضا، منتظرا غيري:
تلك التي تنتظر، هي الأخرى، أحداً ينتظرني
يالها من سلسلة ملتوية! حلقة تشابك حلقة
هيا نطلق عليها اسماً أجمل: هو الحب الذي لايُشاطر! ص ٨٦.

ولكن يمكن للقارئ أن يكتشف رغم كل هذه الاحتفائية بالحلم أن الشاعرة تشكو من أن حياتها مضت ولم تعش ولم تحب كفاية. تقول في قصيدة /من النار، ومن الجليد/ بعد أن تستشهد بمقولة لم تذكر قائلها: /ياللخسارة! عندما أكون عاقلة، لم أكن شابة بعد/.

تروى القصيدة بضمير المخاطب:

بدأ شبابك يتلاشى الآن
وأنت تشعرين بأنك لم تحبي بما يكفي
تضعين يدك على جبينك، جليد على نار
حياتك مخلوقة من نار وجليد، حياتك مزدوجة
أما زلت تنظرين من بين رموشك ذاك الذي تنظرين إليه لايصدِّق قط

لايصدق بأنك مملوكة منه فقط

مثل صقر عطشان من الجوع، يحلق أدنى

فأدنى، ثم أقرب

والشك فيه يهرول إلى شفتيك المصبوغتين بالأحمر

بدأ الشباب يتلاشى الآن

وأنت تعرفين أنك لم تحبي بما يكفي

على ذلك تشهد الهدباء الخفيف

وسورنجانة الخريف التي منها تفوح رائحة قديسة. ص ٨٨

ليس بوسع المرء أن يستفيض في الحديث طويلا عن مناخات وأجواء هذا الديوان، لأن أي استفاضة لاتغني بأي حال عن قراءته، والاستمتاع بدفء شعرية الحلم في ثنايا عذوبة اللغة التي تتميز بها هذه الشاعرة.

ولننظر هنا إلى ما يقدمه الرجل من مفهوم عن المرأة كما الأمر في بعض هذه النماذج.

في رواية /نادجا/، لأندريه بريتون يقول:

/تقوم أحياناً بغنجات مستهجنة، وأن تقسرني وأنا في أشد تقطيب، على انتظار تحولها إلى تصرفات أخرى كان محالاً أن تصبح طبيعية. كم من مرة، وقد أبرمني حالها قنطت من إعادتها إلى إدراك سليم لقيمتها، فغادرتها شبه هارب/.

إنه يشعر بحب هائل نحو هذه المرأة التي هي العالم الذي يناشده بريتون ويناشده مؤسسو الحركة السوريالية معه /الحب الساحر الساجر الفريد الأكيد، الحب الصامد لكل طارئ أخيراً، هو الذي كان يسعه تحقيق المعجزة/.

لكن من الطرف الآخر فإن /نادجا/ تحترق وتعاني وهي غير قادرة أن تكون في الصورة التي يريد الحبيب أن يضعها فيها، فتشعر باضطراب.

يقول الحبيب:

/قبل شهور جاء من أخبرني بأن نادجا جُنت، فإثر تصرفات شاذة ارتكبتها على مايظهر في أبهة فندقها وجب حبسها في مصحة فوكلوز/.

يعلق بريتون على هذه الحادثة: /سوف يسهب غيري وإن عبثا، في التعقيب على هذا الأمر الذي سيرون فيه من دون ريب الخاتمة الحتمية لما بينت قبلاً، وسيبادر الأدرى إلى تقدير ما ينبغي أن ينسب في هذه النتيجة إلى ما أوضحت سابقاً من أفكار نادجا الأولى/.

ثم ينتهي بريتون إلى أن يرى: /أن الازدراء الذي أكنه عموماً للطب النفساني ولفخفخاته ولمحصلاته عظيم حيث لم أجرؤ إلى الآن على استعلام ما جرى لنادجا، لقد بينت لماذا كنت متشائماً حول مصيرها كما حول مصير كثيرين مثله/.

أما بول إيلوار فيكتب عن المرأة في غالبية قصائده ويسعى إلى الدخول إلى عالمها وبالتالي تقديمها من وجهة نظر الرجل.

ومما لاشك فيه أن /غالا/ كانت خلف الكثير من قصائد الحب العذبة التي كتبها بول إيلوار. يقول إيلوار واصفا حبه العميق لـ غالا:

كل ما قلت ياغالا.. كان لتسمعيه

ثغري لم يستطع قط فراقك.

وكان دوما يردد بألم: لايوجد سوى إنسان واحد، غالا

النسخة رقم.. مطبوعة خصيصا للتي أحب

غالا التي تخفي عني حياتي وتريني كل الحب.

في عام ١٩٢٣م يكتب إيلوار في /عاصمة الألم/:

إنها منتصبة في أجفاني، وشعرها في شعري

لها شكل يدي، لها لون عيني، إنها تغرق في ظلي كحجر من السماء

إنها دوما مفتوحة العينين ولاتدعني أنام

أحلامها في سطع النهار، تجعل الشموس تتبخر

تجعلني أضحك، أبكي وأضحك، أتكلم وما عندي ما أقول.

ويبدو أن غالا كانت كثيرة الفراق فكان يعتمد في أوقات غيابها على تصوير حالات الشوق ويجري معها حوارات فيأتي صديقه بيكاسو ليرسم صورته كما هي ويكتب إيلوار تحتها جملة: إلى غالا.. ساعات الفراغ الرهيبة التي يخلفها لي حبك.

ثم يحادث طيفها:

إذا أرهقها سؤالي باحت لي بالحقيقة، الحقيقة التي كنت أعلمها إياها

الحقيقة المحزنة الحلوة، إن الحب يشبه الجوع والظمأ

لكنه لايعرف الشبع أبدا.

في مقدمته لرواية صورة لمجهول لناتالي ساروت كتب جان بول سارتر سنة ١٩٤٧م: واحدة من الملامح المتفردة لمرحلتنا الأدبية هي الظهور، هنا وهناك، لأعمال مقاومة وسلبية تماماً يمكن للمرء تسميتها بالروايات-الضد (anti-romans). أضع ضمن هذه الفئة أعمال كل من ناباكوف Nabokov، إيفيلن ويوف Evelyn Waugh، وبمعنى ما، رواية «مزيفو النقود» (Les Faux-Monnayeurs) لأندريه جيد. لا يتعلق الأمر أبداً بمحاولات ضد النوع الروائي، على طريقة «قوى الرواية» (Puissances du roman) التي كتبها روجيه كايواس Roger Caillois والتي قمت بمقارنتها، بطريقة معينة، بـ«رسالة من حول المشاهد» لجان جاك روسو. إذ تحتفظ الروايات-الضد على مظهر ونطاق الرواية؛ فهي أعمال متخيلة تقدم لنا شخوصا

خيالية وتروي لنا قصصاً. بيد أنها تقوم بذلك لكي تجعل خيبتنا أكبر: المقصود هو اعتراض الرواية على نفسها، تحطيمها أمام أعيننا في الوقت ذاته الذي يتم فيه التظاهر ببنائها، عبر كتابة رواية الرواية التي لا تُكتب، ولا يمكن كتابتها، خلق حكاية تكون بالنسبة للأعمال الكبرى لديستويفسكي ولمريديث Meredith، كلوحة ميرو المسماة «اغتيال الرسم» (Assassinat de la peinture) بالنسبة لأعمال رامبراندت وروبنس. إن هذه الأعمال الغريبة والعصية على التصنيف لا تشهد على ضعف النوع الروائي، لكنها تؤكد على أننا نعيش مرحلة تأمل وبأن الرواية هي أيضاً تجد نفسها على صعيد تأمل ذاتها.

ذلك هو كتاب ناتالي ساروت: رواية-ضد نقرأها كرواية بوليسية. فهي تحاكي روايات «التحقيق»وتقحم عليها شخصاً يشبه المحقق الهاوي والمتحمس المفتون بشخصيتين عاديتين -أب شائخ، وفتاة- إذ يقوم بمراقبتهما عن قرب وملاحقة أثرهما والتنبؤ على مسافة أحياناً بما يفعلانه، عبر انتقال الأفكار، لكن من دون أن يتمكن أبداً من معرفة ما يبحثان عنه ولا منْ يكونا. ومن ثم يتخلى عن عمله بسبب من تحول ما: وكأن شرطيَّ أغاثا كريستي يتحول فجأة إلى مجرم، في اللحظة كان فيها على وشك اكتشاف القاتل.

تلك هي سوء طوية الروائي -سوء طوية ضرورية- التي تُرعب ناتالي ساروت. هل هو «مع» شخوصه، «خلفهم» أم خارج عنهم؟ وحينما يكون خلفهم، ألا يرغب بجعلنا نعتقد بأنه يبقى في الداخل أو الخارج؟ فعبر حكاية بوليس الأرواح هذا الذي يصطدم «بالخارج»، بقحفة «هذه الحشرات الضخمة» ويشعرُ بغموض بذلك «الداخل» من دون أن يمسه أبداً، تسعى ناتالي ساروت للمحافظة على حسن طويتها كراوية. إنها لا ترغب في أخذ شخوصها لا من الداخل ولا من الخارج. فنحن، إن كان ذلك يتعلق بنا أنفسنا أو بالآخرين، موجودون في الداخل والخارج معاً. الخارج أرضية محايدة، فيما يكون داخلنا هو ما نود أن نكون عليه في نظر الآخرين والذي يدفعنا الآخرون على أن نكونه من أجل أنفسنا.

هنا يسود المكان العام. فلهذه الكلمة الجميلة عدة معان: مما لا شك فيه أنها تشير على الأفكار الأكثر ابتذالاً، بيد أن مرد ذلك عائد إلى أن هذه الأفكار قد أصبحت محل لقاء للطائفة (lieu de rencontre de la communauté). كل واحد يجد نفسه فيه، ويجد الآخرين. فالمحل العام هو لكل الناس ولي أنا أيضاً، ومن ثم فهو يعود

للكل عبري، إنه حضورهم في. لذا، فهو في الجوهر العمومية ذاتها (la généralité)؛ فلكي أستحوذ عليه، لا بد من قيامي بفعل: فعل أتجرد فيه عن خصوصيتي حتى أنضم لما هو عام، بغية أن أصبح العام نفسه. لا لكي أتماثل مع أي أحد، ولكن، بالدقة، حتى أكون التجسيد الحي للكل.

عبر هذا الانضمام الاجتماعي الضخم، أتماثل مع جميع الآخرين، ضمن لا تمايز الكوني. يبدو أن ناتالي ساروت تميز ما بين ثلاثة أفلاك من العمومية: فلك الطبع، فلك المكان العام الأخلاقي، فلك الفن، وبالدقة فلك الرواية. فإذا جعلت من نفسي ذلك الشخص الخير الفض، كما هو عليه الأب في «صورة لمجهول» أكون ضمن الفلك الأول؛ لكن إذا ما صرحت، حيثما يرفض أب إعطاء ابنته نقوداً، مثلاً: «أليس من التعاسة أن يرى المرء ذلك؛ ثم يأتيك أحدهم ليقول بأنه لا يملك شيئاً في العالم سواها .. آه، ولا يأخذها معه «، فأني أضع نفسي في الفلك الثاني، فيما سأكون ضمن النطاق الثالث إذا ما قلت عن فتاة بأنها «تنغارا» Tanagra، وعن مشهد طبيعي بأن ذلك هو «كوروت» Corot، وعن قصة عائلية بأنها قصة بلزاكية. كذلك سيصدقني ويفهمني أولئك الذين يعرفون جيداً هذه الميادين، وحينما يتبنون موقفي، حكمي وطريقتي بالفهم، يكونون قد منحوها خاصية مقدسة. فلأني أصبحت موضع طمأنينة للآخرين، ولنفسي أيضاً، بلجوئي إلى تلك المنطقة المحايدة والعامة والتي هي ليست بالدقة الموضوعية، طالما أني دخلتها بمرسوم، ولا هي بالذاتي أيضاً، مادام بإمكان الجميع أن يصلني فيها ويتعرف على نفسه من خلالها، لذا قد يكون بمقدورنا تسميتها في آن معاً بذاتية الموضوعي وموضوعية الذاتي. فمادمت أتظاهر بأني لست سوى هذا، ولأني أرفض أن تكون لي مناطقي الخاصة، يُسمح لي، على هذا الصعيد، أن أثرثر، أتحرك، أسخط، أكشف عن «طبعي» وحتى في أن أكون «أصيلاً»، أي إني أضم الأماكن العامة بطريقة غريبة لنفسي:

هناك، في الحقيقة، «تناقضات عامة». وعلى أية حال، سيتركون لي فرصة أن أكون ذاتياً ضمن حدود الموضوعية. وكلما أصبحت ذاتياً ضمن تلك الحدود الضيقة، كلما أولوني اهتماماً أكبر: أكشف عن هذا الطريق بأن الذاتي هو لا شيء، ومن ثم لا ينبغي التخوف منه.

في عملها الأول، «انتحاءات» Tropismes، كانت ناتالي ساروت قد أظهرت لنا سلفاً كيف أن النساء يمضين حياتهن في مشاركة العام ذاك: كن يتحدثن: «كانت بينهم مشاهد تثير الشفقة، عراك من

أجل لا شيء. يجب عليَّ القول بأني أشفق عليه هو في نهاية المطاف. كم؟ لكن على الأقل مليونين. إذ لا شيء سوى ما ورثته العمة «جوزفين».. كلا.. ما الذي تشاؤه؟ إنه لن يتزوجها. إنه بحاجة إلى امرأة تظل في الداخل، لكنه لا ينتبه هو نفسه لهذا. لكن كلا، كما قلت لكم. إنه بحاجة إلى امرأة تبقى في الداخل.. في الداخل.. في الداخل... «لقد قالوا لهم ذلك دائماً من قبل. وهن قد سمعن هذا يُقال لهن دائماً، وكن يعرفن ذلك: العواطف، الحب، الحياة، ذلك هو ميدانهن الخاصة. إنه ينتمي لهن».

ذلك ما يطلق عليه هيدغر «الحكي» «parlerie»، و«الناس» «on»، وباختصار مملكة «عدم الصدق» (l'inauthenticité). مما لا شك فيه أن كثيراً من الكتاب قد لامسوا جدار عدم الصدق هذا، بيد أني لا أعرف أحداً منهم قد كرس، مباشرة، كتاباً له: ذلك لأن عدم الصدق ليس بالشيء الروائي. فالروائيون يجهدون، على العكس من ذلك، من أجل إقناعنا بأن العالم يتكون من أفراد لا يمكن استبدالهم، وجميعهم يثيرون فضول المرء، حتى الأنذال منهم، كلهم منفعلون، وذوات خاصة.

أمَّا ناتالي ساروت فتجعلنا نرى جدار عدم الصدق ذاك؛ تظهره لنا في كل مكان. وماذا خلف ذلك الجدار؟ لا شيء في الحقيقة. لا شيء أو تقريباً. جهود غامضة للهروب من شيء يتم تخمينه في الظل. فالصدق (l'Authenticité)، العلاقة الحقيقة مع الآخرين، مع الذات، مع الموت، يتم الإيحاء به في كل مكان لكنه غير مرئي. يشعر به المرء لأنه يفعله.

فإذا ما ألقينا نظرة، كما تدعونا المؤلفة للقيام بذلك، في دواخل الناس، فسنلمح فورة من أشكال الهروب الرخوة ذات المجسات. هناك الهروب داخل المواد التي تعكس بهدوء الكوني والدائم، الهروب في الانشغالات اليومية، والهروب ضمن ما هو بائس.

لا أعرف صفحات أكثر إثارة من تلك التي تظهر «العجوز» الذي يهرب في اللحظة الأخيرة من قلقه حيال الموت، وذلك برمي نفسه، بقدميه العاريتين وقميصه، في المطبخ ليتحقق إذا ما كنت ابنته قد سرقت منه الصابون.

تتمتع ناتالي ساروت برؤية جبلية protoplasmique لكوننا الداخلي: لترفعوا صخرة المكان العام، وستجدون تحتها السكب، الزبد، المخاط، الحركات المترددة، والأشياء المتمورة (amiboïdes). كذلك فإن لغتها من الثراء الذي لا يمكن مقارنته لكي توحي لنا بذلك الدبيب الهارب

من المركز للإكسيرات اللزجة والحية «وكأنها نوع من الزبد اللاصق، كانت أفكارهم قد أنسلت فيه، التصقت بـه، وملأته داخلياً» «الانتحاءات ص١١».

وإليكم المرأة- الفتاة الخالصة «صامتة تحت ضوء المصباح، وكأنها نبتة هشة وناعمة تحت بحيرة مكتظة بالمحاجم المتحركة» (نفس المصدر ص٥٠). ما تتلمسه تلك الهرويات، المخجلة، التي لا تجرؤ على الكشف عن اسمها، هو أيضاً العلاقات بالآخرين. وهكذا فإن النقاش المقدس، التبادل الطقوسي للعموميات، يُخفي «نقاشاً تحتياً» (-sous conversation) تتلامس فيه المحاجم، يلحس واحدها الآخر، ويمصه.

ثمة أولاً الشعور بعدم الراحة: إذا ما شككت بأنك ليس ببساطة وكلية ذلك الشيء العام الذي تدعيه، فسوف تستفيق جميع أشباحي الرخوة؛ وسيتملكني الخوف: «كانت متكورة في زاوية من الكرسي، وهي تبرم رقبتها المشدودة، وعيناها ناتئتان: «نعم، نعم، نعم»، قالت، وهي تؤكد على كلمة من جملتها بهزة من رأسها. كانت مفزعة، رقيقة ومسطحة، ناعمة تماماً، وعيناها وحدهما كانتا بارزتين. كان فيهما شيء مُقلق، محير وكانت رقتها مُهددة.

كانت تشعر بأنه ينبغي عليها بأي ثمن إعادتها إلى مكانها، تهدئتها، لكن لا يمكن لأحد القيام بذلك ما لم يكن يتمتع بقوة فوق طبيعية... كان خائفاً، كان على وشك الجنون، وما كان عليه تضييع أية لحظة لكي يفكر، حتى يتأمل. شرع بالكلام، بالكلام دون توقف، بقول أي شيء، كل ما يخطر بباله، ثم صار يتلوى (كما تتلوى الأفعى أمام الموسيقى؟ كالعصافير أمّا ثعبان صل؟ ما عاد يعرف)، بسرعة، بعجلة، من دون أن يتوقف، من دون تضييع لحظة، بسرعة، بعجل، قبل فوات الأوان، للسيطرة عليها، لتملقها (نفس المصدر، ص٣٥).

تزدحم كتب ناتالي ساروت بأشكال الرعب هذه: يتكلم أحدهم، ومن ثم سينفجر شيء ما، ليضيء فجأة العمق المُتعفن للروح وسيشعر كل واحد بوحل حركات روحه. لكن كلا: لقد تمَّ إبعاد مصدر التهديد، وجرى تفادي الخطر، ومن ثم شرعوا بهدوء تبادل أحاديثهم العامة. ومع ذلك، تنهار أحياناً هذه الأخيرة ويظهر الرعب العاري الجبلي protoplasmique:

«بدا لهم بأن محيطاتهم تنهد، وتتمدد في جميع الاتجاهات، وتتكسر الأقحاف والواقيات من كل جهة، أنهم الآن عراة، من دون حماية، وها هم ينزلقون يلتصق الواحد منهم بالآخر، يهبطون وكأنهم ينزلون في بئر... هنا، حيث ينزل هو الآن، وكأنه ينزلق في ممر تحت بحري، كذلك تبدو جميع

الأشياء مُهتزة، تتأرجح، وكأنها غير حقيقية ودقيقة، كالأشياء التي تظهر في كابوس، تتبخر، وتأخذ أحجاماً غريبة... ككتلة ضخمة تضغط عليها، تسحقها.. تحاول برعونة تخليص نفسها نوعاً ما، تسمع صوتها هي بالذات، صوت غريب ومحايد للغاية..».

وعلى الرغم من ذلك لا شيء يحدث: لا يحدث أي شيء أبداً. فالمتحاورون ينزلون، باتفاق الكل، ستار العمومية على ذلك الخلل المُباغت. لذا لا ينبغي البحث في كتاب ناتالي ساروت عن ما لم ترغب هي في إعطائه لنا؛ فالإنسان بالنسبة لها ليس طبعاً، ولا قصة أولاً ولا حتى شبكة من العادات: إنه الذهاب والإياب الذي لا ينقطع ما بين الخاص والعام. أحياناً تكون المحارة فارغة، «فالسيد دمونيت» يدخل فجأة، يتخلص بحنكة من ما تبقى فيه من خاص، ومن ثم لم يعد أي شيء آخر سوى تجميع فاتن وحي للعموميات. حينئذ يتنفس الجميع الصعداء ويتولد لديه الأمل: هذا إذاً ممكن! ما زال هذا ممكناً. ثمة هدوء مميت يدخل معه إلى الغرفة.

لا تهدف تلك الملاحظات إلا لتوجيه القارئ في هذا الكتاب الصعب والممتاز؛ لكنها لا تحاول استنفاد محتواه.

إن أفضل ما في ناتالي ساروت هو أسلوبها المُتعثر، المُتلمس، والنزيه تماماً، المليء بالندم، والذي يقترب من موضوعه بكل المحاذير الورعة، لكنه لا يتراجع باسم عفة أو حياء ما أمام تعقيد الأشياء، فهو يُقدم لنا بغتة في النهاية المسخ المخاطي كما هو، ومن دون أن يلمسه تقريباً، وذلك بفضل الصورة السحرية. هل ينتمي للبسيكولوجيا؟ ربما كانت ناتالي ساروت، المعجبة الكبرى بديستويفسكي، ترغب في جعلنا نعتقد ذلك. بالنسبة لي، كنت أظن أثناء قراءتي له بأني أتشوف فيه صدقاً زائغاً، فبكشفها عن ذلك الذهاب والإياب الذي لا ينقطع ما بين الخاص والعام، ومحاولتها رسم عالم مطمئن ومُخيب، تكون قد وضعت تقنية تسمح، بذهابها إلى ما هو وراء البسيكولوجيا، بلوغ الواقع الإنساني، بوجوده ذاته.

مقدمة سارتر تبيّن مدى أهمية ما تكتبه المرأة، وأهمية ما يتلقاه الرجل من هذا الأدب وهو يسعى للتعرف على المرأة بشكل أفضل.

تقول سيمون دي بوفوار عن كتابها / الجنس الآخر/:

/كان من ألوان سوء التفاهم التي خلقها الكتاب الاعتقاد بأني كنت أنكر فيه أي فرق بين الرجال والنساء، والحقيقة أني بالعكس قست وأنا أكتب الكتاب ما يفصل الجنسين، ولكن ما ذهبت إليه هو أن تلك الاختلافات هي ثقافية وليست طبيعية، وأخذت على عاتقي أن أروي كيف كانت تنشأ هذه الاختلافات/.

وتصف رواياتها /المدعوة/: /كانت الأرض مزروعة بالأوهام المحطمة وهي الإخفاق الذي أزعج حياتي الخاصة هو الذي خلق المدعوة، ومنحني تقهقراً بالنسبة لتجربتي الحديثة والرغبة في انقاذها بالكلمات وأصبح ممكنا وضرورياً لي أن أضعها في كتاب/.

كما تقول بوفوار عن رواية /المثقفون/: /خلافا لما ادعاه البعض من الخطأ اعتبار /المثقفون/ رواية مفاتيح، وأنا أحتقر روايات المفاتيح احتقاري لكتب /الحيوات المروية/، وأنا لا أزعم أن /المثقفون/ رواية ذات فكرة.

إن رواية الفكرة تفرض حقيقة تمحو جميع الحقائق الأخرى وتوقف دائرة الاعتراضات والشكوك التي لا تنتهي، أما أنا فقد صورت بعض أشكال الحياة في فترة ما بعد الحرب من غير أن أقترح حلولاً للمشكلات التي تقلق أبطالي/. وعن رواياتها /دم الآخرين/ تكتب بوفوار: /كان موضوع /دم الآخرين/ كما ذكرت تناقض هذه الحياة التي عشتها في ظل /حرية/ اعتبرها أولئك الذين يقربونني مجرد شيء، ولكن هذه المقاصد فاتت الجمهور، وصنفها الكتاب على أنها رواية عن المقاومة، وصنفت أيضا كرواية وجودية، وكانت هذه الكلمة قد أصبحت تلازم آلياً آثار سارتر وآثاري/.

خصوصية المرأة في أدب الطفل

كما أن المرأة حققت نجاحاً مبهراً في الكتابة للكبار، فإن ما كتبته لعالم الطفل لايقل أهمية، بحيث كانت الأقرب إلى عالم الطفولة، وبالتالي الأكثر تعبيراً عن تفاصيله.

تقدّم المرأة نماذج مبهرة في مجال الأدب الموجه إلى الطفولة، ذلك أنها على معرفة بسيكولوجية الطفل بدرجة أعلى من الرجل، وذلك بسبب معايشتها المستمرة ودخولها المستمر إلى عالم الطفل حتى إنها في كثير من مراحل تربيتها لأطفالها تتحول إلى طفلة حتى تستطيع أن تنسجم وتتناغم مع عالمهم الطفولي.

أريد أن أقول هنا بأن المرأة الكاتبة يحالفها النجاح في الكتابة للطفل بدرجة أعلى من الرجل، ذلك أن المرأة تمضي مع الطفل فترة أكثر من الرجل، وهي تتحاور مع الطفل أكثر مما يفعل الرجل، كذلك فهي تحمل الطفل وهو جنين وتعقد علاقة أولية معه لمدة تسعة أشهر، وهذا ما لايكون للرجل.

حتى في البيت يمكن أن نلاحظ بأن المرأة تستوعب الطفل وتبقى تتحايل عليه بكل الوسائل، وتهدهده حتى ترضيه ويغفو بين يديها.

لذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها أدبياً بدرجة أكثر قرباً من الرجل.

أقول طفلها لأن أي امرأة عندما تنظر إلى أي طفل في العالم، ينتابها إحساس بأنه جزء منها بسبب المعاناة المشتركة التي تشترك فيها نساء العالم، وبسبب مشاعر الأمومة الفطرية المشتركة بين النساء كافة.

من جهة أخرى، فإن شخصية الأم تذكرنا بسنوات الطفولة أكثر مما تذكرنا شخصية الأب، فإذا نظرنا إلى أمهاتنا، تذكرنا ملامح الطفولة وفيض براءتها، وفصول سنواتها.

تميل المرأة إلى عالم الطفولة أكثر من ميلها إلى عالم الكبار، وتميل إلى العمل الأمومي والتربوي، أكثر من ميلها إلى الأعمال الأخرى.

تتمتع المرأة بخصائص تؤهلها لتربية الطفل وتقديم الموعظة والإرشاد إليه، وهي تملك مقومات التأثير المباشر وغير المباشر عليه، لذلك تعوّل المؤسسات التربوية على شخصية المرأة المعلمة، لأنها تحمل في شخصيتها الكثير من المزايا التي تجعلها تعلم الطفل وتربيه بالوقت ذاته من منطلق أنها امرأة، وما يلفظه الرجل المعلم بسهولة من كلمات، قد تتحرج المرأة في قولها، بل قد تعاقب تلميذها إذا لفظ تلك الكلمات.

تقول الكاتبة الدنماركية توفه ديتلفسن: /هناك طفلة صغيرة في أعماقي ترفض أن تموت/.

إن الاعتماد على تربية الأطفال يقع في غالبه على شخصية المرأة المربية، فهي تجيد تربيته، وتجيد تأديبه، وتجيد فن القص عليه وهي تهدهده حتى ينام.

إنها تجيد عملية تنظيم وقته، ولديها قدرة هائلة من الصبر على نتائج عملها.

تبقى المرأة دائمة الميل والحنين إلى عالم الطفولة مهما بلغت من مراتب في حياتها، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها قصصياً بدرجة أكثر قرباً من الرجل.

تقول سيمون دي بوفوار: /نحن النساء نعرف خيراً من الرجال عالم المرأة، لأننا مرتبطات الجذور به، ونحن أقدر على إدراك ما معنى أن يكون الكائن البشري امرأة/.

قالت بيرجيت وأنكرت: /غالباً ما نغفل أن أدب الأطفال ليس ظاهرة طبيعية شأنه شأن مفهوم الطفولة الذي حمله، ولكنه بدلا من ذلك بناء اجتماعي وُلِد مع عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر/.

وحتى شخصية البنت تختلف في نموها عن شخصية الولد. يرى ديفيز /أن البنات تسبقن الأولاد الذين يجاورونهن في العمر في النمو اللغوي، وخاصة ما بين الخامسة والعاشرة من العمر/.

شهد أدب الأطفال أعمالا قصصية وروائية هامة لأديبات من مختلف أنحاء العالم، ومن ذلك /لويزا ماي أيكوت/ التي

كتبت أوّل رواية واقعية للأطفال بعنوان /نساء صغيرات/ سنة ١٨٦٨م تروي فيها وقائع الحياة من خلال عائلة أمريكية، وفيها نتعرف على موقع الطفل في هذه العائلة وعن مفهوم المجتمع للطفل، كما أننا نتعرف على عالم الكبار من خلال مفهوم الصغار.

وكتبت الكاتبة الإنجليزية /أنا سويل/ روايتها /الجمال الأسود/ سنة ١٨٧٧م تحدثت من خلالها عن عالم الحيوان، ودعت الطفل إلى محبة الحيوان والرفق به.

كما اشتهرت الكاتبة الأمريكية /ماريت بيتشر/ بقصصها التي كتبتها للأطفال، وخاطبت من خلالها عالم الطفل.

وفي اليابان ظهرت الكاتبة /كيوكو إيواسكي/ التي كتبت أعمالاً قصصية للأطفال صورت من خلالها عالم الحيوان، وعالم الطبيعة.

امتازت الكتابة النسوية للطفل بشيء من الشفافية والموعظة، واستطاعت أن تقدم باقة من الأعمال الأدبية إلى مكتبة الطفل.

قائمة المصادر والمراجع

١- فون دير لاين فريدرش، الحكاية الخرافية، ترجمة: نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت ١٩٧٣م.
٢- حنان عبد الحميد العناني، أدب الأطفال، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن ١٩٩٦م.
٣- الخطاب الروائي، ميخائيل باختين، ترجمة محمد برادة، ط٢، دار الأمان، الرباط ١٩٨٧م.
٤- تجلي الجميل، هانز جيورج جادامر، ترجمة سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
٥- حول النقد النسوي، كاترين ستيمبسون، ترجمة سلافة الحجاوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩م.
٦- علم النفس التربوي، أرثر غنيتس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٤م.
٧- التربية وسيكولوجيا الطفل، ويلسن بوتر، ترجمة: أديب يوسف، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٥٨م.
٨- حساسية الروائي وذائقة المتلقي، عبد الباقي يوسف، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الرياض ٢٠١٢م.
٩- الآخرون أيضاً، رواية، عبد الباقي يوسف، منشورات منظمة كتاب بلاحدود، بغداد ٢٠١٢م.
١٠- موجز تاريخ الأدب الأمريكي، بيتر هاي ترجمة: هيثم علي حجازي، منشورات وزارة الثقافة السورية.
١١- الأسطورة والمعنى، كلود ليفي شتراوس، ترجمة صبحي حديدي، دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٥م.
١٢- حياتي والتحليل النفسي، سيغموند فرويد، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م.
١٣- المعقول واللامعقول في الأدب، كولن ولسن، دار الآداب، بيروت.

التربية في وادي الرافدين

د. ملكة أبيض ✪



لمحة عامة

من المعروف أن الألف الثامن قبل الميلاد شهد قيام مجتمعات شبه دائمة، إن لم تكن دائمة تماماً، في منطقة الشرق الأوسط. فقد توصل السكان إلى معرفة المنطقة بشكل جيد، وأصبحوا يستغلونها بكفاءة.

وتدل المعطيات التي جمعت من الحفريات الأثرية في «كريم شهر» و«ملفعت» في العراق،

✪ أديبة وكاتبة وأستاذة التربية في الجامعات العربية.

العمل الفني: الفنان نحطان طلاع.

و«نطوف» في فلسطين على أن الشعوب القديمة في تلك المنطقة امتلكت حضارة زراعية متقدمة؛ ويعرف من الآثار الموجودة في «حسونة» و«جرمو» على نهر دجلة أن الناس الذين سكنوا تلك المنطقة صنعوا الأدوات الصوانية، والأواني الخزفية المتطورة، وأنهم تمتعوا بتنظيم اجتماعي ساعدهم على إقامة مشاركة في التقدم التقني مع سكان منطقة العمق السورية.

وحوالى الألف الرابع والثالث ق.م. ازداد حجم المستوطنات الزراعية كثيراً في حوض دجلة والفرات، وتغيرت البنية التنظيمية في تلك المستوطنات بشكل حاسم، وأيضاً كانت المدينة- الدولة السومرية تتويجاً لتلك العملية التطورية.

كانت بداية السومريين في الألفية الرابعة ق.م. حيث استقر شعب العبيديين (نسبة إلى تل عبيد) في العراق وكوّنوا المدن الرئيسة مثل: أور، ونيبور، ولارسا، ولاغاش.. إلخ. واختلط هؤلاء بأهل صحراء الشام والجزيرة العربية عن طريق الهجرة أو الغزو. وبعد عام ٣٢٥٠ق.م. ابتكروا الكتابة على ألواح الطين.

لقد بنى السومريون معابد كبيرة، وشادوا جدراناً من القرميد حول مدنهم، وبدأوا مشاريع ري واسعة، وحفروا القنوات لجر المياه من دجلة والفرات إلى الأراضي الواقعة بينهما حتى يتمكنوا من الزراعة.

كان المعبد يبنى في مركز المدينة السومرية، ويسمى «زيغورات أو زاقورات». وتعني هذه الكلمة «جبل الإله» أو «هضبة الجنة». وكان كل زاقورة مكوّناً من عدد من المستويات المتدرجة، فكل مستوى كان أصغر من المستوى الذي تحته. وكانت هناك أدراج تقود إلى قمة الزاقورات، الذي كان يعتقد أنه مسكن الإله الرئيس، فقد كان هناك العديد من الآلهة. وكان الكهان وحدهم يدخلون إلى هذه المنطقة المقدسة.

وحول الزاقورات، كان هناك ساحات، تتركز فيها الحياة السومرية. فهناك كان يعمل الحرفيون، ويذهب التلاميذ إلى المدرسة، كما كان يعمل المزارعون، ويخزن التجار بضائعهم.

الكتابة في سومر

ليس من المؤكد ما إذا كان السومريون أوّل من اخترع الكتابة، ولكن كتابتهم هي أقدم نظام كتابي معروف. وقد دامت ألواح الطين التي كتبوا عليها، حين كانت تجفف أو تشوى، فترة طويلة.

فقد عثر منقبو الآثار على الآلاف منها. وبعضها يعود إلى ما قبل ٣٠٠٠ق.م.. كانت الكتابات السومرية الأولى «كتابات تصويرية» شبيهة من بعض الجوانب

بالهيروغليفية المصرية، ثم بدأ السومريون يطورون أسلوبهم الخاص حين وجدوا أنه من الأسهل رسم الخط بالقلم على الطين المبلل الرخو. وفي سبيل ذلك استخدموا قلماً مدبباً، وهو على الأرجح قطعة مستقيمة من القصب ذات نهاية، أو رأس ثلاثي الزوايا. وخلال العمل، ظهر لهم أن «القلم» يستطيع أن ينتج أشكالاً ثلاثية كالوتد (أو المسمار)، وخطوطاً مستقيمة. أما الخطوط المنحنية، فكان من الضروري تجزئتها إلى سلسلة من الضربات المستقيمة الصغيرة. وعلى هذا النحو، فقدت الصور أشكالها وتحولت إلى رموز. هذا النوع من الكتابة بالقلم على الطين سُمّي بالكتابة المسمارية.

لقد أُنجزت خطوة كبيرة نحو الأمام حين جرى ربط الرموز بصوت الشيء المرئي بدلاً من فكرة الشيء نفسه، وهكذا أصبح كل رمز، أو علامة، يمثل مقطعاً: با- بو- بي..

وقد بدأت الكتابة أولاً في أعمدة من اليمين إلى اليسار. ومع تطورها، أصبح من الأسهل على الكاتب الكتابة في أسطر (صفوف) من اليسار إلى اليمين.

الإعداد للكتابة

بما أن الكتابة السومرية كانت تجري على لوح الطين المبلل الطري، كان على التلميذ (أو الكاتب) إعداد ما سيكتب عليه قبل البدء في الكتابة.

كان الصغار يتعلمون أولاً كيف يُشكّلون الأنواع المختلفة للألواح المطلوبة للوثائق المتنوعة. فيتعلم المبتدئ تشكيل اللوح المستطيل في البداية، ويتدرب على تقسيمه إلى أعمدة وخطوط (أسطر). أما بالنسبة للتمارين القصيرة فكان يكتفى بصنع ألواح مستديرة صغيرة بحجم راحة الكف، وهذه تناسب راحة كف الطفل، وأمّا الموشور فهو شكل أكثر تعقيداً لأن له جوانب عدة (٤-٦)، وله عصا في وسطه على طول المحور العمودي، تتيح للكاتب تدويره بسهولة.

وكان العديد من الألواح المدرسية يعاد استخدامها بطرق عدة. ففي غالب الأحيان كان التلاميذ يمحون عملهم ليعيدوا كتابته المرة تلو المرة. وهذا يوفّر عليهم تشكيل ألواح صغيرة عديدة من أجل تمرين واحد.

المدارس السومرية

كانت الكتابة السومرية صعبة على التعلم. وفي سبيل تعلمها وإتقانها كان من الضروري إيجاد تعليم منظم.

هكذا نشأت المدارس الأولى في سومر، وهي المدارس الأولى في العالم- على ما يعتقد حتى الآن.

كانت المدرسة تقام في البداية في المعبد،

أو بجواره. ولكن ذلك ما لبث أن تغيَّر، ونشأت مدارس ملحقة بالقصور، وأخرى صغيرة في العديد من المدن السومرية.

كانت هناك أجور مدرسية، لذلك كان الأغنياء وحدهم يستطيعون إرسال أبنائهم إلى المدارس. أما أبناء الفقراء فكانوا يعملون في الحقول، أو يتعلمون حرفة. وهناك شواهد على حصول بعض الفتيات الصغيرات على تعليم للكتابة، ولكن معظم التلاميذ كانوا من الصبية الصغار.

وتسمى المدرسة في السومرية «أدوبا» أو «مدرسة الألواح». ويسمى التلميذ «ابن المدرسة». وكان يبدأ تدريبه في سن مبكرة جداً (بين الخامسة والسابعة من العمر)، ويبقى في المدرسة حتى يصبح شاباً. وحين ينهي حوالى اثنتي عشرة سنة دراسية بنجاح، كان يصبح كاتباً بصورة رسمية. وكانت تلك تمثل مكانة كبرى ذات شأن في المجتمع السومري. فقد كان للكتبة فائدة كبرى في المحافظة على مهمة تسجيل الوثائق وتحسينها، وكان السومريون شديدي الحرص عليها.

كانت هيئة التعليم تتكون من:

أ- مدير المدرسة (أمِّية) أو (أب المدرسة)، وهو الذي يتخذ القرارات فيما يجب تدريسه.

ب- المعلم المساعد (الأخ الأكبر)، وكان يفحص الوظائف المدرسية، ويستمع إلى محفوظات التلاميذ، ويهيئ الألواح الجديدة للكتابة.

جـ- أعضاء آخرين كانوا يعنون بالخط، والنحو أو قواعد اللغة.

د- مراقب أو معلم متدرب، توكل إليه مسؤولية الانضباط الذي كان صارماً. فقد كان هناك استخدام واسع للعصا. وفي أحد الأمثلة كان هناك استخدام واسع للعصا فيما يلي: ارتكاب خطأ نحوي، ارتداء ثياب قذرة، التكلم أو الوقوف أو أخذ شيء من دون إذن، الكلام بعبارات خاطئة، أو كتابة عبارات خاطئة. وهذا لا ينفي قيام المعلمين بترغيب التلاميذ وتشجيعهم على التعلم بأساليب إيجابية، أيضاً.

لا يعرف حتى الآن إلا القليل عن **طرق التعليم وتقنياته** في مدارس سومر. ويتوقع أنه منذ وصول التلميذ في الصباح، كان يدرس اللوح الذي أعدّه في اليوم السابق. بعد ذلك يحضِّر الأخ الأكبر، أي مساعد المدير، لوحاً جديداً، فيقوم التلميذ بنسخه ودراسته. وكان مدير المدرسة ومساعده يفحصان النسخ المكتوبة ليتأكدا من سلامتها وصحتها. وكان الحفظ عن ظهر قلب، من دون شك، يحتل دوراً كبيراً في عمل التلميذ، على أن المدير ومساعده كانا يقومان بتزويد التلاميذ

بالقوائم، والألواح، والنصوص، التي كان على التلميذ أن ينسخها ويدرسها، إضافة إلى شروح، أو مواد للإيضاح. ولكن هذه الإيضاحات الشفوية أو المادية الضرورية لفهم المناهج السومرية في جوانبها العلمية، والدينية، والأدبية، لم تكتب على الأرجح، ولذلك لم تصل إلينا.

وهناك نص على لسان تلميذ يذكر فيه عمله اليومي، يقول:

سَمَّعْتُ لَوْحي، أكلتُ غدائي، أعددتُ لوحي الجديد، كتبتُه، أنهيتُه. ثم أحضر إليَّ أنموذج ألواحي. وبعد الظهر، أُحْضِرَتْ إليَّ ألواح تماريني.

وحين انتهى الدوام، ذهبتُ إلى المنزل، وجدتُ أبي جالساً هناك، شرحتُ له ألواح تماريني، سَمَّعْته لوحي، كان مسروراً جداً.

وفيما يتعلق بالبناء المدرسي، يظهر من الغرف التي كشفت عنها الحفريات، أن الأبنية التي اكتشفت في نيبور، وسيبار، وأور، وافترض فيها أن تكون مدارس، لم تكن تختلف عن الغرف العادية الأخرى إلا من حيث كونها تحتوي عدداً كبيراً من الألواح.

على أنه منذ فترة غير بعيدة، عثر العالم الفرنسي «اندره بارو» والذي كان يجري تنقيبات في «ماري» القديمة الواقعة غربي نيبور، عثر على غرفتين، ما من شك في أنهما كانتا صفَّين مدرسيين، ذلك أنهما كانتا تحتويان على صفين من المقاعد المصنوعة من الطين المشوي تتسع لتلميذ أو اثنين أو أربعة تلاميذ.

هناك على كل حال «حزّورة» حول المدرسة وضعها معلم سومري قديم، اكتشفت في تنقيبات أور، على لوح لم يطبع بعد، ونقلها سيريل. ج. جاد Cyril. J. Gadd من المتحف البريطاني. نُسجِّل منها البيتين الأخيرين:

ماذا تكون؟
دار مثل الجنة..
يدخلها، مَنْ عيونهُ مغمضة
ويخرج منها، مَنْ عيونه واسعة الانفتاح؟
الحل: إنها المدرسة.

وهذان السطران يلخصان غرض المدرسة وهو: أن تحوِّل الإنسان الأمي الجاهل، إلى رجل يتسم بالمعرفة والحكمة.

المنهاج

في سبيل معرفة منهاج المدرسة السومرية، لا نحتاج للاعتماد على أقوال وشهادات، أو استنتاجات من معلومات مبعثرة، ذلك أن الباحثين حصلوا على معطيات من المدارس نفسها، وهي فريدة في تاريخ الإنسان الأوّل.

وهذه المعطيات تتمثل في الإنتاج المكتوب للتلاميذ أنفسهم، إضافة إلى كتابات المعلمين.

ومن هذه المعطيات نتأكد أن منهاج

المدرسة كان يتكون من مجموعتين أساسيتين: يمكن أن توصف الأولى بأنها «علمية أكاديمية»، والثانية بأنها أدبية إبداعية.

وحين نتوقف عند المجموعة الأولى، وهي المجموعة العلمية، أو نصف العلمية، من الضروري أن ننتبه إلى أن الاتجاه العلمي هنا نما وتطور انطلاقاً من هدف المدرسة الأساسي، وهو تعليم الكاتب اللغة السومرية. فمن أجل تلبية هذا الهدف التربوي، صمم المعلمون السومريون نظاماً للتعليم يبدأ بتصنيف لغوي، أي أنهم صنفوا اللغة السومرية في مجموعات من الكلمات والعبارات المتقاربة (التي يجمع بينها قاسم مشترك)، وطلبوا من التلاميذ حفظها، وتسجيلها خطياً عدداً من المرات حتى يتمكنوا من كتابتها بسهولة. وخلال الألف الثالث تطورت النصوص واكتملت..

كان الكاتب الصغير يبدأ تعليمه بكتابة العلامات (أو الرموز) المفردة، مثل بو- با- بي، نو- نا- ني.. ثم ينتقل إلى دراسة قائمة طويلة من العلامات، ونسخها، وحفظها، فإلى دراسة مجموعة تتكون من علامتين أو أكثر، ثم تتبعها مجموعات تضم ألوفاً من الكلمات والعبارات المرتبة حسب المعنى.

وهكذا، ففي مجال **«العلوم الطبيعية»** كان هناك قوائم بأعضاء الجسم لدى الإنسان والحيوان، وبالحيوانات الأهلية والوحشية، وبالأسماك والطيور، وبالأشجار والنباتات، وبالأحجار والنجوم؛ وفي مجال **«الأشياء المصنوعة»، هناك قوائم بالأشياء المصنوعة من الخشب**، تتجاوز ١٥٠٠ عنصر، تتدرج من قطع الحطب، إلى الزوارق والعربات؛ والأشياء المصنوعة من القصب، والجلد، والمعدن؛ وأنواع الفخار، والأطعمة، والمشروبات..

وهناك مجموعة خاصة تضم قوائم بأسماء **الأماكن، والأراضي، والمدن، والأنهار، والقنوات، والحقول**..

وهناك مجموعة تضم التعابير الشائعة في **الوثائق الإدارية والقانونية**. إضافة إلى ثمانمئة كلمة تدل على **المهن، وعلاقات القربى، وتشوهات الجسم الإنساني**.. إلخ.

وحين يصبح التلميذ حسن المعرفة بكتابة المفردات السومرية المعقدة، يبدأ في نسخ وحفظ **جمل قصيرة، وأمثال، وخرافات**، ومجموعة من **«نماذج العقود»**، وهذه الأخيرة أساسية لإنشاء الوثائق القانونية، التي كان لها دور واسع في الحياة الاقتصادية لسومر.

وبموازاة هذا التدريب اللغوي الواسع، كان التلميذ يعطى تعليماً في الرياضيات، يتخذ شكل دراسة، ونسخ قوائم **بالمقاييس**: مقاييس السعة، والطول، والوزن، إضافة

إلى جداول الضرب، وعمليات التحويل، (والجبر، والهندسة، وحساب المثلثات) على ما ذكرت بعض المراجع.

فيما بعد يوضع التلميذ أمام مشكلات عملية ويطلب منه حلها، وفيها مشكلات تتناول الأجور، وحفر القنوات، وأعمال البناء. ونظراً إلى التركيز الشديد على الوثائق الإدارية والاقتصادية، فإن التدريب على الرياضيات يتخذ أهمية كبرى.

وبالمناسبة، كان السومريون يبنون نظام العدّ لديهم على العدد ٦٠. فيضربون ٦٠ بـ١٠.. (ويلاحظ أن للرقم ٦٠ ميزة وهي أنه يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ١٠، ١٢، ١٥، ٢٠، ٣٠).

وكان السومريون يقسمون الدائرة أيضاً إلى ٣٦٠درجة. ومنهم جاءت كلمة دزينة، وهي خُمس ٦٠؛ وتقسيم الساعة إلى ٦٠ لقياس الدقائق والثواني. وكان مقياسهم للوزن الـ (مينا) وهو يماثل وزن الباوند، يقسم إلى ٦٠ شيكيل، ولم يكن لديهم عملة نقدية مسكوكة، ولكنهم كانوا يستخدمون أوزاناً محددة من الفضة بصفتها مقاييس لقيمة الأشياء، ووسائط لتبادل السلع.

ويلخص «نيك فيلدويس Niek Veldhuis» وهو خبير في التعليم الكتابي في وادي الرافدين، منهاج المدرسة السومرية (الأدوبا)، في أربعة أنماط من التعليم هي:

١- تقنيات الكتابة.
٢- الأسماء السومرية.
٣- قوائم الرموز والرياضيات.
٤- اللغة السومرية التي يجري تعليمها من خلال الأدب.

أما الخطوات الأخيرة في المرحلة الأساسية للتعليم فهي كتابة العقود والوثائق الأخرى في مجال الأعمال.

كان رجال الأعمال يستخدمون الكتبة لأغراض متنوعة، منها كتابة الرسائل والعقود. فقد كان الإنسان العادي أمِّياً، يعتمد على الكاتب في كتابة كل رسائله وقراءتها. والعديد من العائلات الميسورة كانت تستخدم كاتبها الخاص. وكانت القصور في وادي الرافدين تستخدم أعداداً كبيرة من الكتبة لتلبية حاجاتها اليومية.

وفي سبيل الانتقال من التعليم الأساسي إلى التعليم المتقدم، تأتي دراسة الأمثال لتصل بين التعليم الأساسي والمنهاج المتقدم. فهي تضع أمام الكاتب أشكالاً ولغة أدبية، وتعدُّهم بذلك لمتطلبات النصوص الأكثر تعقيداً.

على أنه من الضروري التنبيه إلى أن جميع التلاميذ لا يتابعون تعليمهم حتى مراحل متقدمة في الأدب.

ومن المهم جداً أن نعرف ما إذا كان هناك مجال للاختصاص في دراسة ما.

ومتى يحدث ذلك؟ وإلى أي حد؟ ولكننا لا نملك معلومات بهذا الصدد.

على أننا نعرف أن الكتبة كانوا يعملون في حقول مختلفة مثل الأمور القانونية، أو مسح الأراضي، أو إدارة القصور، ومثل هذه الأعمال لا تتطلب دراسة الأناشيد والملاحم.

فمنذ أقدم الأزمان، كان السومريون يملكون إحساساً قوياً بالملكية. وبعد أن تعلّموا الكتابة والحساب، بدأوا يحتفظون بوثائق حول كل الأشياء التي يحصّلونها حتى الأشياء الصغيرة مثل الأحذية، وكل معاملة أو صفقة كان يجري تسجيلها.

وإلى جوار أبواب المدن، كان الكتبة يجلسون على أهبة الاستعداد لتأجير خدماتهم. وسرعان ما كانت أيديهم تتحرك فوق قطعة الطين، وتستخدم القلم لتسجيل العملية. ثم كانت الأطراف المتعاقدة تضيف توقيعها بوساطة الأختام. وكان الختم يتمثل في أسطوانة مطبوعة من الحجر أو المعدن، وكان يجري تمريرها على الطين الرخو المبلل. وعلى مرّ الأيام أصبحت الكتابة المسمارية لجميع الأغراض، كما هو حال الكتابة الآن: من أجل الرسائل، والسرديات، والصلوات، والأناشيد، والقواميس، وحتى المؤلفات الرياضية والفلكية.

أما بالنسبة للذين يتابعون تعليمهم **الأدبي**، فقد كان هناك منهج يتكون من مجموعة من المواد الأدبية، وزعها ستيف تينني Steve Tinney إلى: **النصوص الأربعة، والنصوص العشرة**. على أن التقسيم لا يخضع للمعايير الحديثة، فالمجموعتان تشتملان على أناشيد وملاحم. وإلى هاتين المجموعتين من النصوص كان يضاف ١٤ نصاً تستخدم بدرجات مُتفاوتة في المدارس المختلفة.

ومن أهم القصص الأدبية التي كانت تدرس في هذه المناهج **«ملحمة جلجامش»**، وهي أشهر الأعمال البارزة في الأدب القديم، انتقلت من جيل إلى جيل، ومن حضارة إلى حضارة.

لقد برز البطل جلجامش في الأساطير السومرية، بصفته ملك «أوروك». وهناك قصيدة بابلية طويلة تتضمن سرداً لرحلته إلى أعماق البحر ليحصل على نبات الحياة. وحين توقف في طريق العودة ليستحم عند أحد الينابيع، اختطفت أفعى جائعة النبات وأكلته. وحين رأى جلجامش الأفعى تخلع جلدها القديم وتستعيد شبابها، بدا له ذلك على أنه إشارة إلى أن قدر البشر هو الشيخوخة والموت.

وتشتمل الملحمة على قصة الطوفان، ففي أيام السومريين حدث طوفان كبير

في وادي الرافدين، إلى حد أن قصته انتقلت إلى معظم الآداب القديمة مع تغيير الأسماء. فبدلاً من «نوح» تحدث السومريون عن «زيوسودرا». وحين انتقلت القصة إلى البابليين أعطي اسم «أوتنابشتين»، وهو الحكيم الذي نصح جلجامش بشأن المكان الذي يستطيع أن يجد فيه نبات الحياة.

المكتبات

حين شاعت الكتابة المسمارية، واتسعت ممارستها، بدأت المكتبات في الظهور. وأوّل من أنشأها الملوك والقادة، ثم انتقلت إلى عدد من المدن السومرية. وكانت هذه المكتبات تعنى بالنصوص الدينية، إلا أنها راحت تمتلئ تدريجياً بنصوص الرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا..

والمكتبات التي اكتشفها علماء الآثار هي:

مكتبة نيبور: أنشئت هذه المكتبة في الألف الثالث ق.م. وقد اكتشف الآثاريون فيها مجموعة من الألواح تشتمل على أسماء جغرافية، وقائمة بالآلهة، وأخرى بالمهن، وثالثة بأعمال أدبية سومرية، وتمارين كتابية، وعدد من الأناشيد.

مكتبة لاغاش: أنشئت هذه المكتبة حوالى ٢٣٥٠ق.م. واحتوت مجموعة كبيرة من حوالى ٣٠٠٠٠ لوح من الكتابة المسمارية.

مكتبة أور: أنشئت حوالى ٢١٠٠ق.م. واحتوت سجلات متنوعة، فيها قسم أو جناح للقانون حسن التنظيم، وسجلات للمحكمة الوطنية على مدى قرن كامل.

الأكاديون

خلال قرون عدة بنى السومريون مجتمعاً متطوراً في ١٢ مدينة هي: كيش، أوروك، أور، سيبار، أكشك، لاراك، نيبور، آدب، أمّة، لاغاش، باد، تبيرا، لارسا. وحوالى ٢٨٠٠ ق.م. اتحدت هذه المدن تحت حكم ملك واحد هو «إيتانا» ملك كيش. حدث بعد ذلك نزاع على السلطة، مما أضعف السومريين، وعرّضهم لغزو العيلاميين أولاً ثم الأكاديين. فحوالى عام ٢٣٤٠ق.م.، غزاهم الملك سرجون، ملك أكاد، وانتصر عليهم، وأنشأ إمبراطورية امتدت إلى الغرب حتى البحر المتوسط. حكم سرجون الأكادي ٥٠ عاماً حدث خلالها تمازج ثقافي حميم بين السومريين والأكاديين، أدى إلى ازدواجية لغوية سومرية- أكادية، وتبني الأكاديين الديانة السومرية، والكتابة المسمارية، ونظام التعليم السومري. ونجم عن ذلك تطور كبير في الفنون والآداب، ومن الأرجح أن أوّل مجموعة من المشاهدات الفلكية، والتنبؤات الأرضية أجريت لتحفظ في المكتبة التي أنشأها سرجون الأكبر، كما أن التقويم الذي استخدم في معظم مدن وادي الرافدين والمتمثل في تسمية السنوات

على اسم الأحداث التي قام بها هذا الملك، يعود إلى عهده.

دام حكم سرجون خمسين عاماً، وحين توفي انهارت الإمبراطورية، وعاد السومريون إلى السلطة بقيادة مدينة «أور». وخلال سيطرة أور من حوالى ٢١٥٠- ٢٠٥٠ق.م. بلغت الثقافة السومرية أوجها في التقدم.

بعد ذلك فقدت المدن استقلالها إلى الأبد، وبدأ السومريون بالانقراض تدريجياً. على أن لغتهم استمرت بصفتها لغة للثقافة. وقام بنشر كتابتهم، وتنظيم أعمالهم، ومعرفتهم العلمية، وأساطيرهم، وقانونهم باتجاه الغرب، البابليون، ثم الآشوريون الذين جاؤوا بعدهم. وقد كيّف هؤلاء الكتابة المسمارية واستخدموها في تسجيل لغاتهم السامية، ونشروا استخدامها في المناطق المجاورة: سورية والأناضول وأرمينيا وإيران.

البابليون

حوالى ١٨٠٠ق.م. هاجر العموريون إلى وادي الرافدين، وأنشؤوا مدنهم. وإحدى هذه المدن- الدول كانت تدعى بابل، وكان ملكها يسمى **حمورابي**.

فحين تسلم حمورابي السلطة، بدأ يسيطر على مدن وادي الرافدين الواحدة تلو الأخرى، محدثاً الكثير من الإصلاحات، منها: إصلاح نظام الريّ، ونظام الضرائب، والإدارة. كما وضع القوانين المعروفة باسمه والتي تغطي جميع جوانب الحياة.

لقد تبنى البابليون النظام التربوي السومري الذي تعمل المدارس بموجبه بصفتها مراكز ثقافية في المنطقة. وكان المنهاج يتمثل بصورة رئيسة في نسخ الكتب، والمعاجم السومرية. البابلية التي تحتوي قوائم طويلة من الألفاظ والعبارات، وفيها أسماء الأشجار، والحيوانات، والطيور، والحشرات، والبلدان، وقوائم ومسائل رياضية، وحفظ كل ذلك عن ظهر قلب.

وفي دراسة الأدب، كان التلميذ ينسخ ويقلد أنواعاً مختلفة من الخرافات، والملاحم، والأناشيد، والأمثال، ومواضيع إنشائية باللغتين البابلية والسومرية.

كما كان للتعليم في أيام البابليين الأهداف السابقة نفسها، وهي: تدريب الكهنة والكتبة والموظفين، لأن نظام الضرائب المتقن، والزيادة الكبيرة في التجارة استدعت وجود عدد متزايد من الموظفين المتعلمين. وتظهر السجلات الباقية أن شرعة حمورابي شكلت أساس المناهج التي كانت تدرس في مدارس المعبد ومدارس القصر التي شهدت هذه *الفترة قيامها*.

وإلى جانب التدريب على الأعمال التجارية والإدارية، كان معظم النشاط

التعليمي في بابل موجهاً لغرض إعداد طبقة كهنوتية متنامية. ويستدل على ذلك من الأهمية التي تمتعت بها الطقوس الدينية في حياة الناس اليومية، فقد كانت جميع مناحي الحياة الفنية والفكرية تدور حول الاحتفالات الدينية، وقد أهمل البابليون الآلهة السومرية القديمة وأحلوا محلها آلهة جديدة. ورفعوا مكانة «مردوخ» من إله محلي إلى أعلى مكان في المعبد المخصص لآلهة الأمة جمعاء. ووضعوا إلى جانبه آلهة جديدة أهمها: عشتار وتموز.

الآشوريون

شعب سامي آخر، سكن هضبة آشور على بعد ٥٥ ميلاً باتجاه منبع دجلة. وبحلول القرن العاشر أصبحوا سادة معترفاً بهم في المنطقة المحيطة بعاصمتهم نينوى.

إلا أن الإمبراطورية الآشورية نمت بسرعة في القرن التالي وامتدت حتى البحر المتوسط؛ ووصلت أوج عظمتها في عهد سرجون الثاني ٧٢٢- ٧٠٥ق.م، ثم سنحريب ٧٠٥-٦٨١ق.م، وبعدهما آشور بانيبال (٦٨١- ٦٢١ق.م).

أما التعليم في ذلك العصر، فلم يكن يعرف عنه الشيء الكثير. ولكن من المؤكد أنه كانت هناك مدارس من أجل إعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم الإمبراطورية لإدارة شؤونها، وتنسيق العمليات الحربية، وتدعيم سلطة الدولة في الأراضي المفتوحة.

وتفيد المصادر التاريخية أن الملك آشور بانيبال كان يمتلك حوالى ٦٢٨ ق.م. نسخاً عن المكتبة البابلية القديمة، مكتوبة باللغتين البابلية والآشورية ومحفوظة في نينوى. وقد بلغ عدد اللوحات المكتوبة بالآشورية حوالى ٢٢٠٠٠ لوحة تمت ترجمتها عن البابلية. وهذا يدل على اتساع الطبقة المتعلمة وكثرة المدارس في ذلك العهد.

استخدم الآشوريون لغتين طوال تاريخهم: الآشوري القديم (الأكادي) والآشوري الحديث (المأخوذ عن الآرامية).

كانت اللغة الأكادية تكتب بالنظام المسماري على الألواح الطينية. وظلت تستخدم من البداية حتى حوالى ٧٢٠ق.م. حيث تطورت طريقة جديدة في الكتابة على الرق، أو الجلد، أو البردي، ما لبثت أن حلّت محل الآشورية القديمة.

هكذا أصبحت الآرامية اللغة الثانية للإمبراطورية الآشورية في عام ٧٥٢ق.م. وعلى الرغم من أن اللغة الآشورية تحوّلت إلى الآرامية، فإن اللغة الجديدة لم تحلّ كلياً محل الآشورية القديمة، ذلك أن الآرامية التي تكلمها الآشوريون كانت مشوبة إلى درجة كبيرة بكلمات أكادية؛ حتى إن

الباحثين دأبوا على الحديث عنها بصفتها «آرامية آشورية».

مرّ الآشوريون بعد ذلك بعصر مضطرب من ٦١٢ق.م. إلى ٣٣م. فقد سقطت إمبراطوريتهم، وسيطر بعدهم على المنطقة البابليون الجُدد، ثم الفرس، والسلوقيون اليونانيون، إلا أنهم استمروا في العيش في وطنهم إلى أن ظهرت المسيحية فدخلوا فيها. وكانت الكنيسة الآشورية الشرقية التي أسسوها في مدينة الرها عام ٣٢م، الكنيسة الأولى والأقدم في العالم.

الكلدانيون، أو البابليون الجدد

بعد موت آشور بانيبال في ٦٢٧ ق.م. بدأ بنيان الإمبراطورية الآشورية غير المتماسك بالانهيار. ذلك أنها وصلت إلى اتساع تصعب إدارته، فقد امتدت هذه الإمبراطورية إلى البحر المتوسط في الغرب، وإلى بلاد الميديين في الشرق، وإلى مصر وجزيرة العرب في الجنوب، وقسم من آسيا الصغرى في الشمال.

بدأت عملية الإطاحة بالآشوريين حين استطاع حاكم أحد الأقاليم واسمه «نابوبولسر» أن يوحد مجموعات المعارضين لحكم الآشوريين، ويبدأ ثورة ضدهم.

وفي عام ٦١٢ق.م. استولى على نينوى عاصمة الآشوريين وأنهى سلطانهم. وخلفه ابنه نبوخذ نصر الذي حكم حتى عام ٥٣٦ق.م. مكوّناً إمبراطورية متعددة الأقوام، كانت أعظم ما شهدته منطقة الشرق الأدنى منذ قرون عديدة. ويعد هذا الطور، الطور الحضاري الرابع في وادي الرافدين، بعد العهد السومري. الأكادي، والعهد البابلي، والعهد الآشوري.

أما من الناحية الثقافية فقد تطلع الكلدانيون إلى إعادة أمجاد أسلافهم البابليين القدماء وعظمتهم. لذلك أحيوا شرعة حمورابي والأدب القديم، واتخذ الأدب الكلداني طابع بعث الماضي، على الرغم من أن الآرامية أصبحت لغة الحياة اليومية، في تلك الفترة.

كانت كل مدينة في منطقة ما بين النهرين، في ذلك العهد، تمتلك مكتبة عامة تحتوي على ألواح طينية، تضم كتابات تاريخية ومواضيع قانونية ومقالات في الجغرافيا وعلم الفلك العادي والتنجيمي، إلى جانب القصائد الشعرية والأمثال والقصص الخرافية ونصوص القواعد وغيرها. وكانت المدارس توجد إلى جانب المعابد والقصور والمراكز البلدية.

وكان أبناء طبقة الكهنة يدرسون منذ الطفولة ويلقّنون المعلومات المتعلقة بالطب والقانون والإدارة والفلك واللاهوت. أمّا الوظائف التي يشغلونها بعد تخرجهم فكانت متدرجة تدرجاً هرمياً من صغار الكهان في القاعدة إلى كبيرهم في القمة.

ولم يكن التعليم مقتصراً على الكهنة والكتبة، بل شاركت الطبقة العليا (الدنيوية) في التدريب النظامي بالقدر الذي كان البلاط الملكي يحتاج إليه من بين أبناء هذه الطبقة لخدمته.

وقد أعطى «نبوخذ نصر» تعليماته بأن يُعلّم بعض أبناء اليهود أيضاً، جاء في التوراة، سفر دانيال، ما يلي:

«تحدث الملك إلى أسفيناز، رئيس كهنة المعبد، وطلب منه أن يأتي ببعض أبناء إسرائيل، من أولاد الملك نفسه، وأولاد الأمراء، والأولاد الخالين من العيوب والذين أحسنت تنشئتهم، وامتلكوا الذكاء ودربوا على المعرفة وفهم العلوم، وأولئك الذين يمتلكون إمكانات فذة؛ يجب أن يأتي رئيس الكهنة بهؤلاء إلى قصر الملك، وأن يجري تعليمهم لغة الكلدانيين ومعارفهم. وقد أشرك الملك هؤلاء الأولاد في طعامه وشرابه، وقام بإعالتهم ثلاث سنوات وضمّهم في نهايتها إلى خدمته».

هذا النص دليل واضح على وجود مدرسة ملحقة بالقصر، وعلى وجود تدريب على الوظائف المدنية، وعلى اصطفاء الطلاب للالتحاق بهذا التدريب بالاستناد إلى معايير اجتماعية وفكرية.

ما بعد الكلدانيين

إلى الشرق من الإمبراطورية الكلدانية، كان يقطن الفرس الأخمينيون. وهم من الشعوب الهندو. أوروبية، الذين دخلوا إلى المنطقة المسماة إيران حوالى العام ١٠٠٠ق.م. قادمين من سهوب جنوب روسيا وجبال القوقاز.

كان هؤلاء في الـ ٣٠٠ و٤٠٠ سنة الأولى من حلولهم في المنطقة، واقعين تحت سلطة الآشوريين، يدفعون لهم الجزية. على أنهم، بعد موت آشور بانيبال أظهروا قوتهم، وساعدوا البابليين الجدد على الحلول محل الآشوريين.

وفي عام ٥٣٩ق.م. غزا سايروس ملك الفرس بابل وانتصر عليها، فأصبحت خاضعة له، حتى مجيء **الإسكندر الكبير المقدوني** الذي دحر الفرس عام ٣٣٢ق.م.

بعد موت الإسكندر، أصبحت بابل من حصة خلفائه **السلوقيين**، الذين بنوا عاصمتهم «سلوقية» على ضفاف دجلة. ومع بابل سيطر هؤلاء على معظم المنطقة.

وهكذا تناوب على حكم منطقة وادي الرافدين، في القرون الأخيرة قبل الميلاد، والقرون الميلادية الأولى، الفرس، والإسكندر المقدوني، والسلوقيون، والرومان الشرقيون (البيزنطيون)، كلياً أو جزئياً. مرّ هؤلاء من دون أن يتركوا أثراً عميقاً باقياً في ثقافة المنطقة. ولكن العنصر الرئيس الذي أحدث أثراً ثقافياً بعيد المدى، يتمثل في الأجيال الجديدة من أهل الوادي -ولا سيما الآشوريين- الذين اعتنقوا الدين المسيحي

منذ القرن الأوّل للميلاد. لقد سمي هؤلاء «السريان»، وقد يكون المصطلح نتاج تحريف لكلمة «Assyrien» إلى «Syrien»، حدث خلال حكم السلوقيين -كما يقول الباحثون في هذا المجال. وهناك اتفاق بين هؤلاء -في الواقع- على أنه حين يذكر مصطلح «Syriac سرياني» في العصر الوسيط، وعصر النهضة للدلالة على المسيحيين من أهل وادي الرافدين وما حوله، فإنما يقصد بذلك الآشوريين.

لقد نهض هؤلاء الآشوريون- أو السريان، بعملية ترجمة واسعة من اليونانية إلى السريانية (وهي لهجة آرامية)، بدأت بالكتب الدينية، ثم انتقلت إلى كتب الطب والعلوم والفلسفة. وأضيف إليها منذ القرن السابع الميلادي ترجمة من السريانية واليونانية إلى العربية بناء على طلب الحكام العرب. ومع الترجمة سار البحث والتأليف. وهذه الأعمال العربية المترجمة والمؤلفة هي التي انتقلت إلى اسبانيا في القرنين العاشر والحادي عشر، وترجمت إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوروبية المحلية، مفتتحة بذلك عصر النهضة الحديثة هناك.

إن تاريخ المنطقة يذكر الكثير لهؤلاء: ففي مجال الطب، أسست عائلة «بختيشوع» مدرسة طبية كبيرة في جند يسابور، وأنتجت تسعة أجيال من الأطباء العلماء؛ كما بقي كتاب «طب العيون» لحنين بن إسحاق الذي كتب عام ٩٥٠م المرجع الأوّل في هذا المجال في أوروبة حتى العام ١٨٠٠م. وفي مجال التعليم العالي، كانت هناك مدرسة «نصيبين» التي أنشأها السريان في القرن الرابع الميلادي، وضمت ثلاثة أقسام: العلوم الدينية، والفلسفة، والطب، وكانت مركز التقدم العلمي في المنطقة؛ هذه المدرسة شكّل نظامها الذي تم حفظه، أنموذجاً اعتمدته أوّل جامعة إيطالية أنشئت في عصر النهضة الأوروبية. وقد تبعها عدد كبير من المدارس العليا المماثلة في المنطقة.

هذه الأمثلة، وغيرها، تحتاج إلى دراسة خاصة.

ولكننا نكتفي بالقول، إن العرب حين فتحوا منطقة الشرق الأوسط، التقوا بـ٦٠٠ عام من التقدم الحضاري الآشوري/ السرياني، وبخلفية حضارية سومرية- أكادية- بابلية- آشورية- كلدانية، امتزجت في وادي الرافدين وما جاوره خلال عدة آلاف من القرون. وقد كانوا منفتحين على كل ما صادفوه في المنطقة -أخذاً وعطاء- ولكنهم نظروا إليه بعيون أبناء القرن السابع الميلادي.

لذلك لابد لنا الآن من إعادة النظر في هذا الإرث الضخم، إذا أردنا أن نطوّر ثقافة تلائم العصر، وتربية تعدّ الأجيال لمستقبل أفضل.

المراجع

- أبيض، ملكة (٢٠١٢م)، التربية في الوطن العربي، منظور قومي تاريخي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.

- عيسى يوسف، أفرام، ت. شمعون كوسا (٢٠٠٩م)،الفلاسفة والمترجمون السريان، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت.

- Lucas (Christopher, J.) (1972), Our Western Heritage, N.Y. Macmillan publishing co. Junc.

وفي الإنترنت عناوين:

- Sumerians, Sumerian Schools, The sumerian Writing System.
- Akkadian Empire.
- Babylonia, Ancient Babylonia – Schools of Scribes.
- Assyrians, Assyrian language.
- Assyrian/ Chaldean/ syriac people.
- Chaldean Empire.

- الأخمينيون.

حـديث النفس

د. محمد يحيى خراط ✿

إذا كانَ علمُ النَّفسِ الحديثُ قد ابتعدَ نهائياً عن القولِ بوجودِ «نفس» وراءَ الظَّواهرِ



الإنسانيـــة، باعتبارِ أنَّ النفسَ شيءٌ لا يمكنُ بحثُهُ علمياً، مثلما عَدَلَتِ العلومُ الطبيعيةُ عن القـــولِ بالجواهرِ، فإنَّ الأمرَ فيما يتعلقُ بالنَّفسِ الإنسانيةِ مختلفٌ كلَّ الاختلافِ بالنسبـةِ لسائرِ العلومِ الطبيعيةِ الأخرى. وذلك يرجعُ إلى أننا ندرسُ الظواهرَ الطبيعيةَ منْ خارجٍ، منفصلةً عنا، نلاحظُها من بعيدٍ، ونُخضعهـــا لتجاربِنا. وعلمُ النفسِ الحديث الذي أصبحَ علماً فإنَّه حينَ يدرسُ الإنسانَ يَدرسُه كأنه قطعةٌ مـــن الحجرِ أو النباتِ أو الحيوانِ، يلاحـــظُ سلوكَ هذهِ الكائنـــات من خارجٍ، كيـــفَ تتأثرُ بالبيئةِ التي تعيشُ فيها وكيفَ تؤثرُ

✿ باحث في التراث العربي ووزير سابق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

فيها، من دون أن يدخلَ إلى باطنِ الحجر، أو الشجرةِ، أو القطةِ ليعرفَ ماذا يدورُ في خلدِها.

غيرَ أن الإنسانَ تختلفُ حالُه عن حالِ هذه الكائناتِ، لأنه إلى جانبِ سلوكِه الظاهرِ المتفقِ مع سائرِ الكائناتِ الطبيعيةِ فإنَّه «يشعرُ» بالخواطرِ والخوالجِ التي تجري في باطنِه، أي إنَّهُ يشعرُ بذاتِه، على اعتبارِ تلكَ الخواطرِ والخوالجِ هي مصدرٌ لهذهِ الحركاتِ وهذا السلوكِ الخارجيِّ، وهو يستطيعُ أن يصورَ لنا «شعورَهُ» وأنْ يُحللَ لنا باطنَهُ، وأن يميزَ بين دوافعِه واتجاهاتِه وميولِه وعواطفِه وغيرَ ذلكَ.

وقد ألغَتْ كثيرٌ من مدارسِ علم النفسِ «الشعورَ» من مجالِ دراستِها، لأنَّ مثلَ هذا الموضوعِ لا يتفقُ مع الأساليبِ العلميةِ. ولكنَّ هذا الإلغاءَ لا يعني بحالٍ من الأحوالِ أنَّ الشعورَ لا وجودَ لهُ، وأنَّ الإنسانَ لا يحسُّ بحريتِه واختيارِ ما يناسبُهُ، وإلاَّ كانَ الإنسانُ لا يعدو أنْ يكونَ قطعةَ حجرٍ، أو ريشةً في مهبِ الريحِ، لا حولَ لهُ ولا قوةَ، ليس له سلطانٌ على نفسِه، ولا يستطيعُ أنْ يَسمَوَ إلى آفاقٍ عُليا، ومنها الآفاقُ الروحيةُ والدينيةُ.

ونستطيعُ أنْ نقولَ في غيرِ ترددٍ بأنَّ الذي طوَّرَ هذا العلمَ عندَ العربِ والمسلمينَ هو حجةُ الإسلامِ أبو حامدٍ الغزالي.

والغزاليُّ متعددُ الجوانبِ، فهو فقيهٌ، ومتكلمٌ، وفيلسوفٌ، و صوفيٌّ، وهذه الجوانبُ الأربعةُ هي التي اشتهرَ بها حجةُ الإسلامِ، إذْ لهُ في أصولِ الفقهِ كتابُ «المستصفى» لا يزالُ عمدةً في بابِه حتى اليومِ، ولهُ في علمِ الكلامِ كتابُ «الاقتصاد في الاعتقاد» وهو مِنْ أحسنِ الكتبِ التي تُلَخصُ هذا الفنَّ وتعرضُهُ على طريقةِ الأشعريةِ، ولهُ في الفلسفةِ «مقاصدُ الفلاسفةِ» و«التهافت»، وهذا الكتابُ ولو أنه ردٌّ على الفلاسفةِ إلا أنَّه ينهجُ منهجَهمْ ويعرضُ مسائلَهم. والتصوفُ هوَ الطريقُ الذي ارتضاهُ لنفسه في آخرِ حياتِه كما حكى في «المنقذ من الضلالِ».

ولكنَّ أحداً لم يصورْ لنا الغزاليَّ عالماً نفسانياً، وضعَ أسسَ علم نفسٍ إسلاميٍّ بمعنى الكلمةِ، على غزارةِ ما كُتبَ في هذا البابِ، إذ لهُ فيه كتبٌ مستقلةٌ مثلَ «معارجِ القدسِ»، ولهُ مباحثُ متفرقةٌ في شتى كتبهِ العديدةِ وخاصةً كتاب «إحياء علوم الدين».

فإنْ سألَ سائلٌ وقالَ: لماذا لمْ يظهرْ هذا العلمُ إلا على يدِ حجةِ الإسلامِ في القرنِ الخامسِ الهجريِّ؟

وأينَ أمثالُ الفارابي وابنِ سينا من فلاسفةِ الإسلامِ ولهمْ في هذا البابِ مباحثُ معروفةٌ وكتبٌ مشهورةٌ؟

ولِمَ يكُنْ علماءُ الكلامِ أصحابَ أنظارٍ عميقةٍ في الدراساتِ النفسيةِ، كالإرادةِ والمحبةِ والكراهيةِ والعاداتِ والمعارفِ العقليةِ؟

قُلْنا: إنَّ الجوابَ عن ذلكَ كما يلي:

١- إنَّ القرآنَ وهو كتابُ المسلمينَ حوى تفصيلاً لمعظمِ الأصولِ النفسيةِ التي يَصدر عنها سلوكُ الإنسانِ ابتداءً من البَحْثِ في النفسِ ما هي وما أصلها وما مَصيرُها، إلى كثيرٍ من أحوالِها التي تدفعُ المرءَ إلى العيشِ في هذه الحياةِ الدنيا مثل الدافعِ إلى طلبِ الطعامِ والولدِ والمالِ والزينةِ والرئاسةِ، كما صوَّرَ لنا ألواناً من الخوالجِ النفسانيةِ والعواطفِ البشريةِ كالحقدِ والغيرةِ والحسدِ والوسوسةِ وغيرَ ذلكَ، لذلكَ لم يكنِ المسلمونَ بحاجةٍ إلى كتابٍ في علمِ النفسِ وبين أيديهم كتابُ اللهِ تعالى يحفظونَهُ في صدورِهم ويتلونَ آياتِه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ، كما لم يكونوا بحاجةٍ إلى تصنيفِ كتابٍ يهدي الناسَ إلى الطريقِ المستقيمِ.

٢- إنَّ الفلسفةَ اليونانيةَ حين نُقلتْ في عصرِ الترجمةِ إلى اللغةِ العربيةِ، ونُقلَ معها «كتابُ النفسِ» لأرسطو - وكان أرسطو بالنسبةِ إليهم المعلمَ الأولَ- اتخذَ فلاسفةُ الإسلامِ من هذا الكتابِ أنموذجاً يُحتذى في الكتابةِ عن هذا العلمِ، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من الطريقِ الذي انتَهجَهُ. وهذا ما فعلهُ ابنُ سينا في كتابِ «النفس» الذي هو جزءٌ من «الشفاء»، وفي كتابتِه عن النفسِ في «النجاة»، حيثُ نسجَ على منوالِ المعلمِ الأوَّلِ في تعريفِهِ للنفسِ، وإلحاقِها بالعلمِ الطبيعيِّ، وتصنيفِهِ للنفوسِ إلى نباتيةٍ وحيوانيةٍ وإنسانيةٍ، وتصنيفِ الحواسِ والإدراكِ وسائرِ القوى الإنسانيةِ. وإذا كانَ قد أتى بجديدٍ فذلكَ في تفصيلاتٍ فرعيةٍ لا تُغيرُ من الجوهرِ الأساسيِّ لعلمِ النفسِ الأرسطيِّ. وهذا لا يعني أنَّ الشيخَ الرئيسَ لم يأتِ بجديدٍ، إذ الواقعُ أن براهينَهُ على إثباتِ جوهريةِ النفسِ وانفصالِها عن البدنِ من البراهينِ الطريفةِ التي تأثرَ بها فلاسفةٌ غربيونَ ومنهمْ ديكارتُ.

وقد ورثَ المسلمونَ كذلكَ شيئاً من علمِ النفسِ بحسبِ ما جاءَ به «أفلاطون». وكانوا يعْرِفون محاوراتِهِ التي خاضتْ في أمرِ النفسِ، مثل «فيدون» التي أطلقوا عليها اسم «فادن» ومثلِ «الجمهورية» التي سمُّوها «المدينة الفاضلة»، وهذا وذاك علمُ نفسٍ يونانيٌّ يتصلُ اتصالاً دقيقاً بنظرةِ فلاسفتِهم إلى الكونِ والإنسانِ، ولا يمتُّ بصلةٍ إلى اتجاهِ الإسلامِ، وإن اتفقَ معه في بعضِ الأصولِ المشتركةِ في كل زمانٍ ومكانٍ.

٣- إنَّ علماءَ الكلامِ وإن كانوا قد

أفاضوا في المباحث النفسية لصلتها بالاعتقاد الديني، وبنظرية العدل والجبر والاختيار بوجه خاص، إلا أنهم لم يحفلوا بإفراد هذا العلم في بحث مستقل من جهة، كما أنَّ مباحثَ المعتزلة وهم الذين توسعوا في هذا الباب فقد معظمها فلا ندري عنها إلا الشيءَ اليسيرَ.

٤- إنَّ المتصوفةَ وهمُ الذين حلّلوا النفسَ البشريةَ تحليلاً عميقاً توغلوا إلى أعماقها وأغوارها وصوَّروا ما يعتري المتصوِّف من أحوالٍ وما ينتقلُ فيه من مقاماتٍ وما يَرِدُ عليه من سوانحَ وخواطرَ، قد اقتصروا في دراستهم على جانب واحد من الدراسات النفسية وهو الظاهرةُ الصوفيةُ، وعلاقةُ المريد بالشيخ وغيرَ ذلك مما يعدُّ باباً واحداً من علم النفسِ يختصُّ ببضعة أفرادٍ، أما سائرُ البشرِ وجمهورُ الملايين فلم يتعرضوا لهم ببحثٍ، ولم يهتموا بأمرهم وينظروا في سلوكهم وأحوالهم، بل «السلوك» عندهم يقتصرُ على علم السلوك ويعنونَ به سلوك الصوفيِّ الطريقَ إلى الله. و«علم الأحوال» في عرفهم ما يردُ على قلب الصوفيِّ من قبضٍ وبسطٍ وفرحٍ وسرورٍ وهيامٍ ووجدٍ إلى غيرِ ذلكَ.

وعندما جاءَ الغزاليُّ كان علمُ النفسِ، إمَّا متناثراً في آياتِ اللهِ والقرآنِ أو حديثِ الرّسولِ، وإمَّا متناثراً في مباحثِ علماءِ الكلامِ، وإمَّا جارٍ على طريقةِ الفلاسفةِ أتباعِ المشائينَ، وإمَّا منحصراً في دائرةِ المتصوفةِ ومصطلحاتهم التي تستعصي على أفهامِ الجُمهورِ.

وقد حذا أبو حامد الغزالي في ابتداءِ أمرِه حَذو المتفلسفة فأخذَ عنهم ما نقلوهُ عن مفكري اليونانِ وتكلم عن النفسِ وأنها كمالٌ أولٌ لجسمٍ طبيعيٍّ آليٍّ ذي حياةٍ بالقوةِ، كما جاءَ في تعريفِ أرسطو، وتابعهم في القولِ بالنفوسِ الثلاثة: الغازيةِ والحيوانيةِ والناطقةِ. وعلى الجملة فإنه لفَّ لفهم ونسجَ على منوالِهم، وخصوصاً في إثباتِ وجودِ النفسِ جوهراً مستقلاً عن البدنِ.

يقفُ الغزاليُّ على قمةِ النصفِ الثاني من القرنِ الخامسِ الهجريِّ، عملاقاً من عمالقةِ الفكرِ ورائداً من روَّادِ البحثِ وفارساً من فرسانِ الحقيقةِ. حوى في عقلهِ النيّرِ المتفتحِ نتاجَ العقلِ الإنسانيِّ حتى ذلك الحينِ، وظلَّ في شوقٍ دائمٍ إلى المعرفةِ حتى آخرِ حياتهِ. فلم يعرفْ لهُ غفوةٌ عن دراسةٍ، ولا قعودٌ عن ركوبِ أيِّ صعبٍ لجلاءِ المشاكلِ الفكريةِ مهما تعقدَّت أو دقَّتْ.

وصفهُ أستاذَهُ الجويني بأنَّه «بحرٌ مغدقٌ»، وأوردَ السبكيُّ في طبقاتهِ أنَّه كانَ «شديدَ الذكاءِ عجيبَ النظرةِ، مفرطَ الإدراكِ، قويَّ

الحافظة، بعيد الغَـوْر، غواصاً على المعاني الدقيقة، جبلَ علم، مناظراً محجاجاً».

وتحـدثَ عنهُ ابـنُ الجَوْزي وهــو أحدُ معارضيه في الرأيِ فقالَ «تفقَّهَ على أستاذهِ الجويني وبرعَ في النظرِ في مدة قريبة، وقاومَ الأقرانَ وتوحَّدَ. وصنَّفَ الحسانَ في الأصولِ والفروعِ التي انفردَ بحسنِ وضعها وترتيبها وتحقيقِ الـكلام فيها، حتى إنــهُ صنفَ في حيـاةِ أستاذهِ الجوينيّ فنظـرَ الجوينيُ إلى كتابهِ المسمـــى «بالمنخولِ» فقال له: «دفنتني وأنا حيٌّ، هلا انتظـرْتَ حتى أموتَ» «يريدُ أن كتابكَ غطّى على كتابي».

ومهما تكنِ الآراء التي قيلت عن الغزاليِّ مختلفــةً، فإنَّ الجميـعَ متفقــونَ على علوِّ مكانتهِ في شــؤونِ المعرفــةِ، ورسوخ قدميه فيهـا. فلقد كان أصوليّاً ماهراً وفقيهاً حرّاً ومتكلمـاً بارعاً، واجتماعيّـاً خبيراً بأحوالِ العالم، وفيلسوفاً يقفُ على قدمِ المساواةِ مع الفلاسفة الكبـارِ إن لم يبزَّهم. وكانَ إضافةً إلى ذلك صوفيّاً مربياً عالماً بالنفسِ البشرية وخفاياها، متأملاً فعاليتها وأحوالها، محللاً بارعاً للسلوكِ وخلجاتِ الضمائرِ.

وكانـتْ حياتُــهُ القصيرة حافلــةً غنيةً بالتجــاربِ، وصورةً للتعمــقِ بأغوارِ الأمورِ، فهو لم يكنْ ليحفلَ بمظاهــرِ القضايا بقدرِ ما تهمهُ حقيقتهــا، وكان يغوصُ إلى أعماقِ المشــاكلِ بجرأةِ العالمِ المتجــردِ. وقد وصفَ نفسَــهُ فقال «ولم أزلْ منذ داهمتُ البلوغَ إلى الآن وقد أنافَ السنّ على الخمسينَ أقتحمُ لجــةَ البحرِ العميقِ وأخوضُ عبابهُ خوضَ الجَســورِ لا خوضَ الجبانِ الحذورِ، وأتوغلُ في كلِّ مَظْلَمــةٍ، وأتهجــمُ علــى كلِّ مشكلة وأقتحــمُ كل ورطة، وأتعمــقُ عن عقيدة كل فرقة، وأستكشفُ أســرارَ كل طائفة، لأميزَ بينَ مُحقٍّ ومُبطلٍ ومُبدعٍ».

ولقــدْ بدأَ هذه الحياةَ الحافلةَ في طوس حيــثُ درسَ الفقــهَ على الإمــامِ الرَّاذكاني فلما ضاقــتْ به بلدهُ، ولمْ يعــدْ يجدُ كفايتهُ من المعرفــةِ. انتقلَ إلى نيسابورَ حيثُ تتلمذَ على الجويني، فلمَّا تمكنَ واستطاعَ أنْ يقفَ مساوياً لأستاذه بدأ يضيــقُ صدراً فانتقلَ إلى «العسكــر» حيــث نظــامُ الملــكِ وحيثُ مجتمعــاتُ الأدبــاءِ والعلمــاءِ والفلاسفة، ونواديهم ومجالاتهم ومحاولاتهم، فظهرَ على الجميعِ، ولفتَ انتباهَ نظام الملكِ، فأرسلهُ إلى «النظامية» في بغــدادَ فكانَ الفارسَ المجليَ فيها، تجتمعُ في حلقاتــه مئاتُ العمائمِ كما حدَّثَ هــو نفسهُ وكما أثبتــتْ ذلكَ مختلفُ الرواياتِ.

إلاّ أنَّ الغــزاليَ لم يكنْ بينــهُ وبينَ نفسه ليشعــرَ بالراحةِ، مــع أنَّه أصبــحَ مقصوداً من كلِّ طرفٍ، مشــاراً إليه بالبنانِ في العالمِ

الإسلاميِّ. لقد كانَ يفتشُ عن الحقيقةِ وراءَ المظهرِ، ويبحـثُ عنْ طمأنينةِ النفسِ وثباتِ القلبِ، وإنَّ هـذا ليحتاجُ إلى خلـوةٍ وتأملٍ وعزلةٍ، وهـذا ما كانَ، فقد تركَ بغدادَ بعدَ فـترةٍ من القلقِ النفسيِّ الـذي وصلَ بهِ إلى درجةِ الخطورةِ.

لقد فكَّـرَ في أحوالهِ فـإذا هو منغمسٌ في تفاهاتِ الأمورِ وقـد أحدقتْ به من كلِّ جانبٍ، وفكّرَ في التدريسِ فوجدَ نيتَهُ غيرَ خالصةٍ، وأصبحَ التفكيرُ بالخروجِ من بغدادَ يـزدادُ عليه إلحاحاً، ولكنْ بينما كانَ منادي الإيمانِ ينادي الرحيلَ الرحيلَ، كانت شهواتُ الدنيا تجذبهُ بسلاسلهـا إلى المقامِ، وبينما كانَ صوتُ الحقيقةِ يهتفُ فيه «لمْ يبقَ لديكَ مـن العمرِ إلا القليلُ فـإنْ لمْ تستعدَّ للآخرةِ الآنَ فمتى تستعدُّ»، كانَ الشيطانُ يثنيه عن ذلـكَ فيقولُ «هـذهِ حالٌ عارضـةٌ إياكَ أنْ تطاوعها فإنّها سريعةُ الزوالِ».

وهكذا بقـيَ الغزاليُّ متردداً بينَ تجاذبِ شهواتِ الدنيا ودواعي الآخرةِ ما يُقاربُ ستةَ أشهـرَ، حتى أصبحَ في وضعٍ لا يُحتملُ، فقدْ أُقفلَ على لسانهِ فلمْ يَعدْ يستطيعُ التدريسَ، وكانَ يجاهـدُ نفسـهُ لإرضـاءِ المجتمعيـنَ عنـده فلا يَنْطِقُ بكلمـةٍ، وأورثَهُ ذلكَ حزناً في القلـبِ، وضعفاً في الجسـمِ إلى أن قررَ الخروجَ منْ بغدادَ.

وقد وصفَ الغزاليُّ هذهِ التجربةَ النفسيةَ التـي مرَّ بها في «المنقذ» وصفاً أخاذاً قلَّ أنْ نَجدَ لهُ مَثيلاً في التاريخِ الفكريِّ، فكانَتْ من أهمِ التجاربِ الفكريةِ التي عرفتَها الإنسانيةُ في تاريخها الطويلِ.

وقدْ بقي الغزالي في عزلتِه الاختياريةِ أكثرَ من عشرةِ أعوامٍ يتنقلُ بينَ البلادِ الإسلاميةِ فيحجُّ ويـزورُ القدسَ، ويكتـبُ فصولاً منَ «الإحياء» في الجامعِ الأمويِّ بدمشقَ. وكانت هذه العُزلةُ غنيةً ثريةً، انتهتْ به إلى شاطئِ الأمانِ وقدْ حصَّلَ الكثيرَ منَ المعارفِ وقدرةً على التأملِ النفسيِّ، فاستطاعَ أنْ يُغيرَ مجرى حياتِه، وأن يقدمَ للإنسانيةِ عامةً وللملايينِ من مسلمي العالمِ خلاصةَ تلكَ التجربةِ.

وقدْ كانت المتعةُ التي عاشها الغزاليُّ في عزلتِـه ذاتَ أثرٍ كبيرٍ عليه حتـى إنَّه لمْ يعدْ يستعـذبُ الخروجَ منها، فمـا كادَ يعودُ إلى التدريسِ في نظاميةِ نيسابور بإلحاحٍ شديدٍ من «فخرِ الدولةِ»، حتى عادَ مرةً أخرى إلى عزلتـهِ راضياً، يقطعُ وقتَهُ بالعبادةِ ودراسةِ القرآنِ والحديثِ.

مِـنْ خلالِ هذهِ اللمحـاتِ السريعةِ عن حيـاةِ الغزاليِّ نستطيعُ أن نعـرفَ شيئاً من أسبابِ عنايته البالغةِ بدراسةِ النفسِ. فلقدْ فـاقَ اهتمامُهُ بها ما عهدَ به عندَ المتقدمين عليه، خاصةً وأنَّ معرفةَ النفسِ عندَهُ لمْ تعدْ

مُجرَّدَ معرفة نظرية ولكنها أصبحَتْ إضافةً إلى ذلكَ وسيلةً لتعديلِ السلوكِ والرقيِّ بالأخلاقِ والوصولِ إلى تكاملِ الشخصية.

لقد ألمَّ الغزاليُّ إلماماً واسعاً بكلِ النظرياتِ والمناقشاتِ التي دارتْ حولَ النفسِ سواء ما كانَ منها من مصدرٍ يونانيٍّ أو إسلاميٍّ. وسواء أكانَ الإسلاميُّ منها يُستَمَدُّ من القرآنِ والحديث، أو كانَ يعتمدُ على دراساتِ الصوفيةِ وآراءِ المتكلمينَ ونظرياتِ الفلاسفة.

يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ أبا حامد كانَ من الأوائلِ الذين نَحَوا لدراسةِ النفسِ نحواً موضوعيّاً، وذلكَ لأنّه ميَّزَ بينَ منهجينِ لدراسةِ النفس، منهجٌ يعتمدُ على النظرِ إليها كجوهرٍ روحيٍّ، ومنهجٌ يخرجُ عن نطاقِ الفلسفةِ والميتافيزيقيا إلى الوضعيةِ والموضوعيةِ وذلكَ حينَ يتعرضُ لنشاطِ النفسِ وأحوالها.

حتى تكتملَ صورةُ موضوع علم النفس عندَ المسلمينَ في أذهاننا لا بدَّ من معرفةِ مكانِ هذا العلمِ بينَ العلومِ الأخرى.. ويدعونا هذا أن نعرضَ بشكلٍ سريعٍ لتصنيفِ العلومِ عندَ المتقدمينَ على الغزاليِّ والتعرفِ على مكانةِ علمِ النفسِ لديهم.. ثم دراسةِ رأيه في الموضوع.

لقد كانَ التصنيفُ الشائعُ في الفلسفةِ اليونانيةِ هو تصنيفُ أرسطو الذي يقومُ على التمييزِ بينَ العلومِ النظريةِ والعلومِ العملية:

فالعلومُ النظريةُ تنقسمُ إلى الرياضياتِ والطبيعياتِ والإلهياتِ (ما وراء الطبيعة).

وكما تتفرعُ العلومُ أو الحكمةُ العمليةُ إلى علمِ الأخلاقِ، وعلمِ تدبيرِ المنزلِ وعلمِ السياسة.

ودراسةُ النفسِ عندَ أرسطو هي من موضوعاتِ علمِ الطبيعيات، وإنْ كانت العلومُ العمليةُ تتناولُ ما يجبُ أن يعملَهُ الإنسانُ كمركبٍ من نفسٍ وجسمٍ لينالَ السعادةَ وليعيشَ مع الآخرين.

وكانت النفسُ عندَ «الرواقيينَ» تُدْرَسُ في تصنيفٍ مشابهٍ لأن العلومَ عندَهم على أربعةِ أنواعٍ وهي:

الرياضياتُ والطبيعياتُ والإلهياتُ والأخلاقياتُ، وعلمُ النفسِ هو من فروعِ الطبيعيات.

أمَّا جابرُ بنُ حيانَ فقد حاولَ أن يخرجَ على هذا التصنيفِ التقليديِّ فميَّزَ بينَ علومِ الدنيا وعلومِ الدينِ، وصنَّفَ علومَ الدنيا إلى شريفةٍ ووضيعةٍ، كما صنَّفَ علومَ الدينِ إلى شرعيةٍ وعقليةٍ، فمنَ العلومِ الشرعيةِ ما هو ظاهرٌ وباطنٌ، أمَّا العلومُ العقليةُ فهي على نوعينِ: علومُ الحروفِ

كعلمِ الطِّبِّ والروحانيات، وعلومُ المعاني وهي العلومُ الفلسفيةُ والإلهيةُ. الأولى منهما تتناولُ الطبيعةَ، والثانيةُ تتناولُ المجردات، وقد وضعَ علمَ النفسِ الناطقةِ بين العلوم الإلهية.

أمَّا الكِنْديُّ فقد تبنى التصنيفَ الأرسطي وذلك في رسالتهِ إلى المعتصم بالله وقال بالعلوم النظرية والعلوم العملية ووضعَ علمَ النفسِ في المرتبةِ التي وضعها فيها أرسطو من قبلُ.

وقدْ حاولَ الفارابي أن يُقدمَ أسلوباً جديداً لتصنيفِ العلومِ في رسالته «ما ينبغي أن يقدمَ قَبْلَ تَعلمِ الفلسفة» فميَّزَ بينَ العلومِ التي تبحثُ في الشيءِ العام لجميعِ الموجوداتِ كالعلمِ الإلهيِّ أو علمِ ما وراءِ الطبيعةِ، وبينَ العلومِ الجزئيةِ التي تختصُ ببعضِ الموجوداتِ مثلَ علمِ الطبيعةِ والهندسةِ والحسابِ والطب. لكنَّ هذا في الواقعِ ليسَ إلا شرحاً لمفهومِ العلمِ النظريِّ والعلمِ العمليِّ عندَ أرسطو، ولذلكَ فإننا نجدُ في رسالةِ «إحصاءِ العلومِ» ما يشبهُ تصنيفَ أرسطو مع إضافةِ علمينِ جديدينِ هُمَا علمَ الفقهِ وعلمِ الكلامِ أو علمِ اللسانِ، فأصبحتِ العلومُ عندَهُ على النحوِ التالي:

١- علمُ اللسانِ وأقسامُهُ.

٢- علمُ المنطقِ.

٣- علمُ الرياضياتِ.

٤- العلمُ الطبيعيُّ.

٥- العلمُ الإلهيُّ.

٦- العلمُ المدنيُّ.

٧- علمُ الفقهِ.

وكانتْ دراسةُ النفسِ تقعُ في العلمِ الطبيعيِّ مع شيءٍ منَ الصلةِ بالعلمِ الإلهيِّ الذي يبحثُ في العقولِ المفارقةِ التي لها صلةٌ بالنفسِ من حيثُ صدورها عنها، أو من حيث تلقي الحقائقِ بوساطتها.

ويتعرضُ ابنُ سينا لهذا الموضوعِ في مواضعَ عدة، ففي رسالةِ «عيونِ الحكمة» يتبنى التصنيفَ الأرسطيَ تماماً، أمَّا في «منطقِ المشرقيين» فإنه يصنفُ العلومَ على الوجهِ التالي:

- علومٌ جزئيةٌ لا يصحُ أن تجريَ أحكامُها الدهرَ كلَه.

- علومٌ كليةٌ متساويةُ النسبِ إلى جميعِ أجزاءِ الدهرِ، وهذه هي التي تسمى حكمةً، ويشبهُ هذا كلامَ الفارابي في «ما ينبغي أنْ يقدمَ قبلَ تَعلُّمِ فلسفةِ أرسطو»

والحكمةُ تنقسمُ إلى:

١- أصولٍ.

٢- توابعَ.

٣- فروع.

أمَّا الأصولُ فهي آلةُ العلم «المنطق»، وأمَّا العلمُ نفسهُ فينقسمُ إلى عمليٍّ ونظريٍّ.

والقسمُ النظريُّ يقسمُ إلى أربعة فروع:

١- **العلمُ الطبيعيُّ** الذي يدرسُ الأمورَ المخالطةَ للمادةِ ومنها دراسةُ النفس.

٢- **العلمُ الرياضيُّ** الذي يبحثُ في الأمورِ المخالطةِ للمادةِ عموماً لا لمادةٍ معينة.

٣- **العلمُ الإلهيُّ** وموضوعهُ المعقولاتُ التي لا تخالطُ المادةَ أصلاً ومنها العقولُ الفعَّالةُ.

٤- **العلمُ الكليُّ** الذي يخالطُ المادةَ أو يتجردُ عنها مثل الوحدةِ والكثرة.

في حينَ أنَّ غايةَ العلمِ العمليِّ هيَ الخيرُ، وينقسمُ هذا العلمُ إلى ثلاثِ شعب:

١- **الأخلاقُ** وتتناولُ ما يجبُ أن يكونَ عليه الإنسانُ في نفسه.

٢- **تدبيرُ المنزلِ** الذي ينظرُ إلى الإنسانِ في الأسرة.

٣- **السياسةُ** وهي علمُ تدبيرِ المدينة.

هذا إضافةً إلى علمٍ خاصٍ يضيفهُ على علومِ أرسطو وهو علمُ النبوة.

وتكونُ دراسةُ النفسِ من موضوعاتِ الطبيعياتِ كما رأينا.

أمَّا الغزاليُّ فإنَّهُ كعادته يستفيدُ من آراءِ المتقدمينَ ويُعطيها صوراً أقربَ إلى الرؤيةِ الإسلامية. وقد وردَ ترتيبُ علمِ النفسِ عندهُ على صورتَين:

١- **الصورةُ الأولى**: أخذَ فيها بآراءِ الفلاسفةِ في تصنيفِ العلومِ وذلك في «المقاصد» و«المعارج». فالعلومُ عمليةٌ ونظريةٌ.. وهكذا إلى آخرِ التصنيفِ المعروف، ومكانُ النفسِ يقعُ بينَ العلومِ الطبيعية. ويحتفظُ بما يشبهُ هذا التصنيفَ أثناءَ عرضهِ لمذاهبِ الفلاسفة في «المنقذ»، إلا أنَّهُ حينَ يتعرضُ لانتقادهم يشيرُ إلى أنَّ الحديثَ عن ماهيةِ النفسِ وخلودها من موضوعاتِ العلومِ الإلهية.

٢- **الصورةُ الثانيةُ**: وقد فصَّلَ فيها بينَ دراسةِ النفسِ كماهيةٍ وجوهر، وبينَ دراسةِ أحوالها وصفاتها. وهذا ما يظهرُ واضحاً في تصنيفهِ للعلومِ في «الإحياء» الذي يمثلُ المرحلةَ الناضجةَ من حياته الفكرية حيث تبدو نزعتهُ التوفيقيةُ بينَ مختلفِ الاتجاهات.

وقد عرضَ الغزاليُّ لتصنيفِ العلومِ في «الإحياء» في ثلاثةِ مواضعَ:

أولاً- في الموضعِ الأوَّلِ منها صنفَ العلومَ إلى:

أ- علومِ مكاشفةٍ، يقصدُ منها كشفُ المعلومِ فقط.

ب - علوم معاملة ويعني بها «ما يُطلبُ منهُ مع الكشفِ والعمل به».

ثانياً- في موضعٍ آخرَ من «الإحياء» نجدُ تصنيفَ العلوم على النحوِ التالي:

أ - العلومُ الشرعيةُ.

ب - العلومُ العقليةُ.

والعلومُ الشرعيةُ كلُّها محمودةٌ ومطلوبةٌ ولكنْ قدْ يختلطُ فيها ما يلتبسُ أنَّهُ ليسَ شرعياً.

وهذهِ العلومُ على أنواعٍ أربعة:

١- أصولٌ: تبحثُ في كتابِ اللّه، وسنته، والإجماع، والآثار.

٢- فروعٌ: تتناولُ ما فُهِمَ من الأصولِ من معارفَ تتسعُ لها العقولُ، مثلَ الفقهِ وهو العلمُ بمصالحِ الدنيا، وعلمُ أحوالِ القلبِ وهو العلمُ بمصالحِ الآخرة.

٣- مقدماتٌ: تدرسُ آلاتِ العلمِ كاللغةِ والنحو.

٤- متمماتٌ: إذ إنّ لكلِ علمٍ من العلومِ السابقةِ ما يتممُها كعلومِ القرآنِ التي تتمُّ العلمَ بكتابِ اللّهِ وهو منْ فروعِ الأصولِ كما رأينا.

والملاحظُ أنَّ الغزاليَ هنا لا يعرضُ لدراسةِ النفسِ إلا على أساسِ نشاطِها وأحوالِها.

ثالثاً- ويعرضُ لمثلِ هذا التصنيفِ في مكانٍ آخرَ من «الإحياء» فيقول:

إنَّ العلومَ شرعيةٌ وعقليةٌ.

والعلومُ العقليةُ نوعانِ: ضروريةٌ ومكتسبةٌ.

أمَّا العلومُ المكتسبةُ فتتشعبُ إلى فرعينِ: دنيويةٌ كعلومِ الطبِّ والحسابِ والهندسةِ والنجومِ. وأخرويةٌ وتشملُ العلمَ باللّهِ وصفاتِه وأفعالِه والعلم بأحوالِ القلبِ.

وهكذا تكونُ دراسةُ نشاطِ النفسِ هنا في نطاقِ العلومِ الأخرويةِ التي هي قسمٌ من العلومِ العقلية.

وقد يُظنُّ أنَّ هناكَ تناقضاً بين هذا التصنيفِ والتصنيفِ السابقِ، حيثُ كان محلَ دراستها بينَ العلومِ الشرعيةِ إلا أن هذا الالتباسَ يزولُ حينَ نتذكرُ أنه قد أشارَ في تصنيفِه السابقِ إلى وجودِ علومٍ قد يُلْتَبسُ أنها ليست من العلومِ الشرعيةِ وذكرَ منها علمَ أحوالِ القلبِ.

وهكذا نجدُ أن دراسةَ النفسِ عندَ الغزالي في كتاباتِه الأخيرةِ موزعةٌ على علمينِ:

أولاً- علمُ المعاملةِ الذي يدرسُ فيه النفسَ أثناءَ فعالياتِها ونشاطِها تحتَ عنوانِ «العلمُ بأحوالِ القلبِ».

ثانياً- علمُ المكاشفةِ الذي يدرسُ فيه النفسَ على أنها أشرفُ جزءٍ من جواهرِ الإنسانِ تحتَ عنوانِ «العلمِ بحقيقةِ القلبِ».

ولا شكَ أن هذا يتفقُ تماماً مع عقلية الغزاليِّ التي تقومُ على التأليفِ بين الآراءِ والتي يبدو فيها مجدِّداً في كثيرٍ من الأحيان.

وختاماً فإننّا نجدُ أن العلماءَ العربَ والمسلمينَ قد ساهموا مساهمةً فعّالةً في التأسيسِ لعلمِ النفسِ العربي إلا أن رائدَهمْ وأبرزَهمْ كان أبو حامد الغزالي. لقد كانَ الغزاليُّ مجدداً في تفصيلهِ لموضوعِ علمِ النفسِ، فاستطاعَ أن يخرجَ بدراسةِ النفسِ عن المحورِ الذي كانت تدورُ فيه إلى محورٍ جديدٍ يبدو أقربَ إلى الوضعيةِ والموضوعيةِ. كما كانَ مجدداً في طريقةِ دراسته للنفسِ، ويبدو هذا التجديدُ خاصةً في بحثِ النشاطِ النفسيِّ وأحوالِه، حيثُ كانَ يعتمدُ على التأملِ والملاحظةِ وتحليلِ السلوكِ. كما توسَّعَ في البحوثِ التي تتعلقُ بدراسةِ علمِ النفسِّ العامِ، فقدَّمَ تصنيفاً للحوادثِ النفسيةِ، وفصَّلَ في موضوعِ الحياةِ النزوعيةِ والوجدانيةِ مما أهملَهُ الكثيرونَ. وكذلك فقدْ تميزَ الغزاليُّ عن غيرِه في بحوثِه الأخلاقيةِ، ووسائلِ تعديلِ السلوكِ، واستعمالِ الشعورِ الدينيِّ كعاملٍ في انسجامِ الشخصيةِ وتكاملِها، إلا أنه بقيَ في بعضِ أبحاثِه المتعلقةِ بدراسةِ النفسِ كماهيةٍ أو كجوهرٍ قائمٍ بذاتِه، مقلداً للدراساتِ اليونانيةِ، وأنَّ تجديدَهُ في هذه البحوثِ يبدو محاولةً للتوفيقِ بين الثقافاتِ والمصادرِ المختلفةِ ولا سيَّما اليونانيةُ، وإضفاءُ الطابعِ الإسلاميِّ عليها.

أهم المراجع

١- الأهواني أحمد فؤاد، أسرار النفس، القاهرة ١٩٥١م.
٢- جواشون: فلسفة ابن سينا، ترجمة رمضان الأوند، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٠م.
٣- بدوي عبد الرحمن، الأفلاطونية المحدثة عند العرب، القاهرة ١٩٥٥م.
٤- دو بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٤م.
٥- شيخ الأرض تيسير، الغزالي، دار العلم للملايين، بيروت ط١.
٦- الغزالي: إحياء علوم الدين، طبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٥٧م.
٧- الغزالي: مقاصد الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة دار المعارف ١٩٦١م.
٨- الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، القاهرة ١٩٦٢م.
٩- فاخوري حنا وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، دار المعارف، بيروت.
١٠- قاسم محمود: في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق الإسلام، القاهرة ١٩٥٤م.
١١- مروة حسين، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ج١، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٨م.

ابن رشد
بين الغزالي والأكويني

محمد جدوع ✪



تصبو الدراسة -وبعجالة- أن تنضو الحجاب، وتسلط الضوء على خصومات فكريّة/ سياسيّة، غير متجايلة، ولكنها متوحدة في المبتغى والمقصد، ظاهرها فلسفي، ودافعها لاهوتي بحت، وهدفها الحفاظ على السياسة الدينيّة المبتغاة - وقتذاك - قطب الرحى في هذه الخصومات (ابن رشد ١١٢٥-١١٩٨م) وفلسفته، وطرفاها (الغزالي ١٠٥٩-١١١٠م) وتهافتاته، و(الأكويني ١٢٢٥-١٢٧٣م) وتفنيداته، وقد اجتمعت أطروحات الاثنين (الغزالي والأكويني) حول أمور[1] لاهوتية بحتة، تثير الخلاف أكثر ما تحقق الائتلاف وتتمحور هذه التهم في

✪ باحث وناقد من سورية

العمل الفني: الفنانة منى القداد.

عشرين مسألة نذكر منها ثلاث مسائل هي:

- مسألة قدم العالم وحدوثه.
- مسألة أن الله يعلم الكليات ولا يعلم بالجزئيات.
- مسألة النفس وحشر الأجساد والعقاب الأخروي.

ألّف الغزالي كتابه (تهافت الفلاسفة) ليس دفاعاً عن تلك المسائل، بقدر ما هو شهية الدفاع عن المذهب السني الرسمي[٢] الذي اعتمدته الخلافة العباسيّة في عهد الخليفة (المستظهر بالله) وهو ما أعلنه بقوله: (رأيت الامتثال حتماً، والمسارعة إلى الارتسام حزماً) ضد من؟ - ضد فلسفتي (الفارابي وابن سينا) عندما اعتمدت عليهما الدعوة الإماميّة للدولة (الفاطميّة) التي تمددت من شمال أفريقيا وتمركزت في القاهرة، وتمددت إلى بلاد الشام وصولاً إلى الموصل، بعدما اتخذت من القاهرة عاصمة لها.

أمّا (الأكويني) فقد شنّ هو الآخر[٣] هجوماً عنيفاً على اللاهوتيين - وقتذاك - من أتباع القديس (أوغسطين) الذين يتبنون فلسفة (ابن سينا) في (الفيض الإلهي)، وفلسفة الفارابي في (المدينة الفاضلة) إذ رأى أتباع (القديس أوغسطين) أن آراء الفارابي تؤيد بالدليل البرهاني ما ذهب إليه (أوغسطين) في كتابه (مدينة الله) والتي تنضوي وتتطور بـ (العناية الإلهيّة)، وقد حقق (الأكويني) نجاحاً كبيراً في تفنيد تلك المقولات من خلال كتابه (الخلاصة اللاهوتيّة)، كما صوّب هجومه إلى فلسفة الديانتين (اليهوديّة والإسلاميّة) عبر كتابه (الخلاصة ضد الأمم) مستنداً إلى العهد القديم (التوراة) فيما يخص (اليهوديّة) وإلى العقل فيما يخص (الإسلاميّة)، وبعد أن حقق نجاحه هذا التفت إلى فلسفة (ابن رشد)، عبر قراءته المتأنيّة لفلسفة (أرسطو)، وخلّص (أرسطو) من أشياعه الذين أساؤوا إلى فلسفته، وحقق نصراً كبيراً على فلسفة ابن رشد وأتباعه، ومع بعد المسافة الزمنيّة ما بين (الغزالي والأكويني) إلا أنهما التقيا في مسألتي (التحريم والتجريم)، فالأوّل نفّر وكفّر، والثاني حرّم وجرّم، ومما يميز (الأكويني) عن (الغزالي) أنه بمحاربته للاهوتيين أتباع فلسفة (ابن سينا) في (الفيض والإشراق) وتصديه لفلسفة (ابن رشد) التي تبنتها معظم جامعات أوروبة -آنذاك- وتبنيه لفلسفة (أرسطو) من دون فلسفة شارحه (ابن رشد) وهو موقف ينم عن تعصب معرفي/أبستمي تجلّت مقولاته فيما يُعبّر عنه في (المركزيّة الأوروبيّة)، وتترسم معالمه الآن ٢٠١٢م في مقولة لـ (فوبيا) الإسلاميّة.

ابن رشد وفلسفته:

يعتبر القاضي الفيلسوف، والفقيه (محمد

ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد[٤] بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد) فقيهاً (مالكياً) مجدداً، وفيلسوفاً مبتكراً أكثر منه شارحاً وقاضياً عادلاً، أكثر منه رجل سلطة مهادناً، فمع اختلافه مع (الفارابي ت٩٥٠م) وفلسفته، ومدينته الفاضلة التي يعتبر مدبرها – رئيسها: (شبيهًا بالسبب الأوّل الذي به وجود سائر الموجودات.. وهو رئيس المعمورة كلها، لا يجوز أن يكون فوقه رئيس) هذه المقولة التي تبنتها الدولة الفاطميّة، هزّت أركان الخلافة العباسيّة، في عهد الخليفة (المستظهر) ولاسيما السلطان السلجوقي (ملك شاه) ووزيره (نظام الملك)، فجندت الإمام (الغزالي) في الرد على فلسفتي (الفارابي) و(ابن سينا ت١٠٣٧م) والتي بموجبهما[٥] يصبح الحاكم/الإمام (يملك خواص النبي بما فيها العصمة الذاتيّة، وهو حاكم مطلق عليه أن يسن الشرائع ويقيم العدل)، ففي كتابه (تهافت التهافت) لا يتفق مع آراء الفارابي فيما يخص مدبر المدينة الفاضلة، كما يفند خطل نظريته (الفيض والإشراق) لـ(ابن سينا)، مبيناً أن العصمة الإلهيّة لم تكن إلا للأنبياء، وما سواهم بشر يخطئون ويصيبون، ومع أن (ابن رشد) من حيث أتباع المذهب – المالكي– السني أقرب إلى الغزالي الذي يتبنى المذهب السني/الأشعري، إلا أن سعة صدره للاختلاف وقبول الآخر، وحيدته العلميّة، أملت عليه الرد على (الغزالي) الذي اتهم الفلاسفة بالمروق من الدين وخاصة (الفارابي وابن سينا) في كتابه السالف الذكر (تهافت الفلاسفة) ومع عدم تبني ابن رشد فلسفة الاثنين (الفارابي وابن سينا) إلا أنه تصدى للغزالي واتهاماته في كتابيه (تهافت التهافت) و(فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال) مبرهناً في دفاعه عن شيخي الفلسفة الإسلاميّة (الفارابي وابن سينا) أنه رجل (الفضيلة العلميّة والأخلاقية) التي تلزم الإنسان تحري الحق والحقيقة[٦] عند أي مذهب أو شخص كان دون (مداراة أو مسايرة/ أو ممالأة..)، كما يقول، ولأن مآخذ الغزالي على الفلاسفة في المسائل الثلاث الآنفة الذكر لا يوجد عليها إجماع، ولأن العلم الإلهي لا يقاس على العلم البشري، ففي رأي ابن رشد: (لا يجوز تكفيرهم) لأن المذاهب – حسب رأيه: (لا تتباعد حتى يكفر بعضها بعضاً) كما يؤكد أن القراءة التأويليّة للنص المقدس (القرآن الكريم)، لا يُحمّل المؤوّل وزر قراءته وهو ما أقر به الغزالي ومعلمه وأستاذه الإمام الجويني – أبو المعالي – ويرد على الغزالي مورداً رأيه في هذا الصدد: (قال أبو حامد –الغزالي– وأبو المعالي، وغيرهما من أئمة النظر: أنه لا

يُقطع بكفر من خرق الإجماع في التأويل في أمثال هذه الأشياء- يعني المسائل الثلاثة)، لماذا؟ لأن التأويل بنظره هو: (إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يُخلّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه..) وفي عصرنا الراهن[٧] يؤكد (غادامير) المعنى ذاته من أن التأويل: (محاولة معرفيّة.. ينتج يقينياته بنفسه دونما حاجة لعلة أو معلول).

وموقف (ابن رشد) المستقيم لا يتمثل في الفلسفة والفكر، وإنَّما في السياسة كذلك فقد ناهض الاستبداد على الرعية من المتنفذين والحاكم على حد سواء، وهو ما جلب عليه النقمة المتمثلة في الإقصاء والنفي، بعد الحظوة والجاه. إذ نفذ الحساد من بطانة السوء إلى أنه أوصى بإخفاء بعض التأويل على العامة، متهمينه بالخروج عن ظاهر النص بما يضمره من تأويل تخالفه، وهذا الموقف - بنظرهم - يفضي إلى الخروج عن جادة الصواب في المعتقد، لكن الموقف الأساس من إقصاء (ابن رشد) هو ما كتبه تعليقاً على مقولات (أفلاطون) في كتابه (الجمهوريّة)، ففي الفصل التاسع يعلق ابن رشد على الحاكم الطاغية(٨) واصفاً إياه بـ(وحداني التسلط) بقوله: (عندما قبل الناس رئاسته لهم استبد بالأمر وتفرد بالقرار..)

وهذا الواقع ينطبق -وقتذاك- على (المنصور) ابن الخليفة الموحدي المتنور (أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن)، فعندما قتل في معركة (شنترين) أخفى ولده -المنصور- خبر وفاته عن أخوته والمقربين منه إلى أن رتب الأمور وأخذ البيعة لنفسه واستبد بشؤون البلاد والعباد، وعمد -حسب قول ابن رشد إلى: (استعبادهم والاستيلاء على عتادهم وآلة أسلحتهم فيصير حال الجماعة معه كالمستجير من الرمضاء بالنار) كما يقول المثل، وهذه (الأعمال جميعاً هي من أعمال رئاسة وحدانية التسلط.. وهي شيء بيّن في أهل زماننا، هذا ليس بالقول فحسب، ولكن أيضاً بالحس والمشاهدة). هذا الموقف من الحاكم (المنصور) هو الذي ألّب السلطة وجر عليه النقمة والنفي والإبعاد، كما تسبب في إحراق كتبه، ولولا النسخة العبريّة من كتاباته لضاع فكر هذا الفيلسوف الفذ.

فلسفة ابن رشد:

تتجلى أهمية الفلسفة الرشدية - على الرغم من ولادتها منذ ثمانية قرون- إلا أنها ما تزال تحتفظ براهينيتها لواقعنا المتشتت المتشرذم، الذي يعيش المحن، جراء الإحن النابعة من نظرات ضيقة الأفق يتحول واقعنا، بفعلها، إلى قبائل هائمة متحاربة ومتغازية، وإلى طوائف متناحرة تستقوي

بالآخر/الخارج ضد بعضها بعضًا، أو إلى كيانات متنافرة وزائلة.

والفلسفة الرشدية بعقلانيتها وموضوعية صاحبها تعيدنا إلى جادة الصواب، فابن رشد بمواقفه وفلسفته التي جعلت منه، رجل علم يقتدى، ورجل قضاء يحتذى، على عكس رجال الدين، وقتئذاك، المذعنين لرغبة السلطان والذين اتخذوا من الدين وليجة لمطامعهم واصفًا شنيع أعمالهم، وسوء فتاواهم بقوله:

أهل الرياء لبستمو ناموسكم
كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتمو الأموال بابن قاسم

كما يعتبر ابن رشد من أكثر الفلاسفة انتصاراً للنساء وإشادة بقدراتهن: (إنهن والرجال من نوع واحد في الغاية الإنسانية.. وإنهن بالضرورة يشتركن وإيَّاهم في الأفعال، وإن اختلفن عنهم بعض الاختلاف).

أمَّا ثالوث الفلسفة الرشدية[٩] فيتأسس على:

- **وحدة العقل الإنساني**: وهذه المقولة تؤسس لحوار الحضارات لأنه أفتى بأخذ علوم الأوائل بغض النظر عن معتقداتهم، لأن الحكمة (ضالة المؤمن) ينشدها أينما كانت وهذا القول يجعل من ابن رشد رائد دعاة الوحدة الإنسانية، ويؤهله لأسبقية الدعوة لـ(تثاقف الحضارات) لا صراعها، لأن الحضارة الإنسانية ملك للبشرية جمعاء، وليست حكراً على أمة أو شعب من الشعوب.

- **وحدة الحقيقة**: ويؤيدها قوله (إن الحق لا يُضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له)، ولأن الشريعة – الدين – حق والفلسفة حق لأن: (الحكمة هي صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة)، وفي حال اختلاف ظاهر الشريعة مع الفلسفة فبنظره يُلجأ إلى التأويل: (كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع.. فإن الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي).

- **حرية الإرادة الإنسانية**: أنقذ ابن رشد المسلمين من المقولة الجبرية: (الإنسان مسيّر لا مخيَّر)، هذه المقولة أغضبت الإرادة وشلت الفكر، وأسلمت الإنسان إلى حالتي التواكل واللامبالاة.

أمَّا ابن رشد فيرى (أن إرادة الإنسان لا تتعارض مع إرادة الخالق وفعله المطلق، ويرد على الجبرية بقوله: (تقتضي.. المسؤولية والجزاء والثواب والعقاب يتطلب أن يكون الإنسان يفعل بحرية واختيار.. غير أن قوماً رأوا أن ذلك يتعارض مع القول بإرادة الله المطلقة.. ولذاك سلبوا الإنسان الحرية والإرادة وهم مجبرة).

توما الأكويني حُجَّة لاهوتية وموسوعة فلسفيَّة: يعتبر (الأكويني) الداعية الأساس

لترسيخ السلطة البابويّة بعد أن تخطت[10] الكنيسة الكاثوليكيّة مرحلة (الدفاع) مروراً بمرحلة (الإصلاح)، وانتهاءً بالمرحلة (الهجوميّة) التي مثلها (الأكويني) فيما عرف بنظام (إمرة الأمراء) على غرار التسميّة التي أطلقها (الماوردي) في كتابه (الأحكام السلطانيّة)، إلا أن هذه التسميّة تعني في الغرب تولي (البابا) السلطتين السياسيّة (الزمانيّة) والسلطة الروحيّة، ويستتبع هذه المقولة خضوع الشعب المسيحي لسيادة البابا، كما (يخضعون لسيدنا المسيح ذاته) حسب قول (الأكويني).

سيرة الأكويني العلميّة: ولد الأكويني[11] عام (١٢٢٥م) في قصر (روكاسيكا) - الصخرة اليابسة في مدينة (أكوينو) الواقعة بين (روما) و(نابولي)، وينحدر من أسرة نبيلة وأرستقراطيّة أنجبت الكثير من الحكام والقادة العسكريين، بما فيهم والده الذي حكم مدينة (أكوينو) في عهد (فردريك الثاني) ملك صقلية.

درس اللاهوت على يد الرهبان (البندكتين) في دير مدينة كاسنو) كما تابع تعليمه اللاهوتي والفلسفي في (نابولي) على الرهبان (الدومنيكان)، غادر بعدها إلى (باريس) و(كولونيا) في ألمانيا - بروسيا آنذاك - ثم قفل إلى (باريس) لمتابعة الدرس والتدريس إلى أن نال لقب (أستاذ) في اللاهوت عام ١٢٥٦م، وفي عام ١٢٥٩م غادر (باريس) إلى روما وأسندت له مهمة التدريس في البلاط البابوي، وتعرّف على شخصيّة العصر -وقتذاك- (البرتوس) الذي كان حُجّة علمية ومرجعاً لاهوتياً وفلسفياً، كما تعرف على المترجم[12] (غليوم موريكا) الذي ترجم لأرسطو، وعندما تفشت الفلسفة (الرشديّة) في معظم الجامعات الأوروبيّة وعلا شأن اللاهوتيين (أتباع القديس أوغسطين) أوكل البابا مهمة التصدي (للرشديين واللاهوتيين) على حدٍ سواء إلى (الالبرتوس)، إلا أن الأخير أوكل المهمة إلى (توما الأكويني) الذي قام بالمهمة خير قيام من خلال كتابيه (الخلاصة اللاهوتيّة) و(الخلاصة ضد الأمم) كما مرّ سابقاً، وبعد مشادات وخصومات جداليّة فكريّة نجح (الأكويني) في التقليل من شأن (الأوغسطينيين) كما استطاع الحصول على أمر كنسي في تحريم دراسة وتدريس الفلسفة الرشدية بدءاً من عام ١٢٦٠م، ومع نجاح (الأكويني) في تحريم (الرشدية) إلا أنه ساهم من حيث لا يدري في تأخر أوروبة للوصول إلى عصر (التنوير) مدة تصل إلى أكثر من (٥٠٠) عام ومع ذلك يعتبر (الأكويني) قامة فلسفية هامة في الفكر الأوروبي، وشخصية روحيّة بلغت مرحلة التقديس (التطويب) لما

قدَّمه للكنيسة الكاثوليكيّة من سند حجاجي هي في أمس الحاجة إليه، آنذاك.

وآخر القول: إن ما يجب الاقتداء به من مواقف (ابن رشد) هو عدم الانجرار وراء الدعوات الظلاميّة التكفيريّة، والتخندق وراء المذهبيات التي تفرق ولا تجمع، وتشرذم المواقف، من خلال دعاواها الضيقة التي تتمترس وراء مقولات ضيقة الأفق تهدد وحدتنا الوطنيّة، وتصرف جهودنا عن العدو الرئيس الكيان الصهيوني الغاصب، كما أن معارضة أنظمة الحكم يجب أن تنطلق من الحرص على مصلحة الوطن والأمة دونما الارتماء بأحضان الخارج الذي ينظر لمصالحه ليس إلا، كما أن التمترس وراء التقسيمات البائدة (العشائريّة - الإقليميّة والطائفيّة) تعيدنا إلى عصر الخرافة في الوقت الذي تحقق فيه شعوب وأمم المعمورة الوصول إلى (مجتمع المعرفة) مع أن ظروفها الاجتماعيّة والاقتصاديّة مثل ظروفنا لا بل أسوأ منها، ومع ذلك حققت نتيجة وحدتها الوطنيّة - أرقى المستويات المعرفيّة مثل (الهند والبرازيل) وقبلهما (النمور الآسيويّة) فهل من صحوة ولو طال زمن انتظارها وتحققها؟!!..

المصادر والمراجع

١- توما الأكويني - دراسة ط١ - ميخائيل ضومط - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٥٦م.

٢- فصل المقال - في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال - ابن رشد - تقديم وتحليل - محمد عابد الجابري- ط١- مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٧م.

٣- المصدر الأول ص: ١٦ وما بعد.

٤- ابن رشد، سيرة وفكر، دراسة ط١ - د. محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٨م.

٥- فلاسفة من الشرق والغرب، دراسة - ط١ - مصطفى غالب - منشورات حمد - بيروت - ١٩٦٨م.

٦- المصدر الثاني - ص: ٦٣ وما بعدها.

٧- مجلة كتابات معاصرة - ع٧٢ - م١٨ (نيسان - أيار) - بيروت ٢٠٠٩م.

٨- المصدر الرابع - من ص: ٦٤ - ٧١.

٩- تاريخ الفكر الأندلسي - دراسة ط١ - أنخل بالنثيا- ت: حسين مؤنس - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٥م.

١٠- تاريخ الافكار السياسية - دراسة: جان توشار - ت: ناجي الدراوشة - م: علي الخش - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨٤م.

١١- المصدر الأول ص:٢٠- ٤٠.

١٢- المصدر السابق ص: ٦٥ وما بعد.

الهندوسية وآلهتها الكثيرة وإلهها الواحد

ترجمة وإعداد: وفيق فائق كريشات*

قـال: «أجل، لكن، يـا ياجْنيافالْكيا، كم الآلهة؟» «ثلاثة وثلاثون..» قال: «أجل، لكن، يا ياجنيافالكيا، كم الآلهة؟» «واحد!»
أوبانيشاد بريهادارانياكا ٣، ٩، ١

في الترجمـات الإنكليزيـة تُنقل ألفاظ سنسكريتيـة مختلفة تبلغ نحو عشرين لفظاً بلفظ إنكليزي واحد هو god «إله». فلننظر في بعض هذه الألفاظ كي نجد كيف للهندوس أن يجمعوا بين الآلهة الكثيرة وبين الاعتقاد بإله واحد.

الديفات الفيدية(١)

حـين تتحـدث الأعمـال الإنكليزيـة الموضوعـة في الدين الفيدي عن آلهة فإنّها تستعمل هذا المصطلح بوصفه ترجمة للفظ الفيدي ديفـا deva أو ديفاتـا devata.

ويدخـل في عداد ذلك الآلهـة الأحد عشر السماوية والآلهة الأحد عشر الجوية، والآلهة الأحد عشر الأرضية. لقد فوجئ فـ ماكس مولـر حتّى الذهول بهذه الحقيقة البينة ألا وهـي أنّه في عدد من الترانيم الفيدية يُثنى على ديفـا المخاطب في الأنشـودة بوصفه الواحد دون غيره، والأعلـى والأعظم، وأنّ ذلك الثناء لا يخص به ديفا واحد دون غيره، بل يطلق على ديفات شتى في ترانيم شتى. لم يكن هذا الأمر موافقاً للمفهوم الكلاسيكي وهو الإيمان بآلهة كثيرة polytheism من أجل ذلك نحـت مولر مصطلحاً جديداً هو الإيمان بإلـه واحد(٢) henotheism (من اللفظ اليونـاني hen(os) ومعناه «واحد») لتمييـز هـذا الدين مـن الإيمـان بالإله الواحـد(٣) monotheism دين الكتاب

* كاتب ومترجم سوري.

المقدس الذي جاء به الوحي. ليس ديفا الهندوسي هو الله. في كثير من الأحوال تجوز ترجمة ديفا ترجمة فضفاضة بلفظي «كائن إلهي». معنى لفظ ديفا إيتمولوجياً[٤] هو «المُشرق، المحمود»؛ وعليه فإننا نجد لفظ ديفا يحيط بكل ماله شأن بما فوق الطبيعة: كل الأشخاص والصور والسيرورات والمشاعر والأنغام والكتب وبحور الشعر- كل ما يحتاج في تفسيره إلى أصل مفارق أو مكانه مفارقة- كله جميعاً يدعى، في هذا الموضع وذاك، ديفا أو ديفاتا. إنّ أفعال شتى أعضاء الجسم، والرموز والمقاطع الصوتية تفسر بوصفها ديفا. نجد في الدين الفيدي أنّ المصطلح قد استعمل على نحو مقيّد نسبياً، لكن حتّى هناك ليس لنا أن نسوّيه بلفظ إله، بل بالقوى مما فوق الطبيعة بالمعنى العام[٥].

لقد صار الأنثربولوجيون يعون أهمية ما في أديان القبائل من فكرة «القوة». حاول آر.إن.داندیکر أن يبين أنّ وراء العبادة الفيدية لديفا تقوم فكرة عن قوة قصوى تسري في الكل، لكل ديفا شركة فيها لكنها ليست مطابقة لها على التمام. وعلى ما ذهب إليه فإنّ أكثر الديفات الفيدية قد خُلقت من أجل الأساطير وليست الأساطير هي التي خلقت من أجل الديفات. وعليه فإنّ الميثولوجيا هي الأصل والديفات هي الفرع.

لقد كان للمدعوين ريشي[٦] المذكورين في كتب فيدا رسالةً فبلّغوها بصور خلقوا لها أشخاص ديفا ذات التعيين. وعلى هذا النحو لنا أن نعد الميثولوجيا الفيدية ميثولوجيا تطورية، وهذا ينطوي ضمناً على تغيّر في خصيصة كل ديفا بحسب الظروف المتغيرة. مما يميز متغير شخص ديفا في الأهمية هو الفاعلية الأساسية الباطنة التي ليست الديفات المفردة إلا تعابير لها وتجليات؛ النظير الفيدي لقوة مانا هو أسورا، وهو مشترك بين الكائنات بأسرها، وخصوصاً منها الديفات. ذلك هو أيضاً تفسير ما للديفات الفيدية من وجه شخصي إنساني عظيم التغير والمرونة. ندقق اللفظ فنقول إنّه ليس من بانثيون[٧] فيدي بالمعنى الذي للبانثيون اليوناني أو الروماني.

لم يكن للرائي الفيدي ما لأهل الزمان الحديث من وجهة نظر. مع أن «أَغْني» هو المصطلح الموضوع «للنار» بالمعنى الأكثر عمومية، فإنّ حقيقة أَغْني في العقل الفيدي الديني ليست هي مجرد السيرورة الكيميائية لكربنة المادة العضوية التي يقرنها علماء العصر الحديث بمصطلح النار. يرى ريشي في النار ديفا، أعني وجهاً مفارقاً يجعل «أَغْني» ملائماً للاستعمال من جهة ما هو تعبير فيه تلويح بشيء قائم وراء الحقيقة المادية التي تبحث الكيمياء الحديثة في أمرها.

أغني هو ديفا، وليس هو «تشخيصاً لظاهرة الطبيعة» كما كان يحلو للعلم الغربي في القرن التاسع عشر أن يصفها، بل هو تجلٍّ لقوة مفارقة. إنّ للحقيقة الفيزيائية للنار من البيان والضرورة ما يجعل الهندوسي لا يفكر في إقصائها إلى عالم روحاني؛ بيد أنّ فيها شيئاً محسوساً سوى ما تجده الحواس- يلهَم ريشي «رؤية» اللغز القائم وراء الواقع المرئي بأسره ويلهم التعبير عنه.

لم يعثر العلم الموضوعي على الديفات ولن يعثر على الله في الكون الفيزيائي؛ إنّ اكتشاف الحقيقة الإلهية التي فيه يحتاج إلى مرهف إدراك واحد من المسمين كافي، أعني الشاعر أو النبي.

بالتسليم إنّ ترانيم ريغ فيدا، بصورتها الحاضرة، هي نسخة قديمة منقحة عن نص أقدم منها، وبدوام الذكر لما قلناه آنفاً عن الخصيصة التطورية للميثولوجيا الفيدية، نرى من المقبول القول بأنه في كل مرحلة من مختلف مراحل الدين الفيدي كان يقوم في قلب هذا الدين ديفا بعد ديفا. في نص فيدا الذي في زماننا الحاضر نجد أنّ صاحب الصدارة فيه هو إندرا، وهو الذي قدِم إلى الدين الفيدي متأخراً ومن العسير تعيينه بدقة لاتخاذه ما لا يقل عن ثلاثة أدوار مختلفة: إندرا القوة الكونية، وإندرا القائد الحربي للآريين، وإندرا البطل القديم الأسطوري الذي قتل التنين.

إنّ الكتب الشعبية الموضوعة في الدين الهندي ما تزال تحمل الكليشيه من القرن التاسع عشر التي تقول بأنّ إندرا هو «تشخيص للعاصفة الممطرة» أو «إله الطقس»[٨]. بقطع النظر عمّا تنطوي عليه هذه الفكرة من خطأ في فهم طبيعة ديفا، فإنّ علينا أن نرفضها أيضاً بسبب أنّ «أكثر أوصاف إندرا تدور حول محاربة فريترا ونصره عليه. إنّ الفهم الصحيح لهذه النقطة سوف يتيح لنا، إذاً، نقطة ملائمة للشروع في دراسة نقدية لشخصية إندرا وخصيصته». التي تميط هذه الأسطورة اللثام عنه هو أن إندرا، بخلاف سماته الفردية، هو تجلٍّ للقوة الإلهية المخلّصة التي تهزم القوة الشيطانية الضدية.

في ريغ فيدا أكثر من ألف ترنيمة يُخاطب في نحو ربعها إندرا دون سواه. مع أننا لن نعالج جميع المسائل التي تحيط بطبيعة إندرا معالجة الاستيعاب، فإننا نستطيع أن نخرج بانطباع عن طبيعة الحب الفيدي لإندرا إذا استشهدنا بترنيمة واحدة يعبّر فيها عن عظمة إندرا. الألقاب التي تطلق على إندرا في هذه الترنيمة، ومنها ماغهافان، ماهافيرا، ديفا إكا، راجا هي صفات جوهرية من صفات الله العلي، هي

ألقاب تطلق على الله المخلص في الأطوار المتأخرة من الدين الفيدي. والحق، إنّ الترانيم تلوّح -وهي تصف شخصية إندرا- بوقائع تاريخية وشخصيات تاريخية، بيد أنّ العدد الإجمالي للصفات التي تطلق عليه هي أكثر من مجرد التمجيد لبطل محارب.

إنّ في قتل فريترّا على يد إندرا شيئاً سوى انتصار المحارب على عدوه، شيئاً يشي لنا بنفسه، على ما يظهر، ونحن نقرأ أنّ النتيجة كانت هي أنّ إندرا «قد أطلع الشمس للجميع كي يبصروا». إنّه عمل الله العلي أن «يلاحق عصبة الشياطين الأذلاء»، وأن «يحيط بالعالمين من كل الجهات»، وأن «يفصل بين النهار والليل».

الله العلي وحده هو الذي «تركع أمامه حتى السماء والأرض»، والذي «بلا عونه لن ينال الفتح شعبنا»، والذي هو «واهب الطعام والمال»، والذي هو «معين الإنسان في الكبر، والرجاء الذي لا يخيب، وصديق أصدقائنا، والغني بالمناقب العظيمة». إنّ سلطته بوصفه الله العلي قد أرسيت أخيراً بنصره على الشيطان الذي لم يكن يستطيع أن يهزمه بشر. إنّ الصفات التي تسبغ على إندرا إنما يصبح لها معنى إذا فهمناه كرمز لله العلي وتجلٍّ له[9]، ولا سيما أنّ نفس الصفات تسبغ على الديفات الأخرى، والمناقب نفسها تعزى إلى أغْني، وإلى سوما، وإلى فارونا وسواهم. «يدعونه إندرا، وميترا، وأغْني، وهو غاروتمان ذو الجناحين السماويين. إنّ الحكماء يسبغون ألقاباً كثيرة على الذي هو واحد.»

ليس إندرا إلا اسماً من الأسماء التي يدعى بها الله المخلص. في البدء كان الأعلى، ولم يتخذ اسم إندرا إلا في ظروف بعينها. الأعلى لا اسم له- الناس يطلقون عليه الأسماء، فيصفونه أوصافاً شتى بحسب الفئات المشتقة من الأفعال الكونية أو من التاريخ، أو من خبرتهم أنفسهم.

يبرز إندرا بوصفه قوة تنمو وتنمو بالقرابين والمانْترات[10]. إنّ الديفات أيضاً مفتقرة إلى الفانين: الدين طريق إلى القوة ذو مسلكين!

بعد إندرا يأتي أغْني من حيث عدد الترانيم التي يخاطب بها؛ إنّ له صلة وثيقة بتقريب القرابين وهذا أمر عظيم الشأن! إنّه المخاطب في أول ترنيمة في ريغ فيدا سامهيتا وبنحو مئتين غيرها. أغْني-النار[11] هو الواسطة التي تحول الهبة المادية للقربان إلى جوهر روحاني يكون للآلهة نصيب منه ومنه تستمد قوتها.

واحدة من الترانيم الجميلة التي تترك أكبر الانطباع يُخاطب بها سافيتري، «الملهم»، الشمس، الضياء، الذكاء، رونق الجمال.

إنّ السماء والأرض يترنّم لها كديفات؛

«الأرض الأم» أيضـاً تفرد بالذكر؛ المسمون ماروت، وهم الرياح العاصفة، هم زمرة من الديفات يتوسل إليهـا مراراً؛ الأنهار والمياه تظهـر بوصفها آلهــة؛ شراب سومـا ونبتة كوشا، الملازمان للقرابين، يذكران بوصفهما من الديفات.

ليست الديفات هي المثل الأخلاقية التي يُندب البشـر إلى احتذائها، ولا تعدّ مشرّعة للشرائـع[١٢]. تتحـدث الترانيم عـن ريّتا، «الشريعة»، فتفردها عن الديفات، فتجعلها قائمة بمعـزل عنها وفوقها كقوة فعالة غير شخصية ولا تقع في الخطأ. للفظ ريتا صلة بلفظ ريتو، الفصول، أعني الدورة المنتظمة مـن الربيـع والصيـف والمطـر والخريف والشتاء. عـدا هذا، لنا أن نفهم ريتا كمبدأ لنظام قائم وراء الأشياء والأحداث بأسرها. إنّ ريتـا يلقي بظلاله على نحو ما، على كل من كارمان وبراهمان المتأخرين.

يتوسـل إلى بضعـة ديفـات، ولاسيمـا ميـترا وفارونا، مـن جهة ما هـي أوصياء علـى الشريعة، لا خالقة لهـا. كذلك يُعتقد فيها أنها مَن يثيب على الخير ويعاقب على الشر. لقـد بيّن هـ.لويدرز أنّ فارونا كان في أصلـه هو المحيط الذي يطوق العالم[١٣]، وبه كانت تُعقـد الأيمان في الزمان السابق على التاريخ. في أثناء الحقبـة الهندية . إيرانية تطور مفهوم ريتا فصـارت هي «الحقيقة» من جهة ما هي قوة حاكمة. جُعل عرشها في المحيط وغدا فارونا الحافظ لها.

لقـد فقدنا الكثـير مـن مقدرتنا على تقدير الطبيعة مـن جهة ما هي رمز إلهي، وهـذا الأمر يجعل الكثير منـا غير قادرين على تقدير العبـادة الفيدية لديفا من غير استعمال الفئات المأخوذة من العالم الممكن.

إنّــه ليس مجرد أمر فيه بقية من خرافة أنّ الهندوسـ في يومنا هذا يتوجهون بالثناء والصلاة إلى الشمس الطالعة في وقت صلاة الصبـح عندهم. لعل بين المتعبدين للشمس مـن الهنـود الكثير مـن المتعلمـين تعليماً حديثاً الذين يعلمون الخصائص الفيزيائية للشمس، من درجة حرارة سطحها وتركيبها الكيميائي.

ليـس المخاطَـب بالعبـادة هـو الجرم الفلكـي، ولا فكرة مرموزة، بل سوريا-ديفا، أعني الواقـع الميتافيزيقي الذي من خلاله يصبـح وجه من وجوه الواقـع الأعلى وثيق الصلة ببني الإنسان.

قـد يرى المرء مـراراً وتكـراراً شخصاً تقياً يحيي، متعبـداً، الضوء الكهربائي بعد إضاءته في المساء. يـرى الفلاح الهندي في البقرة عرشاً لكثير من الديفات ويعبدها؛ إنّ عمال المصانع يتقدمون بالعبادة إلى الآلات في أيـام معلومـات، إلى ديفـا التقانة التي بأفعالها يعيشون.

لعلهم جميعاً يدركون على نحو ما، ما لم يدركه بعدُ فهْم واحد منا، أعني أنّ الأشياء بأسرها، المصنوع منها بيد الإنسان والذي ليس كذلك، تجلو قوةً فوقنا.

براهمان الأوبانيشادي و إيشفارا البوراني(١٤)

في أوبانيشاد بريهادارانياكا نقرأ حواراً يُسأل فيه ياجنيافالكيا السؤال الفاصل: كاتي ديفاه، كم الديفات؟ يبدأ الجواب بشاهد من نص فيدي: «ثلاثمئة وثلاثة وثلاثة آلاف وثلاثة» بعد الإلحاح ينقص العدد إلى ثلاثة وثلاثين ثم إلى ستة ثم إلى ثلاثة ثم إلى اثنين ثم إلى واحد ونصف وأخيراً إلى واحد. «أيها هو ديفا الواحد؟» ويجيب: «بْرانا (النَفَس، الحياة). البراهمان.

إنّه يدعى تيات (ذلك)». مع أنّ الديفات لم تفتأ تظهر في أفعال القرابين والمناظرات الدينية فإنّ مسألة «من هو الله؟» يجاب عليها هنا بالمصطلحات التي ظلت هي الجواب الهندوسي منذئذٍ. إنّ براهمان، اللفظ الذي لا ترجمة له، المطابق للكلمة الموحى بها وينطق بها البراهمة، المطابق لنفس كل الأشياء، ولخالق العالم وحافظه، وللمبدأ الداخلي للكون، إنّه يغدو المصطلح الذي صار عليه مدار النظر الديني الرفيع طوال آلاف السنين وما يزال هو المصطلح الذي يُدل به على الكائن الأعلى. ما فتئ براهمان محتفظاً بهالته من جهة ما هو شيء بلا تعيين على وجه التمام، شيء روحاني يفوت إدراك العابد العادي. المصطلحان اللذان يستعملان للتعبير عن الكائن الأعلى في تعيينه قديمان بالقدر نفسه من القدم: إيشا أو إيشفارا(١٥)، الرب، أو بهاغافان، المحمود، هذان لقبان للكائن الأعلى يطلقهما الهندوس عليه إلى يومنا هذا.

إنّ الاسم الذي يُقرن بهذا اللقب قد غدا الآن ذا أهمية قاطعة. إذا كان ريشي (الحكيم) الفيدي قد تحفّظ من أن يقرن الأسماء بلقب ديفا، بالنظر إلى أنّ تعددية الديفات قد بدت أمراً طبيعياً بل ضرورياً لإدراك الأوجه المختلفة للواحد الذي لا اسم له، فإنّ تعدد الأرباب قد رأى فيه اللاهوتيون الجدد أمراً محالاً من الوجهة الذاتية فأصروا على أنّ الواحد، الذي قرنوا به لقب إيشفارا أو بهاغافان، هو الواحد وحده- لما كان براهمان هو بالضرورة واحداً فقط، فإنّه يتطابق في غاية أمره مع الرب.

إنّ التلازم التخارجي بين لقب الرب وبين اسم واحد معلوم قد أفضى إلى نشوء أديان متخارجة(١٦)، مدار العبادة والميثولوجيا فيها هو على الله الواحد، فتُخرج بذلك آلهة الأديان الأخرى وتعدها كائنات ثانوية.

إنّ المحاولات المتأخرة التي أريد بها أن يُجمع بين تقاليد شتى (جمعاً نظرياً وهو

أضعف الإيمان) وأن يُعد أربابها المتنافسون شركاء متساوين في قوة إلهية واحدة في تريمورتي[١٧] قد أدت بدارسي الهندوسية من الغربيين إلى خاطئ الاستنتاجات أحياناً.

نعم، إنّ النصوص الهندوسية تتحدث عن ثالوث فيه براهما الخالق، وفيشنو الحافظ، وشيفا المخرب، وهؤلاء يقومون بأفعال الله الواحد، ولكن هذه النصوص جميعاً هي من تقليد واحد من التقاليد التي يطابق فيها الأعلى واحداً من تلك الأسماء أمّا الأسماء الثلاثة المنفصلة فما هي إلا أوجه مختلفة للكائن نفسه.

إنّ بعض صيغ تريمورتي المعروفة يسهل التعرف عليها بوضوح من جهة ما هي تعابير فنية عن الصيغ المختلفة لإيشفارا واحد دون سواه.

ليس لبراهما، أول الثلاثة، اليوم أتباع يستحقون الذكر؛ وليس في الهند هياكل يُتعبد له فيها إلا قليلاً. يرد ذكره في ملحمة مهابهاراتا باسم بيتاماها، الجد، والمرشد للريشيين في أمور الدين. في لاهوت أصحاب فيشنو، يصور جالساً على عرش من زهر النيلوفر ينمو من سرة فيشنو ويصيغ للعالم هيئته.

شيفا[١٨] هو اليوم الله الواحد والرب لملايين كثيرين من الهندوس. أبرز رموز شيفا وأشهرها في الغرب، بفضل كثرة تصويره في الفن، هو ناتاراجا، ملك الرقص. يرد في البورانات ذِكر تاندافا، رقصة خراب العالم، وليلا، رقصة شيفا المغرم.

تروي إحدى الأساطير من جنوبي الهند أن أعداء شيفا قد رموه بمهالك شتى، وفي آخرها أرسلوا عليه الشر مجسداً في مويالاكا القزم، لكن شيفا أخذ في رقصه الكوني فقهر القزم وبذلك أعتق العالم.

خُلدت هذه الواقعة بتماثيل كثيرة نجدها في جنوبي الهند، ويُسبغ عليها في لاهوت أتباع شيفا الكثير من المعاني: «من الطبل يظهر الخلق، ومن يد الأمل يُستمد الحفظ، ومن النار يستمد الخراب، ومن القدم المنغرسة فوق مولاياكا يستمد دمار الشر، والقدم المرفوعة تهب النجاة».

ابتسامة شيفا تبين سموه، والأعين الثلاثة تؤوّل بالشمس والقمر والنار أو بقوى شيفا الثلاث: الإرادة والعلم والعقل.

الجماجم المنظومة عقداً يطوق عنقه تسوّي بينه وبين الزمان وهلاك الكائنات بأسرها. الجمجمة المفردة على صدره هي جمجمة براهما، خالق العالم- الكائنات بأسرها هالكة، ما خلا شيفا فهو أبدي.

يقول ت سوامي أحد أتباع شيفا: «العثور عليه صعب، لكنه مقيم في قلب الصالح. وهو داخل فيشنو وبراهما، وفي اللهب

والريح، وفي البحار الصاخبة وفي الجبال الشامخة».

أهم تجليات شيفا، وجوده وموضوع عبادته عند محبيه، هو لينغا[19]. فهذه هي «الصورة» التي ليس سواها صورة لشيفا الكائن المطلق الذي لا صورة له، وتكون في الحرم الأقصى من هيكل شيفا. لا ريب في رجوع لينغا إلى أصل فالوسي[20]، بيد أنّه يمكن القول باطمئنان أنّه لا يستدعي تلازماً فالوسياً في أذهان العبّاد.

فيشْنو[21] هو الأكثر اتباعاً، إذ أن نحو ٧٠٪ من الهندوس هم من أتباعه، وينقسمون فرقاً ومدارس فلسفية عدّة. فيشنو هو واحد من الديفات المذكورة في ريغ فيدا؛ وتوحي بعض كتب براهمانا أنّ أصل فيشنو شمسي. لكن الاسم فيشنو، ويترجم «الساري في الكل»، ربما هو صياغة سنسكريتية لاسم درافيدي أقدم منه هو فين ومعناه السماء الزرقاء، ومما يؤيد هذا الرأي أن فيشنو ما يزال يصبغ إلى يومنا هذا بالأزرق القاتم.

اندمجت في دين فيشنو طريقتان هما نارايانا وفاسوديفا كريشْنا[22]. في الزمان المتقدم على المسيحية. ومما يقرب من المقطوع به أنّ أساس الطريقة الثانية هو شخص تاريخي يدعى كريشنا[23]، وهو بطل من عشيرة فريشتي من قبيلة يادافا التي كانت تسكن في ما جاور ماتورا وهي مدينة من أقدم المدن في الهند.

لعلّ تقليد فيشنو هو التقليد النموذجي بالنسبة إلى جميع المذاهب الهندوسية، وإنّ أعظم كتب الأدب الهندي تعكس ذلك بوضوح. مهابهاراتا هو كتاب في معظمه ينحو منحى دين فيشنو. رامايانا تتناول سيرة راما وهو من نسل فيشنو. بهاغافاد غيتا، وهو أكثر الكتب شعبية، هو كتاب مقدس مداره على كريشنا بصفته تجلياً لفيشنو.

لصور فيشنو أهمية خاصة؛ إنّها الحضور الواقعي والفيزيائي للإله، الذي جسده هو الأرض والنفوس نفساً نفساً. يثني على فيشنو محبوه بآلاف الأسماء التي تمجد مناقبه الأسطورية وتعدد صفاته الإلهية[24]. هاهو إكاناتا، من شعراء القرن السادس عشر ينشد:

أتعلمون كم هو حلو مخيض السائل «غي»؟ كذلك هو النعيم الذي يناله الطالب حين يكشف المحتجب عن صورته.

إنه قاتم، قاتم هو الذي لا يُعرف البتة ومسدود الطريق أمام الفكر والكلام: الكتب المقدسة صامتة وكتب فيدا لا تنبس بكلمة. ليس كذلك الذي قد ظهر، يالسطوعه! يالقربه! ظمأنا يُطفى إذا ظهر، هو العزيز على قلبنا. الكامل أبداً والنعيم الأبدي والوجود والفكر- انظروا إنّه غوفيندا(٢٥)،

مصدر الابتهاج والسرور. القوة والشجاعة، والشرف، والروح المحمودة- انظروا كيف نشهد في إلهنا كلّ هذا. لو لمحت من الله لمحة إذاً لردّ عليّ بصري. لقد خلصت من شِباك الحياة،؛ ذنوب حواسي عُفي عنها. في ضوء المصباح تظهر الأشياء المحجوبة كلها- هكذا أمري متى فكرتُ في إلهي؛ الله جاء إلى هنا من بعيد!

في مذهب شاكتي، الإلهة الأنثى هي الكائن الأعلى، وتصور أحياناً مع غلام ذكر لها هو دونها، وتصور أحياناً من دونه. لفظ شاكتي معناه «القوة» المشخصة في الإلهة، وهي الأم الإلهية التي تنسب إليها جميع أفعال فيشنو أو شيفا عند أصحاب المذهبين: أعني خلق العالم وحفظه وتخريبه، وكذلك التلبيس والعتق.

لكثير من القبائل الهندية القديمة إلاهات التأمت عبادتها مع الزمان في عبادة الأم العظمى. ومما لا ريب فيه أنّ الآريين كانوا على وجه العموم معادين للمذاهب التي تتخذ الأم إلهة، ومع ذلك فإننا نجد في مهابهاراتا أنّ دورّغا قد ظهرت إلهة للحرب، تفوق في أفعالها إندرا.

• • •

الإله في الهند ليس ميتاً ولا هو مجرد ذكرى من الماضي. في كل مكان من الهند اليوم الكثير من «الآلهة الأحياء» و«التجسيدات»؛ يدّعي بعضها أنّه استمرار للنسل القديم لفيشنو أو شيفا، فيما يقنع غيرها بادعاء أنّه الأعلى في بدن بشري.

تذخر كثير من منازل الهندوس بزينة من الرسوم الملونة للكثير من آلهة الهندوس وزوجاتهم، وكثيراً ما يكون معها آلهة وإلاهات لأديان أخرى وصور لأبطال معاصرين. على هذا النحو، فإنّ المرء يجد شيفا وفيشنو وبجانبهما يسوع وزرادشت وبوذا وماهافيرا وغاندي وجواهر لال نهرو، وغيرهم كثير. لكن لو سئل أحد الهندوس، حتّى الأمي ابن القرية، عن الآلهة الكثيرة لأجاب: بهاغافان إك هاي- الرب واحد. لعله لن يستطيع أن يعلل تعليلاً لاهوتياً كيف للآلهة الكثيرة والإله الواحد أن يجتمعوا معاً ولعله لن يكون على يقين من أمر التراتب الحاصل بين التجليات الكثيرة، لكنه يعلم أنّه في غاية الأمر ليس سوى واحد وحده، وأنّ الأشخاص الكثيرين يندمجون في الواحد على نحو ما.

يعلل اللاهوت الهندوسي، بسبل شتى، وحدة براهمان في تعدّد إيشْتا- ديفاتا: ينبغي للحاجات النفسية المختلفة أن تُشبع على نحو مختلف، وينبغي للتقاليد المحلية والوحي الخاص أن يوفّق بينها، والذي لا يناله الوصف لا يمكن الإفصاح عنه - بالمعنى الحرفي- إلا بآلاف الصور. إن ما تسمى ساهاسْرا-ناما-- وهي مدائح بآلاف

الأسماء تتلا تمجيداً لكل واحد من الآلهة الكبرى- تتطوي على تداخل عظيم: كل واحد منها يسمى خالق الكون وحافظه ومخربه، وكل واحد منها يدعى الحق والنعمة والنجاة. كل واحد منها هو، في آخر الأمر، نفس الآخر: واحد(٣٦).

الهوامش

١- كتب فيدا هي أقدس الكتب عند الهندوس، ويرسم البيروني هذا اللفظ «بيذ» ويقول إن معناه هو العلم بما ليس معلوماً وينقل عن الهندوس اعتقادهم بأنه مأخوذ من فم براهم- المترجم.

٢- من غير إنكار أن تكون آلهة غيره- المترجم

٣- مع إنكار أن تكون آلهة غيره- المترجم

٤- الإيتمولوجيا هي دراسة أصل اللفظ وتاريخه- المترجم

٥- يرسم البيروني لفظ ديفا هكذا: «ديو»، ويقول إنهم أجناس الروحانيين، وهم الملائكة بلا مادة، نالوا رتبتهم بالعمل وقت التأنس وخلفوا الأبدان وراءهم- المترجم.

٦- يدعوهم البيروني «رشين»، ويقول هم الحكماء، وهم على إنسيتهم أفضل من الملائكة بسبب العلم الذي تستفيده الملائكة منهم، فليس فوقهم إلا «براهم»- المترجم.

٧- هيكل لكل الآلهة- المترجم.

٨- إندرا: يلقبه البيروني برئيس الملائكة ورئيس العوالم والرئيس، ويقول إنه يأخذ ماء البحار بالسحابة ويرسلها أمطاراً- المترجم.

٩- يقول البيروني إن «المعبود» تجلى بصورة إندرا لأحد النساك- المترجم.

١٠- أدعية وعزائم- المترجم.

١١- يقول البيروني «أكن» وهو النار- المترجم.

١٢- يقول البيروني إن الشريعة جاءت عن رشين- المترجم.

١٣- يقول البيروني إن «برن» هو صاحب الماء- المترجم.

١٤- أوبانيشاد هو الاسم الذي تدعى به الأجزاء الشعرية والنثرية الملحقة بكتب فيدا في آخرها. أمّا بورانا فيرسمه البيروني «بران» ويقول إن معنى اللفظ هو الأوّل القديم، «وهم كتب من عمل رشين، وهم كتب مسماة باسم حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبارهم وبسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل فيها إليهم»- المترجم.

١٥- يرسمه البيروني «إيشفر» ويقول إن معناه المستغني الجواد- المترجم.

١٦- أهل كل دين يُخرجون من الدين مَن ليس منهم- المترجم.

١٧- صيغة مثلثة- المترجم.

١٨- يذكره البيروني بلقبه «مهاديو» (ماهاديفا)- المترجم.

١٩- يرسمه البيروني «لنك» ويقول هوصورة مذاكير مهاديو- المترجم.

٢٠- نسبة إلى فالوس وهو لفظ يوناني معناه عضو الذكورة- المترجم.

٢١- يرسمه البيروني «بشن»- المترجم.

٢٢- صار نارايانا وفاسوديفا (ويرسمه البيروني «باسديو») لقبين لفيشنو. يقول البيروني إن في كتاب بشندهرم: «بشن وهو نارابن الذي لا أول له في الزمان ولا آخر»- المترجم.

٢٣- يظهر كريشنا بعد ذلك بصفته تجلياً من تجليات فيشنو- المترجم.

٢٤- ينقل البيروني عن أحدهم: «ليس إلا بشن فقط، وما سواه باطل؛ بشن في كل مكان»- المترجم.

٢٥- لقب للرب إيشفارا- المترجم.

٢٦- يقول البيروني: اعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء- المترجم.

المصدر

- Klostermaier, Klaus k. A Survey of Hinduism, 3rd ed. Albany: State University of New York, 2007.

- استفدت أشياء من الكتاب القيّم «تحقيق ما للهند» لأبي الريحان البيروني (توفي سنة ٤٠٣هـ)، وجعلتها في حواشي المقالة لوثيق صلتها بمضمونها- المترجم.

ارتحال إلى ما قبل بداية الكون

موسى ديب الخوري ◘

قبل أن تُخترق الثوابت الفكرية التي تظل أحياناً قروناً طويلة سيدة الفكر بحيث لا يجرؤ أحد على مجرد التفكير بأنه يمكن تغييرها، تظهر أفكار وتساؤلات تحاول المساس بهذه الثوابت التي تصبح في بعض الأحيان أشبه بالعقائد التي نقدسها أكثر مما نفهمها! والأمثلة على ذلك كثيرة في العلم، من المسلمة الخامسة في الهندسة الإقليدية، إلى الفيزياء النيوتونية، إلى نظرية الانفجار الكبير كبداية لكوننا الحالي! ونحن نعرف اليوم

إن العلم ينتهي دائماً إلى اختراق الثوابت، وإلى تعديل نظرياته باستمرار. فخلال النصف الثاني من القرن العشرين بدأت التساؤلات بالظهور حول بداية الكون. هل الكون بدأ حقاً من نقطة أولى؟ وتحولت هذه التساؤلات إلى دراسات مع ظهور أفكار جديدة وكذلك مع طرح نظريات جديدة لتفسير الكون. لكن الاختراق الحقيقي لمسلمة بداية الكون من انفجار كبير كانت بحاجة إلى محاولة ذات بعد إعلامي، وهذا ما حصل مع كتاب بوغدانوف

((Igor &Grichka Bogdanov, Avant le Big Bang, Grasset, 2 juillet 2004)).

الذي لم يثر الجدال فقط حول هذه المسألة بل أثار اهتمام الرأي العالمي، العلمي والمجتمعي، حول الأبحاث النظرية في الكوزمولوجيا الحديثة. ومع أن أبحاث

◘ كاتب ومترجم وآثاري سوري.

بوغدانوف تعرضت لنقد منهجي كبير، لكنها كانت أحد الأعمال التي حرضت العلماء أكثر على الكتابة بشكل مبسط نسبياً لتوضيح هذه المسألة بعد أن كانت حكراً على عدد محدود من المختصين. ولا يخفى علينا، عندما تبدأ مسائل البدايات تطرح بين أيدي الناس، سرعان ما تطرح تساؤلات تتعلق بالإيمان والإله، وهل كان الكون موجوداً قبل أن يُخلق؟ لكن لنستبق الأمور ونقول بوضوح، العلم يطرح تساؤلاته ونظرياته ليس للإجابة على هذا النمط من الأسئلة!

من جهة ثانية أثار كتاب آخر الجدل حول ما إذا كان يوجد زمن قبل الانفجار الكبير لمارتان بوجوالد Martin Bojowald ويعتمد فيه على نموذج «الثقالة الكمومية ذات العقد gravitation quantique à «boucles» (LQG) ليبرهن أنه حتى لو وجد مثل هذا الكون «ما قبل الانفجار الكبير» فإنه سيكون من المستحيل علينا أن ندرك بعض جوانبه. يقول بوجوالد مؤكداً: «لقد تحققت منذ نحو ست سنوات أن هذه النظرية تسمح بتجنب الفرادة، لكن المعادلات التي استخدمتها في ذلك الوقت كانت معقدة جداً بحيث كان من الصعوبة بمكان تحديد الشكل الدقيق للحالة الكمومية». مع ذلك، فإن هذا الاختفاء للفرادة البدئية يسمح بتصور أن الكون استطاع أن يوجد قبل الانفجار الكبير في حالة «معاكسة» للتوسع الحالي. وهذا يعني أن الانفجار الكبير لم يميز بداية الكون، بل إنه كان عبارة عن مرحلة انتقالية، أو نوعاً من «الارتداد» لهذا الأخير، مرّ من مرحلة انهيار إلى حالة توسع.

يتأسس البحث عن ما قبل البداية المفترضة لكوننا، فيما عرف بالانفجار الكبير أو البيغ بانغ Big Bang، على تطبيق نظرية الأوتار الفائقة على علم الكونيات. فذلك يؤدي إلى أن الانفجار الكبير لا يشكل بداية الكون بل نهاية حالة كونية سابقة! لكن لنتابع قصة هذا الارتحال إلى ما قبل الانفجار الكبير.. وسنحاول أن نعرض الجانب الأساسي من فكرة الارتحال إلى ما قبل البداية ضمن عدد كبير جداً من التصورات المطروحة اليوم لبناء نماذج يمكن أن تحاكي صيرورة وجود أكوان سابقة لكوننا.

يمكن طرح السؤال بشكل آخر، هل كان الانفجار الكبير هو بداية الزمان كما يقول أصحاب هذه النظرية، أم كان الكون موجوداً قبل ذلك، وكان الزمان والمكان قبل البداية؟ منذ نحو عشر سنوات كان مثل هذا

التساؤل يثير موجة من الاستياء كما لو كنّا ندنس مقدسات شيدها العلم. فبالنسبة لعلماء الكونيات لا معنى لمثل هذا التساؤل على الإطلاق. وتصور فترة زمنية سابقة للانفجار الكبير أشبه بالنسبة لهم بالبحث عن نقطة تقع شمالي نقطة الشمال القطبي! لا معنى لذلك على الإطلاق! فوفق نظرية النسبية العامة لأينشتين كان كوننا الذي يتوسع قد بدأ من لحظة عرفت بالانفجار الكبير، الأمر الذي يفترض محدودية الزمان الذي ظهر آنياً مع المكان والطاقة- المادة. وقد تعدلت هذه الطريقة في رؤية الأمور خلال السنوات القليلة الأخيرة. فالكون عند ولادته كان متمركزاً في حيز من الصغر بحيث أن قوانين الفيزياء الكمومية هي التي كانت تنطبق عليه. وعند هذا المستوى من الصغر لا تعود نظرية النسبية العامة، وهي ليست نظرية كمومية، صالحة لفهم الانفجار الكبير. إن نظرية الأوتار التي بدأت تتطور منذ نحو ثلاثين سنة قادرة على أخذ زمام المبادرة، وفق بعض الفيزيائيين الكونيين اليوم، لتفسير مجريات الأمور في اللحظة صفر وذلك بتقديمها وصفاً كمومياً للجاذبية. وقد سمحت هذه النظرية مؤخراً بوضع تصورين أو نموذجين كونيين- نموذج الكون قبيل الانفجار الكبير، والنموذج الانقلابي ekpyrotiqe -يصفان كوناً سابقاً للانفجار الكبير. وفي هذين السيناريوهين لا يكون للزمن بداية ولانهاية، ويمكن أن يكون الكون القديم قد ترك آثاراً ملحوظة في الخلفية الإشعاعية للكون، أي في الإشعاع الذي صدر بعيد الانفجار الكبير والذي نكتشفه اليوم على شكل شعاع يأتينا من أنحاء الكون كافة.

إن رغبتنا اليوم بمعرفة أو على الأقل بأخذ ما حدث قبل الانفجار الكبير بعين الاعتبار في دراستنا لبداية الكون ليست سوى الانعكاس الجديد والحالي للتساؤلات القديمة ذاتها وللانعكاسات الفكرية والتأملية القديمة التي تتالت طيلة آلاف السنين حول أصل الكون. ففي الثقافات كافة، واجه الفلاسفة واللاهوتيون سؤال بداية الزمن وأصل العالم. ونعرف اليوم أن «شجرة أصولنا» تمر عبر تفرعات أولى أشكال الحياة، وتشكل النجوم، وتآلف أولى العناصر التي تعود إلى الطاقة التي كانت تغمر الفضاء البدئي.

فهل الزمن مستمر منذ «الأزل» أم هو ينطلق من نقطة ما، من جذر ما، من بداية ما؟ كان الفلاسفة اليونان قد ناقشوا هذه المسألة مطولاً، وقد دافع أرسطو عن غياب البداية بتأكيده على مبدأ أن لا شيء

ينبثق من لا شيء. فإذا لم يكن بالإمكان للكون أن يولد من العدم، فلا بدَّ أنه وجد دائماً. ولهذا فإن الزمن يمتد لا بدَّ منذ الأزل. وسيمتد إلى الأبد. لكن اللاهوتيين المسيحيين دافعوا عن وجهة النظر المعاكسة. وأكد القديس أغسطينوس أن الله موجود خارج إطار المكان والزمان وأنه قادر على خلق الزمان والمكان كما شكّل مظاهر العالم الأخرى. أمَّا ماذا كان يفعل الله قبل أن يخلق العالم، فيجيب أغسطينوس إن الزمن نفسه كان جزءاً من الخلق الإلهي، فلم يكن ببساطة ثمة قبل الخلق! إنه لمن المدهش هذا التقارب الكبير بين فكر اللاهوتيين عموماً، وما يقول به لاهوتيو فيزياء النسبية بشكل خاص اليوم، حيث لم يكن ثمة قبل الانفجار الكبير زمن، ولم يكن ثمة قبل، لأن الزمان ولد مع الكون!

تجانس غريب

قادت نظرية النسبية العامة علماء الكونيات المعاصرين إلى نتيجة مشابهة للقائلين بنظرية الخلق اللاهوتية، حيث يولد الكون والزمان معاً، وحيث ليس ثمة قبل ذلك شيء. وفي هذا الإطار لا يكون المكان والزمان مطلقين وثابتين بل ديناميكيين ومتغيرين ويتأثران ويتشوهان بالمادة. وعلى مستوى المسافات الكونية ينحني الفضاء، ويمتد أو ينضغط أو يتكور على مرِّ الزمن، حاملاً المادة معه. وقد أكد علماء الفلك خلال عشرينيات القرن الماضي، بعد اكتشاف أدوين هبل للمجرات، أن كوننا في حالة توسع حيث تبتعد المجرات عن بعضها بعضاً. وكان من نتائج هذا التوسع أن الزمان لا يمكن أن يمتد بلا نهاية نحو الماضي. فإذا عكسنا تسلسل أحداث تاريخ الكون نحو الوراء، نرى أن المجرات ستتقارب في هذا المشهد من بعضها بعضاً حتى تلتقي في نقطة لامتناهية الصغر، تسمى فرادة. وهكذا فإن المجرات كافة -أو بالأحرى ما تشكلت منه- كانت قائمة في نقطة حجمها صفر. وتكون الكثافة والحرارة بل وانحناء الزمكان في هذه النقطة لانهائياً. فالفرادة هي الحد الكارثي الذي لا نستطيع بعده متابعة تسلسل تاريخنا وأصولنا الكونية.

يطرح هذا السيناريو أسئلة كثيرة. وهو يبدو بشكل خاص غير متوافق كثيراً مع أن الكون يبدو متجانساً على المستوى الكبير في الاتجاهات كافة. فلكي يكون للكون الشكل نفسه تقريباً في كافة اتجاهاته لا بدَّ أن يكون شكل من التفاعل قد تأسس بين المناطق المتباعدة في المكان بحيث تكون خصائصها

قد تناغمت وتجانست مع بعضها بعضاً. غير أن ذلك يتعارض مع المعطيات الرصدية لتوسع الكون. لقد تحرر الضوء منذ ١٣،٧ مليار سنة (إنه الخلفية الإشعاعية الكونية المرصودة اليوم في مجال الأمواج الميكروية). ونجد اليوم كيفما توجهنا في الكون من حولنا مجرات تبعد عنا مسافات كبيرة جداً تصل إلى ١٣ مليار سنة ضوئية. وهذا يعني أنه توجد مجرات في الاتجاهات المتعاكسة تبعد عن بعضها مسافة تصل إلى أكثر من ٢٥ مليار سنة ضوئية. بالنتيجة، هذا يعني أن هذه المناطق لم تكن متصلة فيما بينها يوماً من الأيام، إذ لم تتوافر لها الفرصة ولا الوقت لتتبادل الضوء ولا المادة كذلك. وهذا يعني أن كثافتها وحرارتها وخصائص أخرى لها لم يمكن لها أن تتجانس فيما بينها، أي أن تتبادل المعلومات وتطور بالتالي منظومات متجانسة.

مع ذلك، فإن خصائص مجرة درب التبانة تتطابق تقريباً مع خصائص المجرات البعيدة. وهذا التجانس يمكن أن يكون مجرد مصادفة. لكن من الصعب القبول أن عشرات آلاف الأجزاء من أقسام صورة الخلفية الإشعاعية الكونية، المتطابقة إحصائياً، كانت منذ البداية الكونية ذات خصائص متطابقة. ثمة تفسيران أكثر طبيعية لذلك: فإمّا كان الكون في لحظاته الأولى أصغر بكثير مما تفترضه علوم الكونيات الكلاسيكية، أو أن هذا الكون أقدم مما تقول به علوم الكونيات. وفي الحالتين، كان يمكن لجزئين متباعدين في الفضاء الكوني قبل صدور الإشعاع الكوني أن يتفاعلا ويتبادلا المعلومات.

يفضل علماء الفيزياء الفلكية الفرضية الأولى. فلا بدَّ أن الكون شهد فترة توسع هائلة، تسمى التضخم inflation، في بداية الكون الأولى. أمّا قبل هذه الفترة، فقد كانت مناطق الكون كافة قريبة جدّاً من بعضها بحيث أن خصائصها استطاعت أن تتجانس فيما بينها. ثم خلال مرحلة التضخم، انطلق التوسع الكوني وبدأ الكون يتمدد بسرعة أعلى من سرعة الضوء. وهكذا فقد تمَّ عزل مختلف أجزاء الكون عن بعضها بعضاً. وبعد جزء ضئيل من الثانية انتهى التضخم ليستمر التوسع الكوني بشكل أكثر هدوءاً. وعاد الاستقرار بين المجرات وتبادل المعلومات فيما بينها تدريجياً فيما كان الضوء يلتقط أنفاسه ويعوض تأخره الناجم عن التضخم. وقد أدخل الفيزيائيون في سبيل تفسير هذا التضخم الهائل حقل قوة جديدة هو حقل التضخم، وقد ولّد هذا الحقل قوة جاذبية طاردة (عكس الجاذبة)

فائقة الشدة في اللحظات الأولى التي تلت الانفجار الكبير.

وعلى عكس الجاذبية، فإن التضخم يسرّع التوسع الكوني. فبعد جزء من الثانية من الانفجار الكبير، اختفت القوة الطاردة واستنفدت واستعادت الجاذبية سيطرتها على الكون الوليد.

اقترحت هذه النظرية في عام ١٩٨١م وكان بطلها الفيزيائي آلان غوث Alan Guth، مما سمح بتفسير عدد كبير من الأرصاد. مع ذلك، فإن بعض الصعوبات النظرية لا تزال تواجه هذه النظرية حتى الآن، وأولها طبيعة التضخم نفسه.

أمّا الطريقة الثانية في حل هذه المشكلة فأقل كلاسيكية واعتياداً: ذلك أنها تقترح كوناً أقدم بكثير مما هو متنبأ به. فإذا لم يكن الزمن قد بدأ قبل الانفجار الكبير، وإذا كانت فترة طويلة قد سبقت بداية مرحلة التوسع الكوني الحالية، فإن ذلك يعني أن الكون كان قد نال وقته الكافي والطويل جداً لكي يتجانس. يلغي مثل هذا السيناريو أيضاً الصعوبة التي تطرحها نقطة الفرادة التي تنبثق عندما نحاول تعميم النظرية النسبية أو مدها إلى أبعد من مجال تطبيقها. وفي الواقع، عند الاقتراب من الانفجار الكبير يكون المسيطر على المادة الآثار الكمومية وليس التفاعلات الجهارية التي تحكمها النسبية التي لا يعود لها أي تأثير بما في ذلك جاذبيتها.

ولكي نكتشف ما الذي حصل فعلاً على الفيزيائيين أن يستعيضوا عن النظرية النسبية العامة بنظرية كمومية للجاذبية. وهذا ما عمل عليه الفيزيائيون منذ عهد أينشتين إنّما من دون أن يحققوا نجاحاً يذكر حتى منتصف ثمانينيات القرن الماضي.

الأوتار تقفز

ثمة اليوم مقاربتان واعدتان كما يبدو. الأولى هي الجاذبية الكمومية ذات العقد، وهي تحتفظ في بنائها بالجزء الأساسي من النظرية النسبية- أي الطبيعة الديناميكية للزمكان واللاتغير بالنسبة لمنظومة الإحداثيات أو المرجعية المستخدمة- وهي تطبق هذه المبادئ في إطار الفيزياء الكمومية. ويتألف الزمكان الناتج عنها من قطع ضئيلة لا تتجزأ. وقد شهدت الثقالة الكمومية ذات الأربطة كما يطلق عليها أو ذات التخاريم أو العقد، خلال السنوات الأخيرة تقدماً في نحواح عديدة، لكنها ربما ليست جذرية بدرجة كافية لتحل المسائل التي تطرحها مسألة تكميم الثقالة.

أمّا المقاربة الثانية، والتي ترتكز عليها السيناريوهات المطروحة هنا، فهي نظرية

الأوتار. وقد ظهرت بداياتها في عام ١٩٦٨م عندما اقترحها غابرييل فنزيانو لوصف تفاعلات مكونات النواة الذرية. ولم تعد هذه الأفكار للظهور إلا في الثمانينيات لتصبح نظرية أساسية في توحيد النظريتين الكمومية والنسبية العامة.

ترتكز الفكرة الأساسية في نظرية الأوتار على أن المركبات الرئيسية للمادة ليست نقطية، بل وحيدة البعد، على شكل أوتار لا ثخانة لها. وتهتز هذه الأوتار مثل أوتار الكمان، ويعكس التنوع الكبير في عالم الجسيمات، حيث يكون لكل جسيم خصائصه وسماته، مختلف أنماط اهتزاز هذه الأوتار. وتسمح القوانين الكمومية لهذه الأوتار المهتزة والتي لا كتلة لها بوصف الجسيمات وتفاعلاتها، وهي تولّد خصائص جديدة لها تأثير عميق على نظرياتنا الكونية.

بداية، فإن آثاراً كمومية تفرض على الأوتار حجماً أدنى من رتبة 10^{-34}م. وهذا الكم (كوانتم) الذي لا يمكن اختزاله لأصغر منه، ونسميه ls، هو ثابتة جديدة في الطبيعة، إلى جانب سرعة الضوء وثابتة بلانك. ويلعب هذا الثابت في نظرية الأوتار دوراً حاسماً إذ يفرض حداً للكميات التي من دونه يمكن أن تسعى إلى الصفر أو إلى اللانهاية.

ثانياً، هناك الطاقة الخاصة بأنماط معينة من اهتزازات الأوتار والموافقة لكتل الجسيمات. من جهة أخرى، فإن هذه الاهتزازات تمنح الأوتار عزماً حركياً جوهرياً، هو ما يسمى باللف الذاتي أو spin. ويمكن للأوتار أن تكتسب عدة واحدات للف الذاتي مع بقاء كتلتها معدومة:

بل يمكن أن تمثل بوزونات، وهي جسيمات رسولة لقوى أساسية (مثل الفوتونات بالنسبة للكهرمغنطيسية). وتاريخياً، كان اكتشاف أنماط اهتزاز للف الذاتي المساوي لاثنين، والمطابقة مع الجسيم المفترض أنه يحمل التفاعل الثقالي، الغرافيتون graviton، هو ما أقنع الفيزيائيين بأهمية نظرية الأوتار في تكميم قوة الثقالة.

ثالثاً، إن معادلات نظرية الأوتار لا تكون متجانسة إلا إذا كان الفضاء ذا تسعة أبعاد بدلاً من ثلاثة، وكانت الأبعاد الستة الإضافية ملتفة على مسافات غاية في الصغر.

رابعاً، إن الثوابت التي تصف كثافة القوى الأساسية، مثل ثابتة الجاذبية أو الشحنة الكهربائية، لا تعود محددة أو مثبتة بشكل عشوائي، بل تظهر في نظرية الأوتار على شكل حقول تتغير قيمتها خلال الزمن. وأحد هذه الحقول، ويسمى ديلاتون dilaton، يلعب دوراً خاصاً، فهو يحدّ تطور الحقول

الأخرى، ويحدد كثافة التفاعلات كافة. وخلال مراحل كونية مختلفة أمكن لثوابت الفيزياء أن تشهد تغيرات طفيفة. ويحاول علماء الفيزياء الفلكية اليوم اكتشاف وقياس هذه التغيرات الضئيلة من خلال رصدهم للكون البعيد.

عندما يضبط التناظر اللانهاية

وأخيراً، فقد كشفت الأوتار عن وجود تناظرات جديدة في الطبيعة، هي الثنائيات، التي تحول بشكل جذري فهمنا الحدسي لسلوك الأجسام على مستويات فائقة الصغر. وأحد هذه التناظرات، وهو تناظر T-duality، يربط بين الأبعاد الإضافية الصغيرة والكبيرة. ويرتبط هذا التناظر بأكبر تنوع من الحركات الممكنة بالنسبة للأوتار، قياساً إلى جسيمات نقطية.

إذا أخذنا على سبيل المثال وتراً مغلقاً (أي حلقة) ينتقل في فضاء ذي بعدين حيث أحد هذين البعدين ينطوي بشكل دائرة صغيرة. يكافئ هذا الفراغ سطح أسطوانة. ويمكن لهذا الوتر إضافة إلى اهتزازه أن ينتقل على السطح، بل وأن يلتف مرة أو أكثر حول أسطوانة، تماماً مثل مطاط يضم ورقة ملفوفة.

يسهم كل من الاهتزاز والانتقال والالتفاف في الطاقة الكلية للوتر. وتتعلق طاقة النمطين الأخيرين بحجم الأسطوانة التي يتمّ الانتقال والالتفاف حولها. وتتناسب طاقة الالتفاف مع قطر الأسطوانة: فكلما كان هذا القطر أكبر كان على الوتر أن يكون مشدوداً أكثر لكي يلتفّ، بحيث أنه يختزن المزيد من الطاقة. بالمقابل، فإن طول البعد الملتف، أي انتقال الوتر يترجم بطاقة تتناسب عكساً مع نصف قطر الأسطوانة: فكلما كانت هذه الأخيرة أثخن كلما كان الوتر أقدر على الانتقال عليها «بسلاسة أكبر» (نتذكر هنا أن علاقات الريبة في الميكانيك الكمومي تمنع جسيماً متموضعاً بدقة من أن يكون في حالة راحة. وبالتالي فإن جسيماً محدداً يكون في حالة حركة بسرعة عالية جداً، في حين أن جسيماً غير متموضع بدقة كبيرة ينتقل «بسلاسة وبهدوء» أكثر). وعلى أسطوانة أضيق يتطلب التفاف الوتر طاقة أقل، في حين أن انتقاله يكون أكثر حركية ويعطي طاقة أكبر للمنظومة. فإذا استبدلنا أسطوانة قطرها R بأسطوانة قطرها R/١ (حيث يعتبر الواحد هو الطول الأقصر للأوتار)، فإن سلسلة حالات الطاقة الناتجة بوساطة النمطين يتم تبادلها، لكن مجموع الحالات يظل متطابقاً. وبالنسبة

لمراقب خارجي، فإن الأبعاد الكبيرة الملتفة تكون فيزيائياً مكافئة للأبعاد الصغيرة ذات القطر المقلوب.

يمكن أن نفهم بسهولة أكبر الثنائية T-duality في إطار فضاءات مزودة ببعد دائري ذي حجم منته، بل وهي تطبق أيضاً على ثلاثة أبعاد لانهائية من الفضاء العادي. فليس حجم الفضاء مأخوذاً بمجمله ما يهمنا، بل ما يسمى معامل درجته، أي العلاقة بين تباعد الأجسام التي كان يحتويها في تاريخ محدد وتباعدها الحالي. ووفق T-duality فإن كوناً يكون فيه معامل الدرجة صغيراً جداً يعني أنه مكافئ لكون معامل الدرجة فيه كبير جداً. ومثل هذا التناظر لا يوجد في النسبية العامة. إنه تناظر يتأتى عن الإطار الموحد لنظرية الأوتار.

اعتقد نظريو الأوتار طيلة سنوات أن الـT-duality لا تنطبق إلا على الأوتار المغلقة. وفي عام ١٩٩٥م، بين جوزيف بولشينسكي J. Polchinsky من جامعة سانتا بربارا أنها تظل صحيحة بالنسبة للأوتار المفتوحة، بتطبيق شروط تسمى شروط ديريشليه Dirichlet على أطراف هذه الأوتار: فإضافة إلى عكس أقطار الأبعاد الملتفة، علينا أن نثبت أو نحدد أطراف الأوتار ضمن عدد معين من الأبعاد.

وهكذا، فإن نهايات وتر يمكن أن تطفو حرة في ثلاثة من الأبعاد الفضائية العشرة في حين أن حركتها في الأبعاد السبعة الأخرى تكون محجوزة أو ثابتة. تشكل هذه الأبعاد الثلاثة الحرة فضاءً تحتياً يسمى الغشاء membrane أو D-brane. وفي عام ١٩٩٦، تصور كل من بيتر هورافا P. Horava من جامعة روتجرز، وإدوارد ويتن E. Witten من معهد الدراسات المتقدمة في برنستون، أن كوننا قابع على أحد هذه الأغشية D-brane ثلاثية الأبعاد. ويمكن أن تفسر لنا الحركية الجزئية للإلكترونات وللجسيمات الأخرى لماذا لا نستطيع أن نلحظ الأبعاد العشرة للفضاء.

إن خصائص الأوتار تلتقي كلها على نقطة واحدة، فهي لا تحب اللانهاية. وبما أنها لا تستطيع أن تُقلّص إلى نقطة، فإنها تحذف التناقضات التي يسببها مثل هذا الانهيار.

إن حجمها غير المعدوم، كما والتناظرات الجديدة المرتبطة بها، تفرض حدوداً عليا على الكميات الفيزيائية التي تتقاطع إلى أجل غير مسمى في النظريات الكلاسيكية، وحدوداً دنيا على الكميات التي تتناقص بحيث لا يمكنها النزول تحت حد معين. وعندما نسقط فيلم التاريخ الكوني بشكل

معاكس، فإن الزمكان ينضغط ونصف قطر التفاف الأبعاد كافة يضيق.

ووفق نظريي الأوتار فإن T-duality تمنع نصف الانحناء من التناقص حتى الصفر ومن توليد نقطة فرادة الانفجار الكبير. وعندما يصل هذا الانضغاط إلى الطول الأدنى الممكن، فإنه يصبح فيزيائياً مكافئاً لتوسع في المكان، ومن هنا يعود نصف قطر الانحناء إلى التزايد. إن الـ T-duality تجعل الانهيار يعود فينتفض في حالة توسع جديد.

الكون مقلوباً

باختفاء الفرادة singularité، فليس ثمة ما يمنع من تصور أن الكون كان موجوداً قبل الانفجار الكبير. وبجمع التناظرات التي تدخلها نظرية الأوتار مع تناظر انعكاس الزمن، ووفقه فإن معادلات الفيزياء تعمل في الاتجاهين نحو الماضي أو نحو المستقبل لا فرق، توصل العلماء إلى تصور علوم كونية جديدة، لا يكون الانفجار الكبير فيها هو البداية، بل مجرد حالة انتقالية عنيفة بين حالتين للكون: قبله كان التوسع يتسارع، وبعده بدأ التوسع يتباطأ. وأهمية هذا التصور أنه يأخذ بعين الاعتبار بشكل آلي أفكار النموذج التضخمي، أي وجود فترة تضخم متسارعة قادرة على تبرير تجانس الكون. إن ما يسبب التسارع بعد الانفجار الكبير هو التضخم في النظرية المعيارية للكون. أمّا في النظرية الكونية المرتكزة على الأوتار فإن التسارع ينتج قبل الانفجار الكبير وينتج عن تناظرات النظرية نفسها.

إن الشروط التي سادت في جوار الانفجار الكبير كانت فائقة الحدية بحيث أن أحداً لا يعرف كيف يحل المعادلات التي تصفها. مع ذلك، فقد جازف نظريو الأوتار بوصف بعض مظاهر الكون السابق للانفجار الكبير.

وهناك نموذجان على الأقل تتم دراستهما اليوم. الأول معروف باسم سيناريو «ما قبل الانفجار الكبير»، وهو يشير إلى أن الكون السابق للانفجار الكبير عبارة عن صورة في المرآة للكون سابق لهذا الحدث. فالكون يمتد أبدياً في المستقبل كما في الماضي. فمنذ زمن لانهائي كان الكون شبه خاو ولا يشتمل سوى على غاز نادر من الإشعاعات والمادة. أمّا قوى الطبيعة، التي يضبطها حقل الديلاتون dilaton، فكانت ضعيفة جداً بحيث أن جسيمات هذا الغاز كانت لا تتفاعل أو تكاد فيما بينها.

ومع الوقت، نجحت القوى في الغلبة والتكثف وبدأت المادة في التشكل. وبدأت بعض المناطق بتجميع هذه المادة على حساب مناطق أخرى. وأصبحت الكثافة

فيها عالية إلى درجة أن ثقوباً سوداء تشكلت فيها. وقد انعزلت المادة التي انفصلت في هذه الثقوب عن باقي الكون مما أدى إلى انشطار الكون إلى عدة أقسام منفصلة غير متصلة. وفي قلب كل ثقب أسود من هذه الثقوب كانت الكثافة المادية ترتفع أكثر فأكثر. وعندما بلغت الكثافة والحرارة والانحناء القيم القصوى التي تسمح بها نظرية الأوتار، قامت هذه الكميات بعملية «ارتداد»، وبدأت تتناقص. وليس الانفجار الكبير سوى اللحظة التي حدث فيها هذا الانقلاب. وأصبح داخل أحد هذه الثقوب السوداء هو كوننا الحالي!

أغشية تتصادم فيما بينها

اقترح فنزيانو سيناريو ما قبل الانفجار الكبير هذا مع زملائه في عام ١٩٩١م، وكان أول محاولة لتطبيق نظرية الأوتار على الكوزمولوجيا. وقد أثار العديد من الانتقادات، ولا تزال الدراسات جارية عليه لمعرفة ما إذا كانت هذه الانتقادات قد وضعت يدها فعلاً على بعض الصدوع الخطيرة في بنائه النظري.

أمَّا النموذج الرئيسي الآخر الذي يصف الكون قبل الانفجار الكبير فهو يوصف بسيناريو الانقلاب ekpyrotique (من اللفظة اليونانية التي تعني الانقلاب الكبير conflagration). وقد طُوِّر منذ عام ٢٠٠١م على يد نيل توروك N. Turok من جامعة كامبريدج وبول ستاينهارد P. Steinhardt من جامعة برينستون، وهو يرتكز على فكرة أن كوننا هو عبارة عن غشاء D-brane يعوم في جوار غشاء آخر مثله في فضاء من بعد أعلى.

إن الفضاء الذي يفصل الغشاءين يتصرف مثل نابض يقودهما إلى الدخول في حالة تصادم في الوقت الذي يكونان فيه في حالة انضغاط. وتتحول طاقة التصادم إلى مادة وإشعاع. وهذا هو الانفجار الكبير. وفي إحدى تنويعات هذا السيناريو، تتم التصادمات بطريقة دورية. فيلتقي غشاءان، ويرتدان ويتباعدان قبل أن يعودا فيسقطان أحدهما على الآخر وهكذا دواليك.

وبين هذه التصادمات، تتوسع الأغشية بشكل مستمر باستثناء مرحلة انضغاط تأتي مباشرةً قبل الصدمة. ويتباطأ التوسع عندما تنفصل الأغشية ويتسارع عندما تعود للتقارب من جديد. إن المرحلة الحالية من تسارع التوسع الكوني (المكتشفة منذ بضعة سنوات فقط أثناء رصد سوبرنوفا بعيدة) تشير ربما إلى تصادم قادم لكوننا مع كون آخر.

ويشــترك هذا السيناريو مــع السيناريو السابــق في نقاط عدة. فكلاهما يبدأ من مع كون واسع وبارد وشبه خاو وفارغ، وكلاهما يجــدان صعوبــة في تفســير الانتقــال بين المرحلتين ما قبل وما بعد الانفجار الكبير.

أمّــا رياضياً، فإن الاختــلاف الرئيسي بينهما يكمــن في سلوك حقــل الديلاتون. ففــي سيناريو ما قبل الانفجار الكبير يكون للديلاتــون قيمة ابتدائيــة منخفضة جداً، بحيث تكون القوى الأساسية ضعيفة، وتزداد قيمته تدريجياً مع الكثافة. أمّا في السيناريو الانقلابي، فالعكس هو الصحيح، حيث ينتج التصادم عندما تكون كثافة القوى في حدها الأدنى.

لقد أثار هــذا الضعف للقوى الطبيعية الأمــل في التوصــل إلى تحليــل الارتــداد من خــلال التقنيات الكلاسيكيــة المتوافرة والمعروفــة. لكــن للأســف، في التنويعات الحاليــة عندما يقترب غشــاءان إلى درجة التصادم ينهار البعد الذي يفصلهما بحيث أن الفرادة تصبح أمراً لا مفر منه.

وهناك عقبة ثانيــة حيث يجب تحقيق الشروط البدئيــة بشكل دقيق لكي نستطيع أن نحل مشكلة المسائل الكونية الكلاسيكية. على سبيل المثال قبل الصدم يجب أن يكون الغشــاءان شبــه متوازيــين، وإلا فإنهما لا ينتجــان الانفجار الكبير المتجانس جداً كما هو حال كوننا.

وإذا تركنــا جانباً صعوبة تشذيب هذين السيناريوهــين من وجهة نظر رياضية، فإن الفيزيائيين يبحثون منذ الآن عن نتائج قابلة للرصــد تدعم أحدهما على الأقل. وللوهلة الأولى، فإن النموذجين يستدعيان تخمينات ميتافيزيائية أكثر منهــا نظريات فيزيائية. مــع ذلك، مــن الممكن لتفاصيــل من عصر ما قبل الانفجار الكبــير أن يكون لها نتائج قابلــة للرصد، تماماً كتلك التي تتعلق بفترة التضخم الذي حصل مباشرة بعد الانفجار الكبــير. إن التخلخــلات الطفيفــة التــي لوحظــت في الحرارة واستقطــاب الإشعاع الخلفي للكون يقدمــان اختبارات تجريبية على ذلك.

تُفسَّر تخلخلات الحــرارة علــى أنها علامة علــى الأمواج الصوتية التي انتشرت في البلازمــا البدئية خــلال ٣٨٠٠٠٠ سنة سابقــة لإصــدار إشعاع الخلفيــة الكونية. ويثبت انتظام هــذه التخلخلات أن الأمواج الصوتيــة كانــت قــد تولــدت في اللحظة نفسها. وتتفق النماذج الثلاث، «التضخمي» و«ما قبل الانفجار الكبير» و«الانقلابي»، مع هذا الشرط الرصدي وبالتالي فإنها تتجاوز هــذا الامتحــان الأول بنجــاح. وقد ولدت

الأمواج الصوتية في اللحظة نفسها بوساطة تخلخلات كمومية مضخمة خلال مرحلة التوسع المتسارع.

بالمقابل، فإن كل نموذج من النماذج السابقة يتنبأ بتوزع نوعي للتخلخلات. وتبين الأرصاد أن سعة التخلخلات كبيرة الحجم الزاوي تكون ثابتة، في حين نلاحظ وجود ذرى على مستويات التخلخلات الصغيرة. إن النموذج التضخمي يُنتج بشكل مطابق هذا التوزع. فخلال التضخم تغيَّر انحناء الزمكان بشكل بطيء. وهكذا فإن تخلخلات مختلفة الحجوم تولدت ضمن ظروف مماثلة، وبالتالي فإن طيف التخلخل البدئي يكون ثابتاً أو لامتغيراً بالنسبة لمستوى معين.

وتنتج الذرى على المستويات الصغيرة من تناوب التخلخلات البدئية، في تتمة تاريخ الكون. وفي علم كونيات الأوتار، يتطور انحناء الزمكان بسرعة كبيرة جداً، الأمر الذي يزيد من سعة التخلخلات على المستوى الصغير. مع ذلك، فإن صيرورات أخرى تعدّل هذه الظاهرة: ففي سيناريو الانقلاب الكوني، يُنتج انضغاط الأغشية طيف تخلخل غير متبدل المستوى؛ وفي نموذج ما قبل الانفجار الكبير، يتدخل حقل كمومي يسمى كرفاتون curvaton. وهذا يعني أن النماذج الثلاثة تتفق حتى الآن مع الأرصاد.

إن استقطاب الخلفية الإشعاعية الكونية يقدم لنا اختباراً آخر. فعلى عكس النماذج الأخرى يتنبأ نموذج التضخم بأن الأمواج الثقالية ساهمت في تخلخلات الحرارة. ولا بد أن بعض هذه الأمواج الثقالية قد ترك بصمته في استقطاب إشعاع الخلفية الكونية. ويمكن لأرصاد القمر الصناعي بلانك التابع لوكالة الفضاء الأوروبية أن يرصد مثل هذا الأثر إذا كان موجوداً. واكتشافه سيقدم حجة هامة لصالح التضخم.

وتحليل الخلفية الإشعاعية الكونية ليس الطريقة الوحيدة لاختبار هذه النظريات. فسيناريو ما قبل الانفجار الكبير يتنبأ بإصدار أمواج ثقالية، يمكن لبعضها أن يكون قابلاً للرصد بوساطة كواشف الأمواج الثقالية مثل فيرغو Virgo. ومن جهة أخرى، بما أن السيناريو الانقلابي وسيناريو ما قبل الانفجار الكبير يتضمنان تغيرات في حقل الديلاتون، المتزاوج مع الحقل الكهرمغنطيسي، فإنهما يتنبأان بوجود تخلخلات في الحقل المغنطيسي على المستوى الكبير. ويمكن اكتشاف آثار هذه التخلخلات في الحقول المغنطيسية المجرية.

متى بدأ الزمن إذن؟ لا يقدم العلم حتى اللحظة إجابة على هذا السؤال، لكنه يطرح نظريتين على الأقل قابلتين للاختبار والتجربة وتؤكدان بشكل متماسك حتى الآن أن الكون -وبالتالي الزمن- كان موجوداً قبل الانفجار الكبير. فإذا كان أحد هذين السيناريوهين صحيحاً، فهذا يعني أن الكون كان موجوداً دائماً.

الكون بين الفيزياء والميتافيزياء

علينا عند الحديث عن وجود دائم للكون، ألا ننخدع بالاعتبارات الميتافيزيائية أو اللاهوتية التي غالباً ما تطرح في مثل هذه المناسبة. فليس ثمة سبب حقيقي لمناقشتها باسم الكونيات المعاصرة لأن هذه الأخيرة لا تتضمن مثل هذه الاعتبارات. ويعرف الفيزيائيون أن الانفجار الكبير نفسه لا يوافق أبداً مفهوم الخلق بل هو مجرد مرحلة مرّ بها الكون. بعبارة أخرى، حتى لو كان ثمة قائل إن الكون مر بلحظة بداية هي الانفجار الكبير فإن ذلك ليس سوى بناء نظري وليس لحظة حقيقية أطلقت الزمن الفيزيائي.

هناك دراسات كثيرة تحاول بناء شكلانية قادرة على وصف الكون البدئي بشكل أكمل. ولا يتورع الفيزيائيون الذين يحاولون وصف هذه المرحلة الفائقة الحرارة والكثافة بتجريب الفرضيات والتصورات كافة: وأهمها لا شك أن الزمكان يملك أكثر من أربعة أبعاد، وهو على المستوى الأقل من سوية بلانك يكون متقطعاً غير متصل. كما أنه يكون نظرياً قابلاً للاشتقاق من شيء ليس بزمكان أصلاً. إنها طرق مختلفة ليست بعد سوى طروحات لكنها تتجرأ بإرجاع الزمن إلى ما قبل اللحظة صفر، فليس ثمة بالنسبة لها نقطة فرادة.

في الأحوال كافة، فإن الحسابات تظهر لنا عالماً كان قد سبق وجودنا وكوننا: قد يكون فراغاً كمومياً، أو قد يكون هذا الغشاء العائم في زمكان من عشرة أبعاد، وربما أكثر، أو أيضاً كوناً في حالة انضغاط يعود فيرتد على نفسه عندما تصل كثافته إلى قيمة لا يمكن تجاوزها، هذا إضافة إلى كل التصورات الأخرى بين هذه المقترحات التي قد تكون أكثر خيالية وجنوناً أحياناً.

يقود ذلك إلى نتيجتين. الأولى أن ما وجد قبل كوننا لم يكن عدماً. ووفق هذه النماذج كان ثمة كائن دائماً ولم يكن ثمة عدم أبداً. وبالتالي فإن فكرة الخلق من العدم لم

تحدث مطلقاً. والنتيجة الثانية هي أن هذه الأشياء السابقة لوجود كوننا لا تنفصل عن كوننا بقدر ما هي متضمنة فيه، بمعنى أنها لم تكـن أسباباً أولية لوجــوده، خارجة عنه، وأدت إلى ظهوره بمجرد إشارة أو حركة. إن السمة الوحيدة التـي تميزها عن العناصر الأخرى المشكلة للكون هي أنها ولّدت كل ما يوجد إضافة إليها، إنّما من دون أن نستطيع معرفـة أصـل وجودها هـــي نفسها. فمن أين يأتي الفــراغ الكمومي؟ لا أحد يعرف، والأغشيــة؟ لا أحد يستطيــع الإجابة. ومن أين جاء الكون قبل الانفجار الكبير؟ إنه لغز قد لا نستطيع حله أبداً..

لا تزال إذاً مسألة معرفة إذا كان للكون أصل وبداية أم لا مسألة مفتوحة. فلا أحد يستطيع حتى اللحظة البرهان علميًا أنه كان ثمة أصل للكون، ولا أحــد أيضاً قادر على البرهان علمياً أنه لم يكن ثمة أصل للكون.

إذا كانت قد وجدت بداية للكون والعلم لم يستطع حتــى الآن تحديدها، فهذا يعني أن الكــون كان مسبوقاً بغياب كامل للكائن. وهذا يشير إلى أنه نتــج عن انفصال خارج العــدم، انفصال لا يمكــن وصفه بحال من الأحــوال، وإلا لكي نفسر كيف لم يعد العدم عدماً يكون علينا إعطاءه خصائص ستميزه بمجرد وجودها فلا يعود العدم عدماً.

أمّا إذا لم يكن للكــون بداية، فهذا يعني أن الكائــن كان موجوداً دائمــاً ولم يكن ثمة عدم أبداً. وهذا يعني أن مسألة أصل الكون لا معنى لهــا، أو أنها كانت مسألة مطروحة بطريقــة خاطئــة، لكننــا في هــذه الحال نستبدلها بسؤال آخر، سؤال أكثر انغلاقاً بما لا يقاس، وهو سؤال الكائن نفسه: لماذا كان الكائن بدلاً من العدم؟

المراجع

- Greene, Brian, The Elegant Universe: Superstrings, Hidden Dimensions, and the Quest for the Ultimate Theory, Vintage (2000).
- M. Gasperiniet G. Veneziano, The pre-Big Bang scenario in String Cosmology, in physics Reports, vol. 373, no 1et 2, p. 12003 ,212-.
- G. Veneziano, l'Univers avant le Big Bang, pour la science, no 230 juin 2004.
- Khoury, Justin,»A Briefing on the Ekpyrotic/Cyclic Universe». Columbia Univ. 2004.

- Khoury Justin, Burt A. Ovrut, Paul J. Steinhardt, et Neil Turok, «Density Perturbations in the Ekpyrotic Scenario»,. Mar 2002, Phys.Rev. (2002).
- Etienne Kleine, La science a-t-elle besoin de Dieu?, La Recherche, n°447 - 112010/.
- Paul J. Steinhardt et Neil Turok, Endless Universe: Beyond the Big Bang (2007).
- • Igor &Grichka Bogdanov, Avant le Big Bang, Grasset, 2 juillet 2004.
- • Martin Bojowald, Once Before Time, A Whole Story of the Universe,Alfred A. Knopf, New York, 2010.
- Igor &Grichka Bogdanov, Avant le Big Bang, Grasset, 2 juillet 2004 (ISBN 2246501113).
- B. Green, L'Univers elegant, Robert Laffont, 1999.

دوافع الهلع الغذائي

مقابلة مع كلود فيشلر[1] Claude Fischler

إعداد ماري ديهي[2] .Marie Deshayes

ترجمة: د. ماري شهرستان ✪

تعود المخاوف الغذائية إلى واجهة المشهد منذ حصول سلسلة من التسمم ببكتيريا الإشيريشيا- كولي التي ظهرت في فرنسا وفي ألمانيا. فبعد الخيار الإسباني، ظهرت مشكلة حبوب الحلبة المصرية وأصبحت مشبوهة. والأسئلة التي تطرح نفسها حيال ذلك:

- هل المستهلكون غير عقلانيين كما يقال؟ وما هو الشيء الهام الذي يلعب دوراً أعمق في اختيارنا الغذائي؟ وبماذا تتميز الأزمات الغذائية عن الفضائح الإعلامية الأخرى؟

تجدر الإشارة إلى أنه يتم استخدام التعبير «فضيحة» للدلالة على أزمة يمكن أن ينظر إليها على أنها حوادث بسيطة. لايوجد أبداً فضائح في يومنا هذا من دون تضخيم إعلامي. لكن الأزمات الغذائية لها وضع خاص- فاضح ومشين بشكل خاص- لأن التغذية لا تتوقف على مدة استهلاكية مثل غيرها من المواد. أولاً لأن لنا علاقة حميمة جداً مع الغذاء: فنحن ندخله ضمن جسدنا. والفكرة القائلة بأن «الإنسان هو صنيعة ما يأكله» هي ظاهراً فكرة عالمية. هذه الفكرة، التي أسمّيها مبدأ الإدماج، انبثقت عن قانونين في الفكر السحري تمّ تحديدهما من قبل مؤسسي الأنتروبولوجيا، وهما العدوى[3] والتماثل (الصورة تساوي الشيء). لقد تمّ الاعتقاد لفترة طويلة أن هذا الأسلوب من التفكير يعود إلى الفكر البدائي لكننا نعلم اليوم بفضل علم النفس الاجتماعي، أن هذا البعد النفسي موجود عند كل واحد منا، حتى لو كنا قادرين تماماً

✪ طبيبة وباحثة سورية.

على تجاوزه؛ وقد برهن ذلك «ب.روزن P. Rozin» في جامعة بنسلفانيا بطريقة التجربة. الصورة تساوي الشيء: إننا نتردد في تمزيق صورة إنسان عزيز، ابن على سبيل المثال، حتى لو أننا نمتلك نسخاً عديدة. أو العدوى: قد نرتدي سترة أحد نحبه ونرفض ارتداء سترة أحد نكرهه. في عملية المزج، يحصل اصطدام هذين العنصرين: العدوى والتماثل.

يبدو أن الأمن الغذائي يفرض نفسه اليوم في مجتمعاتنا أكثر منه في الماضي.

- كيف نستطيع تفسير استمرار مخاوفنا في مواجهة الغذاء؟

عدا عن هذا الطابع الحميمي (والحميمية هي ذروة الحالة الداخلية)، الوضع القارت (أي آكل كل شيء) يستتبع نوعاً من التوتر أو الضغط الباطني. فيقع القارت بين ضرورات متناقضة. فمن جهة، ينبغي عليه أن يحتفظ بحد أدنى من التنوع في غذائه، وهو غير قادر على تركيب كل الحموض الأمينية الأساسية، وذلك بخلاف الآكلين المتخصصين. فيستوجب له أن يبحث عن وجبات متنوعة وتجذبه الأطعمة الحديثة: فهو محب التجديد؛ لكن من جهة أخرى، هذا التجديد يرعبه: فهو كاره التجديد، لأن كل غذاء جديد يمثل خطراً كامناً؛ وفي داخله على الدوام توتر دائم يجعل من هذا القارت، بشكل حيواناً قلقاً تجاه التغذية بشكل طبيعي.

- هل جميع الأزمات الغذائية تستجيب للخصائص نفسها؟

كلا، في بعض منها، حجم التقزز، والتصريف يتواجد مع حجم الخوف، كما حصل في قضية جنون البقر أو قضايا اللحم بشكل عام، هذا ما يحدث عادة. كما أن الذبح الكثيف لقطعان البقر كان مشهداً مؤذياً. ومع التلوث الذي لحق باللحم المفروم نجد أنفسنا في مواجهة هلع من سمٍّ خفي.

تمثل التغذية زمناً محفوفاً بالمخاطر، على أساس أنه زمن يتعرض فيه باطن الإنسان للخارج ويحصل شيء ما بينه وبين العالم. فنحن موسوسون جرَّاء هذا الخطر منذ زمن بعيد، سواء أكان ذلك بشكل قدري أم سمّي. وفي بعض اللغات القريبة من اللغة الفرنسية تستخدم الكلمة نفسها للـ«سم» وللـ«الهدية»! فهدية مسمومة هي شبيهة بالحشو اللغوي! لكن كقاعدة عامة حالما يشك الإنسان بغذاء ما على أنه مشبوه ويتردد ذلك في وسائل الإعلام، نشاهد آلية دفاعية: يقوم المستهلكون على الفور بتجنب الغذاء المشار إليه. إنه من الأسهل على الإنسان تجنب غذاء ما من تبني غذاء جديد. فالوقوع في تجربة سلبية تكفي لإبعادنا نهائياً أو لمدة طويلة عن هذا الغذاء.

- ما هو القلق الرئيسي للآكلين المعاصرين؟

يدفع هذا القلق المستهلك لمعرفة هوية المنتجات الغذائية الحديثة التي تحوِّلها الصناعة (عن طريق البطاقة الملصقة، والشفافية، والتسجيلات المؤشرة). فكل شيء يحدث كما لو أن أغذيتنا تدخل ضمن صندوق أسود ثم تخرج منه رأساً لتُرسَل إلى رفوف المجمعات التجارية العملاقة، التي هي أمكنة مغفلة من حيث المبدأ. فنحن لا نعرف من يتلاعب، ولا حتى من يدسّ. وفي حالة وقوع أزمة، يتضاعف هذا القلق عشرة أضعاف. فحتى الأشياء التي لم تكن مشبوهة في السابق تتحوّل إلى مخيفة. لكن ما هو فاتن حقاً هو أننا في هذه المواقف نشعر بالأمان عند لحام الحارة أكثر مما نشعره في المجمعات العملاقة، لأن تحديد نوع الغذاء يكون قد جرى على يد الشخص الذي أوصله لي. فنحن نبحث على الدوام عن تعويض القلق الناجم عن هذا الصندوق الأسود.

- لكننا لم نكن نتوقع أن نخشى ذات يوم من تناول الخضار أو الغذاء الحيوي(البيو)...

نعم، هناك بعد آخر: التمييز بين حيوان ونبات. ففي الماضي كان قلق الآكلين ينصب على المنتجات الحيوانية أكثر من النباتية. لكن مع تجريم الخيار ثم الحبوب المستنبتة (بيو)، تشوشت الأذهان تماماً. وانقلب العالم، فمنذ الآن فصاعداً ينبغي علينا أيضاً تجنب «الغذاء الصحّي»!

وما هو أساسي إنتروبولوجيّاً أن يصبح الغذاء النباتي حاملاً لخطر نجمعه على الفور مع الخطر الحيواني؛ فالأغذية المعتبرة أشد خطورة من غيرها هي ذات أصل حيواني وذلك وفق سبر الآراء. لقد ظل هذا الجيل ماثلاً في أذهانهم بشكل خاص؛ فهم يعتقدون أن يرقات الذباب قد تلد تلقائياً من قطعة لحم حتى لو كانت ضمن وعاء محكم السد (كونسروة).

قبل حصول التسمم بالبكتيريا المسماة «إيشيريشيا كولي» كان هناك أزمة غذائية أخرى قلبت مفاهيمنا السلفية، وهي أزمة الـ«ليستيريا la Listeria» (وهي بكتيريا مرضية) قد لوثت الجبن المصنوع من الحليب النيئ. كانت هذه الأزمة مزعزعة للمفاهيم لأننا كنّا نعتقد أن المنتجات الصناعية فقط هي المشبوهة والخطرة...

- في مثل هذه الأزمات الغذائية، كيف يمكننا التمييز بين التغذية المعقلنة وغير المعقلنة؟

عالم الاجتماع الأمريكي كاسبرسون Kasperson يتحدث عن «تضخيم اجتماعي للخطر»: ففي زمن الأزمات

كل شـيء يتضخم بالمبالغـة. فما نشاهده، هـو أن كل أنـواع التحليـلات المتنافسـة تخلص إلى خلق خليـط متنافر عام حيث الجميـع يتهم الجميع بمخالفـة الصواب. فالتجار والعلميون يتهمون المستهلكين بعدم العقلانية. لكننا يمكن أن نتساءل هل هنالك عقلانية يمكـن تبنيها ترشدنـا إلى سلوك محترس تجاه المخاطر؟

لنضـع أنفسنا مـكان المستهلك عندما يسمع عن خطر مفترض من منتج غذائي مثل الخيار، والذي هـو ليس جزءاً أساسياً من وجبتـه الغذائية الضروريـة. ففي مثل هذه الحالة ينبغي عليه أن يقوم بمجهود ما، أقله ليستعلـم ويتشاور، ويتخذ الاحتياطات التـي يتم نصحه بهـا، أو إنـه يتابع ويقوم بدعم البيع، إلخ.

فأنـا أمتنع بكل بساطة عـن استهلاك الخيار في هذا الوقت بالذات والفائدة تكون بـأن أحمي نفسي مـن مرض مفترض وقد يكون مخيفاً. وهـذا حساب مربح وعقلاني حتى لو أنه يتضمن الخيال والوهم.

إن إعـادة طـرح العقلانيـة يمكـن أن تحصل حتى في قلب الوسط العلمي كما في حالة أزمة جنـون البقر. فيحدث إما جدل خـلال بين الخبراء أو مجادلة كتابية علمية بـين العلم الموثوق المعتبر علمياً وبين خطاب يوجهه مطلقو الإنذار المعارض.

الجيـل التلقائـي Génération spontanée:

فكرة تستطيـع وفقها العضويات الحية أن تولد من دون أُسر أي من دون أبوين (مثل الأسمـاك التي تنشأ ضمـن حوض). ظلت هذه الفكرة مقبولة في الأوساط العلمية إلى أن ظهرت تجـارب باستور في القرن التاسع عشر التي أثبتت أن هذه العضويات لا يمكن لهـا أن تلد إلا من بذور موجـودة سلفاً في الهـواء. ففي وسط معقـم لا تظهر الحياة تلقائياً.

القلق وارتباطه بالتغذية وقصة المخاوف الغذائية[٤]

تميَّـزَ عـام ٢٠١١م بالبكتيريـا المسماة «إيشيريشيا كـولي Escherichia coli». وقبـل ذلك في عـام ٢٠٠٠م، هاجمت «الليستيريـا la listéria» لحـوم الخنزير المقطعة والأجبـان. وفي عام ١٩٩٦م، ظهر وباء جنـون البقر.. فالواضـح أن الأزمات الغذائيـة تكـثر في تاريخنـا الحديث، لكن إن عدنـا إلى الماضـي، نجـد في الدراسة التـي قامت بها المؤرخـة مادلين فيربير في كتابهـا «تاريخ المخـاوف الغذائية» ما يشبه متحف رسومات لهذه الأزمات منذ العصور الوسطـى، مـن قصة حضرية عـن فطائر محشـوة بلحم الهـررة (أو باللحم البشري)، إلى قضية الخبز الملكي، ثم إلى مرض البقر

الهنغاري... هناك ثلاثة اتجاهات في مؤلفها.

- في البدء كان الخوف من الجوع، الذي استمر إلى عام ١٩٥٠م في فرنسا. اليوم، شبع الآكلون في مجتمعنا فتوجهت المخاوف نحو الكيف أكثر منها نحو الكم. لكن هذين العنصرين كان بالإمكان أن يكونا مرتبطين تماماً: فـ«لوي الرابع عشر» كان يقلق من نوع الأغذية مباشرة بعد حصول مجاعة مريعة بسبب «الأمراض التي تسببها الأغذية السيئة».

- ثم ظهر الخوف من المدة المستهلكة في نقل الأغذية. في كل زمن، كلما كان الوقت قصيراً زادت الطمأنينة. ففي القرن السادس عشر، كان عدد لا بأس به من المواطنين يمتلكون مصدراً للتموين خاصاً بهم يحصلون منه على المنتجات الطازجة.

- وضع الغذاء بحد ذاته. بين متعة التذوق والضيافة أو الصحة، كل فترة وكل ثقافة تؤكد على قيمة معينة تجدها مناسبة يبدو اليوم أن الناس يتطلبون هذه العناصر الثلاثة في آن معاً. هل أصبح الآكِل- المستهلك أكثر تطلباً؟

كان الغذاء في الماضي هو اللحم الذي يفيد في الإبقاء على الحياة. كي يكون الغذاء معترفاً به لا يكفي أن يمتلك صفات غذائية فحسب بل ينبغي أن يكون مقبولاً من قبل الآكل ومن المتَّحَدِ الاجتماعي الذي ينتمي إليه. كما ينبغي أن يمتلك المواصفات الأربع: غذائية، صحية، عضوية، رمزية. ينبغي في البدء أن يكون الغذاء قادراً على إعطاء عضوية الآكِل أغذية للطاقة (غلوسيد وليبيد)، وعناصر فيها أملاح معدنية وفيتامينات، والماء.[٥]

في البلاد المتطورة، البحث عن الطعام لم يعد مسألة تطرح. فغالبية الناس تعرف أنها ستأكل ولن تجوع، لكن المفارقات التي تحدث في ازدهارنا الاقتصادي هي أنها توفر لنا وابلاً من المنتجات التي تغرقنا في قلق تام: ماذا ننتقي؟

ما هو الجيد بالنسبة لصحتنا، وما هو الغذاء الذي لا يزيد الوزن؟

كما أننا نزاوج غالباً بين المتعة والضغط النفسي في تغذيتنا، بينما نجد أن النواهي الغذائية ذات الأصول الثقافية والدينية أو الأيديولوجية تسهل لنا اختيار غذائنا. إضافة إلى أن أذواقنا تتطور مع الزمن.

عندما يصبح الطعام مرضياً[٦]

فوضى السلوك الغذائي، هي حالة أقل شيوعاً اجتماعياً من فقد الشهية للطعام والتي يتم الخلط فيما بينهما في كثير من الأحيان، هي أيضاً مصدر لتعاسة نفسية كبيرة.

الجوع المرضي أو الشراهة هو قبل كل

شيء أحد العرضين السريريين اللذين مع فقد الشهية الذهني للطعام، يشكلان فئة تسمى بـ«اضطرابات السلوكيات الغذائية» والتي تُصنف ضمن المدونة الطبية الرسمية. ورغم الإعلام القوي الذي يحيط بها منذ بضع سنوات، ظلت مجهولة، إضافة إلى إمكانية التباسها بكل بساطة مع فقد الشهية الذهني.

وعكس ما يمكن أن يُظن، فإن الجوع المرضي لم يظهر خلال العقود الأخيرة، بل له تاريخه الخاص به الذي جعله يعتبَر تناذراً[7] لاضطراب غذائي نوعي. ومن المؤكد أنه لا أحد يتحدث عن جوع بصفته مرضاً في ظل الإمبراطورية الرومانية، حيث كانت الولائم الكبرى مليئة بكل أنواع الطعام؛ لكن مع ذلك فهو مرض قديم، وقد دلت إحدى الدراسات[8] أن هذا المفهوم ليس جديداً إذا عدنا وكشفنا في التاريخ فإننا نجد ذكراً للجوع المرضي منذ بداية القرن الثامن عشر. وأقدم ذكر له صدر عن طبيب اسمه: بلانكارت Blankaart الذي تحدث عام ١٧٠٨م عن أشخاص يصابون خلال فترات بـ«شهية عجيبة غير مألوفة» مترافقة بـ«ضعف في عقولهم». وطبيب آخر اسمه جيمس R. James ذكر عام ١٧٤٣م الاهتمام الشديد لبعض الأفراد بالطعام، وبدأ بتمييز أشكال الجوع المرضي المترافق بالقيء أو غير المترافق به. ومن الملاحظ أن بعض المؤلفات أو القواميس الطبية الأنغلو- ساكسونية، مثل قاموس إيدنبورغ الطبي والفيزيائي (١٨٠٧م)،[9] تسهب في تفاصيل عن أعراض الجوع المرضي بشكل أكثر تطويلاً وتفصيلاً مما تذكره عن فقد الشهية إلى الطعام.

وإن أصبحت الأبحاث الأمريكية حول الجوع المرضي نادرة جداً انطلاقاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإن الأطباء السريريين الأوروبيين وعلى الأخص الفرنسيين منهم، تناولوا الموضوع بكثافة وقد وصف بلانشـه P. Blancheza عام ١٨٦٩م الجوع المرضي بدقة لكنه شرحه مشخصاً له على أنه شكل من أشكال مرض المعدة نتيجة لاضطراب عصبي. وفي عام ١٨٩٥م، ذكر سيغموند فرويد Sigmund Freud نوبات الجوع الشديد على أنها من بين أعراض العصاب النفسي الناجم عن القلق، رغم أن فرويد كانت كتابته عن الجوع المرضي قليلة جداً.

وقد تناولت مؤلفات بيير جانيه Pierre Janet الاضطرابات الغذائية؛ فهو يذكر العديد من المرضى المصابين بالجوع المرَضي، الرجال منهم بشكل خاص (الحالات الذكورية ترد غالباً في أدبيات مطلع القرن العشرين بينما الجوع المرَضي «المعاصر»

يختص بالنساء بشكل رئيسي). وقد تمت دراسة الحالات المرضية بهذا الخصوص من قِبَل كاترين كوفرور[10] Catherine Couvreur ووفقها أشارت هذه الباحثة مؤكدة إلى «أن في الحالات السريرية هناك علاقات بين الاضطرابات الغذائية، المحسوسة بدنياً، وبين مشاعر الكرب جراء الشعور بالنقص والضعف».

بناء على ما سبق، نرى أن وصف حالات الجوع المرَضي ليس بالشأن الحديث، لكنه يظل نادراً نوعاً ما، ووجب انتظار عام ١٩٥٠م كي يتم تسجيل سلوكيات الجوع المرَضي التي تزايدت وأصبحت شائعة، لكن بالاشتراك مع فقد الشهية الذهني للطعام بشكل أساسي. وفي عام ١٩٧٩م، كان المحلل النفسي البريطاني جيرالد راسل Gerald Russell الأوّل في تشخيص «الجوع المرَضي العصبي bulimia nervosa» بصفته تناذراً خاصاً بذاته.

ماذا نعرف عن الجوع المرَضي في الوقت الراهن؟

حتى لو أنه من الصعوبة بمكان تقدير عدد الأشخاص المعنيين، فإن القيمة المقبولة عموماً هي بنسبة ١٪ من تعداد السكان العام (ويتحدثون اليوم بشكل متزايد عن هذا المرض وكأنه وباء معدي، وهذا ما ينوه له بعض المؤلفين). وتشير الدراسات أيضاً إلى أن الجوع المرَضي يخص النساء بشكل رئيسي- أي في أكثر من ٨٠٪ من الحالات- ويصيب خصوصاً الطبقات الميسورة، ذات الثقافة الغربية والعرق الأبيض.

هوس الوزن، رغم التخمة

ميشيل لو بارزيك Michelle le Barzic وماريان بويون Marianne Pouillon اختصاصيان في علم النفس يعملان في مؤسسة تغذية، يقدمان وصفاً يلخص المعلومات الهامة حول الموضوع[11] يبدأ هذا المرض بشكل عام في نهاية سن المراهقة (وغالباً بعد حميات غذائية)، ويمكن تصنيفه في سجل سلوكي ذي وجهين: تناول الطعام بشكل غير مضبوط ومفرط، مترافق مع إستراتيجيات مراقبة الوزن (من خلال الإقياءات، واستخدام الملينات المعوية والمسهلات، وفترات صيام مع مسهل قوي المفعول، أو تمارين رياضية شديدة).

الشخص المصاب بالجوع المرَضي مصاب في الواقع بهوس عدم الوقوع في السمنة أي في تزايد وزنه، فيبحث عن تعويض فيما تقدمه الحريرات في كل أزمة وذلك بكل الوسائل الممكنة(وسطياً ٣٥٠٠ حريرة، إلى ١٠٠٠٠ وحتى إلى أكثر من ذلك). ليس الجوع هو الدافع إلى التخمة بهذا الشكل، بل حاجة قهرية ملحَّة يتم ترجمتها بظهور الأزمة التي لها أربع مراحل:

أولاً: مرحلة ما قبل الأزمة، وتتميز بارتفاع «ضغط منتشر ومبهم بشكل غير قابل للتحديد، اجتياحي، يدفع المريض إلى الأكل بشراهة محاولاً مقاومتها بشكل أو بآخر، لكن من دون جدوى في أغلب الأحيان».

أما خلال الأزمة نفسها، فالمريض لا يأكل بل يبتلع كل ما يجد من طعام بطريقة قسرية وكأنه مكره على ذلك، من دون تهيئة ولا حتى طهي. غير أنه في بعض الحالات، تكون الأزمة متوقعة، فيتم التهيئة لها بعناية، ويتم اختيار الأطعمة مسبقاً. ثم بعد ما يقارب الساعتين إلى ثماني ساعات من العربدة الغذائية، تظهر فجأة حالة ما بعد الأزمة التي تجلب «الارتياح والشبع والنعاس» وذلك قبل حصول مجموعة ظواهر تابعة للأزمة والتي تتم معناها وإنذارها وحصتها من الخجل والشعور بالذنب والاشمئزاز من الذات مع شعور عميق بالوحدة.

إن مراحل أزمة الجوع المرضي يمكن أن تذكّر بمدمن المخدرات، وحالات عديدة سجّل فيها حالة «الحرمان» والكبت. كما أن العلاقة بين الجوع المرضي والمعاقرة والإدمان أصبحت مقبولة أكثر فأكثر في الأوساط العلمية.

إن تنـاذر الجوع المَرَضي يجتاح أفكار ونشاطات المرضى وحياتهم بمجملها تُبنى حول أزمات. لكن تأثيره المركزي على حياة الأشخاص المصابين به يتعايش بشكل متناقض مع ضعف ظهوره الاجتماعي.

الإستراتيجيات المعوِّضة تسمح لهم بالاحتفاظ بالوزن بشكل ثابت نوعاً ما، وحصول هجمات الجوع المرضي والتي تعالج بسرية تامة، يمكن أن تظل لمدة طويلة متلائمة مع الحياة الاجتماعية والعائلية والمهنية الغنية والمنسجمة. أمَّا المرض فقد يتطور خلال سنين عديدة من دون أن يشعر به المحيط أو حتى أن يشك به.

لكن كيف يحس الأشخاص المصابون بالجوع المَرَضي بأنهم مصابون به؟ بالنسبة إلى بارزيك وبويون M. le Barzic et M. Pouillon، «فهم يخضعون لأزمتهم ويحلمون بالتخلص منها. وبما أنهم مضطربون من الخجل، ويستبد بهم الرعب من أن تكشف حالتهم، فيحرصون على الاحتفاظ بكل الرموز الخارجية للاندماج التام، تلك الرموز والمظاهر التي تكفل لهم مكانة مرموقة في مجتمعهم». فالمرضى المصابون بالجوع المَرَضي ينفذون بدقة القواعد والنواهي الاجتماعية السائدة لكن بدرجة مفرطة في الامتثالية والتقيد بالأعراف.

هناك العديد من التفاسير المتقدمة لشرح تكوين هذا المرض. لكن بما أنه يتعلق بالنساء بشكل رئيسي، ويبدو أنه أصبح

يصيب الأشخاص بشكل متزايد، فهو يجلب حججاً إلى المشتركين في أصل ثقافي(١٢) واحد يدخل فيها الموقع الاجتماعي للمرأة. وبذلك يكون إملاء النحافة كأمر مفروض قد جرد المتهمين من حقوقهم المدنية. والمدافعين عن حتمية التحليل النفسي يهتمون بالعلاقة التي تربط الأم بالابنة، وفي أهمية العامل المسبب للكآبة أو بفرضية نرجسية مرضية تظهر باهتمامات المراهق بجسده. فالمقاربة المنهجية للجوع المرَضي تتناول دراسة هذا المرض بصفته عرَضاً واضحاً يظهر من خلال علاقات أسرية مرَضية. والاستعداد الوراثي قد تمت دراسته أيضاً، لكن الآلية الوظيفية لبعض الأعصاب الناقلة neurotransmetteurs مثل السيروتونين sérotonine، والذي له علاقة بالشعور بالشبع، لم تتم دراسته إلا منذ فترة وجيزة. لكن بشكل عام، فإن غالبية الباحثين متفقون على أنه لا يمكن تفسير تناذر الجوع المرضي من زاوية واحدة. إن فهم هذا المرض يمر عبر تمفصل مستويات عديدة في التحليل، مع حتميات عديدة اجتماعية وعائلية ونفسية وبيولوجية.

ويبقى هناك العديد من الشكوك بصدد موضوع تناذر الجوع المرضي وخصوصاً مستقبل المصابين به لأن تطوره على المدى البعيد لا يزال مجهولاً. إضافة إلى ذلك هناك تساؤل: كيف يتم الفصل بين الحتميات الأولية التي هي أصل تكوين الجوع المرضي وبين الحتميات الثانوية؟ يبقى هذا التساؤل موضوعاً للجدل. وعلاقته بفقد الشهية الذهني – حيث إن هذين الداءين يتشاركان بأعراض واحدة مثل الاهتمام بالوزن وشكل الجسم – والاختصاصيون ليسوا متفقين لتحديد ما إذا كان هذان المرضان يصنفان في المجموعة نفسها أم على العكس من ذلك يشكلان اضطرابين متميزين.

الهوامش

الهوامش

١- كلود فيشلر Claude Fischler، اختصاصي في علم الاجتماع ومدير البحث في CNRS، واختصاصي في التغذية والمخاطر الغذائية، من مؤلفاته: «L'Homnivore»، و«Le goût, la cuisine et le corps الذوق، والطهو، والجسد، طبعة ثانية ١٩٩٣م». أوديل جاكوب ٢٠٠١م، مع إيستيل ماسون، أن نأكل. الفرنسيون والأوروبيون، والأمريكان في مواجهة التغذية، أوديل جاكوب، ٢٠٠٨م

Odile Jacob, 2001, et avec Estelle Masson, Manger. Français, Européens et Américains face à l'alimentation, Odile Jacob, 2008.

٢- المصادر: ميشيل بير غادة وبرتران أوريان، «الخطر الغذائي كخطر حيوي في الاستهلاك»، المجلة الفرنسية للإدارة ٢٠٠٦/٣م (رقم١٦٢).

• Michelle Bergadaà et Bertrand Urien, «Le risqué alimentaire perçu comme risque vital de consommation», Revue française de gestion 32006/ (no 162).جيل فوميو، الأطلس العالمي لفن الطهي ولفن حسن الأكل (الذواقة). Gilles Fumey, Atlas mondial des cuisines et gastronomies, 2004-

3- once in contact, always in contact- التماس لمرة واحدة والتماس الدائم.

٤- مادلين فيريير، تاريخ المخاوف الغذائية من العصور الوسطى إلى مطلع القرن العشرين، إصدار سوي ٢٠٠٢م

Madeleine Ferrières, Histoire des peurs alimentaires. Du Moyen-Âge à l'aube du XXe siècle, Editions du Seuil, 2002.

٥- جان- بيير بولان، أستاذ محاضر في جامعة تولوز- لو- ميراي، اختصاصي في علم الأنتروبولوجيا الاجتماعي، ومدير مركز دراسة السياحة وصناعة الاستقبال (سيتيا)، ومؤلف كتاب علم التغذية الاجتماعي

Socio-anthropologue, maître de conférences à l'université de Toulouse-Le Mirail, directeur du Centre d'étude du tourisme et des industries de l'accueil (Cétia), auteur dç Sociologie de l'alimentation, Puf, 2002.

٦- جيل مارشان Gilles Marchand.

٧- تناذر: تزامن أعراض مرض من الأمراض.

٨- د.م.ستين ولاكسو، «الجوع المرضي: رؤية تاريخية» المجلة الدولية للاضطرابات الغذائية، الجزء السابع، رقم ٢، ١٩٨٨م-

D.M. Stein et W. Laakso, «Bulimia : A historical perspective», International Journal of Rating Disorders, vol. VII, n° 2, 1988..

9- The Edimburg Medical and Physical Dictionary

١٠- كوفرور، «مصادر تاريخية ورؤى معاصرة»، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي

C. Couvreur, «Sources historiques et perspectives contemporaines», in B. Brusset, C. Couvreur et A. Fine (dir.), La Boulimie, Puf, «Monographies de la revue française de psychanalyse », 2002.

١١- لوبارزيك وبويون، أفضل طريقة للأكل، أوديل جاكوب، ١٩٩٨م.

M. le Barzic et M. Pouillon, La Meilleure Façon de manger, Odile Jacob, 1998.

١٢- غيومو ولاكسونير، فقد الشهوة الذهني للطعام والجوع المرضي. التأثير الثقافي، ماسون ١٩٩٧م.

A. Guillemot et M. Laxenaire, Anorexie mentale et boulimie. Le poids de la culture, Masson, 1997.

شاعر

سليمان العيسى ✪



سأفقِدُ رُشدي
إنْ أكنْ
بيَ مفتونا

• • •

ثمانون عاما
أكتبُ الشعرَ مرسلاً
وأكتبه حيناً مُقفّى وموزونا
وماقلتُ يوماً مرّةً
أنا شاعرٌ

حسبي..
أنا لستُ أطمعُ
أن أُجيلَ أعنَّتي
فوقَ الهضابِ
وأن أجوبَ الوادي

✪ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

حَسْبي من الدنيا إذا ما أعرضَتْ
وَنأتْ ثُمالةُ رشفةٍ للصادي

* * *

أقدام مجنونة

إلى الفنان خضر عبد الكريم
وأقدامه المجنونة..

إبْداعُكَ يا خِضْرُ اسفَحْهُ
عَبْرَ الأقدام المَجنُونَة

مَنْ قالَ بأنَّ روائِعَنَا
أبداً في الأعلى مكنونَة؟
اِخضِبْ بالأقدامِ الصُّبْحَا
اجعَلْه ينزِفُ ألوانا!
دنيانا لولاها سِجْنٌ
بِخُطانا عُرِفت دنيانا

٢٠١٠م

تداعيات فارس بني عبس

شعر: محمد خالد الخضر ❁

إلى حنين الروح والوطن

كان اللقاء على اعتراف الجرح أغنية لفصل الروح..

أبهى من ربيع العمر..

أنت قضية أخرى، وكنت أود أن أنهي دمي

وهو اخضرار العشق حتى لا أعود فجاء

وجهك كالضياء.

وبلا سؤال كان فاجأني الشتاء معجلاً

بالموسم الآتي..

حنين الروح أنت..

آخر الأحلام والفرح الجديد.

❁ ❁ ❁

أنت الربيع الحلو أحمله وساماً فوق جرحي

كي أبوح بما يغلبني..



ومعراج الهداية سوف يمنحني أماناً..

جئت أحكي، إنها عيناك تحملني وتمضي للسماء.

ومن الذي أخشاه يا عبل الهوى؟

❁ أديب وشاعر وصحفي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

إني الفتى العبسي أطلع من سواد الليل وأفترس

الصحاري والظلام.

أمضي لأجلك رافعاً سيفي

أرد الغزو أقتلع الرؤوس إذا حان القطاف.

وأصارع الذئبان في حرم القبيلة.. إنه وطني

يساوي الكون..

وهو محمل بعبيرك العربي يا عبل المحبة والندى.

«ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني

وبيض الهند تقطر من دمي»

فوددت أن أمضي لأجتاز المنايا.. وكان البحر

عنواني، وأحلامي الرجوع.

○ ○ ○

قاضي سدوم

هذا الغشوم.

أعطى الذئاب تخوم أرضي..

كان يحكم والنساء أمامه سكرى يحركها

الفجور.

والرهط حولك يهمسون:

غداً يضيع على الفلاة وينتهي

فيراودون الأرض عن تاريخها ويسلمون

الضيف للأعداء والحلم الجميل.

○ ○ ○

قالوا: لعبلة مهرها الغالي..

وعبس سوف تمنحك القيادة والخيول.

ألقي برمحك أنها نوق السياسة والرهان.

والليل يبكي والربابة والنخيل.

ونساء عبس هيأت بخبائها وجعاً ليوم أسود..

قالت سمية: قد كذبت، وكنت أعشقه وأرغب

أن يضاجعني فأنشد للوطن.

وهناك في الصحراء قاتلت اللصوص.

وأتيت بالمهر الثمين.

«وكتيبة ألحقتها بكتيبة»

والنوق حولي كالعصافير السعيدة إنها مهر

الوطن.

«يادار عبلة بالجواء تكلمي»؟!

لا عبل تمنحني الغرام ولا الخيول على

التخوم.

سلبت قريظة كل ما تحوي القبيلة من

طعام.. أو نساء.. أو جياد..

ثم باعت عبلة التاريخ في سوق التجارة

والعبيد.

واستأجرت من يسحب الشرف الرفيع من

النفوس ويزرع الفكر الجديد.

القادمون من السراب تقاسموا حلمي وعبلة

والطحين.

وأنا على جرح الحدود تشدني نار الحنين.

ورأيت عمي مالكاً متراقصاً بين المذلة

والغريب.

ورأيت شداد القبيلة شارداً وعبير عبلة في

البلاد.

يبكي كما تبكي الخمائل والجداول والوهاد.

والرافعون سيوفهم بين الفجيعة والحياد.

لا شيء يوصلهم إلى أظعانهم.

هجرت مرابطها الجياد.

° ° °

وأنا أتيت بكل ما ملكت دمائي من إباء.

هذي القبيلة كيف تقبلنا معاً.

سأعيد عبلة فاحملوا تاريخكم وتفرقوا..

وتناقلوا خبر الوقيعة وانتهوا..

بيني وبين حبيبتي تمتد أحلام البلاد.

قصص قصيرة جداً

نجيب كيالي*

أشواق حائط

بنتُ الجيران ذاتُ الأربعةَ عشرَ ربيعاً فوق السطح.

البنت تلعب وتلهو وكأنها مازالتْ دون العاشرة!

الهواء شربَ خمرةً، وراح يلعب معها!

اصطفَّتْ مع أترابها، ليتبارَيْنَ في لعبة خطرة.

حائطٌ عريضٌ واطئٌ، يفصل بين سطحين يُرِدْنَ القفزَ من فوقه.

قفزتْ واحدةٌ، اثنتان، جاء دور البنت ذاتِ الأربعةَ عشرَ ربيعاً.

حين رآها الحائط اخضرَّ قلبه، وفي الداخل بين ترابه وحجارته نبتتْ أزهار الشوق.

توهَّجَ وزَها، وربما زاد طولاً وعرضاً، ومع وثبة البنت جرى أمرٌ مؤسف..

سقطتْ ذاتُ الأقمار على ذراعها!

صرختُها رجَّتْ صدرَ الحائط.

الخدوش التي أصابتها جعلتْ كلَّ حبةِ تراب فيه قطرةَ دمع.

وقضى بقيةَ عمره يُخبِّئُ وجهَهُ من السماء، ويعتذر.

• • •

البقعة الزرقاء

يصعد وينزل إلى الشاحنة، يسبقه هسيسُ أنفاسه.

فوق ظهره كيسٌ كبير، يمرُّ به من باب واطئ ليضعه في صدر المكان.

* كاتب وقاص سوري.

أثناء مروره الحادي والثلاثين صطدمتْ رأسَهُ قنطرةُ الباب صدمةً عنيفة، لم يصرخ! ربما صرختْ بالنيابة عنه البقعةُ الزرقاء على جبينه.

• • •

ابن رشد

خـرجَ ابن رشد من قـبره، وعاد مقوَّسَ الظهر مبتلَّ العينين!

في جلسة المواساة التي أقامها له أصدقاؤه الموتى سألوه عن سبب بكائه، فأتاهم صوته كأنه خارجٌ من تنور:

– كيف لا تنفجر عيناي؟ وقد طفتُ بلادَ الأجـداد طولاً وعرضاً، فوجـدتُ أصحابَ الأحنـاك الكبـيرة مازالـوا في مجالسهـم يتكلمون، والعامة تسمع وتهز الرؤوس! الغبار يبتلع كلَّ شيء! والنـومُ يتساقط من العيون ويترك بقعـاً في الهواء وفوق الصدور وعلى النوافذ! ومع هذا كلّه مازالوا يلعنونني بعد قرون وقرون، لأنني خرجتُ إلى أعلى شرفة وقلت: العقل أكبر!

• • •

أبو العُقَد

وقفَ شَعرُ رؤوسهم حين رأوا (أبا العُقَد) في المسجد!

عيونهـم انقلبـتْ عصافـيرَ مذعورة، طارت، حطَّتْ، تساءلتْ: ماذا يفعل؟!

هـو صاحـب نفـوذ كبـير في البلـدة، يخافه الجميع، وفيمـا بينهم يلقبونه ألقاباً كثـيرة: (أبو العُقَد)، (المدحلـة)، (مغضوب الوالدين).

اللقـب الأوَّل أشهرها، لأنَّ الرجل أخرجَ عُقَدَهُ، ودمَّرَ حياةَ كثيرين.

كان أبو العُقَد في المسجد!

كامـلَ الكرش، كامـلَ الصلعـة، كاملَ اللياقة!

يضغط جبينه على السجاد، ويُمرِّغه!

سجدةً.. اثنتين.. ستاً.. عشراً!

ربطةُ عنقه حمراء تغيب تحته وتظهر. بنطاله البنّيّ يرسم في الهواء قُبّةً غليظة المنظر، أسطورية الحجم.

سبحـان مُغـيِّر الأحـوال.. هـل تـاب الرجل عن شُرْبِ الأحمـر والأصفر، وطلَّقَ المعاصي؟

تجمعت الهمساتُ، صنعـتْ ممراً سرياً للأخبار، فعرفوا ما يلي:

إنَّ مسؤولاً كبيراً قادم ليصلي صلاةَ العيد في البلدة، أبو العُقَد أمرَ بتبديل السجاجيد في المسجد الكبير، وقد جاء بنفسه ليطمئن على كثافة المخمل ونعومته!!

• • •

يوسف العربي

قذفوا يوسفَ في الجب مرةً أخرى!
فَعَلوها أمام الملأ هذه المرة!
عيونُهم كانت حمراءَ، وصدورهم منفوخة.
لم يرسلوا لأبيهم قميصاً عليه دمُ ذئب.
اكتفوا بإرسال الخبر بلا مواربة!
وقبل أن يغادروا المكان تركوا فوق الجب رقعةً مكتوباً عليها: (مَنْ مدَّ ليوسفَ حبلاً فهو عدونا)!!

● ● ●

ضمير نصب

هرولَ الضمير (أنا) إلى مخفر الشرطة، تجمعتْ من حوله رؤوسٌ مغطاةٌ بالقبَّعات، دارَ في وسطها صائحاً:
- طوالَ عمري وأنا ضمير رفع.. ألم تسمعوا المعلمين يقولون عني: مبتدأ مرفوع، فاعل مرفوع؟ لكنَّ الناس جعلوني -في هذه الأيام- ضميرَ نَصْبٍ وبلعٍ وشَفْط، فالكلُّ يحمل أناه، وينصبُ ما وصلتْ إليه يداه! تلك الساحةُ مثلاً نَصبَها فلانٌ باسمه! ضوءُ الشمس نَصبَهُ علاَّن إذ سدَّ شبابيكَ القبو على جاره، وتركَ الضوءَ له وحدَه! الهواءُ منصوبٌ أيضاً! والزهرُ منصوب! وأنا نفسي-كما أخبرتُكم- جعلوني ناصباً ومنصوباً ونصَّاباً، ولم يأخذوا رأيي!!

● ● ●

رسالة طفولية

بابا الغالي.. أكتب إليك هذه الرسالة لأقول: أنا متأسفة.
خجلي منكَ كبيرٌ جداً، أكبرُ من الشجرة التي في بيتنا! هل تُصدِّق لو أنك عدتَ الآن من الجزائر لخبَّأتُ وجهي منك، ولما عرفتُ كيف أسلِّم عليك؟!
عندما اتصلتَ بنا بالهاتف منذ يومين تحدثتَ مع الجميع، واطمأننتَ عليهم، ثم طلبتني لأحكي معك، لكنني هربتُ إلى غرفتي! قد تظنُّ أنني فعلتُ ذلك لأني لا أحبك، أو أنا غير مشتاقة إليك. أبداً يا بابا أبداً وحياتك. المشكلة أنني كلما جئتُ لأحكي معك بالهاتف ترتجف ذقني، ترتجف، ولا أعرف لماذا؟! أمسكُها بيدي، لكنها ترتجف تحت أصابعي! ماما تقول لي: أنتِ حساسةٌ جداً، وتحبين أباك كثيراً، وعندما تسمعين صوتَهُ ترتعشين، ولا تعرفين رأسَك من رجليك! حدثَ هذا في المكالمات السابقة، وأظن أنك لم تفهم شيئاً من كلامي معك، لهذا هربتُ يا بابا من مكالمتك الأخيرة، ولهذا أنا متأسفة. سامحني.

● ● ●

الصورة



أمامَ صورة الأب في الصالون تقف الأم، مزاميرُ الغضب تنفخُ في روحها:

- مــاذا أقول لكَ يا سيــد.. ماذا أقول؟ تركـتَ لي أربعةَ قرودٍ وسافرتَ! أعرف أنك تشتغل وتحتمل الغربة من أجلنا، لكنَّ قرودك لا يهدؤون، لا يسمعون الكلمة.. البارحة مثلاً دفـعَ (وليد) مدفأةَ الصالون، فغطس البيتُ كلُّه في اللون الأسود! اليوم لعبَ منذر بكرته في المطبخ، فنزلتْ في قِدْرِ الطعام! أريد حلاً عاجلاً، فأنا لم أعد أحتمل.

يبتسم الأب ذو الطاقيــة المائلة، فتزيد مزاميرُ الغضب نفخاتِها في الصدر المتعَب:

- يــا سلام.. بدلاً مــن أن تخفف عني تضحــك، وتستهزئ! بسيطة عندما تأتي في الإجازة سأترك البيت لك ولهم. هل تسمع: سأترك البيت؟

وعندما يأتي الأب تقيم له الأم مهرجاناً، وتنسى تهديداتها!!!

• • •

عمل محترم

صار الأستاذ عمــر حامل الدكتوراه في التاريخ كبالونات العيــد، نَفَخَهُ، وطيَّرَهُ خبرٌ صغير، نقله إليه رجل الأعمال فائق بك:

- دبَّــرتُ لكَ عقدَ عملٍ في بلد من بلاد الذهب الأسود!
- أستاذ جامعة.. أليس كذلك؟
- سكرتـير محترم عنــد صديقي الأمير رشوان.

فرغَ البالون من هواء الفرح:

- سكرتير؟.. أنا!
- لا تُضع الفرصة. جهِّزْ نفسك للسفر.

في الرسالــة الأولى إلى أهله لم يذكر عن عملــه شيئاً! سألوه هــم في رسالتهم، فبعث إليهم قصاصاتٍ ورقيــة على شكل أسماك صغيرة! ضحكــوا، ثم انتبهــوا إلى أنها من

شهـادة الدكتور عمر نفسهـا! أعوذ بالله..

هل جُنَّ دكتورهم؟!

جاءت رسالته التالية:

أحبائي..

اطمئنوا.. أنا أعمل معاون صياد سمك.

الأمـير رشوان ضعيف البصـر، ويصرُّ على صيد السمك بنفسه! ولأنَّ الشاطئ صخريّ تعلّقَ السنارة عشرات المرات، وعلى السكرتير أن يغطس، ويفكها.. ساعات تنقضي كلَّ يوم حتـى يصيد أميري بضعَ سمكات تمكّنه من الفخر بمواهبه!

• • •

ذراعان حنونتان

فتحَ زوجُ الأم فمه كتنور، وصاح:

– لا أريد ابنك يا شهيرة.. لا أريده.

بانكسار ردَّتْ شهيرة:

– لكنه لحمـي ودمي يا عبد الجبار. ألم نتفق يا حبيبي قبل الزواج على أنه سيعيش معنـا؟! هل أرميه في الطريـق؟ فأبوه أيضاً لا يريده!

ازدادتْ فوهـة التنور اتساعـاً، وزمجر الزوج:

– اتفقنـا أو لم نتفـق. إننـي أكرهـه.. أكرهـه. هل يعيش الإنسان مع ما يكره! إنه أولاً يُذكّـرني بزواجك القـديم، وثانياً هو مؤذٍ كالقرد.. كالأفعى. انظري لقد كَسَرَ لي نظارتي!

في تلك اللحظة دخـل أكرمُ ابن الزوجة من الباب، فالتقطه زوجُ أمه، أراد أن يقذفه إلى الكنبة، لكنه قذفه إلى النافذة المفتوحة. ربما عدمُ وجود النظارة على عينيه جعلَهُ لا يميز بين الكنبة والنافذة.

طـار الطفل في الهواء ككـرة مُحلِّقاً من الطابـق الثاني، فمدَّتْ شجـرة (الأكيدنيا) التـي سمعت الحديـثَ من أولـه أغصانَها كذراعين حنونتين، وتلقَّفتْه.

حَمَلَهُ غصنٌ من أغصانها، وانحنى معه بهـدوء حتى أوصله إلى الأرض، وحين وقف الطفل علـى قدميه سليماً قالـت الشجرةُ دامعة العين:

الحمد لله على السلامة.

• • •

انقلاب كوني

أفـاق البحـر ذاتَ فجـر، لم يجـد الأسماك!

أفاقت الأشجار، لم تجدِ العصافير!

أفاق الرضيع، لم يجد حلمةَ أمه!

أفاق عقد اللؤلـؤ، لم يجد صدرَ الصبيَّة الذي ينام عليه!

أفاقت الضحكات، لم تجد نفسَها!

أفاقت البلاد، لم تجد صورتَها في المرآة!

أفاق الحزن، فوجد لنفسه طريقاً واسعاً يصله ببقايا الكائنات!

ناديا.. أحبيني

✪ د.جرجس حوراني

مرّ اليوم الثالث ومازلتُ متسمرة في هذه الزاوية كعمود الكهرباء، أنتظر صبحي الذي لم يعد حتى الآن.

لم يتأخر عني من قبل، فمنذ اليوم الأوّل الـذي استلمني فيه، أعلن لي أنه لن يتركني إلا إذا طـردوه مـن وظيفتـه، وطبعاً هذا الاحتمال مرفوض حالياً لأنه لو حدث ذلك لتوجب عليه أن يرجعني إلى مديرية النظافة خوف أن يغرموه بثلاثة أضعاف ثمني، وهو غير قادر على الدفع، إذن احتمال طرده من الوظيفة مرفوض..

لسـت مشتاقة إليـه، لا..لا أستطيع أن أحدد ذلك بدقة! لكنني قلقة على مصيري. لقـد تعودت على صبحي، وكل ما أخشاه أن يأتي موظف آخر يستلمني، وأبدأ من جديد حكاية التحمل. كل الذين مرّوا عليّ تحملتهم، وكنت أتمنى أن أجد منهم من يسمعني، ولو لمرة واحدة. لكن في الأحوال كافة كان صبحي أكثر مـن أحس بي. كان يدفعني أمامه وقد بدا عليه الإرهــاق، وبعد خطوتين يبدأ بهزّ رأسه وتململه يكنس الشارع ويلملم الأوساخ ويرميهـا في حضنـي وهو يقـول: مسكينة أنتِ! هذه الكلمة أفرحتني لأنني شعرت أن هناك من بدأ يفهمني وربما سيكون مستعداً كي يسمعنـي عندما ينتهي من حكايته التي أضجرتنـي مـن دون أن تنتهي، لكنه تركني مـن دون أن أعـرف سبباً لذلـك أو ما هو مصيره أو أين هو الآن؟

كان مـن الواجـب عليـه أن يخبرني، لم يعـد بيننا أسرار. ثلاثة أيـام لم أتحرك من مـكاني، ولم يقترب أحد منـي، كأنه وهبني حصانــة، لاشـيء سـوى نظـرات المارين

✪ كاتب قصة قصيرة، من سورية.

المتسائلة والمندهشة والضاحكة.. يا له من شيء مثير! لا أحد يدفعني، لا أحد يرمي في حضني مهملاته، لا شيء سوى المكنسة وبعض النفايات التي جمعها صبحي وتركها قبل أن يختفي. لكن أين هو الآن؟ أخشى أن يكون قد أصابه مكروه. كان طيباً، وحزيناً. ولا أعرف هل الطيبة والحزن رفيقان لا يعيش أحدهما بعيداً عن الآخر؟

أتذكره جيداً عندما جاء إلى مديرية النظافة، كان ذلك منذ ستة أشهر، لم يكن وجهه حليقاً لكنه كان باسماً، وعيناه تبرقان بالأمل، وعندما خرج من مكتب المدير، تقدم نحوي كأنني معه على موعد، ترك كل الحاويات وانتقاني، وقال وهو يدفعني أمامه: أنت الأجمل يا صديقتي، الباقيات مصنوعات من الحديد، وأنا أهوى الخشب الحنون، وإن سألت لماذا لن أجيبك، لكنني لاحقاً سأعرف ومن خلال اعترافاته لي أنه يعيش في إحدى الحارات الضيقة البعيدة عن المدينة أمّا هو فكان يراها بعيدة عن العالم والناس والحياة، ثم إنه حدد لي بيته تماماً فقال إنه بقايا بيت لأن والده هو من بناه من الحجارة المتبقية من هدّ إحدى البنايات، فكان كل حجر مختلفاً عن الآخر وكانوا ينتظرون أن يقع البيت في أي لحظة لكنه حتى الآن لم يسقط مخالفاً للتوقعات، ولقد قال لهم الوالد رداً على تخوفاتهم: مادام

الله قد أعمى عيون مراقبي البلدية عنه، فإنه سيحميه أيضاً من غضب الطبيعة.. وسوف يحدثني عن عائلته البائسة، وقتها عرفت كم ينقصه حنان.

إذن، هكذا بدأت صداقتنا. كان مرحاً، يلاطفني، ويلقي عليّ تحية الصباح، ثم يجلس بداخلي يحتسي كأس الشاي الذي يحصل عليه من أصحاب المحلات الذين كانوا يدللونه أحياناً بالشاي والدخان كي ينظف أمام محلاتهم وهي خارج نطاق عمله، وكان يفعل ذلك بعد أن ينتهي من سيجارته وهو يقول لي: الملاعين سيعلمونني التدخين، لكنني أعدك يا صديقتي أن أصمد أمام رياح الإغراء، لكنه لن يفي بوعده. آه كم كان رقيقاً هذا الشيطان! وعند وصوله إلى أي مكان يملأه بالضجيج والحركة، كان يقول لي: إنه عملي ويجب أن أنجزه بمحبة وهذا يسهل مهمتي ولا يشعرني بالدونية بين هؤلاء القوم. هذه هي المرة الأولى التي أخاف عليه، وخفت عليه أكثر عندما زجره أحدهم وهدده بالطرد من عمله لأنه وجد بعض الأوساخ في زاوية بالقرب من منزله، عندها قال لي: مخلوقات صغيرة نحن يا حبيبتي ويجب أن نتحمل نزقهم. تمنيت وقتها أن أبكي.

تعوّد صبحي أن ينتهي من عمله باكراً ويصطحبني إلى الحديقة العامة، حيث

يتركني قرب الباب، ويشتري سندويشة فلافل ويجلس على المقعد تحت شجرة الأكاسيا، يلتهمها بشهية، ثم يتمدد على المقعد لمدة نصف ساعة، قبل أن يختفي خلف غرفة البستاني حيث يغير ثيابه، ويعود إليّ من جديد، يضع بداخلي ثياب العمل ويقول لي: ذاهب في مشوار، لن أتأخر، انتظريني هنا، لا تهربي، ويضحك. وبعد خطوتين يلتفت إليّ وكأنه مطلوب منه أن يبرر لي: الزبالون يمكن أن يكون لهم مشاوير أيضاً.. بادئ الأمر كان يعود فرحاً، ويقول لي: لا تستغربي، صبحي وقع في الحب يا صديقتي، ثم يحدثني عن فتاته التي كان يراها وهو ينظف الساحة أمام بيتها، يقول لي: جميلة مثل الحبق. ومع الوقت تبدّل حاله، فصار يعود منزعجاً، وذات مرّة رجع بثياب مبللة. قال لي: ليس المطر، لكنهم رموا عليّ سطولاً من الماء وأعتقد أنه لم يكن ماء لأنني شممت رائحة واخزة. هل تصدقي ذلك؟ كنت أعتقد أنني يمكن أن أنسى عذاباتي في تلك الحارة اللعينة بالحب هنا، لكن على ما يبدو العشق ليس لنا.. ويلبس ثياب العمل ثم يدفعني وهو يقول لي بعصبية: مدينة، ليست مدينة، إنها ضيعة كبيرة، لكنها على ما يبدو لا تحب الزبّالين. أتعجّب من صبحي، يريد أن يعشق وهو لا يملك ثمن رغيف خبز، وهل يبني الكلام بيوتاً؟

العشق.. العشق، أين أنت يا صبحي منه! له ناسه، ابتعد عن ناره يا صبحي. هكذا وددت أن أصارحه، لكنني لا أريد أن أزيد جراحه، سأقول له ما أفكر فيه عندما يأتي دوري بالشكوى ودوره بالإصغاء. لكن على ما يبدو فإن نار العشق لا تخبو، لأن صاحبي صار يهرب من عمله كثيراً ويأتي إلى هذه الحديقة حيث يلبس ثياب اللقاءات الحميمة كما يود أن يسميها، لكنه يعترف لي ضاحكاً: ليس عندي غيرها، صلي لي ألا تتسخ. يتركني طي وحدتي وقلقي عليه ويمضي. سأقول له عندما يأتي دوري بالحكي أنني صرت أشاركه العشق، حتى إنني أرتجف كلما ذهب، أتمنى أن ينجح، لكنه كل مرة يعود خائباً. قال لي: كانت تفتح النافذة وتطل لمدة دقيقة مثل شجرة الأكاسيا التي نستريح قربها في الحديقة، تلوح لي، وتبتسم فتبان أسنانها البيضاء، يرفرف قلبي مثل حمامة، لكنها الآن لم تعد تفعل خاصة بعد أن رمت منذ يومين أكياس القمامة، ترى هل عرفت أنني زبّال؟ لا يهم سأرابط هناك مثل جندي، لابدّ في النهاية أن أنتصر.

بكى صبحي، فاحترق قلبي، ليتني أستطيع أن أساعده. وهذه المرة لم يذهب إلى

بيته، لكنه نام في حضني، كنت أعرف أنه لم ينم، لكنه كان يفكر.

وفي اليوم التالي عندما انتهى من مهمته، أخذني إلى مكان لم أزره من قبل وتركني هناك حيث قام شاب بفركي بأداة أوجعتني، ومن ثمَّ قام بطلائي بمادة ذات رائحة قوية، وفي المساء استلمني صبحي وقد غدوت بيضاء اللون، من دون أن أعرف ماذا ينوي أن يفعل هذا العاشق الخائب.

قضى وقتاً طويلاً وهو يكتب على أوجهي الأربعة بلون بني، وكان يردد قائلاً: إنه لون الدم الذي يجري في عروقي، صار بنياً من الأسى واللوعة، ولابدَّ أن يجعلك تحنين، صبحي بحاجة إلى الحنان. ثم نام في حضني.

طلع الصباح على إعلان مكتوب عليّ: «ناديا .. أحبيني»

كان الإعلان كبيراً واضحاً لكي تراه ناديا مهما كانت ساهية وغير مبالية، وكان كئيباً بما يكفي لملامسة شغاف قلبها الحجري. وهكذا دفعني صبحي وانطلق بي إلى حيث تسكن حبيبته، وراح ينظف هناك، وهذه المرة لم يغير ثيابه، لكنني كنت فرحة لوجود رجل في هذا العالم المليء بالأحداث الموجعة، رجل لا همّ له إلا أن تحبه ناديا، آه كم تمنيت أن تفتح نافذتها وتقرأ الإعلان ويحن قلبها وتبادله الحب. وهكذا صارت هذه الساحة مكان عمل صبحي.

ترى هل اشتكى أهالي الأحياء الأخرى على صبحي لأنه لم يعد يكنس شوارعهم، أم هل قرأت ناديا الإعلان وحنت كما كان يشتهي؟ أم أن الريح قد حملته مع أوراق الخريف؟ لا أعرف ما حدث، الذي أعرفه أن صبحي لم يعد، تركني هنا، وذهب باتجاه نافذة ناديا وهناك جلس معتصماً، ثم غفوت، وصباحاً لم أره، وها هو اليوم الثالث يمرّ من دون أن يرجع.

الذي حدث في اليوم الرابع أراحني من التفكير، اقترب مني رجل غاضب وبعد قراءة الإعلان حاول أن يمحي العبارة، لكنه لم يقدر، فانهال عليّ ضرباً تكسيراً. حتى غدوت قطعاً خشبية صغيرة، كنت أتألم، عاتبة على صبحي الذي أوقعني في هذه الورطة، وهو يعشق وأنا من يدفع الثمن!.

الإعلام والتنمية

د. هزوان الوز ✪

مع بزوغ قوة وسائل الإعلام في العصر الحديث، ومن خلال الدور الذي تلعبه في تنمية المجتمعات، يزداد اهتمام الباحثين في فروع المعرفة المختلفة، سواء أكانوا علماء سياسة، أو اجتماع، أو اقتصاد، بقضايا الإعلام وارتباطاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولذلك قامت دراسات كثيرة بالبحث عن الصلة بين الإعلام والتنمية، وعن دور وسائل الإعلام ومدى فعاليتها في إنجاز التنمية.

ولما كانت حياة الإنسان تقوم بشكل أساسي على النشاط الاتصالي بين البشر، فإنَّ وسائل الإعلام الجماهيري، كوسائل اتصالية ذات فعالية كبيرة، حيث تلعب دوراً هاماً على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع.

وإذا كانت الدول النامية قد تباينت في السبل والوسائل التي سلكتها واستخدمتها لتنمية مجتمعاتها وفقاً لما توافر لديها من إمكانات وقدرات بشرية ومادية، إلا أنَّ القاسم المشترك بينها، هو إحساسها بضرورة تطوير مجتمعاتها، والانتقال بها إلى وضع أفضل وأمثل.

إلا أنَّ ذلك لن يتم بمعزل عن الإحساس بالحاجة التي تدعو إلى وجود مجموعة من المنظومات المترابطة والمتوازنة للقضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي ينبغي أنْ يحكمها تخطيطٌ علميٌّ شاملٌ ومتكامل، لتطوير المستوى الاجتماعي والتعليمي وزيادة نواتج الدخل الوطني، ورفع المستوى الثقافي والصحي والإسكاني والبيئي.

✪ باحث وناشر ووزير التربية في سورية.

ولأنَّ التنميـة، على هـذا النحو، عملية ضخمة ومتشعبة، فقد غدت الحاجة ماسة إلى وجود وسائل إعلام فاعلة ومؤثرة يُصبح لزاماً عليهـا أنْ تُمارس تأثـيراً على أفكار وآراء ومعلومـات وسلوكيـات المجتمع، بما يتفق وخطـط التنمية، وذلك أدّى كما يقول أحد خبراء الإعلام، إلى بروز الدور التنموي لوسائل الاتصال الجماهيري.

يقول الدكتور «خالد إبراهيم المحجوبي»: إنَّ مصطلحـي الإعـلام والتنميـة، مـن المصطلحات التي فرضتهـا طبيعة التطور المجتمعـي، والعولمي، حيـث إنَّ كلاً منهما يُشكّل عنصراً أساسياً من عناصر الحضارة، وآليات تقدّمها. وقد قيل قديماً إنَّ الاقتصاد عصب الحيـاة، وصار للحيـاة الآن عصبٌ آخر هو الإعلام.

تعريف التنمية:

علـى الرغـم من صعوبـة حصر جميع تعاريف التنميــة لكثرتها وتنوّعها، إلا أنَّ ما ينبغـي أنْ ندركه جيداً أنَّ مفهـوم التنمية ارتبط على وجه الخصوص بالدول النامية، وأصبـح يُنظر إليه على أنــه أداة أو وسيلة تستطيـع من خلالها تلك الـدول التصدّي لعوامل التخلـف بتبنّي خصائص أو سِمات المجتمعات المتقدّمة.

وباختصـار يمكننـا القـول إن التنمية عملية معقـدة وشاملة تشمل نواحي الحياة الاقتصاديـة والسياسيـة والاجتماعيـة والثقافية، تُقصي التخلّف وتُدني التقدّم من خلال مراعاة جملة من الاعتبارات والمعايير يُدركها علماء التنمية والمتخصّصون فيها.

وتعـددت الآراء التـي حاولـت تحديد مفهـوم التنميـة ووضع تعريـف واضح له، «حيث يراها بعض علماء التنمية أنها عملية تستند إلى الاستغلال الرشيد للموارد بهدف إقامة مجتمع حديـث»، بينما عرّفت الأمم المتحـدة التنمية بأنها «تدعيـم المجهودات ذات الأهمية للمجتمـع المحلي بالمجهودات الحكومية، وذلك لتحسين الحالة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لهذا المجتمع».

ومن واقـع التعريـف الأوّل نستطيع أنْ نستنتج أنَّ المجتمع المتقدم هو الذي يستخدم التقنيـة الحديثـة (التكنولوجيـا)، ويتميّز بالتحضـر والتعليم والحـراك الاجتماعي، كما يحظـى بالمساندة والدعـم على نطاق واسع.

أمّـا التعريف الثاني، فإننـا نرى أنه في الوقت الـذي ركّز فيه على تحسين العوامل الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافية، فقد دعـا إلى استنهـاض همم أبنـاء المجتمع، لتتصل جهودهم مع جهود الدولة في عملية التطويـر أو التحديث، التي ينبغي أنْ تتواءم وتتفق مع ما تُخطّط لـه الدولة من تطوير عام في كل جوانب الحياة.

فالتنميـة إذاً مرحلة مـن المراحل التي تقطعها المجتمعات في مسيرتها للوصول إلى حالة التقدّم والرقي. وأشير هنا أني لا أتفق مع الرأي الذي يرى أن التنمية وسيلة، لأنها في الواقع غايـة، بينما الوسائـل هي التي توظف لتحقيق التنميـة، كالإستراتيجيات، والأمـوال، والعناصـر البشريـة العاملـة، والخبرات المسيرة للمسعى التنموي.

معايير تحقيق التنمية:

يضع بعض الخبراء معايير يرونها دليلاً علـى تحقّق التنمية، من بين ما ذكر في هذا المجال ما عرف باسـم نموذج «كيندلبرجر» الذي يـرى أنّ التنمية تتبـدّى في مؤشرات كمية كثيرة منها: متوسـط الدخل الفردي، ونسبة السكان العاملين في الزراعة، ودرجة التعليم، والنسبة المئوية للسكان الحضريين، ونسبة توزيـع الصحف، وعـدد السيارات لكل شخـص... كما ظهر أنمـوذج الاتجاه الانتشاري الـذي يرى أنّ عناصـر التنمية الماديـة والثقافيـة التـي تسـود في الدول المتقدمة، إذا انتقلت إلى الدول النامية؛ فإن انتقالها كفيلٌ بتحقيق التنمية.

إلا أن هذا الرأي يقوم على وهم، إذ أنه لا يُراعي الفـروق الذاتية المميّزة والفاصلة بـين الـدول، ولا الخصوصيـات الثقافية والجغرافيـة المتباينة بـين مجتمعات ودول العـالم؛ مما لا يسمح بقبـول هذا الأنموذج المسمى بالاتجاه الانتشاري.

في هـذا السيـاق المعايـيري ظهر عام ١٩٥٨م ما عُرف بنموذج «دانيل ليرنر» الذي يـرى أنّ الـدول المتخلفة يُمكنهـا الانتقال إلى مصاف الـدول المتقدّمة إذا استطاعت اكتسـاب خصائص سلوكيـة وسيكولوجية معينـة، ولا يخفى دور الإعـلام هنا حيث يعـد من أقـوى العوامل، وأجـدى الوسائل التي يُمكنها تحقيق الانتقال لتلك الخصائص السلوكيـة والنفسيـة، مما يؤكـد الارتباط الوثيق بين الإعلام والتنمية.

إن إحدى الفروق البارزة بين المجتمعات المتخلّفـة والمجتمعـات المتقدّمة، هي مدى توغل وشيوع وسائل الإعلام ونجاح تأثيرها في الرأي العام للمواطنين المتواصلين بوعي مع تلك الوسائل، فشيوع الوسائل الإعلامية متناسـب طرداً مع ازديـاد التنمية، وبتعبير آخـر إنّ انتشارها وتأثيرها متناسبٌ عكسياً مع التخلـف والبعد عن الحالـة التنموية. ويؤكد الدكتـور «محمد قيراط» بأنّ وسائل الإعـلام تـؤدي دوراً محوريّـاً في حيـاة الفـرد والأسرة والجماعـة، وفي بناء الدول والحضارات والمجتمعات، وهي بذلك تُسهم في التنشئة الاجتماعيـة، وفي تشكيل الرأي العام والذاكرة الجماعية للمجتمع. كما أنها تؤدي دوراً إستراتيجياً في التنمية المستدامة بمختلف مجالاتها وقطاعاتها.

إنّ التنمية بحاجة لوعي جماهيري شعبي، وهذا الوعي هو من صنائع الإعلام الذي يعد أحد وسائل تحقيق التنمية، فهو آلية تنموية فاعلة ضمن آليات الانتشار التنموي على المستوى الاقتصادي والبشري.

وبلا شك إن الإعلام والتنمية ثنائية مترابطة في فاعليتها العملية الواقعية، ولم يكن غريباً أنْ نجد في بعض الدول وزارة تحمل اسم وزارة الإعلام والتنمية. وأنْ نجد بعض الجامعات تُدرّس مادة اسمها (الإعلام والتنمية)، فضلاً عن إنشاء مراكز بحوث قائمة على دراسة تفاعلية هذه الثنائية.

وليس خفياً أنّ تكنولوجيا المعلومات عنصرٌ أساسيٌّ في الإعلام. وإحدى صور التسريع التنموي، ومن وسائل تحقيق التنمية، تطوير مستويات الأفراد والارتقاء بكفاءاتهم الذاتية عن طريق عقد برامج تدريبية وخطط تطويرية لكفاءاتهم بوساطة التدريب المباشر، الذي يقترن عادةً بواجبات الحضور الشخصي، واللقاء المباشر بين المدرب والمتدرب، ثم اجتياز الدورة التدريبية والحصول على شهادة تثبت التدرب. هذا هو التصور التقليدي للعملية التدريبية التي هي عنصر أساسي في بناء الكفاءة المؤهلة لتجسيد الآمال التنموية في كل مجال من المجالات المستهدفة للأغراض التنموية، لكنّ التطور الإعلامي لم يبق على الصورة التقليدية للتدريب بل طورها وفعّل تطبيقاتها في العالم المتقدم، من خلال استثمار تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية، لاسيما الإنترنت، فقد شهد أواخر عقد التسعينيات من القرن الماضي ظهور مصطلحات وتطبيقات مستجدة على صعيد التكنولوجيا المعلوماتية الإعلامية، وتحديداً في مجال تطوير القدرات والكفاءات كظهور مصطلحات: التعليم الافتراضي، التدريب الافتراضي.

وفي هذا السياق ظهرت جامعات افتراضية تُدرّس وتُعلّم وتمنح شهاداتها من خلال التواصل الإلكتروني عبر الإنترنت، ليصبح بذلك تطوير الكفاءات العلمية غير خاضع للجغرافيا، والتواصل التعليمي غير منحصر في المجالات النظرية فقط، بل هو شاملٌ للتدريب المهني العملي أيضاً.

إنّ الدول المطبقة لتقنيات التدريب الإلكتروني الإعلامي تعدُّ ذلك من مكاسبها التنموية؛ حيث إنّ رهان التنمية يهدف إلى أهداف عديدة، منها: تحجيم وتقليص مقدار الإنفاق المادي على الخطط التطويرية المزمع تحقيقها في الدولة، فكلما كانت الخسائر المادية أقل؛ كان ذلك إنجازاً في السياق التنموي وتطبيقاته الإجرائية. وهذا ما يُفسّر لنا ارتفاع قيمة الاستثمار في مجال التعليم الإلكتروني عام ٢٠٠٣م،

ووصوله إلى (١١،٥) مليار دولار، وحدث هذا بعد ظهور نتائج مفاجئة أعلنتها بعض الشركات العالمية الكبرى مثل إعلان شركة IBM عام ٢٠٠٠م عن توفير (٣٥٠) مليون دولار، بعد اعتماد تقنيات التدريب الإلكتروني. كل هذا يؤكد مدى توظيف الإستراتيجيات التنموية للإعلام، ومدى الارتباط الناجع المحقّق خلال ذلك التلازم النفعي بين التنمية من جهة، وبين الإعلام الذي هو وسيلة لبسط وتحقيق الأهداف التنموية، كتقليل نسبة الأمية والأمراض، والرفع من المستوى المادي للأفراد ومستوى الوعي الحضاري والعلمي، فالإستراتيجيات التنموية لا تستغني عن الإعلام كونه العمود الفقري للخطط التنموية، وتجمعهما علاقة تشابكية موغلة في الترابط على نحو لا يقبل الفصام، فحاجة الخطط التنموية إلى الإعلام كحاجة الإنسان لأطرافه الحيوية التي تلبي له حاجاته الأساسية والكمالية. ومن هنا فالتنمية لا يُمكنها التحقق في أي مجتمع دون أنْ تسبقها خطط يأتي الإعلام على رأسها.

وليس خافياً على أحد أنَّ الإعلام بوسائله المختلفة قد اتُّخذ أداة يوظفها كل طرف حسب هواه، وحسب مصالحه، ولاسيما في المجال السياسي، لكن يبقى لنا التعويل على أهداف ذات جدوى يُمكن للإعلام أداؤها.

فمن الأهداف التي نعول عليها، هدفان: هدفٌ أخلاقي، وهدفٌ معرفي.

يتركّز الهدف الأخلاقي في التوعية والإرشاد الحضاري للرقي بمستوى الأفراد وسلوكياتهم. أما الهدف المعرفي فيتركّز في التثقيف، وتنمية المعارف لدى الأفراد، وهو الهدف الجوهري للإعلام سواء في مستواه المقروء أو المسموع أو المرئي.

ولانستثني مما أوردناه هنا إلا ما يرومه الإعلام التجاري في مساعيه الربحية، حيث لا تقوده أية أهداف معرفية أو أخلاقية، إنَّما يكتفي بهدف واحد هو الربح المادي.

هذان الهدفان (الأخلاقي والمعرفي) هما أيضاً من المقاصد الرئيسية التي ترمي إليها الخطط التنموية، كون الوصول إلى تحقيقهما أمر يُشكّل الأرضية الضامنة للوصول إلى ما يمكن وصفه بالتنمية الشاملة التي ستفضي بالضرورة إلى الرقي بمستوى المجتمعات إلى مراحل مطمئنة ولائقة، ومواكبة لمستوى الرقي العلمي التقني الذي بلغه العالم في هذا العصر. علماً أنَّ للتنمية أنواعاً ومستويات ومراحل، ونحن هنا نقصد المستوى الشامل للتنمية المتصل بالبشر، وما يؤثر فيهم من اقتصاد وعلوم.

الإعلام التنموي:

اتجهت بعض الدراسات إلى تحديد طبيعة المجتمع من خلال مستوى العلاقة بين التنمية والاتصال، فالتنمية سيرورة دائمة الحاجة إلى وسائل الإعلام التي تهيئ بدورها المناخ اللازم لتحقيق التنمية، وإذا وظفت بشكل فاعل فيمكنها أنْ تُساعد على دمج الثقافات المحلية، والأفراد، والجماعات المختلفة في إطار التنمية الوطنيه الحقيقية. ويُعدُّ الإعلام التنموي في عصرنا الراهن فرعاً أساسياً وهاماً من فروع النشاط الإعلامي، ويعود الفضل الأول في استخدامه إلى العالم والباحث «شرام» الذي وضع كتاباً عنوانه: (وسائل الإعلام والتنمية)؛ حيث بحث في دور الإعلام التنموي وأهميته في إحداث التحول الاجتماعي والتغيير والتطوير. إذ إنَّ عملية تنمية المجتمع المحلي من دون الإعلام، وتعريف أعضاء المجتمع المحلي بعملياتها ومراحلها ستظل مجهوداً من دون جدوى، ولن تتحقق أهدافها كوسيلة لتحقيق المشاركة الشعبية في اتخاذ القرارات التي تمس شؤون حياتهم.

لذلك فإنَّ من أهم الأهداف الرئيسية للإعلام التنموي:

- تعزيز قدرات أفراد المجتمع كافة من أجل المشاركة الإيجابية في عملية التنمية والقضايا التي تهم المجتمع الذي يعيشون فيه.
- تصحيح المفاهيم عن تنمية المجتمعات والقائمين عليها، وتقديم صورة حقيقية عن أهدافها ومشروعاتها ونشاطاتها.
- تشجيع الأفراد والهيئات داخل وخارج المجتمع على المساهمة في عملية التنمية بعد تعرفهم بصورة متكاملة إلى فلسفتها وأهدافها ونشاطاتها، وإقناع المنظّمات الدولية والجهات الأجنبية باستحقاق وجدارة المجتمع المحلي للدعم.
- جذب مزيد من المتطوعين الجدد، وترغيبهم وتحفيزهم من خلال توعيتهم بأهمية التطوع والمشاركة.
- إقامة التعاون والتنسيق والتكامل بين المجتمعات وتبادل الخبرات والتجارب بينها.
- كسب التأييد والمناصرة الجماهيرية الواسعة لقضايا المجتمعات، والتي تدفع صانعي القرار إلى وضع سياسات عامة جديدة تلبّي الحاجة إلى التغيير وتعزيز نُظم اللامركزية، وكذلك إلى مواجهة معوقات عملية التنمية.
- المساهمة في ترتيب، أو إعادة ترتيب اهتمامات أبناء المجتمع، بحيث تُصبح قيمة التطوع والاعتماد على الذات بين أولوياتهم.

خصائص الإعلام التنموي:

- **هادف:** يسعى إلى تحقيق أهداف المجتمع الأساسية ومصالحه الجوهرية.
- **مبرمج ومخطّط:** يرتبط بخطط التنمية ومصالح المجتمع.
- **متعدّد الأبعاد:** الصحية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية.
- **واقعي:** في الأسلوب والطرح، ويقنع الرأي العام بضرورة التغيير الاجتماعي لتحقيق أهداف التنمية.
- **حديث متطور:** يستخدم أساليب مشوقة حديثة.
- **مختلف الوسائل:** سمعية، بصرية، مقروءة، إنترنت...الخ.
- **متفتّح:** يستفيد من خبرات وتجارب البلدان الأخرى.

قدرات الإعلام التنموي:

- خلق مناخ ملائم للتغيير.
- تعليم المعارف الجديدة.
- العمل على مضاعفة مصادر المعلومات.
- إيصال الخبرات المتراكمة إلى أكبر قدر ممكن من شرائح المجتمع.
- رفع مستويات الطموح عند الأفراد لتحفيزهم على العمل.
- جعل الأفراد أكثر ميلاً إلى المشاركة في صنع القرار.
- المساعدة في تحقيق الانسجام في المجتمع.
- تعزيز الشعور بالمواطنة.
- تسهيل تخطيط وتنفيذ البرامج التنموية المتعلقة بحاجات المجتمع المحلي.
- جعل تنمية المجتمع المحلي عملية ذاتية دائمة التطور.

العمل الإعلامي في المجتمع المحلي:

تتضمّن خطة الإعلام كما تراها منظّمة «اليونيسيف» المراحل التالية:

- التحديد الواضح للسلوك المرغوب فيه (الذي يراد أنْ يروّج له).
- التحديد الدقيق للفئة التي يراد التأثير عليها (الفئة المستهدفة).
- تحديد المهارات اللازمة للسلوك الجديد.
- رصد المعارف الراهنة والمعتقدات السائدة في سلوك الفئة المستهدفة.
- معرفة التجارب السابقة مع رسائل إعلامية مماثلة.
- مسح المصادر الحالية للمعلومات التنموية للفئات المستهدفة.
- اختيار قنوات الاتصال والوسائل الإعلامية الأقدر على بلوغ الفئة المستهدفة والتأثير عليها.
- تصميم الرسالة الإعلامية بحيث تتصف بالتالي:

• استخـدام اللهجـة المحليـة والتعابير الدارجة والشائعة.
• تكون مقبولة ثقافياً واجتماعياً.
• تكون عملية ومختصرة.
• تكون وثيقة الصلة بالموضوع.
• تكون صحيحة من الناحية الفنية.
• تكون إيجابية.
– إعداد وتطوير المواد الإعلامية.
– الحرص علـى مواكبـة البرنامـج الإعلامي لخدمات تنموية أخرى.
– قياس مدى تطبيـق الفئة المستهدفة للسلوك المراد تطبيقه.
– تكرار الرسالة وتعديلها.

دور الإعلام في التنمية الوطنيه والتغيّر الاجتماعي:

يقوم الإعــلام بأدوار عــدّة في التنمية الوطنية والتغيّر الاجتماعي، أهمها:

• دور الإعلام في محـو الأمية، ورسالته التثقيفية وتعليم الكبار.
• دور وسائـل الإعــلام في التعليـم المدرسي.
• دور وسائل الإعلام في تنمية المجتمعات المحلية، وفي هذا المجال تقوم وسائل الإعلام بشقيهـا الجماهيرية والشخصيـة، بتنفيذ الحمـلات الإعلاميـة المتكاملة مـن أجل التنمية.
• دور وسائـل الإعـلام في التثقيـف النسائي.
• دور وسائـل الإعـلام في التوعيـة والتربية.

ركائز الإعلام التنموي:

الركيزة الأولى:

الاعـتراف المتزايد بالدور الذي تقوم به وسائل الإعلام في المجتمع بغض النظر عن طبيعته.

الركيزة الثانية:

اختـلاف الاحتياجـات الإعلاميـة في الدول الناميـة، والمجتمعات التقليدية، عن الاحتياجات الإعلامية في الدول المتقدّمة.

الركيزة الثالثة:

عدم وجود حدود لجدوى وسائل الإعلام في التنمية الوطنية.

متطلبات نجاح الإعلام في تحقيق التطوير والتحديث:

– توفير وسائـل إعلام واتصال متطورة مختلفـة: سمعية، بصرية، مقــروءة، مرئية، إنترنـت، ومن خـلال هـذه الوسائل يُمكن تعريـف الناس بحقيقـة مشاكلهـم، ونقل أفكارهم لتحقيق التطوير المنشود.
– توزيع وسائل الإعلام المتعلّقة بالتنمية بشـكل جغرافي يتناسب مـع مساحة البلد،

بحيث تشمل كل المناطق والنواحي والقرى ذات الكثافة السكانية العالية.

- تأمين الكوادر الإعلامية المتخصّصة، وذلك من خلال الاعتماد على خريجي كليات الإعلام والصحافة، وتقنيي الصحافة الإعلامية، وتوفير الكادر الإعلامي اللازم لإعداد البرامج الإعلامية.

إن ثنائية الإعلام والتنمية تعتبر الوصفة السحرية لخروج دول العالم الثالث من حالة التخلف والالتحاق بركب الحضارة، وتبرز قيمة ودور وسائل الإعلام كوسيلة ناجعة في كل مراحل التحول والتطور الاجتماعي والتي تستهدف حلحلة بنى تلك المجتمعات الراكدة، وذلك من خلال قدرتها على التأثير المباشر في سلوك الأفراد والمجموعات.

المراجع

١- (الإعلام والاتصال بالجماهير). «إبراهيم إمام»، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، عام ١٩٦٩م.

٢- (الإعلام: الاتصال بالجماهير والرأي العام). «سمير محمد حسين»، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٤م.

٣- بحوث اجتماعية، «بدر أحمد كريم»، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٦م.

٤- بحث الإعلام التنموي: «إسلام عبد العزيز». بحث منشور على شبكة الإنترنت (٢٠١٠م).

أنا والشاعر سليمان العيسى في المعتقل

د. محمود حريتاني ✪

في آذار العام ١٩٥٤م، ضمّني السجن مع الشاعر سليمان العيسى، وزملاء آخرين في التدريس في ثانويات حلب، أنا أدرّس التاريخ وهو يُدرسُ اللغة العربية.

بعد مظاهرة سلمية لطلاب ثانوية المأمون، لأمور متعددة، كان لنا موقف، وقادنا هذا الموقف إلى النظارة في حلب، ثم في دمشق وعدنا بعد أيام، واجتمعنا في «قبو» هو بناء في مدخل شارع فيصل بحلب، منزل الشاعر وذكرنا أيام المعتقل.

لقد كان لهذا الاعتقال ذكريات، تجمعت لدينا وكان منها بحث وشعر وأناشيد، ولا عجب فالأحرار هم بناة الفن وعباقرته.

الفن لا يعرف معنى للقيد، ولا يحتمل العيش، ولا يخضع لغير سلطان الحق.

طريق الفنان وعر المسالك مليءٌ بالأشواك والصعاب.

الفن هو ما تبذله عبقرية الإنسان من نشاط لإبراز معالم الوجود وحقيقته، والكشف عمّا تتحلى به الذات الإنسانية من جمال وخلق وإبداع.

الفنان الملهم الذي يعمل على تأدية رسالته لفنه، ولا تستطيع سلاسل السجون أن تحدَّ من هويته.

أنا عند سرك في الوجود
ولست في قيدي - سجين
يا فن.. يا رعش الألوهة
في دمانا.. يا جنون

الفنان مدعو لأن يكون مشعل مجتمعه، وإذا أصمَّ أذنه، كان خائناً لفنه،خائناً لمجتمعه. وعليه أن يقف في طليعة الصف، يضيء السبل المعتمة، ويفتح الأعين المغمضة.

✪ باحث وآثاري ومدير آثار حلب سابقاً.

الفنان يغني وموسيقاه صدى السوط يفري جسده ويمزّق أوصاله.

الفنان يصنع تمثال الحرية والحديد من فوقه ومن تحته، يغشي الأبصار وهو في ظلام سجنه، ودامس قيده، ويغني مع رنين القيد وصدى السوط وألم العذاب؛ نشيد الحرية والخلاص.

في -سجن النظارة- تسللت إلينا صحيفة، فانطلق الصديق والزميل سليمان العيسى يغني ما شاء له الغناء ويكتب، بل ينشد من وحي صورة فيها لحسناء ساحرة، ومنها هذه الأبيات:

وجه.. أرقُّ من الخيال

البكر أشرق في عباره!

خلقتك ريشة شاعر

سكران فجراً من نضاره!

وحين يتذكر أننا كنّا بين الجدران، يستدرك في أبيات أخرى:

ها أنت لو تدرين أين

الآن شاعرك المجيدُ؟!

وتصكّها الجُدرُ الثخان

شعراً ليحضنه الخلود!

تُصغي له الجُدرُ الثخان

بجانبيَّ وتستزيد

ويكاد يُنشده معي

السجّان والباب الحديد!

من أين يرسل همسه

فلا تموت، ولا تبيد

وأمام الحديث عن الفن والفنان والشاعر يذكر قصيدة منها:

يا فن يا رَعْشَ الألو

هة في دمانا، يا جنون

ما أنت؟.. تُحرقنا

وتخشع عند ضالتك العيون

أتظل في الأعماق

لغزاً لا يُحَلُّ ولا يبين؟!

كيف استحال القيدُ لحناً

ولست في قيدي - سجين

كيف استطبت بك الظلام

وهزّني هذا السكون؟!

أنا عند سرك في الوجود

في النجوم له رنين؟!

حين تذكّر الزملاء أيام المعتقل وظروفه كان سليمان متذكراً لكل ما مر معنا، يذكر لنا أبياتاً من قصيدة له مطولة:

وأنا، وشعري في الجريدة،

ساهران إلى الصباح

الوحشة السوداء.. صورة

أمتي.. عَبْرَ الكفاح

هي في «النظارة» ألف

أغنية.. تعثر بالجراح!

مُلقىً على خشب «النظّارة»،

الأشبار.. أشباري الصحاح

لو تنطق الجدران.. أيّ
«مجلّد» هي للكفاحِ
لو تنطق الجدُرُ الثخان
لحدثتك حديث شاعرْ
جدرانُها.. ستٌّ من
في عباب الحُلْم سادر
ويعيش «مأساة» ببسمة
لاعب وذُعاب ساخر
لا.. لن أقطّب حاجبيّ.
مشاعرٌ.. تتلو مشاعر
أنا بين جدراني الثخان..
ولا أنا بالفجر كافر

في البيت – القبو تحت أرض الشارع؛ حدثنا الشاعر سليمان عن مداهمة الأمن له، ووضعوا تقريرهم، أن ليس في البيت شيء من الأسلحة الممنوعة أو من غيرها... ويذكرنا الشاعر بالشعر الذي قاله بعد «التفتيش الدقيق»:

كيف ارتموا عشرين.. فوق
الباب.. حتى ارتاع جاري!
وأحيط «مأواي» الصغير
بمن تبقّى.. كالسوار
وتناثروا في البيت..
يلتهمونه مثلَ الشرار
حاشا.. فسقفي لن يُظل
سوى المروءة.. والنجار

وأدار (معنٌ) وجهَه
غضبان لعزته مُثار
لِمَ لا يشاطره (الضيوف)
مراحه شأن الكبار؟!
لو شئتُ.. لانفجر القريضُ
مدمدماً.. أيّ انفجار
يذرون مكتبي، بديواني،
بأوراقي الصغار!

هل اعتبر الأمن، آنذاك، أن أخطرنا، نحن زملاؤه في المعتقل، هو سليمان، ولهذا سيق إلى دمشق ووضع أبياتاً تذكر هذا «السوق» فأنشدنا:

أنا في الطريق إلى دمشق
وما سُئلتُ لكي أجيبا
وورائي (الشهباء) يحمل
صدرها صمتاً رهيبا
ورميت طرفي للنجوم..
نسيبةٌ لاقت نسيبا!
هذي «المعرة».. أيّ حلم
هزإحساسي مَهيبا!
هذي جراحك.. لم تزل
وطناً، وتاريخاً سليبا
هذا تمرده على
الأجيال.. لم يبرح صخوبا
شيخ الخلود.. يكاد طيفك
عن جفوني أن يغيبا!

هذا خيال «أبي العلاء»
يكاد يصدمني قريبا!
زجرت في وجه الفساد..
ولم تر الخطب العصيبا!
عذراً إذاً.. وتحية
عجلى.. وأنداءً.. وطيبا..
حدثنا الشاعر الصديق والزميل عما
جرى معه في دمشق الشام فأنشدنا:
أنا في الشآم.. وما أرق
الشام.. أهبطها سجينا!
يامن تحث على الرصيف
خطاك.. أو تمشي رصينا!
تتراكم الأغلال حتى
في «النظارة» أجمعينا!
مادام في أرض العروبة
حرية.. «للغاصبينا»
لا فرق.. معتقلين كنا
يا أخي.. أو مُطلقينا!
تتراكم الأغلال حتى
تشمل الشعبَ الأمينا
واشتد الحديث بين الحاضرين مُستقبلي
الشاعر بعد عودته يريدون التفاصيل التي
جرت خلال التحقيق:
من أنت؟.. دحرجه «المحقق»
عبر همهمةٍ، سؤالا
ووقفتُ.. ناحيةَ الجدار..
ألوح من تعبي خيالا!
من أنت؟.. ما العمل الكريم؟
وغاص في الورق انشغالا
وبلفظتين أجبتُ.. لم
يترك لثالثة.. مجالا!
أنا شاعر - ومدرّس
يُرضي البلاغة حيث صالا
وأشاح عني لم يتح
لي أن أسوق له مثالا
أعرفت من أنا؟.. واقفاً
النور.. كنتُ ولن أزالا
أنا للحياة.. لأمتي
رشداً تراني.. أم ضلالا!
وعلى الحصير.. حصير
آبائي.. تلقنت النضالا
أنا للعروبة.. مذ رأيت
أبد وبزاويتي خيالا!
بقي سليمان سجيناً وأفرج عن الباقين
وحين عاد من الاعتقال أخيراً حدثنا عن
«سجن المزة العسكري» في المهجع السادس
والثلاثين ورأى هناك رفاقاً لنا سبقوه
وأنشدنا شعره عن هذا السجن:
هذه طريق (المزة)
السوداء، واجمة الرحاب!
هذي سلاسل أمتي
نُثرت على تلك الشعاب
هذا هو السجن
الملفع بالحديد، وبالحراب

في هذه الظلمات يرقد
من تركتُ من الصحابِ
جيلٌ من الأحرار، خلف
القيد، ينهدُ للغلابِ
هذا هو السجن الرهيب،
فهل تُراه أحسَّ ما بي؟!
هيهات.. تنطفئ الحياة،
ونبضُها بدمِ الشبابِ!
ودخلت «مهجعي» الجديد
بمهرجان من دُعابِ
وإذا الرفاق يصفقون..
وقد أحاطوا «بالركاب»

في نهاية أمسية الشاعر سليمان، أنشدنا خلاصة أفكاره شعراً فقال:

يا سجنُ.. يا دار العقيدة
تستخفُ بكل عات!
هيهات.. يهدأ فوق رأس
البغي.. زأر العاصفات!
هيهات.. تنطفئ الحياة،
ونحن أنفاس الحياة!
هيهات!.. إن الفجر-
ولتهزأ بنا الظلماتُ - آت
هذي ملاعبنا.. تتيه
بما تضم من الرفات!
نحن الطريق.. وألف
أهلاً بالخطوب الحالكاتِ!

معاجم اللغة العربية.. ماهيتها ومنهجية ترتيبها

د. منير سويداني ✿

تتوافر في الخزانة العربية طائفة من الكنوز، وتعد المعاجم العربية أوّل هذه الكنوز التي حافظت على الثروة اللفظية العربية لمدة ستة عشر قرناً من الزمن، ودور هذه المعاجم جلي على حراسة هذه الثروة اللفظية وصيانة التراث الحضاري بشتى أنواعه، ولولا هذه المعاجم لضاعت هذه الثروة على اعتبار أن علماء اللغة ومستعمليها لا يستغنون عن الرجوع إلى هذه المعاجم، فالمعاجم وسيلة لغوية وهي حرفة وصناعة قبل كل شيء، هدفها هو جمع اللغة ووضعها، وبذلك نقف أولا عند معنى الجذر المعجمي (ع- ج- م) الذي يعطينا كلمة معجم في اللغة والاصطلاح:

١- اللغة: في البداية لابدَّ أن نتتبع خطوات اشتقاق مادة «معجم» في اللغة، كما وردت في كتب ومعاجم اللغة العربية،

ولذلك يقول ابن جني: «أعلم أن (ع - ج - م) إنما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء، وضد البيان والإفصاح». وجاء في المعجم الوسيط ما يلي «عجم فلان عجمة، كان في لسانه لكنة، ويقال كذلك: عجم الكلام إذا لم يكن فصيحاً، فهو أعجم وهي عجماء، فالإعجام غير الإعراب». وجاء فيه أيضاً: «عجم الحرف والكتاب عجماً، أزال إبهامه بالنقط والشكل، وعجم الشيء عجماً وعجوماً، عضه ليعلم صلابته من رخاوته». ويقول الجوهري في الصحاح: «الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان كلامه من العرب». ونستنتج مما تقدم أن الجذر (عجم) له دلالتان اثنتان هما:

- عُجْم وعجِم بكسر العين أو ضمها، عدم البيان وضد الإفصاح.

✿ باحث وكاتب سوري.

- عجَم بفتح العين معناه الإيضاح والبيان.

وتأتي مادة «عجم» في اللغة للدلالة على الإبهام والإخفاء وعدم الإفصاح فمنها الأعجم الذي لايفصح، حيث تتصرف صيغة (فعل) من هذه المادة إلى معاني الإبهام وعدم الإيضاح. وقد أطلقت لفظة المعجم على الكتاب الذي يراعي في بنائه وترتيبه ترتيب الحروف. وهذا الكتاب يزيل إبهام تلك المادة المرتبة على حروف المعجم أو يزيل اللبس ويوضح المبهم بما يحتوي عليه من مواد لغوية وغير لغوية المرتبة على حروف المعجم، وهذا كله يقودنا إلى تعريف المعجم في اصطلاح اللغويين.

٢- **الاصطلاح:** من الناحية الاصطلاحية يقصد بالمعجم في التراث العربي مجموع الثروة اللفظية اللغوية التي خلفها العلماء في المعاجم على مدى العصور، وكثيراً ما تطلق كلمة «معجم» على الكتب اللغوية التي تعالج وتحدد المجال المعنوي للغة ما. والشيء نفسه يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة اليوم. وبذلك فكل ما يتناول أسماء الأعلام والقبائل والأماكن، والفهارس، وحتى الموسوعات الفكرية، يندرج ضمن كلمة معجم أو قاموس. إذن فالمعجم هو: «مرجع يشتمل على كلمات لغة ما، أو مصطلحات علم ما، مرتبة ترتيباً خاصاً، مع تعريف كل كلمة أو ذكر مرادفها أو نظيرها في لغة أخرى، أو بيان اشتقاقها أو استعمالها أو معانيها المتعددة أو تاريخها أو لفظها، وقد يكون وصفياً أو تاريخياً، وقد يكون المعجم مفردات أو مصطلحات، كما قد يكون مترادفاً أو ترجمات أو تعاريف». من خلال هذا الكلام، فالمعجم يعني بالدرجة الأولى موضوعاً أو علماً معيناً، مع إبراز معانيه وتطبيقاته المختلفة، ويكون المعجم مرتبطاً بتطور العلوم والفنون ومطالب الحياة المستجدة، لذلك يبقى البحث فيه مستمراً ويبقى أمر وضع المعاجم عملاً لا ينقطع في أية لغة من اللغات، وذلك لتصبح هذه اللغات قادرة على تأدية مطالب الفكر والحضارة ومسايرة الزمن.

وبعد هذا العرض الموجز لمصطلح «معجم» يمكن القول إن المعاجم العربية منذ القرن الثاني الهجري قد استكملت كل أشكالها ومقوماتها، وذلك بتنويع مناهجها وموضوعاتها، فالمعجم ما هو إلا قائمة من المفردات التي تصف بشكل أو بآخر تجارب المجتمع. والمعجم أيضاً يمكن اعتباره موضوعاً متسلسل الأفكار يربط بينها المنهج الذي اتخذه المعجمي في ترتيبه أو توضيحه أو تفسيره.

ترتيب المعاجم

في هذه الوقفة اللغوية حول معاجم اللغة العربية نريد توضيح وتبيين الطرق الثلاث لمعرفة ترتيب المعاجم العربية حتى يسهل

البحث في معاجم اللغة باختلاف طرقها، وعلى هذا نجد العرب سباقين لعالم المعاجم. ونترك العلامة أحمد شاكر يقول: «العرب هم أسبق الأمم الحديثة قاطبة إلى القواميس تأليفاً واستعمالاً للترتيب الهجائي، ومع ذلك فإن أكثر المتأدبين يعتقدون أن الترتيب الهجائي شيء ابتدعه الإفرنج، واختصت به القواميس الإفرنجية». ويقول الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال في تعريفه لمعاجم الحروف والمعاجم على نظام التقفية، ونظام الألفباء ما يأتي:

- **معاجم الحروف:** يسير أصحاب هذا النظام في إيراد الكلم تبعاً للحروف، وهم ينطلقون في ذلك على مسار ثلاثي المسلك الذي ترتب فيه الحروف على المخارج ابتداء بالحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين، مع اختلاف أصحابه يسيرا في ترتيب المخارج، وهم يأتون بالكلم داخل ذلك الترتيب تبعاً للأبنية، مبتدئين بالثنائي فالثلاثي فالرباعي ثم الخماسي أخيراً، وهم يقلبون أحرف كل كلمة في كل بناء على الصور الممكنة فيها عوداً على بدء، وتحويلاً بعد تحويل إلى أن يستنفدوا كل ما يجيء فيها من التقاليد.

- **معاجم على نظام التقفية:** يسير أصحاب هذا النظام على الألفاظ وفق نهاياتها فمن أراد مثلا الوقوف على لفظ بدأ طلبه في حرف الهمزة وهكذا إلى آخر الحروف... واستهدف بعض من اتبع هذا النظام أن ييسر للساجعين والناظمين الكلم التي تتقفى عليها الأسجاع والأشعار.

- **نظام الألفباء:** ترتب الكلم في هذا النظام على الألفباء بدءاً بما أوله همزة فما أوله باء موحدة فما أوله تاء مثناة فما أوله ثاء مثلثة فدال مهملة، ثم ذال معجمة، فهلم جرّا إلى الياء آخر الحروف في ترتيب الألفباء.

١- **الطريقة الأولى:** طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه «العين»، يقول العلامة طاهر الجزائري في كتابه «الكافي في اللغة»: «وهو أوّل كتاب أُلّف في اللغة وسمي بذلك لابتدائه بحرف العين فإنه رتب كتابه على الحروف وهي مسوقة على هذا الترتيب: ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م وا ي».

ولا إشكال في كتابه من جهة هذا الترتيب وإن خالف ما ألفه الجمهور في ترتيب حروف المعجم، ألا ترى أن حروف المعجم قد اختلف في ترتيبها المشارقة والمغاربة ولم يعق ذلك أحد الفريقين عن الانتفاع بكتب الفريق الآخر، فيما رتب على حروف المعجم كما لم يعقهما عن الانتفاع بالكتب التي رتبت على نسق « أبجد ». (وإنما أتى الإشكال فيه من جهة أخرى وهي أنه يذكر الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب في موضع واحد فيذكر «الضرم» في حرف الضاد ويتبعها بذكر «الضمر» ثم «الرضم» ثم «المضر» ثم

«الرمض» ثـم «المرض» فإن أهمل شيء من أنواع القلب أشار إلى إهماله وزاد على ذلك أنه ذكـر كل نوع من الصحيـح والمضاعف والمهموز والمعتل على حدة، ليمتاز كل نوع عن غيره وقد جرى على طريقته بعض اللغويين ومنهم «الأزهـري» و«ابن سيدة»، ولصعوبة هذه الطريقة على الجمهور الذين ليس لهم مأرب في غير معرفة أبنية الكلم ومعانيها).

قال ابن منظور في كتابه «لسان العرب»: (ولم أجـد في كتـب اللغة أجل مـن تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ولا أكمل من المحكـم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة الأندلسي -رحمهم الله- فإنهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات للطريق، غـير أن كلاً منهمـا مطلب عسر المدرك ومنهـل وعـر المسلـك، وكأن واضعه شرّع للناس مورداً عذباً وجلاهم عنه، وارتاد لهم مرعـى مريعاً ومنعهم منـه، قد أخر وقدم، وقصد أن يعرب فأعجـم، فرق الذهن بين الثنائـي المضاعف والمقلـوب، وبدد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب، فأهمل النـاس أمرهما وانصرف عنهما وكادت البلاد لعـدم الإقبال عليهما أن تخلو منهمـا، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب). وقال طاهر الجزائري: (واعلم أن طريقة الخليل لها موقع عند الذين يرون أن الكلمات التي تشترك في الحروف وإن اختلفت في الترتيب لابـد أن يكون لها معنى مشـترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتهـا وذلك مثل «كلم» و«كمل» و«مكل» و«ملك» و«لكم» و«لمك». فإن لها معنى يجمع بينها وهو القوة والشدة).

٢- الطريقـة الثانيـة: طريقة الجوهري صاحـب كتـاب «الصحـاح»، قـال طاهر الجزائـري: (..فإنه رتب كتابه على حروف المعجم على النسق المعروف في المشرق، غير أنـه جعل الآخر للبـاب والأول للفصل فكل كلمـة يكون آخرها ألفاً مثـل «بدأ» يذكرها في البـاب الأول وهو باب الألـف ويسميها بالألف المهموزة احـترازاً على الألف اللينة التي هي أحـد حروف المد، وكل كلمة يكون آخرها بـاء مثـل « أب » يذكرها في الباب الثاني وهـو باب الباء ولم يـزل يجري على هذا الترتيب حتى وصل إلى الحرف الأخير وهو حرف الياء). وقد جعل كل باب ثمانية وعشرين فصلاً، جعل الفصل الأوّل منها لما يكـون أوّله همزة، والفصـل الثاني لما يكون أوّله باء إلى أن وصل إلى الآخر، غير أن بعض الأبـواب قد تكون فصولهـا أقل من ثمانية وعشريـن وهو الأكـثر كباب الـراء فإنه لا يوجد فيـه فصل اللام لعدم وجود كلمة في العربية أولها لام وآخرها راء. وأقل الأبواب فصولاً باب الظاء فـإن فصوله ستة عشر. إذا عرفت هذا تعرف أن مثل «برى» و«بغى» يذكرهـا في فصل الباء من باب الياء وذلك

آخر الكتاب، وأن مثل «برء» و«بطء» يذكر في فصل الباء من باب الألف وذلك في أوّل الكتاب، وقد جرت عادته في الفصل أن يراعي ما بعد الأوّل في الترتيب فيقدم «سأر» على «سبر»، وهي على «ستر» ويقدم «خردل» على «خزعل» و«عبقر» على «عبهر»، وقد قال الجوهري في مقدمة كتابه «الصحاح»: (الحمد لله شكراً على نواله، والصلاة على محمد وآله، أما بعد: فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله تعالى منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه، في ثمانية وعشرين باباً وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول، بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آل في ذلك نصحاً، ولا ادخرت وسعاً، نفعنا الله وإياكم به). وعلى طريقة الجوهري رضي الدين الحسن الصغاني في كتابيه «العباب» و«التكملة»، وجمال الدين في كتابه «لسان العرب».

٣- الطريقة الثالثة: طريقة الجمهور.. قال طاهر الجزائري في كتابه «الكافي في اللغة»: (وقد رتب السالكون عليها كتبهم على حروف المعجم معتبرين فيها أوائل الكلم فيذكرون في الباب الأوّل وهو باب الألف ويراد بها هنا الهمزة كل كلمة في أوّلها ألف مثل «أب» و«ألو» و«أبي»، وفي الباب الثاني وهو باب الباء كل كلمة في أولها باء مثل «بر» و«بري» ولا يزالون على هذا النهج إلى أن يصلوا إلى النهاية وهي باب الياء. وقد جعلوا كأصحاب الطريقة الجوهرية في كل باب فصولاً ناظرين فيها إلى ثواني الكلم فيذكرون في الفصل الأوّل ما يكون ثانيه همزة وفي الثاني ما يكون ثانيه باء وفي الفصل الثالث ما يكون ثانيه تاء ولا يزالون على ذلك إلى أن يصلوا إلى النهاية.

فالحرف الأوّل عند هؤلاء كالحرف الأخير عند الجوهري والحرف الثاني عندهم كالحرف الأوّل عنده، فمثل «أبي» تذكر عندهم في أوّل الكتاب في فصل الباء من كتاب الألف، وتذكر عند الجوهري في آخر الكتاب في فصل الألف من كتاب الياء، ويقدمون بعض كلمات الفصل على بعض بالنظر إلى ما بعد الحرف الثاني فيذكرون «برج» مثلاً قبل «برنج» قبل «برزخ» و«عندل» قبل «عندم» و«سنبك» قبل «سندس»، وعلى هذه الطريقة جرى ابن فارس في «المجمل» والهروي في «الغريبين» والراغب الأصفهاني في «المفردات» والزمخشري في «أساس البلاغة» وابن الأثير في «النهاية».

قال ابن فارس صاحب كتاب «المجمل في اللغة»: (وذلك أني خرّجته على حروف المعجم وجعلت كل كلمة أوّلها باء في كتاب

البــاء حتى أتيت على الحــروف كلها، فإذا احتجــت إلى الكلمة نظرت إلى أوّل حروفها فالتمستها في الكتاب الموسوم بذلك الحرف فإنك تجدها مصــورة في الحاشية ومفسرة من بعد). وقال الهروي في كتابه «الغريبين»: (.نبــدأ بالهمــزة فنفيض بهــا على سائر الحروف حرفاً حرفاً ونعمل لكل حرف باباً ونفتتــح كل باب بالحرف الــذي يكون أوّله الهمــزة ثم الباء ثم التــاء إلى آخر الحروف إلا أن لا نجــده فنتعــداه إلى ما نجده على الترتيــب فيه، ثم نأخــذ في كتاب الباء على هــذا العمــل إلى أن ننتهي بالحــروف كلها إلى آخرهــا ليصيــر المفتش على الحرف إلى إصابته مــن الكتاب بأهون سعي وأخف طلب). وقال طاهــر الجزائري: (وقد جعل بعض المؤلفيــن بدل قولهم بــاب كذا قوله كتاب كذا، وبدل قولهم فصل كذا قوله باب كذا وربما ترك بعضهم ذكر لفظ الفصل في العنــوان واكتفى بقوله الألف مع الباء مثلاً، والخطــب في ذلك سهل). وبهــذا نكون قد أجزنا للمهتم وللمتخصص في علم المعاجم طــرق وكيفية البحث عــن الكلم في معاجم وقواميس اللغة العربية.

المراجع

١- تصحيــح الكتــب وصنع الفهارس المعجمــة وكيفية ضبط الكتاب وسبق المسلمــين الإفرنج في ذلك، بقلم العلّامة أحمد شاكر - تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، لبنان.
٢- معجــم المعاجم، تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، تأليف إقبال أحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي.
٣- لسان العرب لابن منظور ج١، دار صادر ودار بيروت، لبنان.
٤- كتاب مجمل اللغة للشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان.
٥- كتاب الغريبان للإمام الهروي ج١، تحقيق: محمود أحمد الطناحي، مطبعة القاهرة، مصر.

«بين بوشكين واللورد بايرون»

إبراهيم محمود الصغير ◆



بوشكين واللورد بايرون وجهان لعملة واحدة، سُكّت من معدن العبقرية، وكُتبت بأحرف الإلهام والإبداع، ونُقشت بزخارف الحب والفن والتفرد، فأشرق أحد وجهيها على تخوم روسيا، من البلطيق إلى الأورال، إلى القفقاس، إلى موسكو وبطرسبورج. بينما أشرق وجهها الآخر على كامل الجزيرة البريطانية وإيرلندا، وعلى أوروبة بكل أقطارها. لقد تشابه الاثنان في كل شيء تقريباً، في الطفولة الكئيبة الحزينة، وفي الشباب الثائر المتمرد، وفي النهاية المأساوية التعيسة، وفي الإبداع الغزير والمتنوع والرائع. فكانت

◆ أديب وباحث فلسطيني.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

حياتهما صاخبة، مليئة بالمواجهة والتحدي، والخروج عن المألوف، والتفرد في كل شيء.

إنه لشيء عجيب أن يتشابه الاثنان زمانياً، واجتماعياً، وجسمياً، ونفسياً، وميولاً، وتفكيراً، وإبداعاً، وأن يكونا قطبين منفردين في الشعر والأدب، ومؤثرين فيما حولهما! فكانا رائدين ومعلمين، لمن أتى بعدهما من الشعراء والأدباء، مع أنهما لم يكن لهما تلاميذ وأتباع، وإنما كانا شمسين يستدفئ بنورهما الجميع، من شعراء وأدباء، بشكل مباشر أو غير مباشر. ولو استعرضنا أوجه التشابه بينهما بالتفصيل لوجدنا التشابه بينهما يكاد يكون تاماً. فكلاهما كانا يحتلان مكانة اجتماعية بارزة في بلديهما، وينتميان إلى أسرة نبيلة عريقة. فبوشكين ينحدر من أسرة روسية عريقة من النبلاء وذات تاريخ قديم. بينما بايرون هو ابن الكابتن (جون بايرون)، وقد ورث لقب (لورد) عندما كان في العاشرة من عمره، وهو من سلالة اللوردات. وكلاهما عاشا في زمن واحد تقريباً، هو بداية القرن التاسع عشر، ولكن في مكانين مختلفين وبعيدين عن بعضهما. فبايرون ولد في لندن عام (١٧٨٨م) وتوفي عام (١٨٢٤م)، بينما ولد بوشكين في موسكو عام (١٧٩٩م) وتوفي عام (١٨٣٧م). وقد ماتا في سن متقاربة، فبايرون عاش (٣٦ عاماً)، بينما عاش بوشكين (٣٧ عاماً).

كانت طفولتهما بائسة حزينة، فلم يذوقا الحب الحقيقي، ولم يشعرا بدفء الأسرة، ولم يعرفا حنان الأهل. فهذا بوشكين لم يحظ باهتمام والده، فقد كان بارداً جافاً، ولا بمحبة أمه وحنانها فقد كانت قاسية ولا مبالية. بينما عانى بايرون من قسوة أمه وعصبيتها الشديدة، وهجران والده له ولأمه، ومن ثم وفاته بعيداً عنهما. ولعلّ إهمال الأهل وعدم محبتهم لهما، هو ما جعلهما يتخذان، فيما بعد، موقفاً معادياً ورافضاً للمجتمع وتقاليده وأعرافه.

وهناك سبب آخر لإظهار العداء الشديد للمجتمع، هو معاناتهما من صفات جسمية شاذة، سببت لهما الضيق والنفور من الآخرين. فبوشكين، وإن لم يكن يعاني من علة جسدية حقيقية، إلا أنه كان ذا شعر أجعد، وشفتين غليظتين أشبه ما يكون بالزنوج، وذلك بسبب أن أمه تنحدر من جد حبشي، مع أنّ عينيه زرقاوان، وأنفه أعنب مستقيم، وهذا ما كان يجعله قلقاً ومتوتراً دائماً.

أمّا بايرون فكان يعاني من عرج واضح في إحدى ساقيه، وكان يسبب له الحرج الشديد في المجتمع. ويثور بعنف، خاصة على من يحدق في قدمه العرجاء. والشيء

الجيد والمفيد الذي قام به الأهل تجاههما، هـو إتاحة الفرصة لهمـا في التعليم العالي والممتـاز. فبوشكـين درس في (الليسيه)، التي أنشأها القيصـر (ألكسندر الأوّل) في بطرسبـورج، وكانت لا تقبل إلا أبناء النبلاء فيها، وقد درس فيها مدة ست سنوات. بينما درس بايرون في كليـات (دلويتش) و(هارو) و(ترينيتـي) و(كمـبردج). وخـلال سنوات الدراسة تفتحت موهبة كل منهما بشكل لافت للنظر في الشعر، وكانـا قد قرأا الكثير من الآثار الشعرية والأدبية أثناء الطفولة، وقد عززا ذلك في اكتساب المزيـد والمزيد أثناء الدراســة وخاصة بعد سن الخامسة عشرة. فبوشكين أصبح مشهوراً بين زملائه كشاعر، وصار ينشـر نتاجه في المجـلات المدرسية في البداية، ثم نشر قصيدتـه (إلى زميلي الشاعـر) في مجلـة حقيقيـة هـي (الناصح الأوروبي)، ثـم توالت قصائده في الصحف والمجلات الروسية وأصبح مشهوراً ليس بين زملائه فقط، وإنَّما خارج المدرسة.

وكذلك بايرون، اشتهر بين زملائه أولاً، ثم جمـع قصائـده أيام الدراسـة ونشرها في ديوانـه الأول بعنـوان (ساعات الكسل)، فأصبـح مشهـوراً في كل لنـدن وخارجها أيضـاً، ومـع هـذا النجـاح الأوّل فوجئ الشاعـران بالنقد الجارح، شديـد الوطأة عليهما، فبايـرون هاجمته مجلـة (أدنبرة) بشـدة ولم تكتفِ بالنقـد فقط بل تعدته إلى التحقـير والسباب، وبوشكـين هاجمه كثير مـن النقاد ومنهـم (بولجاريـن) الذي كان يقطر سماً على عبقرية بوشكين. وربما هذا من الأسباب التي جعلـت الشاعرين يقفان موقف العداء من النقـاد ومن بعض رجال الأدب الغيورين.

ولكن الشيء اللافت للنظر أن الشاعرين لم يكونـا محبوبين من قبل زمـلاء الدراسة، فبوشكـين كان عنيفـاً، ولم يكـن من السهل فهمه، وكذلك بايرون كان متعالياً، متعجرفاً، فكانـا يشعران بالوحدة والعزلة والنفور من الناس، ولم يكونا يشعـران بالهدوء والسلام والاطمئنان إلا في أحضان الشعر.

ومما يدعـو إلى الدهشـة والاستغراب أن الشاعريـن أحبا وعشقـا وهما في طور الطفولـة! فهـذا بوشكين أحـب، وهو في العاشرة من عمره، فتاة صغيرة اسمها (كاتيا شوشوكوف)، وهو يصف حبه هذا بأنه كان حباً رقيقاً، نقياً، سامياً. بينما أحب بايرون، وهـو في التاسعـة من عمره، فتـاة صغيرة اسمها (ماري داف). ومع أنه أحب الكثيرات مـن بعدهـا، إلا أنه ظل يقـول: «ومع ذلك ما زلت أذكـر أحاديثنا الرقيقة، وتقاطيعها الجميلة!».

ولم يظهـر كلاهمـا تفوقـاً ملحوظاً في دراستهمـا، إذ لم يبـذلا جهـداً في الدراسة

والاستذكار لمعظم المواد، إلا أنهما اهتما، بشكل خاص، بالمواد الأدبية أكثر من غيرها. وكانت لهما تصرفات طائشة، أيام الدراسة، وصلت إلى حد الاستهتار بالقواعد والقوانين، مما جلب عليهما سخط الإدارة والمحيطين بهما.

ومنذ أن أحسا بمشاعر الرجولة، أخذا يكتبان قصائد الغزل، وبعض القصائد الماجنة والإباحية، وأخذا يعاقران الخمرة، ويلعبان القمار، ويكثران من السهر. كما أخذا يتعرفان على النساء، ويقيمان علاقات معهن. وكأنهما كانا بذلك ينتقمان من صرامة الأهل والمدرسة والمجتمع.

إن المتتبع لحياة بوشكين وبايرون، ليندهش من كثرة عدد النساء اللواتي أقاما علاقات معهن، أو بادلاهن الحب، منهن الغانيات والطاهرات، والصغيرات والكبيرات، والنبيلات والوضيعات، والمتزوجات والعازبات، والفلاحات والمدنيات، والسيدات والخادمات. منهن من كانت العلاقة معهن عابرة، ومنهن من كانت العلاقة معهن دائمة أو لفترة محددة. ولا عجب في تهافت النساء عليهما. فكلاهما نبيل، وشاب، وثري، وشاعر مشهور، وذو سحر وجاذبية وجرأة، وكل هذه الأشياء تعجب النساء. ولكنهما، كانا في الوقت نفسه، يحتقران النساء، ويظهران التعالي والتكبر والنفور منهن، خاصة بعد نوال الحاجة منهن.

أمَّا الشريفات والعفيفات من النساء فكانا يظهران الاحترام والتقدير لهن. وكانا يكرهان الضعف والخضوع والإخلاص والصبر والدموع والحب الزائد منهن، ويحبان المرأة اللعوب الذكية المرحة، التي تفهمهما وترغب في إرضائهما. وهما معذوران في ذلك، لأن أكثرهن هن اللواتي كن يتعرضن لهما، وفي المقابل، كانت بعض النسوة يتمنعن عنهما، وهذا كان يزيدهما إصراراً ورغبة في النيل منهن، مهما كلف الأمر، فكان بعضهن يستسلمن راغبات أو كارهات، وكان هذا يرضي غرورهما، أمَّا اللواتي يبقين على تمنعهن ورفضهن فكن يفرضن الاحترام والتقدير عليهما، بل إنهما اختارا زوجتيهما من هذا النوع من النساء، فتزوج بوشكين من (ناتاليا جونشاروف) وبايرون من (آن ميلبانكي)، وقد أحب كل منهما زوجته بصدق وإخلاص، وإن شاب زواجهما بعض المنغّصات.

ولم يكن حبهما صادقاً لزوجتيهما فقط، بل أحبا كثيراً من النساء حباً صادقاً وحقيقياً، بل وعرفا آلام وأحزان الحب الحقيقي. فكما كانا سيدين طاغيين في الحب في معظم الأحيان كانا يصبحان، أحياناً أخرى، ضحيتين عاجزتين أمام الحب

الحقيقي، فقلباهما ما كان في مقدورهما إلا أن ينبضا بحب الجمال، في كل مظهر من مظاهره، جمال الطبيعة، وجمال الفن، وجمال المرأة الحار والحي.

وكانت النساء اللواتي شعرا بالحب الحقيقي نحوهن قد جلبن الحزن والألم والشقاء لهما، فكان هذا مفجراً لينابيع العبقرية في أعماقهما، فخلدا حبهما الصادق هذا في كثير من القصائد الرائعة التي تعد من أمهات الشعر، فهذا بوشكين يقول في (ماريا رافسكي):

لا! عندما كان الشباب والحب يشتعلان
لم أكن أحترق بمثل هذه الرغبة
لو دلكت شفتي عذراء
أو قبلت خداً مورداً قبلة نارية
أو حاولت في حماس متدفق أن أقبل صدراً
فإنه لم يحدث إطلاقاً من قبل
أن سبّب لي أي المشاعر
ألماً عظيماً مثل هذا الألم!

وأمَّا بايرون، العاشق الهائج دائماً، فهو يقول مخاطباً (ماري شوارت):

.. هذا هو حالي،
ولن أرى سحرك مرة أخرى، ففي البقاء عذابي
وفي قربك حسرة دائمة. سأكون حكيماً إن رحلت
وهربت بعيداً عن الإغراء، فلا أستطيع أن أرى
جنتي، ولا أرغب العيش فيها من جديد..

والشاعران يعترفان بالحب صراحة، ومن دون مواربة، ويقران بخضوعهما لهذا الحب، رغم آلامه وأحزانه وتعاسته. فهذا بوشكين يقول في (مسزكيرن):

إنني لأذكر اللحظة القدسية التي ظهرت فيها أمامي
مثل رؤيا هائمة.. مثل روح الجمال النقي
ومرّت السنوات، وجرفت الزوابع أحلامي الماضية
فنسيت صوتك الرقيق، ووجهك السماوي!
والآن يدق قلبي مرة أخرى في سعادة دافقة، ومرة
أخرى يعرف القلب الحياة، والدموع، والله، والشعر، والحب!

وهذا بايرون يخاطب (تيريزا ماكري) والتي يسميها (عذراء أثينا) قائلاً في حب وتضرّع وألم:

عذراء أثينا... ردي إليّ قلبي قبل الرحيل
ولكن قلبي قد هجر صدري، إذن إليك باقيه،
واسمعي قسمي قبل أن نفترق.. حياتي إنني أحبك!

لقد كان الشاعران، في معظم قصائدهما، سفيرين للحب، يدعوان الناس إليه، كما يدعو الكاهن رعيته لدخول المعبد المقدس وإقامة الصلوات والابتهالات، فهذا بوشكين يقول داعياً للحب:

فلتحب إذن، لأن الوقت يفر طائراً
فمن أسعد أيامنا هذه، نصنع أفضلها!

في سن الشيخوخة الباردة

يمكن أن يشعر الرجل بنار الحب في صدره؟

بينما يقول بايرون، داعياً إلى الحب، حتى لو كبر الإنسان وتجاوز سن الشباب:

لقد حان الوقت الذي يجب ألا يهتز فيه هذا الفؤاد

لأنه لم يعد يهز الآخرين

ولكن إن كنت لا أستطيع أن أغدو محبوباً

فلأحب أنا!!

ورغم صخب الحياة، التي عاشها الشاعران، ورغم النساء والحب، واعتراف لذائذ الحياة ومتعها، ورغم الشهرة وذيوع الصيت، فقد كانا تعيسين حزينين في أعماقهما، وكأنما كل ما كانا يفعلانه ما هو إلا ستار يغطي الضعف والألم والشقاء في قلبيهما. فهذا بوشكين يقول: «إنني لا **أتوقع شيئاً كثيراً من الحياة. ولو صادفتني السعادة لأدهشني ذلك!**».

وهذا بايرون يكتب ساخراً في مفكرته، عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره: «**هاأنذا أذهب إلى فراشي بقلب مثقل بالحزن، لأنني عشت كل هذه الأعوام من دون فائدة، ولكني لا آسف على ما فعلت قدر أسفي على ما كنت أستطيع أن أفعله**» ثم أضاف هذين البيتين من الشعر:

في طريق الحياة القذر، تعثرت إلى الثالثة والثلاثين

ترى ماذا تركته لي كل هذه الأعوام؟

لا شيء غير ثلاثة وثلاثين!!

والشيء الوحيد الذي كان ينسيهما الآلام، والأحزان، وشقاء الحياة، بعد الشعر، هو الطبيعة. ففي أحضان الطبيعة كانا يجدان الهدوء والسلام، والحرية والجمال، والانعتاق من عبودية الحياة، ففي الطبيعة الصدق والأصالة، والحقيقة الخالية من الغش والرياء والتصنع، فهذا بوشكين يكاد يغرق في الطبيعة الخلابة وهو يقول:

إن الريح وهي تهب على أوراق الأشجار تكاد تستنشق،

والقمر يتحرك فوق السحب الفضية مثل بجعة عظيمة،

والليلك ملك الحقول، يزدهر في جمال يباهي به،

والحوريات يعبثن فوق مياه البحيرة الناعسة.

وهذا بايرون يخاطب الطبيعة كما يخاطب الابن أمه، قائلاً في حب وإعجاب:

..أوه! إنها لأروع جمالاً في قسماتها الوحشية،

حيث لا تتجاسر

أية صناعة فنية أن تدنس سبلها.

لقد تبسمت لي دائماً ليل نهار،

على رغم كوني قد حفلت بها حيث لا يحفل

الآخرون، ونشدتها أكثر وأكثر،

وازددت بها تعلقاً، متى؟ إبان غضبها وثورتها!

إن الـذي يبعث على الإعجاب بهما، هو شاعريتهمــا المتدفقة والعفويــة الصادقة، ورهافة الحس، وحسن الوصـف، وروعة الأسلوب. فعندمــا يصفان منظراً ما تشعر وكأنهمــا يرسمانــه بالكلمــات، ويلونانــه بالعاطفـة الجياشــة الصادقــة، ويملأانه بأنفاسهما الدافئة العطرة. فلننظر إلى هذه اللوحة التي رسمها بوشكين:

العاصفة الهائجة، ضباب أبيض يدوم،
وتعوي في السماء، كالوحش البري،
وتئن أنيناً خفيفاً كالطفل الصغير،
والريح، الريح تنفذ إلى الكوخ الخرب
الريح تطرق النافذة،
كما يطرقها مساء الرجل الذي ضل طريقه

ولننظر إلى اللوحــة الثانية التي رسمها بايرون لجبال (سويسرا) الشامخة قائلاً:

نظرت إليها فوجدتها كما كانت، ولم تغيرها
الأيام كما غيرتني،
فالثلوج الأزلية تحوط قممها، ومن تحتها
تهتز البحيرة في رقة،
ويجري الرون في قوة وفتوة. وسمعت السيول
وهي تقفز غاضبة،
لترتطم بالصخور والشجيرات.

ورغم طيش الشباب، وغرقهما في الملذات والمفاتن، وتهورهما الشديـد والجامح في خضم الحيــاة، فإننا نجد الحكمة والتعقل، والتفكير الصائب، والكلمات المؤثرة الواعية في بعـض قصائدهمــا، أو في قصصهمــا ومسرحياتهما، وكأن حكمــة الكبار، وخبرة وحنكـة الشيـوخ هــي التــي تجـري على لسانيهما، حتى لنعجـب أيعقل أن شاعرين متهورين وعابثين مثلهمــا يقولان مثل هذا الكلام الرائع والعظيم؟!

فهذا بوشكين يقــول في قصيدة بعنوان (النبــي) كان قد أحرقها خوفاً من البوليس السري، ولم يبق منها إلا أبيات قليلة نقتطف منها الأبيات التالية:

كنت ظمآن الروح في غمار الظلام
فأخذت أتعثر في صحراء غير آهلة...
وبقيت في الصحراء ملقى
كحجر لا حياة فيه حتى سمعت صوت الله:
ألا قم واستيقظ أيها النبي
وانظر واسمع، وطعّم روحك بإرادتي
فلتحب البحار الداكنة، والطرق المظلمة
واحرق قلوب الناس بهذه: بكلمتي!

أمّا بايرون فهو يضع تساؤلاته الفلسفية العميقــة، المغلفــة بطبقة دينيــة شفافة في قصة (قابيــل) وعلى لســان (قابيل) الذي يهتف صارخاً:

أهذه هي الحياة؟ أعمل وأكدُّ دون أمل؟
أشقى لأن أبي لم يحتفظ بمكانه في الجنة؟ ولكن
ما ذنبي؟ لم أكن ولدت عندما فعل ذلك، ولست
أحب العالم الذي أعيش فيه. ولِمَ
أستسلم للحية؟

وخدع بالمرأة؟ ومادام قد استسلم، فأي خير يرجى من تعذيبه؟ لقد غرست الشجرة، فلماذا لا تكون له؟ وإن لم تكن له، فلماذا وُضع بجوارها، وقد ظهرت لعينيه أبهى وأينع مما حولها؟ ....

إن الإنسان ليعجب حقاً، كيف توضع العبقرية في شخصين شاذين وغريبين كبوشكين وبايرون، من دون بقية الأفراد في المجتمع؟ إن العبقرية ليس لها بيئة معينة، ولا حدود، ولا ضوابط، ولا تشريعات. إنها تنمو هكذا، لا على التعيين، فتظهر هنا وهناك، بشكل مدهش، وعند أفراد مدهشين! والأعجب من ذلك أن يتشابه عبقريان في كل شيء تقريباً، وفي مكانين مختلفين وبعيدين، من الطفولة إلى الممات!

ومما ساعد على التشابه بينهما، ربما، هو تأثر بوشكين ببايرون إلى حد كبير، حتى وصل الحد أن يقلده في لبس الياقات الناعمة، وفي لبس الثياب الغريبة، وفي التصرفات الشاذة والغريبة عن المجتمع، وفي عشقه للنساء والتنقل بينهن، وحتى في إبداعه، وفي أعماله الأدبية كافة، وليس في الشعر فقط. إلا أن تأثر بوشكين ببايرون لم يكن حرفياً، فقد جدد المواضيع وأعطاها من شخصيته وروحه وشاعريته المميزة، فأصبحت ذات طابع بوشكيني، إلا أنه اقتبس المكونات الأساسية للرومانسية البايرونية، كالإغرابية المتوهجة في الديكور الطبيعي، وخيبة أمل البطل الذي لا تستطيع أية عاطفة أن تنتزعه من شقاء الحياة، والحل المؤثر، والمجموع المحمول بفيض من الغنائية المتواصلة. ونرى هذا التأثير واضحاً، مثلاً في (أسير القوقاز) و(نبع باكشيراي). وبوشكين يختلف عن بايرون في أنه يخضع الكتابة الغنائية لبنية درامية، تحل محل خطاب المناجاة الذاتية الحوار، بينما يتطور الأسلوب القصصي نحو بساطة أكبر. ومع أن بوشكين قد تخلص من تأثير بايرون تماماً في فترة حياته الأخيرة، إلا أن التأثير البايروني ظل مهيمناً ولو بشكل ضئيل جداً، إلى آخر حياته.

ويبلغ التشابه بينهما أوجه، عندما حُكم على الاثنين بالنفي القسري. فبوشكين حكم عليه القيصر بالنفي إلى جنوب روسيا، ومن ثم إلى الريف حيث قرية عائلته تحت مراقبة البوليس، وذلك بسبب تصرفاته الغريبة والماجنة، ومواقفه المعادية للسلطة القيصرية، وقصائده الجريئة المتوهجة، والمنطلقة، والمليئة بالدعوة إلى الحرية، ونبذ العبودية والرق، وهو ما كان يخيف السلطات القيصرية. ثم عفا عنه القيصر (نيكولا) ولكنه أبقاه كالسجين تحت مراقبة البوليس السري إلى آخر حياته.

أما بايرون فقد اشترك الجميع في نفيه من انكلترا، الحكومة والشعب والنبلاء وذلك

بسبب مواقفه المعادية للسلطة ولطبقة النبلاء وللصحافة، وبسبب تصرفاته الماجنة الغريبة والخارجة عن المألوف، وارتكابه المحارم، حيث اتهم بإقامة علاقة محرمة مع أخته غير الشقيقة، وكذلك اتهم بوشكين أيضاً بإقامة علاقة محرمة مع أخت زوجته.

وقد أقام بايرون في أوروبة متنقلاً بين سويسرا، وإيطاليا، واليونان، وبلاد كثيرة غيرها. وقد مات غريباً في اليونان ولم يرجع إلى وطنه انكلترا إلا محمولاً في تابوت.

لقد كان المنفى، لكليهما، هو الأرض الخصبة التي أزهرت فيها عبقرية هذين الشاعرين، فأخذا يبدعان ويبدعان من درر الشعر، ومن بدائع الأدب في القصة والرواية والمسرحية، بشكل لم يسبق له مثيل، بحيث أصبحا رائدين وملهمين لمن أتى بعدهما من الشعراء والأدباء، وأصبحا علمين يشار إليهما بالبنان، فلا نقول روسيا إلا ونقول بوشكين، ولا نقول انكلترا إلا ونقول اللورد بايرون.

لقد كانا أول من دعا إلى الحرية والعدل والمساواة في كتاباتهما. فبوشكين حارب طغيان القياصرة، ودعا إلى تحرير الأقنان من العبودية والظلم. وطالب بالعدل والمساواة لكل أطياف الشعب. وهذا ما جعل السلطات القيصرية تحاربه وتنفيه وتضعه تحت المراقبة الدائمة. لقد كان ينادي باستمرار: «اتركوا للبطل قلبه! فماذا عساه يكون دونه؟ طاغية ليس أكثر!».

هكذا كان نداؤه في قصيدته الشهيرة (البطل) التي كتبها في خريف عام (١٨٣٠م)، وتلك كانت رؤيته التي تضيء إنسانية ورقة وشفافية.

أمَّا بايرون، فلم تمكنه الظروف من الدعوة إلى الحرية في بلده، فقد ظل منفياً في أوروبة إلى آخر حياته، وإن ظل يهاجم الطبقة الحاكمة والنبلاء. وقد عوض عن ذلك عملياً، بالدعوة إلى الحرية في إيطاليا، وساهم بذلك مادياً ومعنوياً، واشترك في بعض الحركات التحررية، وعندما فشل في تحقيق ما يريده في إيطاليا، ذهب إلى اليونان، يدعو أهلها إلى الحرية ويهيب بهم قائلاً:

يونان الجميلة.. أيتها الخرائب الحزينة
لمجد ذهب
إنك خالدة وإن تداعيت، عظيمة وإن هويت
فمن لك بقائد يجمع شمل أولادك المشتتين
ويحطم عن معصميك قيود الذل
والاستعباد؟!

ويبلغ الأمر ببايرون أن يمد اليونانيين بالأموال والعتاد وأن يشارك بنفسه في قتال الأعداء. وفي ذلك يقول:

لقد استيقظ الموتى فهل أنام؟
وثار العالم على ظالمه فهل أخضع؟

وطاب الزرع فهل أتوانى عن الحصاد؟
لن أتردد فالشوكة في مرقدي،
ونداء الحرب في أذني، وصداها في قلبي.

ويتشابه الشاعران حتى في الموت، وفي النهاية المأساوية التي انتهيا إليها. فكلاهما مات في ريعان الشباب، فبوشكين مات في السابعة والثلاثين من عمره، بينما مات بايرون في السادسة والثلاثين من عمره. وكلاهما كان يعاني في آخر أيامه من كآبة وتسليم وإذعان للقدر، وتفكير في الموت، وكأنهما كانا يعرفان بدنوّ أجلهما. والغريب في أمرهما أن كلاً منهما أخبرته عرافة بأنه سيموت شاباً. فبوشكين أخبرته العرافة أنه سيموت صغيراً على يد شاب أشقر، وقد تحققت النبوءة! وكذلك بايرون أخبرته العرافة بأنه سيموت قبل السابعة والثلاثين من عمره، وقد تحققت النبوءة كذلك! ولعله هذا هو السبب الذي جعل الشاعرين يبدعان بشكل متواصل وغزير، وفي الوقت نفسه ينهلان ما أمكنهما من متع الحياة ولذائذها، إذ كانا يتوقعان موتهما باكراً، نتيجة لنبوءة العرافتين. وما يدعو إلى الاستغراب أيضاً أنهما مكثا عدة أيام يعانيان من آلام الاحتضار قبل أن يسلما الروح.

والذي أكد تحقق النبوءة، أيضاً، هو عنادهما الغريب، واستعدادهما النفسي لتقبل فكرة الموت. فبايرون أصرّ على مشاركة المقاتلين اليونانيين في حربهم ضد الأتراك، مع أن الفرصة كانت متاحة له في أن ينسحب، كما نصحه بذلك الكثيرون، ورغم المصاعب والمشاق، إلا أنه تابع بعناد إلى أن مرض وأصيب بالحمى ومات نتيجة ذلك. وكأنه كان يريد أن يعاقب نفسه، حيث ذكر صراحة، قبل موته، في قصيدة يقول فيها:

إن كنت تأسف على زوال الشباب فلِمَ تعيش؟
هاك أرض الموت الشريف النبيل
فإلى ميدان الجهاد، واستشهد فيه
وابحث لنفسك عن قبر جندي
فهو لك أشرف القبور
وتأمل حولك، واختر لجسدك مثوى
وارقد لتستريح

وكذلك بوشكين، أصرّ على إجراء المبارزة مع خصمه، رغم وجود الفرصة المناسبة له للانسحاب وحفظ ماء وجهه، وقد نصحه بذلك بعض الأصدقاء، إلا أنه عاند وكابر وأصرّ على المبارزة، وكأنه، كان كذلك، يريد أن يعاقب نفسه، فقد كتب في أيامه الأخيرة، قبل المبارزة، قصيدة طويلة يقول فيها معلناً موته ومفتخراً بنفسه:

لن أموت تماماً، ولكن ستخلد روحي على القيثارة
غير قابلة للفساد، وبدون جسم
وستمتد شهرتي طالما بقي تحت السماء
شاعر واحد على قيد الحياة!
سوف تكتسح شهرتي أرض روسيا الواسعة،
وسيردد جميع سكانها هذا الاسم الذي سيتألق ضوؤه
سوف أصبح محبوباً، وسوف يذكر الناس دائماً
الأفكار الكريمة التي أدرتها، وأفخم تاج في موسيقاي
وكيف احتفلت بالحرية في هذا العصر القاسي....

المصدر

أ- المصادر والمراجع عن الشاعر اللورد بايرون:

١- الرومانتيكية في الأدب الإنكليزي - ترجمة عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد- مؤسسة سجل العرب- القاهرة- ١٩٦٤م.

٢- بايرون- أمينة السعيد- سلسلة اقرأ- العدد (١٥)- مطبعة المعارف- القاهرة- ١٩٤٤م.

٣- شللي أو قبور في جنة الحب- أندريه موروا- ترجمة أحمد الصاوي محمد- مطبعة المعارف- القاهرة- بلا تاريخ.

٤- الأدب الإنكليزي- جون بيرغس ويلسون- لونغمان- لندن- ١٩٧٠م.

٥- الكنز الذهبي- اختيار جون بريس- مطبعة جامعة إكسفورد- لندن- ١٩٦٤م.

٦- حياة العظماء- ديل كارنيجي- سلسلة كتابي- القاهرة- بلا تاريخ.

ب- المصادر والمراجع عن الشاعر بوشكين:

١- الرواية في الأدب الروسي- سامي الدروبي- دار الكرمل- دمشق- ١٩٨٢م.

٢- تاريخ الآداب الأوروبية- مجموعة مؤلفين- ترجمة صياح جهيم- وزارة الثقافة- دمشق ٢٠٠٢م.

٣- بوشكين- ليديا لامبير- ترجمة فرج جبران- مطبوعات كتابي- العدد (٢٧) القاهرة- بلا تاريخ.

٤- بوريس غودونوف- ألكسندر بوشكين- ترجمة نديم معلا- من المسرح العالمي العدد (٢٧٧)- الكويت ١٩٩٤م.

أهم وسائل التواصل الإنساني
اللغة.. وظيفتها الأدائية ومكوناتها

د. فايز حداد ✿

الناظر إلى هذا الكم الهائل من اللغات التي يتحدثونها أو يكتبها سكان المعمورة وهذا العدد الكبير الذي تحتويه كل لغة من الكلمات والقواعد لابد وأن يصاب بالذهول، ولا يعرف بدقة عدد اللغات، فأنت تجد في بعض البلدان أكثر من لغة وتجد مجموعة من الناس لا يزيد عددهم عن بضعة ألوف لهم لغة خاصة بهم. والاهتمام بعلم اللغة ودراستها بأبعادها المختلفة أمر ليس بجديد، فقد اهتم علماء العرب بهذا النوع من العلوم مع ظهور الإسلام الذي مع ظهوره وانتشاره في بقاع الأرض تطورت العلوم المختلفة ومنها العلوم اللغوية، وكيف لا والقرآن الكريم نزل بلغة تعتبر قمة في الإعجاز والإبداع.. فما هي اللغة؟.. وما هي وظيفة عملها الأدائي؟.. وما هي مكوناتها؟..

في الحقيقة عشرات التعريفات أعطيت للغة، فالبعض عرَّفها على أنها مجموعة من الرموز المتفق عليها في مجتمع معين للتعبير عن فكرة ما باستعمال هذه الرموز المختارة عشوائياً والمرتبة وفقاً لقوانين محددة. أما العالم اللغوي «أوتو جيسبرن» فيعرف اللغة على أنها نشاط إنساني يتمثل من جانب في مجهود عقلي يقوم به فرد من الأفراد، ومن جانب آخر في عملية إدراكية ينفعل بها فرد أو أفراد آخرون. أما البعض الآخر فقد ذهب في تعريفه إلى أبعد من ذلك بالقول بأن اللغة هي القدرة على عمل «شيفرة» من الرموز المتفق عليها للتعبير عما يجول في الذهن من أفكار ومشاعر من جانب، ومن جانب آخر القدرة على تفكيك هذه «الشيفرة» وإدراك الرموز التي تتكون منها. وقد يطول بنا الحديث عن التعريفات المختلفة للغة، إلا أنه بتمعن بسيط لهذه التعريفات وغيرها نلاحظ

✿ باحث وكاتب سوري.

عدة أمور مشتركة، وهي أن اللغة عبارة عن أداة اجتماعية ونظام يستعمله الإنسان في الاتصال وإيصال الأفكار والمعلومات، وقد يستعملها في التعبير عن المشاعر أو نقل الخبر أو الاستعلام أو الزجر والنهي والمراسم الاجتماعية والشعائر الدينية والأغاني والشعر... إلخ. ويمكن القول باختصار بأنها نظام الرموز المختارة عشوائياً وهدفها الأولي هو التواصل الإنساني بجميع أشكاله وأنماطه المختلفة.

والثابت تاريخياً أن اللغات مرت بمراحل نمو متنوعة عبرها تغير مدلول العديد من الألفاظ، وأساليب الاستخدام بتغير الزمان والمكان، كما تحتوي مباحث اللغة على العديد من ظواهر التغيير في صوتيات اللغة وتبديلات الحروف وبناء الكلمات، مما ينتج عنه دوماً صياغات جديدة، فهناك اللفظ الأصلي ومعان عديدة اصطلاحية تحول إليها اللفظ بتغير ظرفي الزمان والمكان، وظروف الاستعمال.

الأداء اللغوي

يتحقق الأداء اللغوي في استخداماته النفعية عبر عدد غير محدود من السياقات تتعدد فتكاد تصل إلى ذات عدد الأفراد المستخدمين للغة، حتى إن اللغة التي أدت وظيفتها تتلاشى، فالرسالة اللغوية بعد أن يرسلها المرسل تتحول إلى شيء آخر تماماً -في ذهن المتلقي- مكون من صور ومعان، وأفعال، أو ردود أفعال تنتمي إلى المتلقي أكثر مما تنتمي إلى المرسل. والأداء الأدبي معضلة حقيقية من معضلات اللغة، حيث تحتوي اللغة الأدبية ضمن ما تحتويه ممارسات طقسية، ونوازع تنتمي لغريزة اللعب مما يجعل تحقق اللغة الأدبي نتاجا لتفاعل البنى التعبيرية مع حدود الزمان والمكان.

والملاحظ أن قراءة النص تحدث في زمان ومكان آخرين يمارس فيهما المتلقي هو الآخر غريزة اللعب بمعزل عن ظروف الزمان والمكان اللذين تأسس فيهما النص، ومن خلال طقس قد يغاير وقد يشابه بدرجة أو بأخرى طقس الكتابة، مما يصنع صيغة جديدة للنص تختلف قليلاً أو كثيراً عن شروط إنتاجه، مما يجعل اللغة تتحقق بشكل جديد مع كل قراءة جديدة للنص. ومحاولة فرض قراءة أحادية وحيدة للنص تشبه إلى حد بعيد حكاية العميان والفيل، فليس هناك من قاعدة معيارية قياسية مطلقة للمعاني بل هناك خطاب في حالة حوار دائم مع المتلقي لتتولد من هذا الحوار مفاهيم ومعان جديدة دوماً ومنبعثة من كلا الخطاب والمتلقي معاً.

ويميز عبد القادر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» بين مستويات ثلاثة يحتويها النص في نظامه الخاص، هذه المستويات هي: المعنى المجرد، واللفظ، والنظم. ويمكن تفسير ذلك بأن المعاني المجردة عند الكاتب لا تتحقق إلا من خلال اللفظ الذي لا يتحقق

هـو الآخر إلا عبر منظومـة لغوية تقيم بناء التعبـير. ويلاحظ هنا أن إمكانيات استخدام الألفاظ من جهة، ونظمها في سياق بناء مميز يتم عـبر عدد غير محدود مـن الاحتمالات، وأن هناك مسافة واضحة بين اللفظ والنظام المتماسـك النـاتج عمّـا يسميـه الجرجاني «النظم»، حيث يؤدي حـذف أو إضافة كلمة إلى هدم سياق بأكمله، أو استبدال سياق آخر بـه يختلف عنه كلياً أو جزئيـاً قد يتشابه أو يتناقض مع السيـاق الأصلي، سواء كان هذا السياق شعرياً أو غير شعري.

الأداء الإبداعي للغة

يشـترط الأداء الإبداعـي للغة جملة من القواعـد الأساسية، منها علـى سبيل المثال: احترام القواعد النحوية، والاستخدام المتقن للعلاقـات البلاغية الأساسيـة من حيث كم الأداء اللغـوي ونوعـه، والالتـزام بالأشكال والأنمـاط (الأجناس الأدبية). يتأسس نتيجة لذلـك بناء لغـوي إبداعي ينتسـب للقواعد المؤسسة لـه أيّاً كانت هـذه القواعد، وعلى الرغم من ذلك تظل هذه القواعد غير كافية بأي حال من الأحـوال لتفسير الخطاب وإن كانت تساهـم في توضيح الفعـل الإبداعي، كمـا تساعد على توضيح الآثـار السيميائية المختلفـة التي تتكون عنـد متلقي الخطاب، ويلاحـظ أن كل ذلك لا يحقق علاقة مباشرة بين مبـدع الخطـاب ومتلقيه، حيـث يعيد المتلقي مـرة أخرى تشكيـل الفعل الإبداعي للخطاب بمختلف أبعاده، ومن خلال تفسيره الخاص للظواهـر السيميائية للنص، وبذلك يمارس فعلاً إبداعياً جديـداً للقراءة، حيث يقيم فرضياته هو، ويضع توقعاته على النص الأصلي الذي أصبح منذ لحظة تناوله منطلقاً جديداً لقراءة مختلفة، وبذلك لا يصبح وسيلة إعلام أو إفهام أو تبليغ بقدر ما هو «نص» أو «خطاب» تتـم قراءته وتفسيره وتحليله بعيداً عـن سياقـات إنتاجه، وبمعـزل عن ظروف إعداده في عدد محدود من سياقات التلقي.

ويمارس الخطاب في حالته الإبداعية عدداً غير محدود من المناورات تتراوح بين البسيط والمعقـد، إضافة للتعديلات في العلاقات بين العناصـر اللغويـة، وعمليات الحـذف التي لا يخضع لهـا النص في حالاتـه التطبيقية البسيطة، ففي الحالة الإبداعية للنص يمارس الخطاب اختراع ما هو غير واقعي تمشياً مع مفهوم اللعب، مستهدفاً توضيح نموذج التعبير بغض النظر عن الوظيفـة العملية، فيساهم ذلك في تكوين آثار سيميائية تتفاعل بدورها مع عملية الصياغة التي تسهم مرة أخرى في التعبـير، وهكذا في منظومـة متداخلة مثلها كمثل التفاعل الكيميائي المتسلسل.

مكونات اللغة

هناك عدة نمـاذج وأنظمة قدمها علماء اللغـة حول مكوناتهـا، إلا أن نمـوذج «بلوم ولاهي» لمكونات اللغة يبقـى الأفضل حسب

اعتقاد عـدد كبير من الباحثين، وحسب هذا النموذج تأخذ مكونات اللغة الشكل التالي:

أولا - الشكل اللغوي:

١ - قواعـد التركيب: قواعـد التركيب هي تلك القوانين أو القواعد التي تحكم بناء الجملة من حيث الترتيب وتـالي الكلمات والعلاقة بين هذه الكلمات ونوعها وعددها، بمعنى القواعد التي تؤدي إلى دمج الكلمات مـع بعضها بعضاً لتكوين الجملة، وكل لغة لها قواعد نحوية خاصـة بها، والتي تختلف كثيراً أو قليلاً عن القواعد المعمول بها في لغة أخرى، ولولا هذا الاختلاف لتشابهت قواعد التركيب في جميع اللغات. فمثلاً لو نظرنا إلى الجملة التالية: «مصنع يعمل عامل في» سوف نلاحظ على الفور بـأن هذه الجملة خاطئة بسبـب الترتيب غير الصحيح للكلمات، ولكن مـن المحتمل أن يكون هـذا النوع من ترتيب الكلمات أمراً صحيحاً في لغة أخرى. فالنحو أو قواعـد مبنى الجملة هو عبارة عن ترتيب وتتابع ودمـج الكلمـات مع بعضهـا بعضاً لتكوين جملة ذات معنى صحيح ومتفق عليه مع القواعد المعمول بها، أي مقبولة في البيئة اللغوية التي يعيش بها الفرد.

ويرى الباحـث «بالمر» بـأن النحو عبارة عن مجموعة اقتصادية من القواعد لتحديد أو تعيين أوصـاف بنائية خاصـة بمكونات التراكيـب التعبيرية وتحديـد الطرائق التي تركب بها مثل تلك المكونات لتكون مجموعة غـير محددة من الأبنيـة التعبيرية. أما عالمنا اللغوي «سيبويه» فيعرّف النحو على أنه العلم الـذي يختص بدراسة القواعـد التي تحكم بناء الجملة وتركيبها والضوابط التي تضبط كل جزء منها وعلاقة الأجزاء بعضها ببعض وطريقـة ربط هـذه الجمل وأنواعهـا. فإذا أخذنا مثالاً آخـراً: الكلمات التالية لا يمكن اعتبارها جملة (أحمـد - تفاحة - حليب)، والسبب في ذلك هو أن هذه الكلمات من فئة واحدة وهـي فئة الأسماء، وحتى تكون جملة لابد أن تكون هناك فئات أخرى من الكلمات، وهذا يقودنا إلى الحديث حول فئات الكلمات. فـإذ حاولنا تصنيف الكلمات في معظم، إن لم يكـن في جميع اللغات، نجد بـأن الكلمة قد تكـون اسماً أو فعـلاً أو صفة، وكذلك هناك كلمات هي عبـارة عن ظرف زمان أو أداة أو تعريـف أو أفعال مساعـدة أو ضمير أو أداة ربط أو ظرف مـكان، وباتحاد فئتين أو أكثر من هـذه الكلمات وفق ضوابط محددة يمكن تكويـن جملة صحيحـة ذات معنى. ويقي أن نقول بـأن في كل لغة يوجـد عدد محدد من الكلمـات ولكن عدداً غير منتـه من الجمل، وهـذا ما يسمى الإبداع وهـي صفة أساسية تتصف بها اللغة، أمـا المسمى الحديث لعلم النحو فهو علم «التراكيب».

٢ - قواعد مبنى الكلمة (قواعد الصرف): إذا نظرنـا إلى الجملـة (العمـال يعمـل في المصنع) نلاحظ علـى الفور بأن هناك خطأً

ما مع أن الجملة من ناحية ترتيب الكلمات وعددها ونوعها سليمة، ولكن بتدقيق بسيط نجد أن هناك اختلالاً في تصريف الفعل (يعمل) بسبب كون الكلمة السابقة تحمل صيغة الجمع، فلابد أن يكون هناك توافق في تصريف الفعل، إذا لابد من ضوابط أو قواعد تحكم مبنى الكلمة في الجملة وليس الجمل ككل، فقواعد الصرف هي التي تهتم بتركيب الكلمة، أي البناء الداخلي للكلمة، وهي القواعد التي تحكم بناء أو مكونات الكلمة من أجزاء صغيرة.

إذا نظرت إلى أية كلمة في لغة ما قد تجدها إمّا كلمة بسيطة أو كلمة مركبة، والكلمة البسيطة هي تلك التي لا يمكن تقسيمها إلى أجزاء صغيرة ذات معنى، أمّا الكلمة المركبة فهي تلك الكلمة التي يمكن تقسيمها إلى وحدات صغيرة وهذه الوحدات تحمل معنى ما. وهذه الوحدات أو الأجزاء الصغيرة ذات المعنى أطلق عليها علماء اللغة مصطلح «مورفيم» (Morpheme)، فكلمة «عمل» هي مورفيم واحد أما كلمة «يعمل» فهي مكونة من اثنين، أما كلمة يعملون فهي مكونة من ثلاثة مورفيمات. إذ يمكن تعريف المورفيم بأنه أصغر جزء أو وحدة لغوية تحمل معنى، وكل مورفيم يختلف عن الآخر لأن كل مورفيم له معنى محدد، والمورفيم الواحد لا يمكن تجزئته إلى أجزاء أخرى. أمّا الكلمة المركبة فهي تتكون من الجذر (Roots) والإضافات التي تلحق بالكلمة وتسمى (Affixes)، والتي يوجد منها ثلاثة أنواع، فالذي يأتي دائماً في مقدمة الجذر يسمى (Prefix)، أمّا الذي يأتي في نهاية الجذر فيسمى «اللاحقة» (Suffix)، ونوع آخر يأتي في وسط الكلمة وإن كان نادراً فيسمى (Infix)، وقد تكون هذه الإضافات متحدة مع الكلمة مثال الحال في اللغة العربية وفي لغات أخرى منفصلة عن الجذر.

وهناك صفة أساسية في معظم أو كل اللغات الإنسانية، ألا وهي توليد أو إيجاد كلمات جديدة من خلال عدة طرق أهمها طريقتان: التركيب والاشتقاق:

- التركيب: عبارة عن جمع جذرين مع بعضهما بعضاً مع أو من دون الإضافات على الجذور وإيجاد كلمة جديدة بمعنى مختلف، وهذا أمر شائع في اللغات اللاتينية، ويسمى التركيب (Compounding).

- أمّا الاشتقاق: فيتم من خلال إضافة مورفيم أو أكثر إلى الجذر من أجل إيجاد كلمة جديدة، ولغتنا الجميلة تمتاز عن اللغات الأخرى بكونها لغة اشتقاقية بالدرجة الأولى، فالكلمة الواحدة يمكن أن تشتق منها عشر كلمات أو أكثر (عمل- يعمل- تعمل- يعملن- تعملن - يعملون- عملوا...).

وهناك طرق أخرى يتم من خلالها إيجاد كلمات جديدة: مثل القص أو الاختصار، وهو عبارة عن إيجاد كلمات جديدة من خلال

اختصار الكلمات المتعددة المقاطع، وهو أمر شائع في اللغة الإنكليزية، مثل كلمة (Prof) عوضاً عن (Professer)، ولكنها نادرة جداً في اللغة العربية. أمّا الطريقة الأخرى فهي تركيب كلمة جديدة من أوائل الكلمات، وتسمى هذه الطريقة (Acronyms)، وهي أيضاً شائعة في اللغة الإنكليزية وقليلة جداً في اللغة العربية، فلو نظرنا إلى كلمة (اليونيسيف UNICEF) فهي مكونة من أوائل الكلمات التالية (United Nations International Children's Emergency)، والطريقة الثالثة تسمى النحت (Blends)، وهي عبارة عن تكوين كلمة جديدة من خلال دمج أجزاء في كلمتين، مثل كلمة «نفسحركي» أو «نفسجسمي»، فهي مكونة من كلمتين نفسي وحركي أو نفسي وجسمي. ومن الطرق الأخرى التي تنشأ بها كلمات جديدة هي استعارة كلمات من لغات أجنبية، والتي غالباً ما تكون أسماء أشخاص أو منتوجات أو مخترعات، وتصبح هذه الكلمة أليفة حتى يظن المرء أنها من الكلمات الأصلية، مثل (تليفون، راديو، تلفزيون،...).

٣ – القواعد الصوتية (الفونولوجي):

وهي الوحدات التي تحكم وحدات النظام الصوتي والقوانين المستخدمة في تكوين الكلمات والمقاطع اللفظية وكيفية ترابط أو اجتماع هذه الأصوات بعضها مع بعض لتكوين سلسلة كلامية مكونة من مقاطع أو كلمات وجمل، ودراسة التنوع أو التغير الذي يحدث في الصوت والمقطع اللفظي حسب موقعه في الكلمة أو الجملة وتأثر هذه الأصوات والمقاطع بصفات الأصوات والمقاطع السابقة أو اللاحقة. إذن، فعلم الفونولوجي أو علم الأصوات يهتم بدراسة واكتشاف المبادئ العامة التي تحكم النموذج الصوتي المعمول به في لغة ما. ومن المهم هنا التمييز بين الفونولوجي وبين علم اللفظ، والذي يهتم بدراسة الأصوات اللغوية بصفتها المجردة الفيزيائية وليس سماتها اللغوية، بمعنى أن يهتم بدراسة الصفات الأكوستكية (السمعية) وطريقة نطق هذه الأصوات ومخارجها والأعضاء المشتركة في نطقها، وذلك بتجرد كامل عن سياقها وأثرها اللغوي. فمع اتحاد صوتين أو أكثر ببعضهما بعضاً يتكون لدينا ما يسمى بالمقطع اللفظي الذي يمكن تعريفه بأنه اتحاد صوت ساكن أو أكثر بصوت مد.

إذن، الصفة المقطعية ليست صفة للصوت المفرد وإنّما هي صفة تنشأ عن انضمامه إلى الأصوات الأخرى، وتختلف اللغات فيما بينها من ناحية أنماط وتراكيب المقاطع والمواقع التي تشغلها في الكلمات، بمعنى أنه توجد أنظمة صوتية تخضع لها كل لغة.

كما نلاحظ عند تعريف المقطع اللفظي لا يمكن إطلاق مسمى «مقطع لفظي» على اجتماع ساكنين مع بعضهما بعض، فالمقطع اللفظي لابد أن يكون مركباً من صوت ساكن و

أكثر وصوت مد، فالصوتان (ب- ب) لا يمكن اعتبارهما مقطعاً لفظياً، ولكن (با - تا - تو - باب...) هي أمثلة لمقاطع لفظية. وعند كل مقطع لفظي نميز ما يسمى نواة المقطع، وهي أصوات المد (آ - و- ي) الطويلة والقصيرة، والمقطع هو صوت ساكن أو أكثر من الأصوات الساكنة. وفي كل لغة نجد لها قواعد فنولوجية وأنظمة خاصة تحدد تركيب المقطع اللفظي، ففي بعض اللغات يتكون المقطع اللفظي من صوتين ساكنين أو ثلاثة أصوات وصوت واحد مد، لكن الأمر المهم هنا هو صفات المقطع اللفظي في اللغة العربية والذي يمتاز بعدة سمات يمكن إجمالها بالتالي:

أ - المقطع العربي لا يقل في تركيبه عن صوتين (صوت ساكن) و(صوت مد).

ب - اللغة العربية تميل بشكل عام إلى المقاطع المغلقة، أي التي تنتهي بصوت ساكن.

ج - المقطع العربي لابد من أن يبدأ بصوت ساكن ثم تتلوه حركة، فالكلمة العربية لا تبدأ بصوتين ساكنين، إلا في كلمات قليلة جداً، حيث أن النظام الصوتي في اللغة العربية لا يسمح بتوالي أكثر من صوتين ساكنين.

ثانيا - المحتوى اللغوي:

ويقابلها المعنى اللغوي (Semantics)، وكثير من علماء اللغة يؤكدون على أن المعنى هو غاية اللغة ومن دون معنى لا تكون هناك لغة، فنحن نسمع أو نقرأ يومياً آلاف الكلمات والجمل عن موضوعات مختلفة، نفهم هذه الجمل والكلمات التي ينقلها لنا المتحدث أو الكاتب ونفهم ما يريد المتحدث إيصاله لنا من الرسالة، أي أن نفهم المعنى من الكلمات والجمل ونتفاعل بشكل سوي مع الرسالة الواصلة إلى ذهننا والتي فهمناها، فقد نضعها في الذاكرة وقد تغيب أو نحاول البحث عن إجابة إذا كانت الرسالة عبارة عن سؤال، وقد نقوم بعمل شيء ما إذا كانت الرسالة عبارة عن طلب أو أمر، وقد نضحك إذا كانت الرسالة عبارة عن دعابة.

وليس من السهل توضيح العمليات العقلية التي أشرنا إليها في فهم اللغة، وقد يقول قائل بأنه يوجد لكل كلمة أو جملة مرجعية معينة في الذهن تمكننا من فهم الكلمة، هذا الأمر صحيح إذا كان المقصود كلمات لها مرجعية واقعية، مثل كلمة (حليب- بيت- حصان...)، ولكن ماذا بالنسبة إلى الكلمات التي لا توجد لها مرجعية حقيقية، مثل كلمات (التين- العنقاء - الغول....)، ومعروف بأن هذه الكلمات ليست عديمة المعنى، إذا ما هي مرجعيتها؟..

من ضمن المحاولات لحل هذه الإشكالية أدخل علماء اللغة مصطلحين آخرين وهما مصطلح «المعنى الواسع المطول» و«المعنى المكثف»، لتفسير طريقة فهمنا لبعض الكلمات.

المصطلح الأول يعني مجموعة من

الصفات أو السمات التي تلتصق بالكلمة، بينما المصطلح الثاني يبين المفهوم العام وراء الكلمة، وبكلمات أدق نأخذ مثالاً كلمة (امرأة)، فالمعنى المحدد لهذه الكلمة يعني امرأة بصفاتها المختلفة عن الرجل من ناحية المظهر والشكل والقوة البدنية والاجتماعية...، بينما المعنى المكثف لهذه الكلمة هو مفهوم امرأة كإنسان مؤنث.

في الحقيقة إن دراسة علم المعنى أمر في غاية التعقيد، فيجب علينا أن نميز بين عملية الفهم وعملية الإدراك فهما شيئان مختلفان، وعلينا كذلك دراسة العمليات النفسية وراء إدراك أو فهم المعنى وراء الكلمات والجمل والأصوات في بعض الأحيان، حتى إن نغمة الصوت والنبر والشد في مقطع معين في الكلمة أو الجملة تغير المعنى بشكل كامل.

ثالثاً - الاستخدام اللغوي:

ويضم «البراغماتيك» (Pragmatic)، وقد ترجم بعضهم هذا المصطلح إلى البلاغة اللغوية، ونعني بعبارة «الاستخدام اللغوي» تلك القوانين التي تتحكم باستخدام اللغة بشكل صحيح في الوقت الصحيح، وفي المواقف المختلفة من استخدام اللغة، أي كيف نتحدث وماذا نتحدث؟ بمعنى كيفية إيصال الرسالة حتى تصل بشكل كامل وصحيح من أجل غاية التواصل وما هي الكلمات والعناصر فوق اللغوية التي يجب أن نستخدمها. ومن أجل أن يكون التواصل اللغوي مع الآخرين ناجحاً لابد من احتوائه على العناصر التالية:

- لابد من وجود تنوع في الكلمات أو العبارات أو الجمل التي نستخدمها وعدم اختصارها على نوع واحد من الكلمات.
- ترابط وتماسك الوحدات الكلامية في الجمل والعبارات التي نستخدمها لإيصال الرسالة، وعكس ذلك سوف يكون كلامنا عبارة عن خليط من الكلمات من دون ترابط.
- الطلاقة في إيصال الرسالة، فعندما يكون هناك تردد وإعادة للكلمات لن تصل الرسالة بشكل صحيح.
- القدرة على أخذ الدور الصحيح بمعنى أن يكون الشخص مستمعاً أو متكلماً، فلا يمكن أن يكون مستمعاً ومتكلماً في الوقت نفسه.
- القدرة على الإبقاء على موضوع الحديث لحين إيصال الرسالة.
- إعطاء المستمع، أو القارئ في حالة الكتابة، المعلومات الكافية لفهم الرسالة ومن دون إعطاء معلومات عشوائية غير ضرورية.
- الاستعمال الصحيح للعناصر غير الشفهية في الكلام (أي التواصل الشفهي)، مثل حركات الجسم وتعابير الوجه والإيماءات والتنغيم والشد على بعض المقاطع الكلامية أو على بعض الكلمات.
- القدرة على إعادة صياغة الكلام غير المفهوم بكلمات وجمل أخرى، وكذلك القدرة على إصلاح الكلام المقطوع.

- القــدرة علــى استخــدام الأسلوب أو الطريقة الصحيحة في المواقف المختلفة.
- القدرة على طلب معلومات إضافية من أجل فهم الرسالة غير المفهومة.

وفي الختام نقول: بأن علم اللغة من العلوم الشيقة والجديرة بالبحث والتنقيب، وأن اللغة، وإن لم تكـن كائناً حياً بالمعنى الحرفي للكلمة، فهـي تمارس فعـل كائن حي شديـد التميز والتحول والتبـدل، عبر متوالية لا نهائية من الاحتمالات تخضع ضمــن ما تخضع لقدرة مرسل الرسالة وإمكانيتــه التعبيرية، وكذلك التوقعـات المختلفــة التي يسقطهـا المتلقون على الرسالة في متغيرين دائمين هما الزمان والمكان.

شاتوبريان.. تحديد مفهوم الفن

د. عبد الهادي صالحة ◆

مع ١٧٨٩م، طويت صفحة... فعلى صوت مدافع الثورة الفرنسية «أعلنت الحرية (...) وظهرت مفاهيم الأمة والشعب والمواطنة والمساواة والعدالة»، واتجه الأدباء والفنانون الرومانسيون إلى «سواء الشعب» وقاموا بتجديد «الأساليب والمفردات والأجناس» و«الأفكار والمعايير الأخلاقية وتغيير عوالم السياسة والدين والمجتمع والفن» وحرروا العواطف والأفكار والأذواق في النواحي الاجتماعية والإبداعية كافة... هذا الحدث الهام الذي أثرى آمالاً كبيرة وكان له نتائج وأصداء عميقة على حساسية جيل فشل على الصعيد السياسي لأنه أفضى إلى إقامة نظام ديكتاتوري بزعامة الإمبراطور الأوّل الذي اضطهد الكهنة والنبلاء خلال الثورة..

هذا الاضطهاد ساهم بتوحيد القضية الملكية والقضية الكاثوليكية؛ لقد قامت طبقة النبلاء المهاجرة إلى ألمانيا وإلى بريطانيا وإلى بلجيكا بحملة دعاية ضد الثورة مزجت بين الدفاع عن الملك والدفاع عن الإيمان، وخلقت حركة تعاطف جديد مع الدين كانت ترسم ملامحها وأحيت من جديد الإيمان الكاثوليكي الذي كان قد ضعف في القرن الثامن عشر... وكان هذا أحد الأسباب الأولى لليقظة الدينية. لقد سعى نابليون، الذي لم يكن لديه أي مزاج ديني، للاستفادة من هذا التيار بدلاً من محاربته: ففي ١٨٠٠م، شجع نابليون عودة المهجرين الذين غادروا، في معظم الأحيان مكرهين، فرنسا بلد أجدادهم... أراد نابليون توحيد الأمة الفرنسية، واعتبر الدين كضامن نظام اجتماعي.. هذا

◆ كاتب وأستاذ جامعي.

الإيمان المتجدد وجد شاعراً ساحراً ملهماً من بين هؤلاء المهجَّرين العائدين: الفيكونت فرانسو- رونيه دوشاتوبريان الذي، في ١٧٩٨م، تأثر بموت أمه ثم شقيقه جولي، وعاد إلى دين طفولته وكان- رغم الوثنية التي إستهوته، إذ إنه عرَّف نفسه ك «أبيقوري ذي خيال كاثوليكي «- هو أوَّل من جدد الدين الكاثوليكي الذي شرح عنه في كتابه الرائع «عبقرية المسيحية»...

في عام ١٧٩٧م نشر شاتوبريان «مقالة حول الثورات» أفضت إلى نتيجة مخيبة للآمال: العالم عبثي، وكل جهد لتحسينه مصيره العدم، ويبقى الإنسان دائماً كائناً منعزلاً وسجين وحدته... ولقد تكلم شاتوبريان عن غموض الأهواء في «عبقرية المسيحية» (١٨٠٢م)، التي وجدت تعبيرها الكثيب في أوبرمان لسونانكور (١٨٠٤م)، وعند رونيه (١٨٠٥م)..لقد وصف شاتوبريان هذا الأمر قائلاً: «كلما تقدمت الشعوب في مضمار الحضارة، كلما زادت حالة غموض الأهواء هذه»، ويضيف «الخيال غني وسخي ورائع، بينما الوجود جاف زري ومنزوع عنه السحر. نعيش بقلب مليء في عالم خاوٍ، لم ننتفع بشيء وحرمنا من كل شيء»..

كان شاتوبريان شاهداً على القطيعة الصاخبة التي أحدثتها الثورة.. ولم يكن هناك كاتب يعادله في رفض المجزرة الدموية، كما يسمي ذلك الثورة الفرنسية، هذا النظام الاجتماعي الجديد الذي كرس انهيار الأرستقراطية ومبادئها، ولم يبرع أحد مثله في تصوير هذا القلق وهذا الانقشاع للأوهام التي ستشكل مكونات أساسية للحركة الرومانسية القادمة التي ستدين له بلغتها.. لم يكن شاتوبريان أبداً مؤرخاً، ولكن لا أحد مثله لديه شعور بالتاريخ، لقد أصبح التاريخ المأساوي عنده موضوعاً أدبياً يصنع معنى، ويعطي معنى إلى التاريخ الإنساني الممزق...

لقد عززت التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنظام الاجتماعي الرأسمالي البرجوازي الجديد، كرد فعل قوي، التشاؤم والقلق والهروب نحو اللامعقول «أحلام يقظة عقيمة، بلادة وخمول، دوافع مرضية، قرف من الحياة، شعور بالفراغ، أو على العكس رغبات مضطربة وسمت بميسمها جيلاً، غالباً من أصل أرستقراطي، صدم بمجرى الأحداث الدواري وبفقدان نقاط ارتكاز روحية ومعنوية مرتبطة بمسيحية أتلفها عصر الأنوار»..

في هذا المناخ القلق والغامض نشأ وكبر جيل قلق لادليل له ولا مرشد، وأصبح الشباب مرتعاً لحزن غير مألوف، وظهر ماسمي بمرض العصر تحت ألف شكل متنوع.. « كل الروابط كسرت، الإنسان وحيد؛ واختفى الدين الاجتماعي، والعقول

المهملة لنفسها لم تعرف أين تذهب؛ نراهم يتموجون بلا تبصر في ألف اتجاه معاكس. لقد ولد هذا المرض من التناقض وعدم الانسجام بين الأنا والعالم.. مرض صنعت تجلياته وتعبيراته القرن التاسع عشر بأكمله... وولدت حالة من الخلل الروحي، وتحول الدين «إلى شعور ذاتي مختلط بمشاعر الحزن والعجز والإحباط»..لقد تحول مرض العصر بعد الثورة الفرنسية، وبفضل شاتوبريان إلى ملحمة... يقول هيجو فريديريك في كتابه « بنى الشعر الحديث»: «إن شاتوبريان اكتشف الكآبة دون غرض، ورفع «علم الحزن والقلق» إلى مستوى الفن ونظر إلى «تمزق النفس كحسنة من حسنات المسيحية». لقد جعل فلاسفة الأنوار وفولتير خاصة من الدين حليف الظلام والتعصب: «المسيحية هي عبادة ولدت في حضن البربرية، عبثية في عقائدها، مثيرة للسخرية في طقوسها، عدوة الفنون والآداب، والعقل والجمال؛ عبادة لم تفعل سوى سفك الدماء، وتقييد الناس»(...) فأراد شاتوبريان القيام بهجوم مضاد في وجه هؤلاء الفلاسفة الذين وجهوا سهام النقد لا إلى الكنيسة وحدها، بل «إلى قواعد الإيمان نفسها، واتهموا الدين المسيحي بالعبثية والفظاظة والخسة. أراد شاتوبريان المشاركة في هذه الحركة من خلال «عبقرية المسيحية» التي تسجل في سلالة هذا الفكر المناهض للثورة، فوضع دفاعه في قالب أدبي متخيل... فلما كان اللاهوت يهمه، ولا العقيدة التي ينظر إليها من وجهة نظر عاطفية وجمالية، فقد كانت مسيحيته «مسيحية عاطفية، لا تجادل في سلطة الكنيسة ولكنها تجعل الأسرار والعقائد والنصوص مصدر إشباع روحي»... لقد تمسك بفكرة تعريف «نفوذها وتأثيرها أكثر من توضيح حقيقتها»؛ ولذلك لم يلجأ إلى الحجج العقلية بل لجأ إلى «سحر الخيال» وإلى «اهتمامات القلب»، إن مثل هذا المنهج يجذب أكثر مما يقنع. لقد كتب شاتوبريان «كتاباً ضعيفاً فلسفياً» بشكل لايقبل المنازعة إذ إن الدين لا يستند على انفعالات شاعر وفنان...

لقد كان الشعراء القدماء ومعاصروهم يؤمنون بالآلهة الذين يتغنون بهم، (...) إنها «طبيعة ذلك العصر الذي كما يقول موسيه في «رولا»: « كانت السماء فيه تسير على الأرض وتتنفس في حشد من الآلهة»... ويرى شاتوبريان أن كتابنا الكلاسيكيين، هم أنفسهم معجبون بالقدماء، فإنهم قد تجاوزوا قدوتهم من خلال اقتباسهم من الحضارة المسيحية معرفة أكثر كمالاً عن النفس ومفهوماً أكثر علواً عن الجمال الأخلاقي، ومن هنا أتت الفكرة أن الأدب، بدلاً من أن يكون خاضعاً للتقاليد البالية، يجب أن يساير زمنه، وأن الفن الحديث لا يستطيع الحياة إلا إذا استند على إلهام حديث.

ويـرى أيضـاً أن «لكل شعب أدبـاً يتناسب وعقائده ووظيفته الروحية» ومن ثم فالمدنية المسيحيـة يناسبهـا شعر مسيحـي، يقول شاتوبريان: «إن الشعـر لابد له أن يستبدل إله التـوراة والإنجيل بالإلـه القديم زوس؛ لأن الله أعلى وأجـل، والملائكة والقديسين بالمقدسات السفلية التي ترد في الأساطير». لم يجد شاتوبريان أن إقحام الله والقديسين والأنبياء في الملحمة خطأ ذوقي، لا بل طالب «باستخدام الخـوارق المسيحية (...)» لأن إدخال «الغيبيـات والمدهشات المسيحية في ملحمة معاصـرة ينطلق من تعريف الملحمة بأنهـا شعر وطني يعكس على الأخص طباع المجتمع الـذي كتبت له وعقائـده». والتي تقدم «مجموعـاً من التصـورات والمفاهيم أعلى وأنقى من الوثنية؛ فهي إذاً فوقها من حيث التعبيـر أي في الأفكار والمشاعر التي توقظها فينـا». يقول شاتوبريـان: «ينبغي علينا إذاً البرهنة على عكس ذلك أن من كل الأديان التي وجدت أبـداً، الدين المسيحي هـو الأكثر شاعرية، الأكثـر إنسانية، الأكثر تأييداً للحرية وللفنون وللآداب؛ وإن العالم الحديـث يدين لها بكل شـيء، من الزراعة حتى العلـوم التجريدية؛ مـن دور البؤساء حتـى المعابد المبنية من قبـل ميكيل أنجلو والمزينـة من قبـل رافائيـل. كان ينبغي أن نظهر أن لا شيء أكثر ألوهية من أخلاقياته، لاشـيء أكثر محببـاً للنفس، أكثـر أبهة من عقائـده ومذهبه وعبادته؛ كان يتوجب أن نقول إنها تشجـع العبقرية، وتصفّي الذوق وتطوّر الأهواء الفاضلة، وتمنح القوة للفكر، وتقـدم أشكالاً نبيلة للكاتـب وقوالب كاملة للفنـان؛ لقد كان هـدف شاتوبريان إثبات أنــه «ليس ثمة مايخجل في أن نكون مؤمنين مـع نيوتن ومـع بوسويه، مـع باسكال ومع راسين، وأنه من الواجب أن نجعل كل بدائع الخيال ونـوازع القلب في خدمة هذا الدين الذي جندت ضده».. وأن المسيحية هي دين القلب والمشاعر التي «روحنتها بشكل عميق وحضرتها».

لقـد أسمع شاتوبريـان الجمهور الكبير لغـة القلـب؛ وكانت اهتماماتـه وهواجسه ذات طابع روحي للكتّـاب الذين دخلوا إلى مدرسته، مثل لامارتين أو هيجو الشاب من جانب آخر، معظّماً جمال الكنائس القديمة، وطابـق مع ذوق العصر الفن القوطي، الذي كان مجهولاً خلال العصور السابقة.

في الحقيقـة، لقـد ساهمـت عبقرية المسيحيـة بقـوة في إعادة تثمـين العصر الوسيـط «القوطي» من خلال إعطاء صورة مثالية عـن فرنسا المسيحية القديمة، ومن خلال تعظيم وتجديد أزمنة ومعابد الإيمان: كتـاب كتـب بمقاصد كتب بوسويـه نفسها والتي كان يريـد بها إعادة إحياء التاريخ... لقـد وجـد شاتوبريان إلهامـه في العصور الوسطـى. ولايخلو من «نزعة وطنية (ولعله

تأثر بهردر) عندما يقارن بين الأعمدة الفرعونية الضخمة التي تشبه أشجار الجميز، والأعمدة الكورنثية برؤوسها التي تشبه رؤوس النخيل، وبين الأعمدة القوطية التي تحكي غابات بلاده، بلاد الغال، وتوحي بغموض الغابة في المحاريب المظلمة والأجنحة المعتمة والدهاليز الخفية والأبواب الواطئة، كل شيء في الكنيسة القوطية يشعرك بالرهبة الدينية والأسرار الإلهية. وكأن المعمار القوطي أراد أن يحاكي كل ما في الغابة حتى أصواتها الغامضة فوضع فيها الأرغن والتعاليق البرونزية ليسمعك غمغمة الريح ودوي الرعد».

إن شعور الطبيعة، الذي سبق تحريره من الأساطير من قبل روسو وبرناردوسان بيير سيساهم في إغناء فن الأدب. من خلال النظرية ومن خلال المثال، جدد شاتوبريان الشعور بالطبيعة في الأدب الفرنسي من خلال وصفه للغابات العذراء في أمريكا، ومنزهاً معه قارئه من باريس إلى القدس وفي العواصم الكبرى.

في الوقت ذاته، قدم عرضاً عن التقابلات السرية التي تقام بين الإنسان والطبيعة؛ ووصف الرعب الممزوج بالبهجة واللذة الحسية التي يلهمها تأمل مواقع عظيمة، والكآبة التي تغذيها في النفس مشهد لوحة طبيعية خريفية.... يظهر شاتوبريان أن الطبيعة بعظمتها وعزلتها الغامضة، و«ألوهيتها الواسعة» تلبي تطلعات أنفسنا وأن مشاهدها توقظ فينا انفعالات عميقة أضف إلى ذلك أن مايؤثر «ليس الطبيعة المجردة، بل هو الطبيعة التي أنسنها الفن».

ويرى شاتوبريان أن «القيمة الأدبية في المسيحية تنتج عن أن المواضيع المأخوذة من الإلهام المسيحي هي أكثر جدارة بالفن، لا لأن هذه الديانة هي وحدها الحقيقية ولا لأنها وحدها الحية في حالتنا المدنية (...) بل لأن المسيحية هي منطلق مثالي و» تذهب أبعد من الطبيعة»، وقد تعودت النفس المسيحية، بالتحديد، على نقل أو تبديل الواقع، وهي تأخذ من ديانتها بالذات مبدأ فنياً لا نجده في الديانات القديمة.

لقد ساهم شاتوبريان في جزء كبير من استمالة عقول وقلوب الناس في القرن التاسع عشر نحو مظاهر جديدة للفكر وللشعر: «لقد تعرض شاتوبريان للمسائل الفنية البحتة، وأخضع الإلهام للاعتبارات الفنية، والواقع أن شاتوبريان يحكم على قيمة كل من الإلهام القديم، والإلهام المسيحي، والفن اللافردي والفن الفردي، بحسب فعاليتها في حقل الجمال»، فاجتمعت فيه أفكار الفنان والمفكر لتنهي رسم الخطوط الكبرى للأدب الجديد.. يرى شاتوبريان أن غاية الفنان هي إنتاج الجمال، الجمال في الطباع أو الجمال في الأشياء، «الجمال الأخلاقي أو الجمال الجسدي».. ويضيف

شاتوبريان إن «الديانة المسيحية خارجاً عن مثاليتها العميقة، تصلح للفن وخصوصاً لفن الشعر، بتفاصيل طقوسها، وآثارها، وتعاليمها، وعقيدتها. وأن أخلاقيتها، بقطع النظر عن حقيقتها الإلهية، هي الأكثر تفرداً، في خلق هذه الحياة الداخلية، «لعبة الأهواء» التي هي مادة العمل. والذي ولد فيها بنوع خاص هذا «المبهم من الأهواء» من أية حالة أخلاقية أخرى بإثارة الإلهام الشعري الحقيقي.ويرى أن إدراك المسيحية لإله واحد كلي القدرة يستطيع وحده أن يولد هذه العاطفة الطبيعية العميقة التي هي واحد من العناصر الأساسية في الشعر الحقيقي: «أوه! كم يكون الشاعر المسيحي أوفر حظاً في العزلة حيث الله يتنزه معه! لقد تحررت الغابات من ذلك القطيع من الآلهة المضحكين الذين كانوا يحدونها من كل جهة وامتلأت بألوهية رحبة. ويبدو أن موهبة النبوة والحكمة، والسر، والديانة، تكمن إلى الأبد في أعماقها المقدسة»، لقد وضع شاتوبريان العبقرية مقابل الإليادة والأوديسة، ليدل كيف أن الكتاب المقدس والتقليد الأدبي الذي يصدر عنه خارج فرنسا هما بالنسبة للشعر ينبوع أوفر غنى بكثير من التقليد الإغريقي اللاتيني وهكذا، فالنفس المتشربة بالتقليد المسيحي، وإن لم تكن عميقة مسيحيا، تصبح شاعرية بشكل طبيعي، في ما يتعلق بحالة الفكر الصالحة للخلق، وبالمثال الخاص بالجمال، وأي أدب من الآداب مهما ادعى بأنه جديد، لابد له من نموذج.

لقد بلغ شاتوبريان الهدف الذي حدده لنفسه وأصبح، بالنسبة لجيله، بفضل «عبقرية المسيحية» نوعاً من المرشد الروحي. لم تكن «عبقرية المسيحية»- كما أسلفنا - دفاعاً متحضراً عن الدين المسيحي، فإن شاتوبريان يظهر إشعاع المسيحية الفني والروحي أكثر مما يوضح حقيقتها. لم تتغلب العاطفة الدينية التي ألهمت شاتوبريان أبداً على العاطفة الجمالية. وهو إذ يتكلم عن الملحمة الرومانسية الجديدة يوصي بألا تكون الديانة أساساً للعمل الأدبي الملحمي، وأن تكون ثانوية، لأن قانون النوع يريد أن يحتل الأشخاص وأهواؤهم المكان الأول والأوسع. لقد فهم شاتوبريان ومن بعده فيني ولامارتين وهوغو «أن الرياح في هذا العصر لم تعد تهب في صالح الملحمة البطولية المفصلة على قد السيد القديم»؛ ولذا بعثوها وطوروها. إن «عبقرية المسيحية» هي في «أصل الحركة الدينية في القرن التاسع عشر؛ ولكن بالتأكيد أكثر أيضاً أنها مارست تأثيراً على تجديد الفنون والآداب وتطور النقد».

مراجع البحث

Chateaubriand, "Le genie du christianisme"- Edition Flammarion.

الثقافة والثقافة التنظيمية

د. صالحة سنقر ✪



يهتم المعنيون بتطوير المؤسسات بدراسة الأسس الفكرية والمادية التي تقوم عليها كل مؤسسة والتي تعطيها بعض الخصوصية عن غيرها من المؤسسات، ومع الدور الكبير للأسس المادية في تحقيق المؤسسة لأهدافها، إلا أن الأسس الفكرية ذات أهمية خاصة لأنها تعكس ثقافة المؤسسة والتي هي المحرك الخفي لكل ما يتحقق فيها من فعاليات فما الثقافة؟ وما أهميتها في الحياة؟ وما نوع الثقافة التي يجب تحققها في المؤسسات والمنظمات؟

مفهوم الثقافة: هي كل ما حصّلته الإنسانية ونقلته كطريقة حياة. وهي سلوك متعلم تم نقله من جيل إلى جيل، وهي

✪ أستاذة جامعية ووزيرة التعليم العالي سابقاً.

العمل الفني: الفنان ممطات طلاع.

كل ما ينتج عن تفاعل البشر مع معطيات الواقع المادي والمعنوي المتغير، إنها شكل الحياة الإنسانية كما يرسمها البشر في زمان معين ومكان معين، فهي تشتمل على كل ما اتفق عليه المجتمع من أعراف وعادات، وقيم ومعايير ومثل ومعتقدات، وأيديولوجيا وأساليب فكر واتجاهات وسلوك (اللوزي،٢٠٠٠- استيتية،٢٠٠٤م).

وتتنوع رؤى الناس للثقافة، فبعضهم يرى الثقافة في القيم المتجذرة، وبعضهم يرى الثقافة ضمن سلوكيات الأفراد التي يعبرون من خلالها عن عناصر ومكونات متعددة تتفاوت في مستوى الوضوح، وبعضهم يصورها كالجبل الجليدي في محيط، جزء منه يطفو فوق ماء المحيط، والجزء الآخر خفي تحت سطح الماء، وآخرون يرون أنها مكونة من عدة طبقات ومفاهيم.

وتعد الثقافة أحد موجهات السلوك في بيئة العمل، حيث تتعلق بسلوك الأفراد داخل موقع العمل، وطرق تفكيرهم، وتحديد السلوك المرغوب وغير المرغوب، وكذلك فإنها ترتبط بصورة قوية بأساليب التكنولوجيا والتقنية في المنظمة.

مفهوم الثقافة التنظيمية:

كما أن للأفراد شخصياتهم التي تميزهم عن غيرهم من الأفراد الآخرين، فإن لكل منظمة شخصيتها التي تميزها عن غيرها من المنظمات الأخرى، هذه الشخصية التنظيمية هي ما يُسمى «بثقافة المنظمة» أو «الثقافة التنظيمية»، إنها مجموعة من الخصائص التي تصف منظمة ما، بحيث تميزها عن غيرها من المنظمات الأخرى، بما تتسم به من الكثير من المفاهيم والقيم والأخلاقيات المهنية التي تؤثر على سلوك الأفراد وأدائهم.

وهي «منظومة القيم الأساسية التي تتبناها المنظمة، والفلسفة التي تحكم سياساتها تجاه العاملين لديها والقيم التي يؤمنون بها والطريقة التي ينجزون وفقها مهامهم، ويتم تعليمها للأعضاء الجدد ليكونوا متفهمين ومقتنعين بها، ولتكون أساساً لهم في تفكيرهم وإدراكهم في معالجتهم لكل ما يواجههم من مشكلات.

فالثقافة التنظيمية هي مجموعة من المدركات والتصورات للمفاهيم المشتركة بين مجموعة من الأفراد داخل وحدة اجتماعية ما. وبسبب الاختلاف والتنوع الكبير في أبعاد الثقافة ومصادرها فقد تعددت تعريفات الثقافة التنظيمية، وتنوعت المفاهيم التي تنضوي تحتها مثل: القيم، والنماذج، والأخلاقيات، والتكنولوجيا، والمبادئ والاتجاهات وغيرها.

وقد ازداد اهتمام الكتّاب والباحثين في السنوات الأخيرة بالثقافة التنظيمية لما لها

من تأثير كبير على المنظمة، ولما لها من دور في بناء إستراتيجيات المنظمات، وفي تصميم هياكلها التنظيمية، وفي كيفية إحداث التغييرات المنشودة فيها لزيادة فاعليتها في عصر العولمة، وثورة الاتصالات، والمنافسة الشديدة. (الرشيد، ٢٠٠٧م). وقد عرفها شيرموبورن (Shermerborn، ١٩٩٢) بأنها «نظام القيم والمعتقدات التي يشترك فيها العاملون في التنظيم».

كما عرَّفها شافارتيز واوتي (Shafaritz & Otte، ٢٠٠١). بأنها: «تلك الثقافة الموجودة في المنظمة، إنَّها تماثل الثقافة الاجتماعية، وتشمل الكثير من العناصر المعنوية: كالقيم، والمعتقدات، والافتراضات، والمدركات إنَّها القوة غير المرئية، وغير الملاحظة والتي تكمن دائماً وراء ما نلاحظه في أنشطة المؤسسة».

وعرَّفها جيرت هوفستد (Hofsted، ١٩٩١) بأنَّها: «البرمجة الذهنية الجماعية التي تميز أفراد مؤسسة عن غيرها». وهي جزءان: السلوك الذي هو الجزء الظاهر والمرئي من الثقافة، والقيم التي هي الجزء الخفي للسلوك.

ومهما تنوعت تعريفات الثقافة التنظيمية فإنها جميعها تؤكد وجود القيم والاتجاهات والمعتقدات والأفكار كمفاهيم أساسية لتقييم تصرفات الأفراد وسلوكهم في المنظمات.

مستويات الثقافة التنظيمية:

تتضمن الثقافة التنظيمية مستويات ثلاثة مترابطة فيما بينها بعلاقة قوية، وهي:

المستوى الأول: الافتراضات الأساسية (Basic Assumption)

تقع الافتراضات الأساسية في الجذر الأعمق لثقافة المنظمة، وتمثل الجزء الخفي وغير الملموس في تفاعلات الأفراد. وهي موجودة في منطقة اللاوعي ضمن المعتقدات الأساسية الأولية لمعظم الأفراد الموجودين في المنظمة، ويتم تعليمها للأفراد الجدد الذين يدخلون إلى المنظمة ليندمجوا من خلال تعلمهم لها بهذه الوحدة التنظيمية، وكمثال على ذلك أسس تنظيم علاقات التواصل القائمة بين الأفراد وفق مواقعهم التي يشغلونها، أو وفق المهارات والقدرات التي يملكونها، أو وفق المسؤوليات الجماعية تجاه بعضهم البعض. ويمكن للمرء الذي لديه الخبرة الكافية ملاحظة ذلك من خلال ما يجري في المنظمة لفترة زمنية طويلة.

المستوى الثاني: القيم والمعتقدات (Values and Beliefs)

تأتي القيم والمعتقدات في المستوى الثاني

من حيث درجة الوضوح في ثقافة المنظمة، وهي الثقافة التي يعتنقها الأفراد بوعيهم وإدراكهم الظاهر في سلوكهم، وتتجلى في التطبيق والممارسة، وتلعب القيم دور المرشد والموجه للعاملين بما تحمله من أخلاقيات عامة ومبادئ فكرية عند وضع التشريعات الخاصة بالمنظمة، والبرامج التنفيذية لها.

المستوى الثالث: الإبداع والنتاجات الإنسانية (Creations)

وهو ما يلاحظ في سلوكات الأفراد بأشكال مختلفة. سواء في لباسهم أو في المعايير التي يعتمدونها، أو في اللغة وطريقة التعبير التي يستخدمونها والتي تعد مؤشراً قيمياً للثقافة المطبقة في أثناء العمل، مثال ذلك، صيغة التعبير التي يستخدمها المدير مع المرؤوسين وبالعكس، ومدى استخدامهم لكلمات محلية دارجة والتي تدل على وجود تحالفات غير رسمية داخل بيئة العمل.

أو في الرموز التي تدل على موقع الفرد في السلم الهرمي للمنظمة، فنوع أثاث المكتب مثلاً أحد الرموز الدالة على نوع العمل الذي يقوم به شاغل المكتب في المنظمة.

كما أن للطقوس والتقاليد أثراً في تعزيز ثقافة المنظمة مثل حفلات تكريم المتقاعدين، أو حفلات الوداع لبعض أفراد المنظمة. إلى جانب سرد قصص المتميزين الذين كان لهم فضل التأسيس في المنظمة للأفراد الجدد العاملين فيها، ومثل هذه الأساليب تعبر عن القيم والافتراضات المتجذرة لدى الأفراد.

أنواع الثقافة التنظيمية:

تصنف ثقافة المنظمة بصورة عامة في نوعين رئيسين هما: ثقافة قوية، وثقافة ضعيفة.

وتعتمد الثقافة القوية على إجماع الأعضاء على القيم نفسها، بحيث تتصف الثقافة بالقوة كلما تحقق إجماع أكبر من الأعضاء على القيم نفسها، ويتوقف ذلك على عاملين رئيسين:

- تطوير العاملين وتعريفهم بالقيم السائدة في المنظمة وكيفية العمل بها.
- منح الأعضاء الملتزمين بالقيم العوائد والمكافآت مما يشجع الآخرين على تعلّم القيم وتفهمها.

وتضعف الثقافة إذا كانت القيم التي يؤمن بها الأعضاء مشتتة.

وعندما يتحلى العاملون في المنظمة بثقافة تنظيمية قوية فإنهم يعرفون ما يجب القيام به، أما إذا كانت ثقافتهم التنظيمية ليست بالدرجة الكافية فإنهم يسيرون في طرق مبهمة غير واضحة المعالم ويفشلون في اتخاذ قرارات مناسبة تتوافق وقيمهم واتجاهاتهم.

وتوصف الثقافة التنظيمية القوية بـ:

- قدرتها على التكيف مع المتغيرات

والتطورات السريعة واتخاذ القرارات المناسبة.

- قدرتها على الإنجاز لتحقيق نتائج أفضل.

- قدرتها على تنمية ثقافة الفرد الخاصة بالعمل الذي يؤديه.

- قدرتها على رعاية العاملين والاهتمام بهم و إشباع حاجاتهم بهدف تحسين أدائهم.

- قدرتها على تعزيز القيم الملائمة لتطوير العمل وخاصة التعاون والتشاركية.

خصائص الثقافة التنظيمية:

- إنها قابلة للتعلم، تيسر لمن يتعلمها ويحملها فهم الموقف الذي يشترك فيه الجميع، ولذلك يستطيعون أن يستجيبوا لبعضهم البعض بطريقة إيجابية تميزهم عن غيرهم ممن يعملون في منظمات أو مؤسسات أخرى.

- إنها قابلة للتطور، فكل منظمة تقوم بتطوير ثقافتها الخاصة بها من خلال قيمها وتاريخها وفلسفتها و أنماط اتصالاتها والإجراءات التي تعتمدها في القيادة وفي اتخاذ القرارات.

- إنها تتأثر بالثقافة السائدة في المجتمع، وهذا ما يجعل المنظمات المختلفة التي تعمل في البيئة الاجتماعية نفسها تتشابه في بعض أبعاد ثقافتها.

ولما كان جوهر الثقافة التنظيمية يقوم على التعلم والتطور والتفاعل مع البيئة المحيطة فإن هناك جوانب لابد من توفرها في المنظمة، وهي:

١- المبادرة الفردية وإتاحة المجال للعاملين بالتصرف بحرية ومسؤولية في العمل الذي يقومون به.

٢- قبول المخاطرة وتشجيع العاملين ليقبلوا على التجريب والمبادرة.

٣- التكامل والحرص على تنسيق العمل وتنظيمه.

٤- الحفاظ على الهوية وحب الانتماء والولاء للمنظمة.

أهمية الثقافة التنظيمية ووظائفها:

تعد الثقافة التنظيمية عنصراً مهماً في التأثير على السلوك التنظيمي، وتبرز أهمية الثقافة التنظيمية من خلال الوظائف التي تؤديها للأفراد، وهي أنها:

- تساعد في تحقيق الأهداف وفي حل المشكلات التي تواجههم..

- تخلق فهماً مشتركاً بينهم حول ماهية التنظيم، والسلوك المتوقع منهم فيه.

- توحد اتجاهاتهم، وتوفر إطاراً لتنظيم سلوكاتهم.

- تعزز الانتماء والولاء للمنظمة، وتحسن علاقات العمل.

- توسع أفق الأفراد العاملين ومعارفهم في المحيط الذي يعملون به.

- تشكل إطاراً مرجعياً يساعدهم في تفسير الأحداث والأنشطة في ضوئه.

- تحقق فعالية أفضل للمنظمة من خلال تحسين أداء العاملين ودعم القيم التي تدعو لها إدارة المنظمة مما يحقق الرضا للجميع.

- توافر أداة رقابية للإدارة، تستطيع من خلالها تشكيل السلوك التنظيمي بالشكل الذي تريده.

- تعزز التماسك الاجتماعي، فالثقافة التنظيمية تعد أداة رقابة اجتماعية.

- تحدد الأسلوب الذي ينتهجه الأفراد في قراراتهم وإدارتهم للعاملين معهم ومنظماتهم.

- تساعد على التنبؤ بسلوك الفرد، فالفرد عندما يواجه موقفاً معيناً أو مشكلة معينة فإنه يتصرف وفقاً لثقافته، ومعرفة الثقافة التي ينتمي إليها الفرد تيسر التنبؤ بسلوكه.

تكوين ثقافة المنظمة والمحافظة عليها:

إن القيم والافتراضات والمعايير والتقاليد السائدة في أيّة منظمة تمتد جذورها بصورة عامة إلى الروّاد الأوائل المؤسسين في المنظمة الذين لعبوا دوراً هاماً في مرحلة حساسة في حياة المنظمة والذين كانوا يحملون رسالة ورؤية واضحة ومحددة لما يجب أن تكون عليه المنظمة، وعملوا جاهدين على تحقيق هذه الرسالة بالتعاون مع مجموعة من الأفراد الذين شاطروهم نظرتهم وقيمهم ومعتقداتهم، وكان لهم فضل السبق في ترسيخ تاريخ جديد وثقافة جديدة للمنظمة، ومثل هؤلاء هم نماذج تُحتذى، ولها الأثر الكبير في تكوين ثقافة المنظمة. كما أن للأحداث الهامة التي مرت بها المنظمة، والتي قدمت دروساً لما يجب أن يكون أو لايكون أثره في تكوين الثقافة، ويتأثر تكوين ثقافة المنظمة أيضاً ببيئة التنظيم ومدى تحليها بالمرونة والديناميكية، مما يسهل على العاملين العمل.

وبدهي أن تشكل ثقافة المنظمة لايعني بالضرورة استمرارها، إذ لا بد من جملة إجراءات تعمل على ترسيخها والمحافظة عليها، ويتم ذلك من خلال الوسائل التالية:

١- التدقيق في سلوكات إدارة المنظمة وممارساتها: من خلال القرارات التي تتخذها، فإذا التزمت بالسلوك التنظيمي واستخدمت لغة واحدة ومعايير سلوكية واضحة ومحددة تضمن التوجهات الصحيحة للعمل، وطبقت سياسة عادلة في تنفيذ الأنظمة والتعليمات وخاصة المتعلقة منها في كيفية معاملة العاملين، فإن هذا

سيترك أثراً إيجابياً على ثقافة المنظمة.

٢- حسن إدارة الموارد البشرية: وخاصة اختيار الأشخاص ممن تتوافق قيمهم ومعتقداتهم مع القيم الرئيسة للمنظمة، وجذب من لديهم المعرفة والخبرة والقدرات لتأدية مهام العمل في المنظمة بنجاح.

- الاهتمام بتدريب العاملين وتأهيلهم وتطوير أدائهم بصورة مستمرة. إن اختيار عناصر جديدة في المنظمة لاتعرف شيئاً عن ثقافة المنظمة يتطلب مساعدتهم على التكيف مع ثقافة المنظمة لضمان ديمومة الأداء الجيد فيها، وذلك من خلال برامج تدريبية وتأهيلية تلبي احتياجاتهم ومتطلبات المنظمة التي يعملون فيها، بحيث تزداد خبراتهم في العمل ويتعمق انتماؤهم لمنظمتهم. ويوصي الكاتبان (Shichman & Gross) بأن تتضمن البرامج التدريبية المعززة لثقافة المنظمة التعريف بتاريخ المنظمة، وتجارب الروّاد الأوائل فيها. وتقديم نماذج تدريبية تتضمن قيماً ومعايير محددة. والتنويع في أساليب التدريب، بين ندوات وورش عمل لتدريب المشاركين على اتخاذ القرارات، وأداء الأدوار المطلوبة منهم.

وهكذا يتبين أن المحافظة على المستوى اللازم من الثقافة التنظيمية يتطلب من القائمين على إدارة المنظمة توفير الدعم وتقديم المساعدة والمؤازرة للعاملين، إلى جانب التوجيه الدقيق والمستمر لهم، ودفعهم لمراقبة عملهم ذاتياً. وتقبل الانتقادات والتعبير بشفافية عن المشكلات المطروحة. والتنويع في أنماط الاتصال بحيث تأخذ شكل أنماط شبكية تسمح بتبادل المعلومات في الاتجاهات كلها، وعدم قصرها على القنوات التقليدية. إلى جانب تحقيق العدالة في توزيع الحوافز والمكافآت على أساس الجهد المبذول بعيداً عن الواسطة والمحسوبية.

وإذا كانت المحافظة على الثقافة التنظيمية تساعد في التكيف والاستقرار وتحقيق الأهداف، إلا أن العصر الحاضر وما يشهده من تغير مستمر على جميع الصعد يتطلب من المنظمة أن تواكب هذا التغير في ثقافتها التنظيمية لتتناسب مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية، ولابد من التنويه إلى أنه كلما كانت المنظمة حديثة العهد وصغيرة الحجم كان التغيير في ثقافتها أيسر وأسرع، ولابد من أجل التغيير من وضع إستراتيجية شاملة تبدأ بمقارنة الثقافة السائدة بالثقافة المطلوب تحقيقها، وتحديد حجم الفجوة المطلوب تجسيرها، وفي ضوء المعلومات المتوافرة يتم تحديد أولويات التغيير حسب واقع المنظمة، وتحديد الإجراءات المطلوب عملها من أجل التغيير والتطوير.

إساءة معاملة الطفل

د. معمر الهوارنة ✲



أطفالنا هم تلك النعمة التي أنعمها الله علينا وهم زينة الحياة الدنيا وودائع ثمينة بين أيدينا من عند الله ونحن مسؤولون عنهم أمام الله في تربيتهم تربية صالحة.

فهذا الطفل الصغير علينا تربيته تربية صالحة تقوم على العطف والحنان بعيداً عن جميع أشكال العنف والإساءة الذي لاتتحمله رقته ونعومته وخاصة طفل اليوم.

إن موضوع رعاية الطفولة والعناية بها من الأمور التي تحظى باهتمام كبير، فالأطفال في أي مجتمع هم استمرارية له ولتقدمه ومعقل آماله. وإن إعداد هذا الطفل على أساس من الرعاية والفهم

✲ باحث وعضو هيئة تدريسية في جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

يعتبر دون شك ذو أهمية قصوى للمجتمع في حاضره ومستقبله، وتكمن أهمية هذا البحث في تقصيه ومعرفته بأشكال سوء المعاملة التي يتلقاها الطفل.

أولاً: تعريف إساءة معاملة الطفل:

تعتبر مشكلة إساءة معاملة الأطفال من المشكلات القديمة الحديثة المتعددة الأوجه والأشكال والتي تعاني منها كل المجتمعات من دون استثناء لكن هذه المشكلة لم تكن واضحة أو معترفاً بها في السابق كما هي عليه اليوم وقد أشارت كثير من الدراسات الميدانية المتخصصة في هذا المجال إلى أن المشكلة ليست مقتصرة على فئة معينة من الناس بل هي منتشرة بين الأغنياء والفقراء، وبين المتعلمين وغير المتعلمين، ويمكن تعريف إساءة معاملة الطفل على أنها أي شكل من الأشكال القاسية والعنيفة في التعامل مع الطفل وعلى ذلك العقاب البدني القاسي المفرط أو العداء الوالدي والعدوان المتطرف وإهمال الطفل أو معاملته معاملة مهملة تسبب جميعها سوء المعاملة.

ثانياً: سوء المعاملة السابق في الطفولة:

لقد كانت خبرات المسيئين في طفولتهم داخل الأسرة الأصلية من بين القضايا الأولية التي تمَّ التصدي لها في الدراسات الإكلينيكية المبكرة لمثل هؤلاء الأفراد ونظراً إلى أن الإساءة السابقة والعنف الأسري في مرحلة الطفولة قد يؤديان لظهور دورة دائمة من العنف عبر الأجيال فإن هذه القضية تبقى بحاجة إلى الاهتمام والعناية وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أيضاً التأثيرات قصيرة المدى للإساءة البدنية والإهمال على ممارسات تربية الطفل الراهنة في علاقتها بآثارها النفسية المصاحبة التي ترجع إلى الرفض الوالدي المبكر ونقص العاطفة والتعرض لمواقف خطيرة والخبرات السلبية المشابهة.

إن الإساءة البدنية بمفردها قد لا تكون هي العامل الجوهري في خلفية الأطفال الذين يكررون دور العنف بمعنى أنه من المعتاد أن يكون لديهم خبرات أخرى تؤثر في العلاقة بعضها جيد وبعضها سيِّئ، والخلاصة أن الآباء والأمهات المسيئين هم أنفسهم قد تعرضوا . غالباً للعنف في طفولتهم، ويقدر كوفمان وزجلر (١٩٨٩م) على أساس دراسات مشابهة أن حوالي (٣٠٪) من ضحايا الإساءة للأطفال يحملون هذا النمط معهم إلى المراهقة والرشد، فهم يرون أن معظم الأطفال من ضحايا سوء المعاملة لا يصبحون من مرتكبي العنف عندما يكبرون وهي النتيجة التي تنطوي على معاني مهمة في ضوء ما توحي إليه من

إمكانيـة فحص جهود الوقاية المبكرة لكسر دورة العنف.

ثالثاً: مدى انتشار إساءة معاملة الأطفال:

قـام «شتراوس وجيلس وشتانمتس» بإجـراء دراسة حديثة علـى صعيد وطني استفسروا فيها عن طريقـة تربية الأطفال عند عينـة نموذجية من الأسـر الأمريكية أشارت الإجابات إلى أن معدل انتشار العنف الفيزيائي تجاه الأطفال أكبر مما أشير إليه في بيانات الحوادث، فقد أشارت موجودات الدراسة التي استفسرت من مستجيبين من أسـر سليمة على رفس الأطفال أو ركلهم أو عضهم أو تهديدهم بمسدس إلى أن (٣،٦٪) مـن الأطفال بـين الثالثـة والسابعة عشرة من العمر كانـوا يتعرضون سنوياً إلى خطر الإصابة الفيزيائية الشديدة، كانت التقارير الرسمية لحوادث تتضمن في معظمها تقريباً أسراً فقيرة ولكن وجود ارتفاع معدل انتشار العنف نحو الأطفال عند الأسر من الطبقتين المتوسطـة والعليا وغيـاب الاختلافات بين المجموعات العرقية يوحيان أن الإحصائيات وجهـت بشدة لمصلحـة الأطفـال الفقراء وأطفال الأقليات، فالأطفال من الأسر الغنية قد يتلقون مختلف التصنيفات التشخيصية لمشاكلهم.

رابعاً: أنواع إساءة معاملة الأطفال:

تتعدد أنواع الإساءة للأطفال فقد تكون إساءة جسدية مقرونة بالشدة وتشمل الصفع باليد، بـأداة معينة، أو هـز الطفل بقسوة وعنف، ممـا يؤدي إلى إتـلاف أحد أجزاء الدمـاغ وفي هذا المجـال لا بد من التفريق بين أنمـاط الإسـاءة التي تشـكل خروجاً عـن المألوف في التنشئـة والتربية للأطفال وبـين ممارسات التنشئة التـي تكون مؤذية للطفـل، المتمثلة بالعقاب الـذي يستخدمه الآباء لتدريب أطفالهم على اكتساب سلوك معـين أو تعديل نمط سلوكهـم غير المقبول اجتماعياً وهـذا لايعتبر خروجاً عن النمط الثقافي السائد في المجتمع.

مـن أنـواع الإسـاءة أيضـاً الإهمـال الجسمي وهو من الأنماط الشائعة ويتضمن نبذ الطفل وعـدم الاهتمام به، أو الإشراف عليه لفـترة طويلـة وكذلك تشمـل إساءة معاملة الطفل الإساءة العاطفية أو الإهمال العاطفي. وفيما يلي أنواع الإساءة للطفل:

١. الإساءة الجسدية:

تشـير إلى الأذى الجسـدي الذي يلحق بالطفل على يد أحد والديه أو ذويه وهو لا ينجم بالضرورة عن رغبة متعمدة في إلحاق الأذى بالطفـل بل إنه يكون في حالات كثيرة ناتجاً عن أساليـب تربوية قاسية أو عقوبة بدنيـة صارمة أدت إلى إلحاق ضرر جسدي بالطفـل وكثـيراً مـا ترافق سـوء المعاملة

الجسدية للطفل أشكال أخرى من سوء المعاملة كالإساءة العاطفية مثلاً.

من أشكال إساءة المعاملة الجسدية الجروح والكدمات والإصابات الخاصة بالعظام وتنتج من استخدام العقاب البدني للأطفال كالضرب أو التوثيق بالحبال والمشاكل داخل الأسرة مثل سوء المعاملة، التي من النادر الإبلاغ عنها للسلطات الرسمية وبالتالي لا تعكس سجلات القضاء أو المنشآت الصحية أو إدارات الرعاية الصحية هذه الحالة.

ويتم التشخيص بناءً على:

١- طبيعة الأذى وموقعه.

٢- سوابق الأذى يماثل آثار مشابهة.

٣- التأخر في طلب المساعدة وعدم الاكتراث عند الشكوى من الخروج والأذى.

٤- سلوك متخوف من الطفل تجاه الوالدين.

٢. الإساءة الجنسية:

إنها استخدام الطفل لإشباع الرغبات الجنسية لبالغ أو مراهق وهو يشتمل تعريض الطفل لأي نشاط جنسي كملامسته أو حمله على ملامسة المعتدي جنسياً أو حتى تعريضه لأفلام إباحية.

ويعرَّف الاستغلال الجنسي: بأنه اتصال جنسي بين طفل وشخص بالغ من أجل إرضاء رغبات جنسية عند الأخير مستخدماً القوة والسيطرة عليه، وأمَّا التحرش الجنسي فهو عملية أشمل وأوسع من مجرد الاغتصاب أو الممارسة الجنسية.

ويقصد بهذا النوع من الاستغلال:

١- كشف الأعضاء التناسلية.

٢- إزالة الملابس والثياب عن الطفل.

٣- ملامسة أو ملاطفة جسدية خاصة.

٤- التلصص على الطفل.

٥- تعريضه لصور فاضحة أو أفلام.

٦- أعمال شائنة وغير أخلاقية كإجباره على التلفظ بألفاظ فاضحة.

٧- اغتصاب.

وأحياناً تقوم بعض النساء باستثارة الأعضاء التناسلية للأطفال للحصول على المتعة الجنسية معهم، وعادة ما يكون هؤلاء الأطفال دون سن البلوغ، إلا أن المشكلات النفسية لمثل هؤلاء الأطفال الذين يعانون اضطراباً نفسياً ممن استغلوا جنسياً في طفولتهم ما بين(٥٠-٧٠٪).

من يقوم بإساءة المعاملة الجسدية أو الجنسية؟

لو رجعنا إلى كل أنواع إساءة المعاملة الجسدية والجنسية سنجد أن الآباء البيولوجيين هم عادة أكثر من يسيء معاملة الطفل جسدياً في حين أن القائمين الآخرين

بالرعاية كالآباء بالتبني وزوج الأم أو زوجة الأب والأقارب يكونون أكثر ميلاً من الآباء للإساءة الجنسية للطفل، كما أن النساء أكثر إساءة جسدياً للطفل من الرجال، فحوالى (٦٠٪) من الأطفال الذين أسيئت معاملتهم أقروا أن ذلك كان من قبل النساء ويمكن تفسير ذلك في ضوء أن النساء هن أكثر القائمين على رعاية الطفل وتحملاً لمسؤولياته.

٣.الإساءة العاطفية:

يمكن وصفها بأنها النمط السلوكي الذي يهاجم النمو العاطفي للطفل وصحته النفسية وإحساسه بقيمته، الذاتية، وهو يشمل الشتم، التحبيط، الترهيب، الإذلال، الرفض والسخرية، النقد اللاذع، التجاهل، فالإساءة العاطفية مستبطنة في كل أشكال الاعتداء الأخرى كما أن إثارة الإساءة على الطفل وإهماله على المدى البعيد تتبع غالباً الجانب العاطفي من الاعتداء ورغم حقيقة أن الآثار طويلة الأمد للإساءة غالباً ما تنجم عن الجانب العاطفي منه فإن سوء المعاملة العاطفية هو أصعب أشكال الاعتداء وضوحاً وثباتاً.

خامساً. أسباب الإساءة للطفل:

ويمكن أن نلخص أهم أسباب سوء المعاملة للطفل كالتالي:

تفسير الطب النفسي:

ركز فيه الباحثون على شخصية الوالد، فالوالد المسيء مريض وفي حاجة إلى علاج نفسي مكثف، وقد ركّز المنظرون الأوائل على السمات الذهانية الواضحة في البالغين الذين أساؤوا معاملة أطفالهم وقد يكون الوالد المسيء هو أيضاً أسيئت معاملته عندما كان طفلاً، ومع ذلك خبرات الوالدين في طفولتهم بحد ذاتها غير كافية لتفسير السلوك المسيء في سن الرشد لأن كثيراً من الأمهات والآباء أسيئت معاملتهم في طفولتهم ومع ذلك لم يسيئوا معاملة أطفالهم.

أسباب اجتماعية:

تشير الدراسات إلى انتشار العنف ضد الطفل في الأحياء التي ينتشر فيها الفقر والبطالة وحيث يكون الإسكان والتعليم ذا مستوى غير مرضٍ ولا يوجد شعور بالانتماء إلى المجتمع. ويندرج تحت الأسباب الاجتماعية الخصائص المهنية لعمل الأب والأم.

إن الآباء الراضين عن عملهم هم أكثر نجاحاً من غيرهم بدورهم كآباء. أمّا الآباء المراهقون وغير الراضين عن عملهم فإنهم غالباً ما يشعرون بتوتر وضغط نفسي مما ينعكس على طريقة معاملتهم لأطفالهم.

الأم العاملة تختلف عن الأم غير

العاملة في طموحاتها وفي آمالها التي يكون الطفل موضعاً لتحقيقها وأن صعوبة الحياة والمشكلات الاقتصادية دفعت المرأة للخروج إلى العمل لمساعدة زوجها ولهذا أصبح أطفالها يتلقون عناية واهتماماً أقل، فالأم تكون مشغولة جداً وفي حيرة بين عملها داخل المنزل وخارجه مما يؤثر على علاقتها بزوجها وأطفالها.

ولعل أهم أسباب الإساءة للطفل هو ارتفاع معدل البطالة، وتدني الدخل الاقتصادي. ذلك أن البطالة تبقي الأشخاص الذين لديهم القابلية لإساءة المعاملة مع الطفل يميلون إلى هذا التصرف إذ يبدو هؤلاء الأشخاص متوترين كثيري الضغوط. لديهم شعور بالنقص في القدرة على إشباع حاجات الأسرة، كما أن إدمان بعض الآباء أو القائمين على تربية الطفل على تعاطي المشروبات الروحية والمخدرات وما لها من تأثير على سلوكهم وتصرفاتهم مع أفراد أسرهم التي تظهر باستعمال العنف لحل أي مشكلة تواجه الأسرة في التعامل مع الأبناء وهناك بعض القائمين على تربية الأطفال يفتقرون إلى المعلومات المتعلقة باحتياجات الطفل وخصائصه ومتطلبات نموه مما يدفعهم إلى استعمال الضرب معهم.

سابعاً: الأنماط السلبية في التنشئة الاجتماعية للطفولة:

وما نعنيه بأساليب المعاملة أو الأنماط هو استمرارية أسلوب معين أو مجموعة من الأساليب المتبعة في تربية الأطفال وتنشئتهم ويكون لها الأثر في تشكيل شخصيتهم. ومن الأنماط السلبية في تنشئة الطفل ما يلي:

١- الحماية الزائدة:

أسلوب من أساليب المعاملة الوالدية في رعاية الأطفال منذ ولادتهم والتي تترك آثاراً سلبية على البناء النفسي للأطفال. بعض الآباء يتدخلون في تفكير الطفل وحديثه ولعبه فيمنعونه من عمل هذا أو لمس ذاك بقصد حمايته، ولكنهم بهذه الحماية الزائدة يفقدونه صفة الاستقلالية والمقدرة على الاستطلاع أو اللبس بنفسه بحجة أنه لا يعرف أن يقوم بذلك بنفسه ولكن الطفل إذا أطعم أو ألبس نفسه فإنه يكسب مهارات يدوية بسرعة كبيرة ويكسب عادات الأكل الصحية في زمن قصير وتزداد ثقته بنفسه.

للحماية الزائدة مضارها المتمثلة في خشية الطفل من اقتحام المواقف وانخفاض مستوى الجرأة وعدم الاعتماد على النفس.

٢- الإسراف في القسوة:

ويتضمن هذا النمط الصرامة والشدة مع الطفل وإنزال العقاب فيه بصورة مستمرة وزجره كلما أراد أن يعبر عن نفسه ويؤثر هذا النمط في النمو المتكامل للطفل على النحو التالي:

١- يؤدي إلى انزواء وانسحاب الطفل من معترك الحياة الاجتماعية.

٢- شعور الطفل بالنقص وعدم الثقة بالنفس.

٣- صعوبة تكوين شخصية مستقلة وعدم القدرة على التعبير عن نفسه.

٤- الشعور الحاد بالذنب.

٥- كره السلطة الوالدية.

أظهرت نتائج الدراسات أن أسلوب القسوة في معاملة الطفل له تأثير سلبي واضح على رغبة الطفل في الاكتشاف أو ما يسمى الفضول وطرح الأسئلة.

٣- اتجاه السلطة:

ويعني المنع والرفض الدائم لرغبات الطفل والوقوف حائلاً أمام قيامه بسلوك معين أو تحقيقه لرغبة معينة ويعني ذلك الصرامة والقسوة في معاملة الأطفال وتعليمهم مهام ومسؤوليات فوق طاقتهم بطريقة قوامها الأمر والنهي وعدم الثقة بالنفس.

يؤدي هذا الأسلوب إلى آثار سلبية منها:

١- انطواء الطفل وانسحابه من معترك الحياة الاجتماعية.

٢- شعوره بالنقص والضعف والتردد.

٣- حيله إلى إتلاف ممتلكات غيره والممتلكات العامة.

٤- اللجوء إلى العدوان والتخريب والنصب تعبيراً عن عدم الرضا.

٤. الإهانة والتحقير:

الإهانة يمكن أن تأخذ أشكالاً كثيرة كالسخرية من بعض العيوب الموجودة أو النقائص الجسدية والعقلية التي يعاني منها الطفل أو نعته بصفات بشعة وتشبيهه ببعض الحيوانات.

الطفل الذي يسمع صياح أبويه دائماً لسبب أنهم عصبيون أو لديهم حالة غضب ويعتاد شيئاً فشيئاً على هذا الوضع فإنه سيشعر بأنه شخصية محتقرة وهذا أساس لكثير من مشكلات المخاوف في المراحل اللاحقة.

أنواع الاحتقار والسخرية أحياناً لا يشعر الآباء والأمهات بالأطفال ويحتقرونهم بدلاً من التعرف على سبب الخوف وإزالته من الأساس وهذا الأمر لا يصلحه بل يؤدي إلى شعورهم بالحقارة وإلى اشتداد مخاوف أخرى لديهم.

٥. التفرقة والتمييز:

كثيراً ما يلجأ الآباء إلى التفرقة بين الأبناء في المعاملة وعدم المساواة بينهم بسبب الجنس أو ترتيب الولد أو لأي سبب آخر وهذه التفرقة قد يترتب عليها تكوين شخصيات مليئة بالغيرة.

كما يميل الوالدان إلى تفضيل طفلهم الأكثر ذكاء على أخوته الأقل ذكاء وقد يميل الوالدان إلى تفضيل ابنتهم الأكثر جمالاً وحسناً عن أخواتها، قد يسمح للطفلة أو الطفل المفضل القيام بأعمال معينة لا يسمح للأطفال الآخرين بممارستها.

٦. المضايقة والتهديد:

وذلك يشتمل على تهديد الطفل بعقوبات شديدة أو غير مفهومة تثير الفزع في نفس الطفل وخاصة إذا ترك ينتظر العقاب ولا يعلم متى وما سوف يحل به وقد تصل المضايقة إلى التهديد بتحقير الطفل أمام أصدقائه بكسر يده أو رجله أو طرده من المنزل أو حتى بقتل حيوان في البيت يحبه الطفل.

٧. التذبذب:

يعتبر من أشد الأنماط خطورة على الطفل وعلى صحته النفسية ويتضمن التقلب في معالجة الطفل بين اللين والشدة، ويثاب مرة على العمل ويعاقب عليه مرة أخرى وهذا التأرجح بين الثواب والعقاب والمدح والذم يجعل الطفل في حيرة من أمره دائم القلق غير مستقر.

تاسعاً: أساليب الوقاية من إساءة معاملة الأطفال:

١- إجراء دراسات متعلقة بحماية الأطفال من الاعتداءات بهدف التعرف إلى الخصائص الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية لبيئة الطفل الأكثر تعرضاً للإيذاء وكذلك بهدف التعرف على الأطفال المحتمل أن يكونوا ضحايا للإيذاء مستقبلاً والكشف عن خصائص وسمات الجناة مرتكبي الاعتداءات على الأطفال، وهذه البحوث يجب أن يقوم بها فريق عمل متكامل يضم مندوبين عن وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والجامعات والمؤسسات الاجتماعية ومديريات الأمن

٢- وضع معايير دقيقة استناداً إلى حضارتنا العربية الإسلامية وللمفاهيم الإنسانية التي تنظمها تشريعاتنا بحيث تمت حدود السلطات التأديبية للأسرة على الأطفال ومسؤولية الأهل عن الإهمال الذي يؤدي إلى إصابة الطفل وتعريضه للحوادث المختلفة.

٣- تطوير التشريعات والنصوص القانونية بحيث تتيح إحالة الوالدين أو أحد أفراد الأسرة أو القائمين على تربية الطفل أو المتسببين بالاعتداء عن طريق الإهمال إلى مؤسسات توجيه وإرشاد بدلاً من عقوبة الحبس.

٤- إنشاء جمعيات خاصة بالأطفال تستضيف الأطفال المساء إليهم.

٥- المزيد من برامج التوعية من خلال وسائل الإعلام لمناقشة السلطة التأديبية للأطفال ومسؤولية الأسرة تجاهها.

٦- تضمين المناهج التربوية بما يسهم في تأهيل الأجيال ليكونوا آباء وأمهات على وعي بوظيفتهم التربوية وكيفية معاملة الأطفال وحمايتهم من الأذى.

المراجع

- ديفيد أوولف: الإساءة للطفل، ترجمة. جمعة سيد يوسف، المجلس الأعلى للثقافة.
- سلوى مرتضى: تربية الطفل (مشكلات وحلول)، سورية، دار الرضا، ٢٠٠٢م.
- وفيق صفوة مختار: أبناؤنا وصحتهم النفسية، القاهرة، دار العلم والثقافة، ٢٠٠١م.
- Howe, David: Child Abuse and Neglect, first published, palgrave Macmillan, (2005).

عـــدل

المحامي هائل منيب اليوسفي ✿



ليس معروفاً بالضبط من هو ذلك الخبيث الذي اقترح أن توضع فوق رؤوس القضاة تلك الآية الكريمة التي تقول «إِنَّ اللَّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ». وهو ما قد يوحي بأن القضاة هم المعنيون بالخطاب وأن الآخرين معفون من تلقي الأمر والعمل به وأنه إذا استقر العدل القضائي فقد تحقق المراد من رب العباد.

وترجيح الخبث هنا يستند إلى أن التركيز على العدل القضائي قد يصرف الأذهان عن جوهر العدل الذي يدعو إليه الإسلام، والذي تحتل فيه قضية العدل

✿ من آخر ما كتب المحامي الأديب الراحل، اليوسفي، وقد خصّ به مجلة المعرفة.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

الاجتماعي المركز الأوَّل، وهذا العدل ليست ساحته قاعات المحاكـم، ولكنه ذلك الميزان الدقيق الــذي يعطي لكل ذي حق حقه. هو «القسط» الذي لا ينبغي أن تختل في ظله أية معادلة والذي تمتد مساحته من حياة الفرد الخاصة إلى حياة الأمة كلها.

علــى أنــه إذا افترضنا حســن النية في صاحب هذا الاقتراح، فينبغي أن نتفق على أنه إذا كان لابدَّ من الإعلان عن هذه الآية، فمكانها ليس في قاعــات المحاكم، ولا فوق رؤوســ القضاة، ولكنه في ديــوان السلطان وفوق رأسه هو، ذلك أنَّ القائمين على الأمر هم القائمون على العدل.

والعدل الذي جاءت به الشريعة هو قيمة كليــة لا تقبــل التجزئــة ولا الترقيع، تظلل المجتمع بأسره وتضبط كل حركته في ناموس دقيــق محكم، وقوانين هذا الناموس لا تقبل بأي حــال أن يسود العــدل في جانب بينما يطل الظلم برأسه من جانب آخر.

وفي محاولتــي «قــراءة الإســلام بأعين مفتوحــة» أجد أنه إذا اعتــبرت أن الإسلام في جوهره عقيدة وشريعة، فإن التوحيد هو الذي تقــوم عليه العقيدة، والعدل هو الذي تقــوم عليه الشريعة، وعقيدة بغير توحيد أو حتى توحيد مبتسر، فهي عقيدة إمّا منعدمة أو فاســدة، كما أن شريعــة بغير عدل فإنها تعد شريعة غائبة ومهدرة.

فالعقيدة كانت هي موضوع آيات القرآن الكريم التي نزلــت في الفترة المكية، مرحلة تأسيســ البشر، وأن الشريعــة كانت شاغل الآيات، والسور التي نزلت بعد الانتقال إلى المدينة في مرحلة تأسيس الدولة.

فهل نحن بحاجــة إلى أن ندلل على أن العدل هو جوهر الشريعــة وعمادها؟ حتى لو كنَّا نسلم بهــذه القناعة دعونا نقرأ هذه الآيات من بــاب التذكرة: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» (الأعراف)

«وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ» (الشورى)

«كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» (النساء)

«وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» (المائدة)

«فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا» (النساء)

ثم آية سورة الحديد التــي تقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». أي إن العدل ليســ هدف شريعة الإسلام فقط، ولكنه في الحقيقة هدف كل الشرائع السماوية بصيغ وأقدار مختلفة.

بــل لا أظنني أتجاوز كثــيراً إذا قلت إن قيام العدل هو مــبرر -بعث الأنبياء وإنزال

الكتب والشرائع- وإن هداية البشر إلى الله هي طريق تحقيق هـذا العدل على الأرض هل تتم «عمارة الكون» بغير عدل؟

و لأن العـدل هو «بديهيـة» في الشريعة وهـو الهدف مـن وراء كل أحكامهـا، فإن الكلمة لم تذكر صراحة إلا ٢٩ مرة في القرآن الكـريم في مواضـع مختلفـة، تغطي صيغ العدل ومجالاته، أما الظلم الذي يعد إهداراً للشريعـة وانتهـاكاً لمقاصدها، فقد حاصره القرآن بقدر أكبر من التنبيهات والتحذيرات والإشارات الحمـراء حتى ذكرت الكلمة في القـرآن ٢٩٠ مـرّة، وهي ملحوظـة أسوقها أيضاً للتذكرة.

والإشارات الصريحة إلى كلمة العدل في القـرآن، بمعنى أن يعطى لكل ذي حق حقه يمكـن تصنيفها في اتجاهين أساسين: عدل عام هو من مسؤولية السلطان وأولي الأمر، وعـدل خاصـ ينصرف فيـه الخطاب إلى جموع البشر باعتباره قيمة ينبغي أن يتحلى بها الإنسان ويعكسها على واقعه وسلوكه.

و هـذا العدل الخاصـ، تتعدد مجالاته من تحرير الديـون ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ إلى التحذير مـن تعدد الزوجات ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾ وإلى التوفيق بين الزوجين ﴿فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ إلى الحض على عـدم المجاملة في التقييم والحسـاب ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وهكذا.. أمّا العدل العام فله أيضاً مجالاته العديدة.

وعند هذا العدل العام، أسجل ملاحظة سريعـة وهي أن الموضوع بحد ذاته لم يلق في الكتابات الإسلامية المعاصرة، عناية تناسب أهميته وخطورته وأكاد أقول إنه لقي إهمالاً متعمّداً، لأسبـاب بعضها راجع إلى الخوف وإيثـار السلامـة، حتـى لا يقـال إن هذه الكتابـات تتعرض بالتلميـح لأوضاع قائمة ويرجع بعض هذه الأسباب إلى خشية الاتهام بالاقتراب من تيارات الفكر اليساري.

الأمر الذي دفع الكثيرين من الكتّاب إلى عدم إثارة القضية الاجتماعية والاقتصادية وبقيـت شواغلنا محصورة في: هل نقطع يد السـارق أم لا؟ وهل صوت المـرأة حلال أم حرام؟؟ وما العمل إذا سقطت ذبابة في كوب شـراب وانغمسـ فيه جناح واحـد، أو ورع المسلمـون بأن الذي انغمس في الشراب هما الجناحان معاً؟!

ورغم أن هذه هـي شواغل الساعة كما نقـرأ في الصحف، فأرجـوا أن يؤذن لي في العودة إلى تلك القضية الأقل أهمية!

ذلـك أن فكرة العدل العـام في الإسلام تحتـاج إلى تصحيح، إذ كمـا إننا نستغرب التركيز على العدل القضائي فإننا نستبعد أن

يكون قصد الشارع به هو العدل الاجتماعي وحده، ولمزيد من الإيضاح أقول: إنه إذا كان العدل هو عماد الشريعة، فإن العدل الاجتماعي هو المعنى الأول حقاً، لكنه ليس المعنى الأوحد بكل تأكيد.

فالإنسان الذي كرّمه الله وجعله خليفة له في الأرض (بنصوص القرآن) ليس مجموعة من الغرائز تقف على رأسها غريزة حب الاستمرار والبقاء، هناك روحه وقلبه وعقله ومن العدل والإنصاف أن تشبع هذه الحاجات أيضاً، بل إن في غياب تحقيقها ظلماً ينبغي رفعه.

يقودنا ذلك إلى قضية العدل الفكري أو العدل السياسي بالتعبير الشائع، وهو الذي يتمثل في ضرورة إتاحة الفرصة للطرف الآخر في كل خصومة فكرية أو سياسية بحيث تعطى كل الآراء فرصاً متعادلة في التعبير بغير عسف ولا انحياز، وهي صيغة ترفض تماماً فكرة الرأي الواحد والحزب الواحد.

ولو أن كلاماً كهذا قيل منذ ٧٠٠ سنة لاستغربه الناس، ولسفهه علماء المسلمين ومفكروهم، لأن فرقهم وبكل اتجاهاتها، كانت تمارس هذه الحرية عملاً لا قولاً، كانوا يسعون في الدنيا والآخرة، بالنظر والفكر والتعبير يتفقون ويختلفون حول كل القضايا العامة، من الإمامة إلى ذات الله وصفاته ومع ذلك فلم يلاحقهم أحد، ولم يتهمهم أحد، ولكنهم ظلوا في نظر المسلمين وفي نظر التاريخ مفكرين شجعاناً مشاعل منيرة، مازلنا نقتبس من نورها ونحتمي بها أحياناً!

لم يكن العدل عندهم بطوناً جائعة تشبع فقط، ولكنه كان أيضاً عقولاً حرة متعطشة لمعرفة الحقيقة تنطلق في الآفاق بغير قيود.

وهنا تلتقي قيمتا العدل والحرية، لتلتصق كل منهما بالأخرى حتى لا نكاد نميز أيهما ألزم للأخرى، فلا يقوم العدل إلا تحت ظلال الحرية وفي غيبة الحرية لا نجد مكاناً للعدل.

وموضوع العدل هذا شغل بعض فقهاء المسلمين في الماضي وعلى رأسهم المعتزلة وبعض معارضيهم كالأشاعرة، لكنهم تناولوه من زاوية فلسفية وتجريدية، على عادة أهل الكلام في الجدل والتنظير.

إذ ناقشوا العدل من حيث أنه إحدى صفات الله، وقال المعتزلة إن عدل الله لا يكتمل إلا إذا كان الناس مخيرين، على اعتبار أنه ليس منطقياً أن يحاسب الإنسان على أمر مفروض عليه، ولا خيار له فيه، وتطرقوا من ذلك إلى مناقشة قضية

(الحســن والقبيح) في الأعمال قائلين إنهما ذاتيان بينمــا عارضهم الأشاعرة بقولهم إن الحسن والقبيح تابعــان لأمر الشرع ونهيه، وانعكــس علــى المناقشــة موقــف كل من الطرفين مــن مسألة الجبر والاختيار، وهل الإنســان مخير أم مسير، وهو الموضوع الذي طال فيه الجدل.

غير أن المعتزلة كانوا يعرفون بأنهم أهل العدل والتوحيد، لكنهم تناولوا الموضوع من حيث أنه عقيدة، وليس من زاوية التشريع.

وجــاء الإمــام الشاطبــي فذكــر في «الموافقــات» أن العدل بين الناس هو الغاية المقصودة من الشريعة، لكن الإمام ابن القيم خطا خطوة أبعد في «إعلام الموقعين» بقوله: «إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض فإذا ظهرت إمارات الحق، وقامت أدلــة العدل وأسفر وجهه بــأي طريق كان، فثمَّ شرع الله ودينه ورضاه وأمره».

وأهميــة كلام ابن القيم تكمــن في أنه يوسع الدائرة إلى حد كبير، بحيث أنه يعتبر أي طريــق يؤدي إلى تحقيــق العدل، مثابة طريق يؤدي إلى الله، بل يعتبره داخلاً بشكل تلقائي ضمن شرع الله ودينه.

أما ابن تيمية، فقد ذهب إلى أبعد، وأبعد إذ قال في إحدى فتاواه، إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر، ولا يقيمها بالظلم ولو على إسلام، وهو صاحب القول الشهير الذي نقله عنه الشاطبي في «الموافقات» أن الكافر العــادل أفضل من المسلم الجائر، لأن الأوّل لنا عدلــه وعليه كفره، والثــاني له إسلامه وعلينا جوره.

إلى هذا المدى المدهــش استقرت فكرة العــدل في أذهان هؤلاء الفقهــاء الأجلاء، وبهــذا القدر مــن التشبــث والإلحاح كان حرصهم على ترسيــخ هذه القيمة والتأكيد عليها.

إن في موقــف السلطــان أو ولي الأمــر وجهــين، أحدهما متجــه إلى الله سبحانه، وهــو أعرف به، وهو الــذي يثيبه أو يعاقبه عليه، وهو إيمانــه وصحة عقيدته، والثاني متجــه إلى الناس، من حقهــم أن يحاسبوه عليــه بمنتهــى القســوة والضــرورة، وهو عدله والتزامــه بالقسط، وحقيقة وفي هذه العجالــة لا أريد أن أقارن بــين هذا الفهم وتلــك المعايير وبين الــذي نسمعه ونرصده وأكاد أقول نخجل منه في هذا الزمان!

من هنا احتلت قيمة الإمام العادل مكانة بــارزة في الفكر والفقه الإسلامي فالحديث الشريــف يقول: إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلس إمام عادل، وإن أبغــض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم

عذاباً إمام جائر و«إن من إجلال الله إكرام ذي السلطان المقسط..».

وعندمــا تولى أبو بكــر خلافة المسلمين بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لم يفتــه أن يؤكد هــذه القيمــة فيما يشبه العهــد، وهــو الصدِّيق الموثــوق به، فوقف يقــول: «الضعيف فيكم قــوي عندي حتى آخــذ له حقه والقوي فيكــم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله».

وكان عمــر بــن الخطاب يقــول للولاة مذكراً ومنبهاً أنــه لم يستعملهم على الناس «لتنالــوا من أبشارهــم وأعراضهــم وإنَّما لتعلموهم كتــاب الله وسنة رسوله ولتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل».

ولم يكتــف قاضــي القضــاة الحســن البصري المــاوردي بما سجلــه في الأحكام السلطانية فكتب خطابــاً إلى أمير المؤمنين يقــول فيه: اِعلــم يا أمــير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قــوام كل مائل ومصدر كل حائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفــة كل مظلوم ومفــزع كل ملهوف، ولا تحكــم يا أمير المؤمنــين في عباد الله بحكم الجاهليــة ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين علــى المستضعفين فإنهم لا يراقبــون في مؤمــن إلا ولاة ذمة، فتبوء بــأوزارك وبأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالاً مع أثقالك ولا يغرينــك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات بإذهاب طيباتك في آخرتك.

بهذه الكلمات وجه أبو الحسن البصري خطابــه إلى أمير المؤمنــين ناصحاً ومذكراً ومنبهــاً، بقي أن تعرف بعد ذلك أن «المرسل إليــه» هو الخليفــة العادل عمــر بن عبد العزيــز شخصياً ولا تعليــق بعد فالخطاب فيه الكفاية!.

ركيزة باخوص في مدينة أفاميا السورية

د. خليل المقداد *

تقع الركيزة في مدينة أفاميا/ قلعة المضيق عروس العاصي ودرة الشرق، وقد انفردت المدينة بميزات هامة وكثيرة عن غيرها من المدن الأثرية والتاريخية والحضارية ليس في سورية فقط وإنما في العالم قاطبةً، فهي من حيث الامتداد تعتبر الأكثر توسعاً واستطالة حتى من مدينة روما، وبالنتيجة ينطبق هذا الأمر على أبنيتها الضخمة والفخمة، وعدد سكانها الذي قارب النصف مليون نسمة، وكذلك الدور الهام الذي لعبته في زمانها والمراحل التاريخية والمعطيات الأثرية التي قدمتها. وما هي إلا سنوات قليلة من الكشف والتنقيب الأثري حتى ظهرت آثار المدينة البراقة التي أذهلت العالم بسحرها بعد أن غابت في طيات النسيان تغطي كنوزها النفيسة طبقاتٌ من الأتربة والأنقاض والترسبات العديدة في القرون الزمنية السابقة.(١)

إن النموذج الرائع للمدينة وأبنيتها لهو برهانٌ ساطع لما قدمه الإنسان العربي السوري للحضارة الإنسانية عبر التاريخ من أبنية عسكرية ومدنية ودينية وترفيهية ضمن مدينة واحدة كانت مدرسة للعديد من المناهج الهندسية والجمالية والفنية بصورةٍ صادقة عبرت عن هوية هؤلاء الناس الذين تعمقوا في تأسيس الجذور الحضارية منذ غابر الأزمنة ونقلوها إلى العالم على أكف الراحة لتأسيس حضارة عالمية متطورة كانت أنموذجاً يحتذى به للمنهج الهندسي المنتظم للمدن التنظيمية.(٢)

والمتجول في المدينة عندما يُلقي نظرة شمولية متبصرة يكتشف روائع الفنون

* باحث في الآثار وأستاذ جامعي.

التنظيميـــة، ولكن بالوقت نفسه يتحسر وفي نفسه الأسى والحزن على الخراب والدمار والحالة التي آلـت إليها هذه المدينة وكيف تحولـت نهايتهـا وكبرياؤهـا إلى أنقاض متراكمـة لم يبق منهـا إلا الذكريـات التي تعبر عن نمط الحياة التـي عاشتها المدينة وسكانها في عصورهـا الذهبية التي كانت مـن عجائب الدنيـا ما جعلهـا درة الشرق وعروس العاصي، إنهـا في الحقيقة مدينة التاريخ التي تثير الشجون.

لقـد قدمت المدينـة لنفسهـا وللتاريخ منهجـاً لمدارس تبقى أنموذجـاً يُحتذى به لكل دارس ينهل منها القوانيـن والأنظمة المتعددة مـن الفسيفساء والفنون والتقنيات التي شملت مجريات الحياة العامة والخاصة كافة لمدينة احتضنت نصـف مليون إنسان داخـل أسوارهـا الحصينة وفـوق مساحة بلغت ٢٥٠هكتـاراً، عاشها السـكان بحياة سعيدة رغيدة وبرفاهية تامة أثارت فضول الإنسان المعاصـر وأدخلت في نفسه الحنين إلى الماضي والتحسر على الحاضر الذي آلت إليه، ولكن مع بعث الأمل بالمستقبل الزاهر بعد أن أضاءت هـذه الآثار مدينة بروكسل ومتاحفها الملكيـة للتاريخ والفن بنماذج من آثارها المختلفة وعلى رأسها شارعها الرئيس (الكاردو).(٣)

أصل الموقع:

تقـع المدينـة الهلّينستية علـى الحافة اليمنـى من نهـر العاصي حيـث يجاورها مرتفـع صخـري شغـل في البدايـة موقع أكروبـول المدينـة في العهديـن السلوقـي والروماني، ثم بني عليه لاحقاً قلعة المضيق. وكان هـذا الحيز الجغرافي يأوي في الأصل وقبل قدوم قـوات الإسكندر المقدوني مقر مساكـن أوائل القاطنـين في الموقع والذين يعـودون في أصلهـم إلى العصـر الحجري القـديم (الباليوليتيك) وشيئـاً فشيئـاً أخذ يتوسع السكن ليشمل حـواف التل ليتشكل منـه لاحقاً نواة مدينـة/ قرية كانت تعرف باسم قرية فرنكة pharnaké التي توسعت لتشمـل سطح التل ليكون حـدّاً فاصلاً بين المدينـة ومجرى نهـر العاصـي، وبقي التل عبارة عن الموقع الإستراتيجي الهام المشرف على المدينة.

وكان الموقـع المحيط بالمدينة يتعرض في كثير من الفترات للفيضانـات التي يسببها جريـان نهر العاص مما يـؤدي إلى تشكيل المستنقعـات التي تأوي الجواميس والأبقار، كمـا تتحـول إلى بحيرات تـأوي الأسماك، وقـد أدى كل ذلـك إلى تحويـل الموقع إلى منطقة زراعية غنيـة بزراعة الحبوب، كما كانت منطقة غنية بصيد الأسماك والصيد البري ثـم أصبحت منطقة تقاطع للطرقات

التجارية الهامة بين جميع المناطق الساحلية والداخلية وأخيراً أصبحت من روائع المدن وأمهاتها ليس في سورية وإنما في العالم القديم قاطبةً ومازالت من روائع المدن الأثرية في العالم حتى الآن.(٤)

وقد بنيت مدينة أفاميا على حساب قرية فرنكة pharnaké حيث كانت مقر قوات الإسكندر الكبير في نهاية القرن الرابع ق.م. وقد أسس هذا القائد في الموقع مدينة عرفت باسم بيلا pella التي سميت لاحقاً باسم أفاميا apamée من قبل العاهل السلوقي الأول سلوقوس نيكاتور على شرف زوجته السورية أفاميا apaméa. وقد ازدهرت المدينة وتطورت سريعاً بسبب اتخاذها مركزاً عسكرياً وإدارياً رئيساً في سورية. كما تمّ اتخاذ قلعتها مركزاً لخزينة الدولة والجيش، وهناك تمركز مربط ومقر خيول الفرسان الملكية ومقر الفيلة التي كان يستخدمها الجيش السوري /المقدوني في الحروب إلى جانب المدينة، وفي تلك الآونة قفز عدد سكان المدينة ليبلغ ١١٧ ألف ساكن وذلك حسب التقديرات الأولية التي أظهرتها الدراسات الأثرية، ثم قفز هذا العدد ليصل إلى نصف مليون في العصر الإمبراطوري المتأخر عندما أصبحت أفاميا عاصمة سورية الثانية ومركز أسقفية بعد بناء كاتدرائيتها العظيمة على حساب المعبد الكبير، إضافةً إلى بناء العديد من الكنائس التي وزعت على جميع أحياء المدينة وخصصت لجميع المذاهب الدينية.

وقد كانت المدينة تمتلك جميع المقومات الهامة التي تمتلكها أمهات المدن الكبرى في العالم مثل: نبع الماء ومجاورتها لنهر كبير ودائم الجريان والسهول الزراعية الخصبة وكذلك مجاورتها للجبال العالية التي تجلب الأمطار الغزيرة، إضافة إلى موقعها على طرق تجارية وعسكرية هامة في سورية وخاصة طريق أنطاكيا العالمي والذي يربط الداخل السوري مع المنطقة الساحلية. ولهذا السبب فقد حوت المدينة معسكرات معظم الفرق العسكرية الكبرى وخاصةً القسم الكبير من جيش القائد السلوقي سلوقس نيكاتور، الذي كان يمتلك جيشه ٥٠٠ فيل.

ركيزة باخوص (pilier bacchique)

تقع الركيزة في منتصف المكان الذي يتوسط المسافة الواقعة بين القسم الشمالي من الشارع الرئيس المعمد اتجاه شمال/ جنوب (الكاردو) والتقاطع الثاني بين هذا الشارع والشارع الرئيس الآخر اتجاه شرق غرب (الدوكومانوس) من الجهة الشمالية من الطريق؛ أي جهة الشرق منه. وهنا نجد الركيزة الشهيرة والتي تعرف باسم ركيزة باخوص (pilier bacchique) والتي تم توثيق هويتها من قبل عالم الآثار تومسون

في عام ١٨٤٦م، وهناك يقع أيضاً مرتكز القاعدة الشمالية لقوس من الأقواس التي تحاذي وتساند المدخل أو ما يعرف باسم منطلق الطرقات أو الشوارع المستعرضة بالتقاطع مع الشارع المعمد الكبير.

والركيزة هي جزء من القسم السفلي الشمالي لقوس من الأقواس التي تحاذي الشارع المعمد وتشكل في الوقت نفسه منطلقاً لأحد الشوارع الفرعية المتقاطعة مع هذا الشارع. وقد تمَّ تقسيم أعلى القوس في جهاته الثلاث الغربية والجنوبية والشرقية إلى ثلاثة جداول متراكبة أو متموضعة فوق بعضها البعض كما هو واضح في الصور المعروضة على شكل ألواح ذات بروزات ناتئة وغائرة ومشكلة نتوءات للزينة، أمّا نجد الحجر العلوي منه انقلب إلى الارض، أمّا باقي حجارة القوس فقسم منها مطمور في التراب والباقي الآخر نقل وتمّ توظيفه في أبنية أخرى محدثة إما في بناء القلعة أو مبنى الخان (الكرفان سراي) في المدينة أو في قرى ومدن قريبة كما هو حال باقي العناصر المعمارية التي تعود إلى أبنية أخرى في المدينة.

ويُظهر العرض الزخرفي هنا ملحمة أسطورية عرفت في الميثولوجيا الإغريقية باسم: ملحمة تقطيع وتمزيق ليكورق (lycurgue) الذي كان ضحية الإله ديونيسوس داخل أحد أغصان عناقيد العنب، وفوق حقل من الحقول الزخرفية الداخلية تم نقش تويج زهري على شكل صولجان الرب أو الإله، وفوق حقل آخر أيضاً يظهر راعٍ ريفي ذو ذيل مع قطيع من الماعز.

ومن المعروف أن الإله ديونيسوس Dionysos في الميثولوجيا الإغريقية هو ابن الإله زيوس (Zeus) كبير الآلهة وزوجته هيملا، وقد ترعرع هذا الغلام في كنف والديه، وما كاد أن يشب عن الطوق ويكبر حتى أتقن فنون الزراعة وخاصة زراعة الكروم وتقطير النبيذ من العنب مما جعله إلهاً للخير والإخصاب والطبيعة. وقد انتشرت عبادته في كامل بلاد اليونان وأقيمت له المهرجانات الديونيسية التي كانت تضج بالمرح والعربدة والرقص والموسيقى وذبح القرابين.

لذلك فكان يظهر فوق المنحوتات وهو يمسك بيده عناقيد العنب وباليد الأخرى كأس الخمر. وعرف عند الرومان باسم الإله باخوس، بينما سمي عند العرب وخاصةً الأنباط في الجزيرة العربية وبلاد الشام باسم ذو الشرى.

أما ليكورق (lycurgue) فقد عرف في التاريخ اليوناني تحت اسم شخصيتين: الأولى وهو(lycurgue) رجل القانون

وعضو هيئة التشريعي والرجل التقي والورع، كما عرف عنه أنه العالم الروحاني لمدينة إسبارطة، ولذلك يعزى إليه وضع القانون التشريعي الإسبارطي في القرن التاسع ق. م. أمّا الشخصية الثانية فهو خطيب ورجل دولة وسياسة أثيني من مدينة أثينا بين أعوام ٣٩٦-٣٢٣ ق.م وكان حليف ديموستين ضد فيليب الثاني المقدوني والد الإسكندر المقدوني الكبير.

والمسألة التي تهمنا من هذا البحث المقتضب نحن في سورية بشكل خاص وفي الوطن العربي بشكل عام أن كثيراً من الناس يجهلون البعد الحضاري والغنى الأثري للقى الأثرية أو الآثار الثابتة أو المنقولة التي تتمتع بها سورية وبلاد الشام كمولد ومنطلق للحضارات العالمية.

أمّا أنا بدوري فأعتبر أن السبب يكمن في ضعف الترويج الأثري والسياحي سواء عن طريق وسائل الإعلام أو المناهج التربوية أو ضعف الثقافة الأثرية والحضارية لدى كثير من الناس.

كما أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة لدينا لا تكرس للقضايا الأثرية والحضارية إلا بقدر يساوي واحداً في الألف أو بالكاد بالمقارنة مع البرامج غير المهدوفه أو أن الهدف منها تضليل الحقائق وإخراج جيل غير مسؤول في المجتمع، إضافة إلى عدم البحث والتمحيص عن الشخصيات العلمية ذات الثقافة الحقيقية ووضعها في أماكنها المناسبة، أو عمل ندوات الهدف منها إظهار الحقائق بالاعتماد على المعطيات المرتكزة على أحدث المكتشفات الأثرية والعلمية في منطقتنا والعالم.

ولم يكن قول الباحث الفرنسي ومحافظ متحف اللوفر السيد أندريه بارو في القرن الماضي: (لكل إنسان وطنان؛ وطنه الذي يسكنه وسورية) يرتكز على وهم وإنّما ثمرة عشرات السنين من العمل الأثري في سورية.

وجاء ذلك كتأكيد على الغنى الثقافي والحضاري وعلى الإرث الأثري الضخم الذي تمتلكه سورية وبقية مناطق العالم العربي، كما لم نكن مغالين إذا ذكرنا أن الكثير من المعارف التاريخية والمرتكزات الحضارية كانت تتولد من خلال اللقى الأثرية ومهما كان حجمها صغيراً أو كبيراً وفي المكان الذي وضعت فيه في الأصل، أما عندما يتغير مكانها فتفقد حين ذاك نسبة عالية جدّاً من أهميتها، وهذا المثال الذي نعرضه لدليلٌ قاطع على ذلك، أما الإنسان البسيط والذي يجهل هذه الأمور فيعتبرها حجارة كباقي الحجارة فيشوهها بتقصيبها أو تقليصها أو تقسيمها بالشكل المطلوب بالنسبة إليه إذا أراد أن يوظفها في بناءٍ

حديث وخاصة عندما يكون حجمها كبيراً حتى يسهل على البناء سهولة حملها.

وننوه في هذه المناسبة أن الكثير من الناس الذين تتواجد في منازلهم القديمة حجارة تحمل نصوصاً كتابية أو زخارف ميثولوجية أو غيرها فيتعمدون في طمسها إما بسكب البيتون فوقها أو تهشيمها أو قلبها رأساً على عقب لإخفائها خوفاً من استملاك الدولة لها أو للمنزل الموجودة فيه.

والشيء الأخطر من ذلك عمل تجار الآثار في الداخل والمرتبطين بتجار الآثار بالخارج أو المنظمات المهدوفة والتي تسعى إلى تشويه تاريخ هذه الأمة وطمس حضارتها أو تحوير الحقائق التاريخية لصالحها، لذلك تسعى بكل الطرق من أجل نهب هذه الآثار ومهما كانت، وخير دليل على ذلك سرقة لوحة فسيفسائية من مدينة أفاميا نفسها، وأشد خطورةً في الأمر أيضاً سرقة القطع الأثرية الكبرى من لوحاتٍ فسيفسائية أو منحوتات مختلفة مثل التوابيت الحجرية التي تنقش فوقها ملاحم تاريخية أو تماثيل رخامية وغير رخامية، ومن الأمثلة على ذلك محاولة سرقة تمثال الإله الفينيقي ملكارت والذي كان يعتبر كحارس لمدينة لبدا الكبرى في ليبيا ومسقط رأس الإمبراطور العربي سبتيموس سيفيروس. وقد وضع هذا التمثال ليزين مقدمة منصة التمثيل في مسرح المدينة غير البعيد عن شاطئ البحر، ولكن لحسن الحظ فقد تمَّ ضبط المحاولة وإعادة التمثال ونصبه في متحف المدينة.

وقد شرح لي أحد طلابي الذي كان واحداً من ضباط الأمن الذين داهموا اللصوص في البحر بالتعاون مع خفر السواحل في المنطقة طريقة فك التمثال ليلاً ثم نقله إلى الشط ومن هناك تمَّ ربطه بحبال ثقيلة ثم ربطه من الأعلى ببالونات منفوخة لتسهيل عملية رفعه على مستوى سطح الماء بينما كان زورق صغير يقوده ثلاثة جدافين لنقله إلى عمق البحر وهناك يكون في انتظارهم زورق آخر كبير لنقله إلى أحد الأماكن المأمونة في جزر البحر الأبيض المتوسط ومن ثم إلى التجار العالميين للآثار والذين يخططون باستمرار لنهب آثار هذه الأمة وتراثها.

ومن هذا المنطلق نود لفت نظر كل مواطن من أجل الاهتمام في هذه الأمور وردع كل من يُعرف عنه أنه يقوم بتشويه الآثار أو نقلها أو إتلافها بعلم أو بجهل لأنها تعتبر الهوية الحقيقية لهذا المواطن وهذا الوطن الغالي على نفس كل إنسان شريف.

ومن الطبيعي في مثل هذه الأمور أن يكون كبار المسؤولين في الدولة هم من يتحمل الأمانة أمام التاريخ والأجيال القادمة، فهم أصحاب القرارات الحاسمة في ردع المخالفين وتوقيع أشد العقوبات

بحقهم. فعلى هؤلاء أن يكونوا حذرين أشد الحذر وتتناسب ثقافتهم ومراكزهم وقراراتهم الهامة مع الواقع الحضاري للبلد الذي يتربع على الكنز الكبير والهام من مواقع التراث والحضارة في العالم، فكل شبرٍ من أراضيها يتحدث عن حضارة أو حدث أو مصدر هام وحتى كل ذرة تراب من تراب الوطن عبارة عن كنزٍ لا يقدر بثمن.

الهوامش

1- J. Ch. Balty. Guide d,Apamée. Bruxelle 1981. pp 56-.

٢- خليل المقداد- المسكوكات السورية منذ الأصول وحتى الفتح العربي الإسلامي- الهيئة السورية للكتاب- ٢٠١١م.

٣- خليل المقداد- الفسيفساء السورية والمعتقدات القديمة (الميثولوجيا) دراسة مقارنة- الهيئة السورية للكتاب - ٢٠٠٨م.

٤- جان شارل بالتي- دليل أفاميا الأثري- مصدر سابق باللغة الفرنسية- ص ص١٨-٣٤.

الأب باسكال كستلانا
راعي «القرى المنسية» في الريف السوري

م.عبد الله حجار ✿

انتقل الأب باسكال كستلانا إلى الديار السماوية في الساعات الأولى من صباح السبت ٢٨ نيسان ٢٠١٢م وهو في الحادية والتسعين من العمر بعد إصابة منعته من السير وألزمته الفراش حوالى السنة. وقد عرض جثمانه في صالون دير الآباء الفرنسيسيين في حيّ «العزيزية» في حلب لإلقاء نظرة الوداع على من أمضى زهرة عمره وشبابه وشيخوخته في محبة الله والقريب وبلدنا الحبيب سورية. وليوارى الثرى يوم الاثنين ٣٠ نيسان ٢٠١٢م في احتفال مهيب يشارك فيه جميع إخوته الرهبان وأخواته الراهبات ومعارفه ومحبّيه.

ولد الأب باسكال في الأوّل من آب عام ١٩٢١م في قرية فافارا Favara التابعة لمقاطعة أغريجنتو Agregento الواقعة في جنوب جزيرة صقلية. ودّع أهله قاصداً الأراضي المقدّسة في فلسطين ليخدم الله والقريب بالانخراط في السلك الرهباني لدى الآباء الفرنسيسيين في القدس. سيم كاهناً العام ١٩٤٥م وأرسل إلى حلب العام ١٩٤٦م ليخدم الرعية اللاتينية متنقّلاً بين حلب والقنية واليعقوبية والغسّانية واللاذقية وكان آخر المطاف الذي استغرق ٦٦ عاماً، والذي ودّع منه هذه الحياة الفانية هو حلب التي لا تبعد كثيراً عن القرى الأثرية التي طالما زارها وكتب عنها وأحبّها.

مؤلّفاته:

كان أوّل اتصال للأب باسكال مع الآثار في حزيران ١٩٦٧م عندما اكتُشفت فسيفساء أرضية كنيسة في بلدة الغسانية التي كان كاهن الرعية فيها، ثمّ كتب مقالة

✿ أديب وباحث ورئيس تحرير مجلة «الضاد».

عن أرضية كنيسة عالية جنوب محمبل التي اكتشفت العام ١٩٦٨م. ومنذ ذلك العام قرّر الأب باسكال وبالتعاون مع زميليه الأبوين إنياس بنيا وروموالدو فرنانديز تشكيل فريق عمل جادّ قام، بعد دراسة جميع ما كُتب من قبل الباحثين والرحّالة عن المدن المنسية «المدن الميتة» أو القرى الأثرية في الريف شمال غربي سورية، القيام برصد حركة النسّاك والرهبان على اختلاف أنواعها ومتابعة مواقع سكناهم ميدانياً في جبال الكتلة الكلسية الممتدة بين قورش/سيروس (النبي هوري) وأفاميا وبين حلب وأنطاكية والتي تضم ٨٢٠ قرية وموقعاً أثرياً وأكثر من ٢٠٠٠ كنيسة كانت درّتها كنيسة القديس سمعان العمودي. وكان الرهبان الثلاثة كتلة نشاط مثمر استمر خمسة وثلاثين عاماً بين بدء عملهم العام ١٩٦٨م وحتى العام ٢٠٠٣م. فصدرت لهم معاً الكتب التالية (باللغة الفرنسية):

- النسّاك العموديون السوريون، عام ١٩٧٥م ترجم إلى العربية عام ٢٠٠٢م.
- نسّاك الأبراج السوريون، عام ١٩٨٠م.
- نسّاك الأديرة السوريون، عام ١٩٨٣م.
- إحصاء آثار جبل باريشا، عام ١٩٨٧م.
- إحصاء جبل الأعلى، عام ١٩٩٠م.
- إحصاء آثار جبل الوسطاني، عام ١٩٩٩م.
- إحصاء آثار جبل الدويلي، عام ٢٠٠٣م.
- وأصدر الأب باسكال باللغة العربية منفرداً لوحده عدة كتب منها: «تاريخ الكنيسة في القرون الأربعة الأولى» عام ١٩٨٥م. كما أصدر بالاشتراك مع م.أكارتا كروم كتاب «سورية أرض التاريخ والآثار والقداسة» عام ١٩٩١م. والعديد من المقالات باللغة الإيطالية التي نُشرت ترجمتها من قبل المهندس سمير حجار في النشرة الرعوية السنوية للطائفة.
- صدر له بالإيطالية وبالاشتراك مع الأب روموالدو فرنانديز والمهندس المعماري الإيطالي اسّندرو دو بناردو كتاب «معبد ودير مار توما في صيدنايا» عام ٢٠٠٨م.
- أصدرت الباحثة فرنشيسكا سيفيريني العام ٢٠١١م كتاباً جمعت فيه ضمن ٣٩٠ صفحة جميع مقالات الأب باسكال التي كتبها بالإيطالية خلال خمسة وثلاثين عاماً عن النسّاك والرهبان والمواقع الأثرية المختلفة في الكتلة الكلسية وسواها، وفيها العديد من الأبحاث الجديدة عن مواقع لم يعرفها أي باحث من قبل في جبل سمعان وجبل الزاوية وحول إدلب وسواها.

- صدر للأب باسكال بالاشتراك مع الأب روموالدو كتاب «على خطى مار مارون» بمناسبة مرور ١٦٠٠ عام على رقاد مار مارون (٤١٠- ٢٠١٠م)، وقد أهدياه إلى روح زميلهما الأب إنياس بنيا الذي توفي العام ٢٠١٠م.

- كما أصدر الأب باسكال بالإيطالية لوحده كتابه الأخير «النسّاك والرهبان السوريون بين التاريخ والجغرافية» عام ٢٠١١م، وكان مسك الختام أهداه إلى رفيقي الدرب الأبوين بنيا وفرنانديز وضع فيه خلاصة تجربته الحياتية وأبحاثه وقد بلغ التسعين من العمر. وقد قام المهندس سمير حجار بترجمة الكتاب إلى العربية ونأمل أن يصدر قريباً.

ويذكر للأب باسكال الفضل في تعريفنا بمكان تنسك مار مارون في قلعة كالوطة ودفنه في براد بمقالة نشرها العام ١٩٨٢م، وكذلك معرفة مسار الطريق الرومانية بين قورش وأفاميا وكشف موقع نياكابا من خط سير الإمبراطور أنطونان وهو موقع تل عقاب (في جبل الدويلي) إضافة إلى اكتشاف بعض الأحجار الميلية الرومانية التي لم تكن معروفة من قبل.

كما تأكد من مكان المعركة الدامية التي جرت بين نور الدين زنكي والفرنجة بتاريخ ٢٩ حزيران العام ١١٤٩م وكانت في موقع «بئر معراتة» التي تبعد أقل من كيلومتر واحد عن قمة النبي أيوب إلى الغرب من البارة في جبل الزاوية، وتعرف بالمصادر الأجنبية باسم Fons Muratus والتي انتصر فيها نور الدين وقتل فيها أمير أنطاكية ريمون دو بواتييه.

وكان لي شرف مرافقة الأب باسكال وزميليه أحياناً في جولاتهم على القرى الأثرية منذ بدايتها في السبعينيات من القرن الماضي وكان يشاركنا فيها أحياناً المرحوم الأب بولس يتيم، وقد تعلّمتُ منهم الكثير حول الحياة النسكية وكيفية التمييز بين أنواع الكنائس وفترة بنائها. وكان أن أصابتني العدوى فأصدرتُ كتابي «كنيسة القديس سمعان العمودي وأهمّ آثار جبلي سمعان وحلقة» باللغة العربية وتُرجم إلى اللغات الإنكليزية والألمانية والفرنسية تسهيلاً لتجوال السياح الأجانب. وكان ذلك إثر الاحتفال بمرور ١٥٠٠ عام على إنشاء كنيسة القديس سمعان العمودي (٤٩١- ١٩٩١م)، وبهدف التعريف بالكنوز الأثرية في هذه القرى الأثرية والباحثين الأوائل الذين كتبوا عنها وأهمية استثمارها في السياحة الثقافية الدينية. وقد تمّ تسجيل بعضها على شكل متنزّهات أثرية National Parks من قبل منظمة اليونيسكو في قائمة التراث العالمي WHL العام ٢٠١١م. كما

أذكر كم كانت سعادة الأب باسكال كبيرة، خلال مرضه الأخير، بمشاهدة الباحثة الدكتورة وداد الخوري التي زارته في غرفته في الدير كي تطمئن على صحته وذلك قبل ثلاثة أشهر بالضبط من وفاته (الصورة)، وقد ساعدته مع زملائه في دراسة ورسم بعض المواقع في جبلي الدويلي والوسطاني كما ذكر ذلك في الكتابين آنفي الذكر.

إن كتب الأب باسكال وزملائه في حال ترجمتها إلى العربية تعتبر قاعدة «المعلومات والأرشفة» التي لا بدّ منها في أي مشروع للنهوض بالريف السوري من خلال التنمية المستدامة المنشودة. لا أعرف من تفانى بحبها وأخلص لها وكتب الأبحاث عنها مثله طوال ٣٥ عاماً بين المحدثين والقدامى. لذلك أعتبره بحق «راعي القرى الأثرية في الريف السوري».

أمَّا عن خصال الفقيد الغالي الأب باسكال فكان ككل راهب فرنسيسي نذر الفقر والعفة والطاعة متواضعاً، زاهداً بأمور الدنيا ومتفانياً في خدمة الرعية والقريب ورغم سرعة انفعاله أحياناً فقد كان يتحلّى بالطيبة ووداعة القلب. ولا أنسى حضوره في الفترة ما بين ١٩٩٨م و٢٠٠٥م التي لم يعد باستطاعة والدتي خلالها بسبب الشيخوخة الذهاب إلى الكنيسة أيام الأحد والأعياد كعادتها، فكان يحمل إليها القربانة المقدسة، وقد قارب الثمانين من العمر، مرة على الأقل في الأسبوع صاعداً ٧٨ درجة حتى الطبقة الثالثة حيث نسكن، ولم يكن المصعد هناك آنئذ. يناولها القربانة ويملؤها أملاً وحبوراً، وندردش بضع دقائق عن الآثار والمواقع المنوي زيارتها في أوّل مناسبة سانحة. وكم كان سرور المرحوم أدولف أولمان والصديق الفنان المصوّر جورج مانوكيان والصديق الباحث فائز قوصرة كبيراً عندما كانوا ينضمون إلى رحلة بحث أثري ممتعة تكون مع الأب باسكال منفرداً أو مع زميليه، يستمعون إلى شرحه ويساعدونه في قياس أبعاده، ثم يستريحون بفيء ظليل يتناولون معاً بعض المرطبات والطعام الخفيف.

مُنح الأب باسكال وسام رئيس الجمهورية الإيطالية ووسام قداسة البابا بندكتس السادس عشر الحالي تكريماً له على جهوده في التعريف بالكنوز الحضارية السورية في العالم.

وكنّا في جمعية العاديات، وبمعرفة رئيس الجمعية الأستاذ محمد قجّة، ننتظر الفرصة الملائمة، مع الظروف الصعبة التي يمر بها وطننا الحبيب، للاحتفال بتكريم من كانت سورية وطناً ثانياً له خلال ٦٦ عاماً كانت غنية بالمعرفة والعطاء ومحبة الله والقريب، عرّف العالم خلالها على كنوزنا الحضارية.

كان الأب باسكال يتمنى دائماً أن تحظى

المواقع الأثرية الكثيرة التي لم تُدرس بعد بمن يتصدّى لدراستها من الشباب الباحثين، فيتابع عملهم في المنطقة شرقي نهر القويق الأعلى أو إلى الشرق الجنوبي من حلب في منطقة خناصر وزيد وجبلي الحص وشبيث أو غربي مستنقع المطخ والحاضر والعيس.. الحصاد كثير، لكن الفعلة قليلون.

رحمك الله يا أبانا الحبيب، ستلقى الأب إنياس بنيا زميل الدرب والأب ميشيل بتشيريللو راعي الفسيفساء في الشرق اللذين سبقاك إلى الديار السماوية، حيث لا حزن ولا وجع ولا تنهّد. أرجو أن ترتاح رفاتك بين أشجار السرو قرب كنيسة القنية التي أوصيت أن تدفن بينها. ستفتقدك أحجار أبراج وأعمدة النسّاك والأديرة وأشجار أحراج جبال الكتلة الكلسية ونباتاتها البرية التي كان يقتات منها رهبان الأيام الغابرة، وسيفتقدك كلّ من عرفك عن قرب. ألهمَ الله إخوتك الرهبان، وفي مقدّمتهم الأب الحبيب رومالدو ورئيس الدير الأب جورج وأخواتك الراهبات والأصدقاء الباحثين والمحبين في كل مكان، الصبر والسلوان. وذكراك وأسفار كتبك بما حوت من معلومات ستبقى إلى الأبد.

منذ متى وإلى متى؟

د. أحمد عمران الزاوي ✪

ظلّ العرب يترنحون طيلة الحكم العثماني.

لم يكن يماثل طغيان الحاكم غير جهل المحكوم.

حتى إذا طرح السؤال المعروف وماذا بعد؟

كان الجواب الفوري: لم يعد للعربي قبلٌ ولا بعد.

فالأغيار يتحدثون عن «القبل» باستهزاء والعرب يتحدثون عنه باستخذاء، أما «البَعْد» فلا يرى الآخرون فيه غير الهيمنة. ولا ينتظر العرب منه غير دوام الخضوع.

سوف أقتصر على الاختراقات السياسية منذ أوائل القرن العشرين.

في سنة -١٩٠٥م- التي استلم «وايزمن» عن هرتسل خلافة الحركة الصهيونية، كانت الألسن تردد مقالة هيرتسل في مؤتمر بال: «نريد الأمة العربية محرَّرة من الأتراك. ولكن المجزَّأة، التي لا تستطيع مجابهتنا نريد شرقاً أوسط مشتتاً».

أدرك وايزمن، بحاسة الشم عن بعد، أن العالم قادم على حرب تستعاد بها خرائط الأمم، وسوف يقوم في النهاية مؤتمر سلام وصياغة من جديد وسوف لن يدعى إليه إلاّ من اشترك مع المنتصرين، وبحاسة الشم إياها قدّر أن النصر سوف يكون بجانب الحلفاء.

كانت شخصية وايزمن طافحة بالتراكمات التالية:

- بديناميكية خارقة وعقل بعيد الآفاق.

✪ أديب وباحث سوري.

- بفكر يهودي ورث ظروف التشرد منذ أكثر من ألفي عام.

- بطموح إلى تجمع يهودي، وضع «هيرتسل» أبجديته الأولى في مؤتمر بال لعام١٨٩٨م بذلك الطموح، وتلك الديناميكية قابل «لويد جورج» طالباً منه قبول اليهود شركاء في الحرب القادمة.

فأجابه: أنتم تركتم الحرب منذ زمن بعيد ووجهتم مواهبكم إلى الفكر والصيرفة.

فقال وايزمن: نحن قابلون للقيام بأية مهمة توكلونها إلينا.

فوعده بالقبول حينما تدق طبول الحرب.(1)

وحينما نشبت الحرب أسندوا إلى اليهود فرقة البغالة المكونة من أربعة آلاف بغل تحمل المؤن والذخائر وتبقى دائماً وراء الجيش، ولكنهم دُعوا إلى مؤتمر السلام، كما توقع وايزمن.

وفي المؤتمر:

-تمت تجزئة الوطن العربي وتمّ اقتسامه، فكانت فلسطين تحت الوصاية البريطانية، وكان المفوض السامي الأوّل هو: اليهودي «هربرت صموئيل» الذي نشر الحماية البريطانية على تقاطر المهاجرين اليهود إلى فلسطين من بقاع الأرض كافة، ثم كان «وعد بلفور» الذي بقي طيّ الأدراج إلى ما بعد «سايكس بيكو» علماً أن الدجاجة التي باضت الكوارث العربية هي مؤتمر لندن سنة ١٩٠٧م لأوّل مرة.. في ذلك المؤتمر تصافحت مصالح الغرب مع مصلحة اليهود في قيام دولة يهودية مستقلة.

فالنفط الذي بدأ يحتل محل مصادر الطاقة الأخرى، وقناة السويس التي قربت المسافة بين القارات، والحضارة الغربية التي بدأت تتسلّل إلى البلدان العربية في الفكر والسياسة والصناعة..

ذلك حتم على أن يتم «ذبح جغرافي» بفصل رأس الأمة العربية الشاهق في آسيا، وبين جسدها الممدد في أفريقيا، وذلك بغرس تجمع بشري يختلف عن العرب في «الجنس» و «اللغة» و«الدين» و«اللون».

بهذا الذبح والتركيم:

تتحقق حماية النفط.

وتستمر الملايين العربية أفواهاً جائعة لحضارة الغرب.

وتصبح الطريق البرية مأمونة لبريطانيا إلى الهند، ولفرنسا إلى سومطرة، ولهولندا إلى أندونيسيا.. وتبقى قناة السويس ممراً مائياً مأموناً لسفن الدول الأوروبية.

وبه أيضاً: أي بالذبح والتركيم تتحقق مصلحة اليهود في إقامة وطن مستقل يحررهم من حياة استمرت في الكيبوتزات أكثر من ألفي سنة.

وبالتدقيق فيما تقدم يتبين أن المصالح كانت وما زالت دوافع الحرب والسلم والمعاهدات فتصافحها، هو الذي حتّم على الغرب إخلاء فلسطين من العرب وإملاءها باليهود وحتم على اليهود أن يدفعوا الثمن وهو: إبقاء الحرائق في البلاد العربية مشتعلة بحيث يمتص الإطفاء جميع الوقت والجهد العربيين، وحماية قناة السويس..

المصالح، تولّت السيدة «كلينتون» وزيرة خارجية أمريكا في ٢٠١١/١١/٩م مصالحنا؛ حددت وتحدد مواقعنا من الثورات العربية، عدم الهجوم على سورية ناجم من خوفنا من توقف النفط ومقدار ما تتكبده القوات الأمريكية من خسائر.

المصالح: عبّرت عنها مقدمة تقرير مؤتمر لندن التي جاء فيها(٢) الحظر الضخم على الوجود الأوروبي يكمن في البحر المتوسط لأن حوضه مهد الأديان والحضارات، ولأنه همزة الوصل بين الشرق والغرب، ولأن على شواطئه الجنوبية والشرقية يعيش شعب توافرت فيه وحدة «التاريخ» و«اللغة» و«الدين» فضلاً عن «نزواته الثورية» و«ثرواته الطبيعية» و«كونه ولوداً ينجب العدد الكبير من الأفواه المستهلكة والحاجات التي لا ترتوي إلى صناعة الغرب وحضارته».

فماذا يحصل إذا انتشر فيه التعليم؟ ودخلت الصناعات الحديثة والتجارة المتطورة؟ وأنماط الديمقراطية؟

لا شك في أن ذلك سوف يكون ضربة قاصمة للوجود الأوروبي الذي سوف يُطرد مثلما طُردَ الصليبيون الأعداء.

أما الوعد المشؤوم فقد تحدّث وايزمن عن ظروفه في مذكراته فقال:

«مكثت في بهو الوزارة أكثر من عشر ساعات أنتظر ما تسفر عنه المناقشة، علمت أن الوزراء اتفقوا على قيام الدولة اليهودية ولكنهم اختلفوا على صيغة الاتفاق فكان بلفور يخرج من الاجتماع بين حين وحين ليعرض عليَّ الصياغة فأجري عليها التعديل حتى كانت الصياغة الأخيرة بخط يدي»(٣).

لقد ظل النشاط اليهودي تحت السقف البريطاني في حرب السويس في سنة ١٩٥٦م.. فوايزمن حينما اجتمع «وتشمبرلن» قال: لقد وجدت انكلترا مبدأ الدافعة.. معيداً إلى الأذهان قانون أرخميدس السرقوسي الإيطالي.

أي إن دولة اليهود سوف تطفو على سطح السياسة البريطانية مثلما تطفو الأجسام فوق الماء.. والطفو الذي عناه هو استكمال الاستقلال والقوة والاستمرار.. ولكن الأحوال اختلفت بعد السويس.

فقد بدا أن أمريكا أقوى من الجميع، لذلك فك اليهود عربتهم عن الحصان الإنكليزي وربطوها بإحكام في عنق الحصان الأمريكي.

فمن النوافذ الأمريكية دخل الدعم الأوروبي وما زال يدخل، ها هو «سركوزي» يقول في مؤتمر صحفي بـ٧/١١/٢٠١١م: فرنسا لن تقف مكتوفة الأيدي إن تعرضت إسرائيل إلى الخطر، وانضمت انكلترا لكي تشكل مع فرنسا والولايات المتحدة ثلاثياً مانعاً دون تطلع مجلس الأمن والجمعية العامة إلى قيام دولة عربية في فلسطين قبل وعد بلفور، كانت أقصى آمال اليهود أن يتحقق لهم موقع خاص تحت الشمس دون تحديد منطقة جغرافية معينة.

وهيرتسل بعد أن رفض السلطان عبد الحميد طلبهم اكتفى بتوجيه العيون اليهودية إلى «أوغندة» «البرازيل» «العريش» «موزامبيق» «منشزريا» أي إلى البدائل المعروفة آنذاك.

حتى إن «نتياهو» وضع كتابه تحت عنوان «مكان تحت الشمس» وحينما ترجمه الدويري وطبعته دار الجبل الأردنية في عام ١٩٩٦م نشر تحت عنوان «مكان بين الأمم» أي لم تكن فلسطين في أحلامهم، ولم تكن مكان اطمئنان لهم.

فكتاب نتياهو دلَّ على أن القلق والخوف على المصير ظل رفيق «الحاكم» والأديب والمفكر ورجل السلاح حتى اجتازت دولة اليهود سن المراهقة ودخلت في السن النووي.

أما كلمة «الصهيونية» التي وردت في التوراة «موقعاً جغرافياً فقط» صارت منذ أواخر القرن التاسع عشر ذات محمول سياسي لم يلبث أن تحول إلى مهماز يشد على بطن الجواد اليهودي كي يجتاز الأبعاد.

ففي التوراة: الصهيونية هي حصن أقامه اليبوسيون على صهوة رابية من روابي القدس سموّه «حصن صهيون»، ولكنه في التداول الحديث التصق باليهودية التصاقاً أبدياً، فاليهودية هي الوجه الديني والصهيونية هي الوجه القومي، وكل محاولة لفصل أحدهما عن الآخر سوف يودي بكليهما.

قال الكاتب الصهيوني «هيرمان صموك» في كتابه «هذا هو إلهي»: دولة إسرائيل التي حققت أقدم حلم ديني على الأرض وضع مخططها مؤسس لا ديني وأوجدها على الأغلب رجال لا يراعون العقيدة ومع ذلك ازدهرت ضمن مجال النظر اليهودي الصهيوني..

هذا التطلع الديني وظّف نصوص التوراة والتلمود لخدمة الهدف اليهودي.

و«رضى الله يقاس بما يسيل من دماء العرب».

و«كفّارة الخطيئة قتل العربي..»

و«أحسن تصرف مع العربي هو قتله».

ويشوع إذ أبقى على راحاب الزانية لأنها كانت عميلة وقتل السكان جميعاً مع حيواناتهم أعطى مثال التقليد للأجيال اليهودية في استخدام واستعمال الأراذل، والمنحلين خلقياً وسياسياً إلى الآن.

معاهدة «سايكس بيكو» التي قسمت ووزعت وغرست الخنجر اليهودي في خاصرتنا كانت أوّل الكوارث في تاريخنا الحديث، على أن الإنصاف يتمرد على الصنمية التاريخية ليقول:

ما كان للوعد أن يكون ولا كان للوزيرين، سايكس وبيكو أن يتقاسمانا فيقتطعان ويلحقان ويهبان ويقسمان ويبنيان ما شاءا، لو لم يكن مناخنا الفكري والاجتماعي فقد نخره السوس وتراكمت عليه الأدران وكثرت فيه الثقوب، رحم الله أبا العلاء حينما أبى أن يأكل من لحم الديك المسلوق وخاطبه قائلاً: استضعفوك فوصفوك، فلا وصفوا لحم الأسد.

الغرب الديمقراطي الذي منه العدد ومنه ما دون العدد متفقة جميع دوله على رؤيتنا بالعين التلمودية.. مخلوقات شردت من زرائب الحيوانات حينما رفضنا أن نكون غيرنا.. صبَّ علينا الغرب جامات غضبه، فصار يتعامل معنا مثلما يتعامل المالك مع أشجار الحقل قلعاً أو قطعاً أو تشذيباً من دون عائق أو مقاومة.

إسرائيل طورت حياتها وصناعتها الحربية من قنابل فوسفورية وعنقودية وجرثومية وذرية بتشجيع وعون غربي.

أما في بلداننا العربية فالتفكير مجرد التفكير، في التطوير محارب ومحظور، إنهم يدرسون اليوم طريقة معاقبة سورية، لماذا؟؟ لأن البناء الذي هدمته إسرائيل في دير الزور منذ أكثر من عشر سنوات كان يمكن أن يتحول إلى مصنع ذري (كان يمكن أن يكون).

الآن المسلحون يخترقون ما لا يخترق، فيفجرون المشافي والمدارس والجامعات والمحاكم والملاجئ ويقطعون أسلاك الهاتف ويفجرون الجسور وسكك الحديد ويهدمون البيوت ويقتلون السكان، ويمثلون بالجثث ويهاجمون المصارف ويسرقون خزائنها ويكمنون للسيارات ويستولون على ما تحمله من نقود ومؤونة، ويعلنون ارتباطهم بدول اليورو والدولار ويتسلحون منهم من دون خجل آلاف أطنان الأسلحة وآلاف ملايين الدولارات وأوقح أنواع الدعم السياسي.

هنا: نضطر إلى استعادة ما قلنا: وهو أننا اعتدنا على إخلاء أنفسنا من المسؤولية والإلقاء بها على عاتق الغير.

لقد آن أن نحدق بالصدأ الذي ملأ مناخنا الاجتماعي، فالتخلف استقر في ربوعنا منذ أن طُردنا من الأندلس، وطن يرعانا مثلما يرعى الثور العشب، فامتص صلابة الانتماء ولم يبق منه غير القشور.

بالقشور القومية قاومنا الصهاينة في فلسطين.

بالقشور القومية قاومنا مقررات سايكس بيكو.

بالقشور القومية حاربنا الاحتلال والوصاية والانتداب.

واليوم حتى القشر القومي سقط عن بعضنا فغدا غريباً عنّا في الشكل والمضمون والتصرف في «مؤتمر العقبة» أعلن بوش الأب وشارون في بيان مشترك أن دولة إسرائيل يجب أن تكون يهودية نقية من غير اليهود وأن يُرحَّل عنها جميع العرب من مسلمين ومسيحيين بالسلام أو بالسلاح.

كان أبو مازن من عناصر المؤتمر البارزين، فلم يدوّن اعتراضاً ولا تحفظاً حتى ولم يسجّل احتجاجاً، ذلك وسواه من صنوف الإذلال والاستغلال ما كان يمكن أن يكون لولا تفتتنا.

لقد حذرنا القرآن من التفرق وبيَّن معالمه فقال «وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ»﴿١٠٣﴾آل عمران

وقال في الآية: «وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ» ﴿٤٦﴾الأنفال

نحن اليوم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب نملأ وسائلنا الإعلامية بأن الكيان الصهيوني عدونا المصيري، وإن من يحالفه ويؤازره هو عدونا أيضاً، ومع هذه الحقيقة وقف الكثيرون منّا يتطلعون إلى العراق وهو يتفتت عظمة عظمة ومصر تسقط قلعة قلعة وتونس وليبيا واليمن والسودان والبحرين واليوم سورية.

هنا نقطة نظام يحق لها أن تقطع الكلام وهي:

أرجو ألا يفهم من كلامي تأوهاً على صدام والقذافي أو مبارك أو ابن علي، كلا، فقد كنت من المستكرين التصاقهم المديد بالكرسي ورضاهم أن يكونوا من الأجنبي بمثابة الذيل من صاحبه، يهزه متى يشاء وأنّى يشاء وكيف يشاء، ولكنني سجلت وسوف أظل أسجل أسفي على هذا الشعب الذي انهارت فيه القيم القومية إلى الحضيض.

على مرأى ومسمع الجميع قال أحد

الضباط اليهودي الدين الأمريكي الجنسية حينما وصل بفرقته إلى بغداد: ها قد وصلنا إلى الفرات حدّنا التوراتي الشرقي.

وكان على مرأى ومسمع الجميع قول غورو في المسجد الأموي عند قبر صلاح الدين: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

وعلى مرأى ومسمع الجميع قال بن غوريون: يجب أن تمتد حدودنا لقضم جنوب لبنان وسورية وكامل فلسطين وسيناء وأن تخترق الحدود الشمالية مدينة حمص وأن تضم حماة وحلب.

أما العرب فقد تحولوا إلى أنظمة من الفراخ، انطوت تحت أجنحة الغربيين (أوروبة وأمريكا) مكتفية بالاستخذاء والصأصأة.(٤)

إن تشبيه الخذلان العربي بصأصأة الفرخ تحت جناح الدجاجة، قياس مع الفارق الشديد هو أن الفرخ يجد الدفء والحنان تحت الجناح أما نحن فلا نحس تحت ذلك الجناح غير الرعب والحقد والخيبة.

تساءلنا وما زلنا: ماذا علينا أن نكون ليقبلنا سوق الحضارة الغربية؟

إن حضر الغربي إلى بلادنا يقابل بالحفاوة، وإن حضر أحدنا إلى مدينة ينظر إليه كوحش هرب من الزريبة.

يعيِّرون عروبتنا بالإسلام، ويطلقون علينا وعليه عبارات التقزيم، مع أنه كان نقلة نوعية على سلم الحضارة.

فقد فصل بأمر إلهي بين غاية الدين وغاية الدنيا ولكنه حتَّم على كليهما فقال: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»﴿٧٧﴾ القصص.

فهو بعد أن دعا إلى عدم نسيان الدنيا حضَّ على إحسان الإنسان لأخيه الإنسان واعتبره بمثابة إحسان الله «وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» ﴿١٣﴾ الحجرات.

نعم هذه هي الأصولية الإسلامية فلماذا يُحتقر الإسلام؟ ولماذا نحن في الحضيض؟

لن يهم أن نتساءل منذ متى، ولكن المهم أن نتساءل إلى متى؟

لقد أجاب بعض المستيرين على السؤال الثاني فقالوا: ثمّة عقبات لازمتنا منذ زمن بعيد ولن نخرج من الحضيض قبل إقصائها عن طريقنا، عقبات عديدة أهمها الأربعة التالية:

أوّل العقبات: الأقلمة أي انقسامنا إلى جماعات تقوقع كل منها في إقليم يستقل عن

سواء، بالحدود والدستور والقوانين والجيش والأنظمة حتى في العادات واللهجات.

جسد واحد تساقطت جوارحه كأنه إحدى فرائس مرض الجذام.

ثاني العقبات: ثقافتنا التي تختلف عن ثقافات الأمم.

يقولون: معدل قراءة العربي في السنة الواحدة كتاب واحد، ومعدل قراءة الإسرائيلي ٤٠ كتاباً، والأمريكي ٣٠ كتاباً، والأوروبي ٣٥ كتاباً.

ويقولون: ما ينفقه العربي على النشاط العلمي ١٧٠/١ مما تنفقه أمريكا وإسرائيل، والدراسة عند العرب هي حفظ المعلومات لنيل العلامات، في حين أنها عند الإسرائيلي والأمريكي والأوروبي تقوم على تنمية المواهب والفهم والتجربة.

ويقولون: التربية في البيت العربي تقترن منذ البدء بالعصا والاحتقار وفي المدرسة يستمر أسلوب البيت، بينما في الأماكن الحضارية تبدأ بغرس الثقة في النفوس وتكريس الحرية الشخصية منذ البيت حتى آخر مراحل الدراسة.

ثالث العقبات: هي هجرة العقول، هذا واقع مرير، فالنظم القائمة في أقاليمنا لم تستوعب العقول الفذّة من أبنائنا، فهجّروهم إلى بلدان حضارية قدرت مواهبهم كل التقدير فأمنّت لهم الدخل الكريم والموقع الكريم وامتصّت أحلى وأغلى رحيقهم.

العلم كان ولا يزال أعظم جوارح الجسد الحضاري، حتى لقد وضع القرآن «أولي العلم» بعد «الله» و«الملائكة» فقال: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾١٨ آل عمران**

وحثّ الناس على طلب العلم مهما صعبت وطالت طرقه وتعددت أنواعه فأبلغ النبي أن يأمر الناس بالسير في شعاب الأرض لكي يعرفوا كيف بدأ الخلق **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾٢٠ العنكبوت.**

كما بشّر النبي العلماء في كل زمان ومكان أن حبرهم يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء فيرجح حبرهم على الدماء.

وفي التاريخ قال الضباط لهولاكو: لم يبق في بغداد بناء إلاّ دمرناه ولا رجل إلاّ قتلناه، فقال لهم: والمكتبات؟ قالوا: وما شأنها؟ قال: دمروها فأنا لن أقضي على هذه الأمة إلاّ إذا قضيت على كتبها وثقافتها، فعاد الضباط وفعلوا ما فعلوه، فيما بعد حتى بقيت مياه دجلة أربعين يوماً سوداء من حبر الكتب التي ألقيت فيها.

يقولون: والعهدة على من قال: إن ربع الأخصائيين في الطب والهندسة والعلوم كافة في الغربيين هم من العرب الذين لم تحتملهم بلدانهم فهاجروا مع مواهبهم.

رابع العقبات: توشك في الحقيقة أن تكون جزءاً من الثالثة ألا وهي القوانين العلمية في شتّى جهات الاقتصاد من زراعة وصناعة وتجارة وصيرفة، فقد ثبت أن الإنتاج المبني على النظريات والمناهج العلمية يتجاوز الإنتاج البدائي تجاوزاً كبيراً، فالاقتصاد البدائي ينجم عنه السياسة البدائية، والاقتصاد العلمي ينجم عنه السياسة الحضارية الطموحة.

نعم نحن نستهلك الاقتصاد العلمي، نركب السيارة والطيارة والباخرة والغواصة، ونستعمل الهواتف النقالة والإنترنت والفاكس وسواها من الإنتاج الحضاري، ولكننا حتى الآن عاجزون عن صناعة أي ترس من تروسها أو جارحة من جوارحها.

هذه العقبات وسواها كانت معاكساتها زادنا الحضاري الذي بوّأنا المكان الشاهق، عدة قرون بين الأمم أمّا بعدنا اليوم عنها، فهو بعد ضوئي.

فمتى نجتازه؟ متى ينجلي الظلم؟

الهوامش

١- قال أيضاً «بلفور» و«بتلر» و«كرزون» و«سايكس» وآخرون.

٢- ورد التقرير بمقدمته في كتاب «اليهودية» للشلبي، وفي «وثائق التدخل الأجنبي» لموسى الكاظم وفي «العرب اليهود في التاريخ» لأحمد سوسة وفي «كتاب الثقافة الاشتراكية» الذي يدرَّس في جامعات القطر.

٣- هذا القول مشكوك فيه: لأن الصيغة صدرت وعداً لا قراراً، وأنها وجهت كرسالة إلى روتشيلد وليس إلى وايزمن وأنها تضمنت التحفظ على السكان غير اليهود.

٤- صأصأ: أي يكلو بفتح العينين، الصأصأة دليل الخوف والمذلة، قال العقيلي: وما كان إلاَّ أن صأصأ خوفاً وذلاً مني.

تأصيل مفهومي الحرية والديمقراطية في الوعي الاجتماعي

د. عاطف البطرس ✿



من أكثر المفاهيم رواجاً وانتشاراً في الأوساط الاجتماعية على مختلف مستوياتها مفهوما الحرية والديمقراطية، هذا الانتشار الأفقي لا يتناسب مع النفاذ العمودي «العمق» لهذين المفهومين بسبب تباين الوعي المعرفي ودرجة الثقافة للمهتمين بهما في النظرية والتطبيق، مفهوم الحرية على بساطته وانفتاحه مفهوم فلسفي وجد وتنامى وازداد تعقيداً مع تقدم الوعي البشري وأخذ دلالات مختلفة تتناسب طرداً مع تقدم المعارف البشرية وتداخلها، ومن الصعب الحديث عنه نشأةً وتطوراً لرحابة فضائه الدلالي وتعدد إيحائه.

تبقى مشكلة الحرية معضلة واجهها

✿ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

الإنسـان، وتحقّقها هدف يكاد يكون عصي المنال ما أن يتحقـق قدر منه حتى نكتشف أننا بحاجة إلى مزيد مـن الحرية، استناداً إلى المقولـة: «كلما لبينا حاجـة الناس من الحرية ازدادت احتياجاتهم إليها»، والسؤال المطروح أصلاً هل الإنسان حر؟

أم أنـه مكبل بالقيود؟.. هل هو مخيَّر أم مسيَّر؟

أسئلة ليست جديدة على الفكر البشري وقـد عولجت مـن مواقع مختلفـة عالجها الفكـر اليوناني بعمـق، وساهمت الديانات السماوية بتقديم أجوبة عليها، وكان للمعتزلة في الفكـر الإسلامي نصيب كبير ومساهمة خلّاقـة حولها، «مسألة الجـبر والاختيار» ويبقى السؤال قائمـاً وتتعدد الأجوبة عليه وتتباين وفق تطور المعارف الإنسانية والتقدم العلمي فكيف يمكـن أن نتحدث عن حرية الإنسـان إذا كان لا علاقـة له بأهم حدثين في صيرورته، وهما الولادة والموت، فالإنسان لا يولـد بإرادته ويموت دون رغبة منه، فما هو هامش الحرية إذاً، وما جدوى الحديث عنها، إنـه في المساحة الزمنية والمكانية بين الحدثين: الولادة والموت.

كيـف يمكـن أن نتحدث عـن الحرية والإنسان خاضع لمنظومة تشارطية لا يمكن اختراقهـا، وتتضمـن: الشـرط البيولوجي العضـوي، الشـرط الجغـرافي التاريخي، الشرط الاجتماعي بضغوطاته المتنوعة التي ليست السلطـة السياسية أكثرها وأخطرها مصادرة لحريته.

الحرية معرفة الضرورة

في الممارسة العملية يكتشف الإنسان أن الحرية، هي معرفة الضرورة والتغلب علمياً عليهـا، هي القـدرة الكامنـة في «الإنسان المجتمـع» علـى كشـف القوانـين ومعرفة الظواهر وسبل السيطـرة عليها،هذا معنى الحريـة في التجربـة الملموسـة بعيداً عن التجريد الفلسفـي والتعاميم النظرية التي تؤسس للحرية كمفهوم وجودي يتعلق بمصير الإنسان وطرائق وجوده.. إذ يكاد التاريخ أن يكون تاريـخ الإنسان-الإنسانية، في ملحمة نضالهـا من أجـل حرية يـزداد إلحاحها بمقـدار غيابها، وجودها في الذهن يتناسب طرداً مع انحسارها في الواقع، وبهذا الشكل يتوازى نضال الإنسان من أجل الحرية ضد قوانين الطبيعـة أولاً ثم ضد القوانين التي صاغها الإنسان «المجتمـع، الدين، الدولة، المنظومـات الأخلاقية»، أي أشكال التنظيم الاجتماعي التي لابد منهـا لتنظيم الحياة ثـم ما تلبث أن تصبح هـذه الأشكال قيوداً عليها.

ممـا لاشك فيه إن الإنسان ابن الطبيعة ومهمـا انفصل عنها واستقـل، «الانفصال الاتصـالي» يبقى متواصـلاً معها ومتصلاً

بها على الرغم من صراعه معها وكأنهما في وحدة التضاد وقانون النفي واحد يشترط وجود الآخر، وحنين الإنسان إلى طبيعته الأولى يزداد إلحاحاً مع الانقسام المجتمعي إلى طبقات ومع استفحال الملكية الخاصة أصل كل الشرور..

ثمة من يقول: «إن الإنسان لا يمتلك طبيعة ثابتة»، وإنما هناك عوامل وظروف جغرافية تاريخية اجتماعية اقتصادية سياسية معرفية تحدد طبيعته وبتغير تلك الظروف تتغير الطبيعة البشرية، وما على الإنسان إلا أن يسعى دائماً من أجل تغيير شروط حياته لتتغير تبعاً لذلك طبيعته، «فالإنسان لا يخضع لحتمية صارمة أو مقفلة ولا تأسره ماهية ثابتة أو هوية نهائية وإنما هو عالم من الممكنات مفتوح على الاحتمالات والمفاجآت»، فالحرية إذاً بشكل من أشكالها ومستوى من مستوياتها هي التحرر من القيد الطبيعي الذي يعمل الإنسان من أجل تحطيمه مع أنه يحن إليه دائماً، وهذه مشكلة من أعقد المشاكل التي يتصدى لحلها العقل البشري، وعليه فحرية الإنسان تكمن في قدرته على تغيير نفسه وتعديل طبيعته لأنه يخرج عنها ويبدل وجهه باستمرار، أمَّا الحرية بمعناها السياسي وهي من هذه الوجهة تكاد تتقارب إلى حد التماهي مع مفهوم الديمقراطية إذ يصبح مفهوم الديمقراطية هو التجسيد العملي التطبيقي للحريات السياسية التي هي جزء من المفهوم الكلي عن الحرية بمعانيها ودلالاتها المختلفة. جوهر الحرية بهذه الدلالة السياسية هو: الديمقراطية وأشكال ممارستها.

التجربة الأوروبية:

صاغت الدول الأوروبية عبر تاريخها في الصراع المديد مفهوماً للحرية الديمقراطية بعد سلسلة من الحروب والمواجهات والمعارك تخللتها أنهار من الدماء لكنها كدست رصيداً تجريبياً ومعرفياً حول المفهومين في النظرية والممارسة. والأساس النظري تحقيق إنسانية الإنسان، بوصفه كائناً تاريخياً وهو غاية الوجود وهدف كل سياسية.

في المنطقة العربية ما يزال هذان المفهومان بعيدين عن التحقق على المستويين الرسمي والشعبي وإن كانت الأبحاث النظرية المتعلقة بهما قد تقدمت على الممارسة العملية إلا أنه مع انفتاح المكان وثورة الاتصالات وتقدم الميديا «اختصار الزمان» أعيد طرح سؤال الحرية الديمقراطية من جديد، وبمستوى نوعي أرقى، بعد انكفاء تجربة عصر النهضة في عشرينيات وحتى خمسينيات القرن الماضي.

برز السؤال تحت الضغط الداخلي ومواجهة الخارج وأصبح الموضوع أكثر

إلحاحاً على الصعيدين الرسمي والحكومي «أنظمة الحكم» والشعبي «طرائق التفكير والسلوك الاجتماعي» في ظل غياب تاريخي لممارسة الديمقراطية في الفكر والمجتمع والنماذج الثقافية، وبالتالي في الحقل السياسي، كتعبير عن مجمل العلاقات التاريخية والاجتماعية والثقافية.

ما نحن بحاجة إليه اليوم هو تأصيل مفهوم الحرية في الوعي الاجتماعي والصياغة الدقيقة لديمقراطية تنسجم مع الواقع الموضوعي والمستوى المعرفي الثقافي المحلي من دون الوقوع في التماثل مع التجربة الغربية، التي أنتجتها سياقات مختلفة..

النقل الحرفي عن الغرب لا يقل خطورة عن الانغلاق، وسد الأبواب أمام الاستفادة من تجارب الآخرين واستخلاص القوانين العامة التي تتأسس على المشترك الإنساني.

ثمة إجماع حول الديمقراطية فهي ليست مشكلة الساعة فمنذ اليونان وحتى اليوم تعرف بأنها حكم الشعب نفسه بنفسه ولنفسه، ولكن المشكلة كيف يحكم الشعب نفسه وهو منقسم إلى طبقات وفئات اجتماعية تحكمها مصالح متعارضة تبلغ حد التناقض، ويبقى جوهر الديمقراطية في المآل الأخير هو تداول السلطة ففي المجتمعات ذات التقاليد الديمقراطية العريقة يمكن انتقال السلطة من دون إراقة الدماء وفي الأنظمة الاستبدادية لابدَّ لانتقال السلطة من مواجهات دامية، هذا لا يعني بالطبع أن النظم الديمقراطية خالية من العيوب والنواقص وإنّما هي أفضل العوالم الممكنة والأقل شراً من كل ما نعرفه من تقاليد، مع أنها أيضاً محكومة بالشكلية في كثير من الأحيان ولا تعبر بصدق عن الواقع الموضوعي لموازين القوى الاجتماعية.

لا يمكن الحديث عن تداول السلطة من دون المرور بمكونات المجتمع الديمقراطي وأولها سيادة القانون واحترام حقوق الإنسان وفصل السلطات، والعمل المؤسساتي، وحرية الرأي، وحق تشكيل الأحزاب، إلى ما هنالك من حريات سياسية، بمعنى آخر استخدام الأساليب السلمية كافة للتغيير مع المحافظة على التعايش المشترك والتسامح والتشاركية وإعلاء مفهوم المواطنة، فالديمقراطية هي مراعاة الخصوصيات المحلية لتجليات الحريات السياسية العامة المتعارف عليها في معظم بلدان العالم.

الديمقراطية والمجتمعات متعددة الأنماط:

في المجتمعات متعددة الأنماط الاجتماعية يزداد موضوع الديمقراطية تعقيداً بفعل التداخل الطبقي وشفافية الفوارق المائزة بين الفئات الاجتماعية فإذا حصلت في

مجتمع ما تجربة ديمقراطية وحظي الحكم الاستبدادي فيها بتأييد غالبية السكان، فهذا لا يعني خللاً في التجربة الديمقراطية أو تناقضاً فيها، مما يدعو خصومها إلى الهجوم عليها، بحجة نتائجها، قائلين هذه هي نتيجة الديمقراطية: انتصار الاستبداد. والحقيقة إن المشكلة في مثل هذه التجربة ليس في الديمقراطية وإنما في غياب مؤسساتها وتقاليدها، فحتى مع وجود المؤسسات لابدَّ من إرساء التقاليد الديمقراطية وهذه مسألة قد تبدو سهلة في ظاهرها ولكنها في الجوهر شديدة التعقيد. كيف يمكن صياغة متلق جديد وفاعل اجتماعي يتقبل التقاليد الديمقراطية ويعمل من أجل نشرها وهو محمل بثقل غيابها؟!.

إزاء ذلك لابدَّ من عملية تفكيك للمنظومات المهيمنة على الأفراد، وأولها المنظومة الأخلاقية القيمية القارة في النفوس بفعل التراكم التاريخي لغياب التقاليد الديمقراطية، والمتجسدة عملياً في الثقافة السائدة والمبنية على أساس الطاعة.

المجتمعات نسق من الأفكار الأخلاقية العامة وهي مختلفة باختلاف درجة تطورها ومراحل تكونها، لكن هناك قوانين عامة تحكم المنظومات الأخلاقية فللمجتمع العبودي أخلاقياته، ولمجتمع الصيد أخلاقياته، وللمجتمع القبلي أخلاقياته، وكذلك المجتمع الزراعي فالصناعي وما بعد الصناعي «التقني التخصصي»، والمنظومة القيمية الأخلاقية هي المسؤولة عن تحقيق التماسك الاجتماعي الذي يقوم على أساس التعايش والتوازن، بين القيم التقليدية، وتلك التي تولد من رحمها في عملية إزاحة معقدة، تطول مدتها وتقصر تبعاً لرسوخ القديم ومدى قوة الجديد على الانتصار.

تفكيك المنظومة التاريخية للمتلقين يتم بعد تحديد دقيق للمكونات الثقافية والمرجعيات المعرفية لمجتمعهم، في فترة تاريخية وشروط ملموسة محددة، لا بد هنا من توصيف النمط الاجتماعي، أولاً والمرحلة التاريخية ثانياً، والطبقات الاجتماعية وصراعها، وتداخلها وتعايشها، فالمجتمعات التي تحكم معظم أبنائها الرؤية الدينية، ويلعب الدين فيها دوراً حاسماً لابد لها من طرائق وأساليب تختلف عن المجتمعات المتقدمة.

فالرؤية الدينية ترتبط بالمجتمعات الزراعية أكثر منها بالمجتمعات الصناعية، والنظام البطريركي هو أهم نتائج هذه الرؤية، وهو تكريس لها، بوصفه ينقل ما في السماء إلى الأرض بما في ذلك من تراتبية تقوم على التسليم والإذعان، لمواجهة ذلك لابد من هز الثوابت وإشاعة مفاهيم التطور

والتغير بوصفهما أساس الحركة ومصدر التقدم.

تربية المتلقي على مفاهيم جديدة تستدعي تحريره من مفاهيم قديمة وتخليصه من الخرافة، وكل ما يعادي التفكير العلمي، ويقربه من مشارف العلمانية.

تغير المنظومات الثقافية والمعرفية القارة عملية تحتاج إلى تظافر جهود مختلف المؤسسات الرسمية «الإعلام، الثقافة، التربية والتعليم»، ومؤسسات المجتمع المدني «أحزاب، جمعيات، أندية وغيرها».. وهذا يستدعي تغييرات جذرية في البنى القاعدية، بحيث تتزامن وتتعالق مع ما يجري من تحولات في الوعي، تماثل سيرورات الواقع ومتغيراته:

١. الانتقال من المرجعية اللاهوتية، والامتثال للواحد نظرية كان أو فكراً أو مرجعية، والتخلص من مفهوم الحتمية المغلقة إلى أفق الاحتمالات المفتوحة للتطور.

٢. العمل على التحرر ما أمكن من طغيان قوانين الطبيعة المسيطرة على الإنسان فرداً ومجتمعاً، والانتصار لحقوقه الإنسانية، وأهمها: حقه في الحرية بكل أشكالها وتجلياتها.

٣. التخلص من أخلاق الطاعة والخضوع القائم على الجهل والتسليم دون وعي وإدراك، وهنا تكتسب محاربة التلقين والوثوق بالأحكام النهائية أهمية استثنائية تمهيداً إلى حوارية الفكر النقدي للوافد والموروث على حد سواء (النقد المزدوج) والاحتكام بذلك إلى استحقاقات المستقبل.

٤. التحول الاجتماعي والانتقال من مفهوم الرعية والراعي إلى المواجهة والمشاركة الفاعلة في اتخاذ القرارات مما يؤدي إلى تفعيل الحياة السياسية وإغناء الواقع الاجتماعي على أساس إطلاق المختلف وانتصار المتعدد.

٥. هذه الانتقالات والتحولات من الصعب أن تتشكل بمعزل عن نقلة حضارية من بقايا المجتمع الزراعي ومفرزاته كأنماط إنتاج وطرائق تفكير ووسائل معيشة، إلى مجتمع صناعي تقني متقدم بكل ما يحمله من تناقضات وصراعات تمثل نسقاً أعلى على طريق التحول والتقدم.

٦. هذه الانتقالات تشترط تحولاً من نظام الحكم المطلق المتفرد الإقصائي في السياسة والفكر والاقتصاد، وهيمنة الإعلام الواحد واحتكار السلطة السياسية إلى مجتمع مدني بمؤسسات ديمقراطية.

٧. التخلص من النسخ وتجاوز مرحلة الشفاهية إلى عصر المطبعة والإنترنت، وإشاعة المعارف ونشر المعلومات ليتسنى للجميع حق المشاركة في اتخاذ القرار استناداً إلى أسس ومعطيات موثوقة.

المنظومــات الأخلاقيــة متغـيرة بتغير الظروف والقوى التــي أنتجتها وهي قابلة للانزيــاح وكثــيراً مــا تتداخــل وتتجاور، وتتفــارق أيضاً، ومــن الهام جــدّاً تحديد الثابــت والمتحول فيها، السبب والنتيجة، ما هو قابل للاستمرار وما لا يمكن استمراره، وهذه عمليــة معقدة، متداخلــة تحتاج إلى دراســات ميدانيــة اجتماعيــة اقتصادية سياسية، والاجتهاد فيهــا حاجة ملحّة وفي الوقت نفسه على درجة كبيرة من الخطورة فعــدم الدقة والمجازفة قد تقود إلى الهلاك كمــا أن السكوت عن قانون المتغيرات وعدم أخــذه بعــين الاعتبار كمن يضــع رأسه في الرمال.

الحوار الرقمي بين الثقافات والحضارات

د. تركي صقر *

دخلت الثورة الرقمية مرحلة متقدمة بعد أن تمكنت من تكوين فضاء معلوماتي جديد تجاوز الفضاء التقليدي حيث تأسست بيئة ثقافية عالمية يتمُّ من خلالها تبادل المعلومات والمعارف بسرعة مذهلة وبحجم غير محدود مما وفر الأرضية الخصبة لإنشاء مجموعة من الفضاءات الافتراضية التي تجمعنا مع الآخـر في مسارات تواصل متعددة ومتنوعة باتت تغير معالم الحيـاة المعاصرة من خلال تشكيلها رافداً جديداً وقوياً لحوار الثقافات والحضارات علـى أرضية التواصل الرقمي أو بالأحرى التواصـل الاجتماعي الإنساني غـير المباشر.. فما هـي أدوات هذا الحوار وماهي مضامينه وآفاقه؟؟

١- أدوات الحوار الرقمي:

هنــاك مجموعة كبيرة من أدوات الحوار الرقمي أنتجتها الثورة الإلكترونية يمكن أن نستعرض أهمها:

شبكة الإنترنـت.. تستخـدم اليوم على نطاق واسع في مختلـف أنحاء العالم كوسيلة للتواصــل والبحث والدراسة والنشر ونتيجة للتقنية العالية وغزارة وتنوع المعلومات بهذه الشبكة أصبحت مصدراً من مصادر وسائل الإعلام في استقاء المعلومات كما باتت تشكل أهم رافد من روافد الحوار وتبادل المعارف والتفاعل بين الثقافات واغتنائها..

الأجهـزة المحمولة.. وهي شكل آخر من أشكال التواصل الجديـدة لوجود التسجيل المرئـي والمسموع ووجود قـدرات التحميل العاليــة أيضــاً إلى جانـب الراديــو. ويُعدّ المحمول بهذه الميزات مصدراً من مصادر المعلومات لوسائل الإعلام والمعرفة.. انطلاقاً من قوة وقدرة وسعة هذه الوسائل..

* باحث وإعلامي ودبلوماسي سوري.

الهواتف الذكية.. وتمتاز بتقنيات عالية بالاتصال الفضائي والقدرة على احتواء كم هائل من المعلومات والصور الثابتة والمتحركة القادرة على تسجيلها وإعادة بثها. فأصبح من يعمل بها أو يتعامل معها ضمن فئة المواكبين لكل حدث من أحداث العالم لحظة وقوعه مع ما في ذلك من أهمية في تشكيل الوعي العالمي المعاصر لمختلف التطورات، ونظراً لانتشارها بصورة كبيرة وسريعة فقد تجاوز عدد من يتعامل معها مئات الملايين وأضحى تأثيرها واضحاً على تشكل ثقافة معولمة.

الكتب الإلكترونية.. بعد انتشار بنوك المعلومات وتوافرها على شبكة الإنترنت مجاناً أو بثمن فاضت الشبكة العنكبوتية بالكتب الإلكترونية وتسابقت المكتبات العالمية الكبرى إلى نسخ ما لديها إلكترونياً وإتاحة قسم كبير منها مجاناً للمتصفحين فنجد مكتبة مثل مكتبة الإسكندرية تقدم عشرات الآلاف من الكتب بالعربية واللغات الأخرى من دون مقابل للمتصفحين عبر فتح رابط بسيط على الإنترنت..

المدونات الشخصية.. من خلال شبكة الإنترنت صار بإمكان أي شخص أن ينشئ مدونة شخصية يعبر بها عما يشاء من الأفكار ويعرضها على الجميع في هذا العالم بلا حدود أو قيود وهذا النوع من التعبير الحر جعل الكل يتعرف على الكل من جميع النواحي من دون حواجز أو بالأحرى الجميع يرون بعضهم بعضاً وكأن العالم ليس قرية واحدة وإنَّما غرفة واحدة بجدران من مرايا..

شبكات التواصل الاجتماعي.. احتلت هذه الشبكات المساحة الأوسع في التواصل بين الناس وطغت على كل الوسائط الأخرى بعد أن تجاوز المستخدمون في بعضها مثل الفيسبوك المليار مستخدم ومن أشهر الشبكات الاجتماعية الموجودة حالياً فيس بوك وماي سبيس وتويتر ولايف بوون وهاي فايف وأوركت وجوجل بلس واللغة الأكثر شهرة اللغة الفيسبوكية نسبة إلى موقع الفيسبوك أو اللغة التوترية نسبة إلى موقع التيوتر أو اليوتيبية نسبة إلى موقع اليوتيوب وهناك من أطلق عليها «الفرانكو آرب» وبعضهم لقبها بـ«العربيزي» أي العربية السهلة..

ويتضح جلياً أن أداة الحوار الأساسية في الفضاء المعلوماتي هو الإنترنت الذي أضحى العمود الفقري للإعلام البديل ولعلَّ الجديد في هذا الإعلام هو تقنية الويب التي تتسم أنها ليست بثاً أحادياً وتلقائياً إجبارياً مثل ما كانت تتميز به نظم الإعلام القديمة، ولكنها تفاعل يتيح للمستخدم مشاركة المحتويات ليس بالرأي فقط بل بإعلام شخصي خاص بكل فرد على حدة، عن طريق التطبيقات مفتوحة المصدر.....

٢- مضامين الحوار الرقمي:

إذا كان المجتمع المعاصر يوصف بأنه مجتمع المعلومات التي تتدفق فيه المعلومات في سهولة ويسر بحيث يمكن الحصول عليها من مصادر كثيرة متنوعة من دون عناء أو تكاليف باهظة، فقد أصبحت المعرفة والإبداع من أهم العوامل المؤثرة والمحددة لقيام ما يطلق عليه اسم (مجتمع المعرفة) الذي لا يقنع باستخدام المعلومات لفهم واقع الحياة وأحداثها وتفاعلاتها والاستفادة منها في توجيه مختلف أنماط الأنشطة وخاصة في المجال الاقتصادي، وإنما يعمل إضافة إلى ذلك على إنتاج المعرفة وتسويقها بحيث تصبح مصدراً اقتصادياً رئيساً يحمل في ثناياه بذور الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للقوى المسيطرة على وسائل الاتصال الحديثة التي باتت تستخدم من خلال الحوار الرقمي للتأثير في اتجاهات الرأي العام........

والسؤال المطروح حالياً عبر كل الوسائل المتداولة.. ما مدى تأثير هذه الوسائل الحديثة في الرأي العام؟؟ نقول نعم هناك تأثير كبير وواضح.. لأنه في السابق كان لابد من الحصول على ترخيص أو إذن مزاولة لإصدار صحيفة وافتتاح محطة بث مرئي أو مسموع نظراً لقوة تأثير وسائل الإعلام في الرأي العام والتوجهات السياسية المختلفة في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

أمَّا الآن فقد تمكَّن الجميع من كسر الحواجز والاتصال بكل يسر، ولهذا أصبحت هذه الوسائل أي ذات فاعلية وتأثير قوي ونشط في الشارع وأصبح العالم يتواصل عبر هذه الوسائل أي عبر شبكات عنكبوتيه وذبذبات رقمية..

إنه مع تقدم تكنولوجيا الاتصال بدأت تتغير جذرياً أدوات التواصل مع الآخر يرى بعض الباحثين أن السمة التفاعلية للإنترنت صنعت ما يسمى بـ«الاتصال فائق الحدود بين الأفراد»، ويرى أنصار هذا النموذج أن الإنترنت انتقلت من طور كونها وسيلة اتصال غير شخصية مساعدة للاتصال الشخصي، إلى كونها وسيلة يمكن أن تكون اكثر فاعلية من الاتصال الشخصي كما يشير كل من «جارتون» Garton و«ويليمان» Wellman.

وقد أشار» والـ«زر» إلى أربع سمات من سمات الإنترنت كوسيط اتصالي تجعلها وسيلة فائقة الحدود في العلاقات الشخصية بين الأفراد وهي:

١- اتصال وقتي يحدث في زمن الاتصال نفسه.

Synchronous channels.

٢- رجع صدى قوي وفعال:

Feed back loop.

٣- التصور الكمالي للمتلقي.

Idealized perception.

٤- تقديم تفاؤلي للذات:

The Optimized self Presentation of the sender:

وهو التقديم الذي يظهر من خلال حرية التعبير عن الذات وإضفاء مزايا لها نظراً لغياب الوجود المادي.

ترافق انتشار الإنترنت مع نشوء الإعلام البديل وانحسار الإعلام التقليدي فلم تعد السلطة الرابعة، المتمثلة في الإعلام التقليدي بوسائله القديمة، قادرة على الصمود أمام اجتياح السلطة الخامسة، المتمثلة في مختلف المواقع الإعلامية المنتشرة عبر الشبكة العنكبوتية، كـ«فيس بوك» و«يوتيوب» و«تويتر» والمدونات الشخصية.

لقد ساد مفهوم السلطة الرابعة في القرنين التاسع عشر والعشرين بكونه مفهوماً رقابياً على السلطات الأخرى، لكنه أخذ يتلاشى مع ظهور الإنترنت، الشيء الذي غيَّر معالم الحياة، وأصبح القوة المسيطرة، وهو ما أجبر الصحافة على إجراء تغييرات هيكلية للبقاء والمنافسة، ولعلَّ أبرز العوارض التي أصابت الصحافة بفعل تمدد الإنترنت تناقص أرقام التوزيع، وتضاؤل إيرادات الإعلانات، وتناقص القرَّاء، كما هو الحال الذي تشهده حركة الصحافة في العالمين الغربي والشرقي.

إنَّ قوة الإعلام البديل أو الجديد ونجاحه المتواصل مستمد من قدرته على منح الأفراد أدوات عصرية لفرض ذواتهم وبناء هوياتهم وتأكيد تمايزهم عن الآخرين من دون أدنى إكراه أو مضايقة أو قيد، ولم يعد بذلك الحديث يقتصر عن إعلام الجماهير بل كذلك عن جماهير الإعلام إن صح التعبير، فغرف الدردشة وصفحات الفيس بوك، واليوتيوب، والتويتر غدت اليوم امتداداً طبيعياً لحواس كثير من الأفراد، وارتبطت بهم ارتباطاً حميماً إذ وصلت واقعهم الجديد (الافتراضي)بواقعهم المعيشي بكل أبعاده الاجتماعية والثقافية والسياسية والرياضة وغيرها..

إنَّ التكنولوجيا الرقمية تلعب دوراً في تغيير كثير من الممارسات الديمقراطية، بل وتستحدث منها أشكالاً لم تكن موجودة من قبل بسبب قوتها الهائلة في إيجاد وسائل شديدة التنوع والوفرة، فيما يتعلق بالتواصل بين البشر، حتى إن البعض يرى أنها أفرزت التوجه نحو اللامركزية بدلاً عن المركزية، وأفرزت التوجه نحو العالمية على حساب القوميات المحلية، والتوجه إلى إلغاء التخصصية وإلغاء العديد من الوسطاء في العملية يصل مستوى مخاطبة كل مواطن على حدة..

٣- آفاق الحوار الرقمي:

كما أسلفنا يشكل التفاعل مع الآخر بصورة غير مباشرة المضمون الأساسي للحوار الرقمي من خلال الإعلام البديل الذي تلعب فيه شبكات التواصل الاجتماعي دور الفاعل والمؤثر ولا شك أن دور الشبكات الاجتماعية ومن بينها الـ«فيس بوك» بصورة خاصة في نحت الوعي المعاصر شكّل بديلاً معقولاً عن التواصل الإنساني المباشر، وقد «أثبتت الكثير عن الوقائع والدراسات مدى تأثير هذه الشبكات في وعي الإنسان وتصرفاته، ولعلّ السبب الأوّل في ذلك يعود إلى التفاعل مع الآخرين، والاطلاع السريع على الأحداث العالمية». وزاد من هذا بمقدار أكبر دخول هذا الإعلام الرقمي الجديد، الذي يطلق عليه «السلطة الخامسة» وما يستعاض عنه بمصطلح «الشبكات الاجتماعية» في الأزمات السياسية للدول، بحيث شكلت سلطة الإعلام الخامسة عامل ضغط كبير على الحكومات والأنظمة..

لقد انتقلت هذه الشبكات الاجتماعية إلى تحمّل مسؤولية أن تكون مصدراً للمعلومات وأشرطة الفيديو وشهادات الناس: «فالمواطن الإعلامي» لجأ إلى تصوير الأحداث على هاتفه أو كاميرته الرقمية،ومن ثم وضع أشرطة الفيديو على الشبكات الاجتماعية حتى باتت مؤسسات إعلامية كبرى، مثل الـCCN والBBC News، تأخذ قدراً كبيراً من المعلومات الموجودة على «التويتر» وعدداً من الأشرطة المحمّلة على الـ«يوتيوب» وبات «دور الشبكات الاجتماعية» لا يقتصر على الإعلام أو نقل الحدث إلى الخارج، بل كان له دور أساسي وحاسم أيضاً في الحراك الشعبي والتغيير السياسي في كثير من البلدان..

وأخيراً يمكن القول إن العالم لم يشهد من بدء الخليقة تطوراً في شتى مجالات الحياة يوازي ذلك الذي عاشه في العقود الماضية منتقلاً بالبشرية إلى عصر جديد أصبحت فيه المعرفة هي الفيصل في تقدم الأمم ورقيها، وباتت تطبيقاتها التقنية والتكنولوجية هي المتصدرة من حيث الأهمية بدلاً عن القوى العسكرية والاقتصادية التي كانت حجر الزاوية في عصور الثورة الزراعية والصناعية.ومن التطورات الأهم في هذا السياق هو نشوء ما يطلق عليه «اقتصاد المعرفة» فمع بداية الألفية الثالثة تجاوز حجم السوق العالمية للمعلوماتية الترليوني دولار، وقد أثر هذا النمو في جودة ونوعية حياة الإنسان وبشّر بتنمية بشرية مستدامة قادرة على استيعاب المليارات التي يكتظ بهم العالم. أصبحت المعرفة مورداً اقتصادياً أساسياً يفوق بأهميته الموارد الاقتصادية الطبيعية، بل إن القيمة المضافة الناتجة

عن العمل في التكنولوجيا المعرفية تفوق بعشرات، وربما مئات المرات، القيمة المضافة الناتجة عن العمل في الزراعة أو الصناعة التقليديتين.

لذا فمن البديهي أن يبدأ الطريق الذي سيقودنا إلى مجتمع المعرفة بالارتقاء وتحديث مؤسسات نشر المعرفة من جامعات ومدارس وكليات ووسائل إعلام، ومن خلال دعم الترجمة ومؤسسات إنتاج المعرفة من مراكز بحث علمي وتقني وتأليف. ومن الأهمية بمكان توفير المساندة اللازمة لخلق بيئة محفزة للإبداع والبحث العلمي والريادة الاجتماعية وصقل مهارات التفكير النقدي في المراحل التعليمية كافة. فالتعليم بلا تفكير جهد ضائع وإذا لم تنمّ قدرات المتعلم النقدية والتحليلية فإن الحكمة قد تضيع في خضم المعرفة على حد تعبير تي. إس. إليوت وستصبح المعلومات مهما كان حجمها من دون أي جدوى على أرض الواقع.كما أن الشباب الذي يشكل غالبية سكان العالم العربي يمثل مورداً بشرياً هاماً إذا استغلت طاقاته بالشكل السليم، لذا فإن الجهود لتأهيلهم وتمكينهم يجب أن تكون في قمة أولويات الأجندة العربية في السنوات القادمة..

وعلى أي حال فإن ثمة زيادة واضحة ومطردة في عدد الذين يتصلون بمصادر المعرفة العالمية ويستفيدون منها حتى في المجتمعات النامية، ومع ذلك فإن الهوّة المعرفية سوف تزداد اتساعاً مع العالم المتقدم في مجال إنتاج المعرفة حيث لا تملك دول العالم الثالث لا الإمكانات والوسائل ولا الإعداد الذهني والعلمي ولا رؤوس الأموال والتكنولوجيات الأساسية لإنتاج المعرفة ولا القدرة على النشر والتسويق في حال النجاح في إنتاج معرفة جديدة في بعض الميادين....

وربما كان أصدق ما يلخص الموقف الآن بالنسبة لمجتمع المعرفة وضرورة العمل على ملء الثغرة المعرفية التي تفصل العالم المتقدم عن العالم النامي هو ما قاله الرئيس الماليزي مهاتير محمد منذ أكثر من عقدين وهو يصف ما يجب أن يكون عليه المجتمع الماليزي حتى يمكنه مسايرة الأوضاع الجديدة التي سوف تنشأ في المستقبل القريب: (لقد مرَّ على الإنسانية وقت كانت الأرض تعتبر فيه هي الأساس الضروري للازدهار والثروة، ثم جاءت مرحلة تالية تتمثل في عصر التصنيع وفيه ارتفعت المداخن حيث كانت تقوم الحقول. أما الآن فإن المعرفة أصبحت تؤلف - وبشكل متزايد - ليس فقط أساس القوة ولكن أيضاً أساس النجاح والتقدم،

ولـذا فيجب ألا نبخل ببذل أي جهد لإقامة مجتمع ماليزي معلوماتي غني)..

ولأن البقـاء لم يعد للأقوى بل «للأعلم»، نحن بحاجة إلى مواطن عربي يتلمس المعرفة بشغـف في وسائلها المختلفـة ويتعامل معها بحس نقدي وحكمة منهجيـة للتفريق بين المعلومات والمعرفـة ليتمكن من إيجاد سبل ناجعـة للاستفادة منها علـى أرض الواقع.

وبنـاء على مـا سبق، يمكـن الاستنتاج بأن أزمـات مجتمعاتنا العربيـة الكثيرة هي في معظمهـا أزمـة تعليمية وتربويـة أدت إلى فشلنـا حتـى الآن في استيعـاب المتغيرات التكنولوجية والاقتصادية التي أثرت بشكل سلبي على التنمية الاجتماعية وعلى مختلف جوانب الحياة في بلادنا....

المراجع

١- جمال محمد غيطاس، الديمقراطية الرقمية، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٩م.

٢- منـذر سليمان، الإعـلام – السلطة – المال: مثلث النفوذ وخطاب الصـورة مجلة المستقبل العربي، جانفي ٢٠١١م.

٣- فضل محمد البدراني، الأخلاقيات والإعلام، مجلة المستقبل العربي عدد مارس ٢٠١١م.

٤- محمـد البشير بن طبه، الإعلام الجديد وإدارة الأزمات في الوطن العربي: دراسة تحليلية للأزمة الجزائرية المصرية، عبر موقع (youtube) أنموذجاً مجلة المعيار، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة عدد ٢٤/ ٢٠١١م.

٥- عباس مصطفى صادق، التنظير وبناء المفاهيم حول الإعلام الجديد، الجات المؤتمر الدولي: إعلام جديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد، منشورات جامعة البحرين ط١ / ٢٠٠٩م.

٦- عـادل عبد الجواد محمد الكردوسـي، الإنترنت والشباب، دراسة في آليات التفاعل الاجتماعي مجلة شؤون اجتماعية، الإمارات، ع ١٠٨.

٧- محمد مختار الشنقيطي، الإنترنت: ثورة الفقراء في عصر التواصل.

٨- ثريا أحمد البدوي، الإعلام والمواطنة في مصر: تعزيز أم تهديد؟

بحـث مقدم لمؤتمـر الرابطة الدولية لبحوث الإعـلام والاتصال: المنعقد في قسم الصحافـة والإعلام بالجامعة الأمريكية ٢٣ – ٢٨ يوليو ٢٠٠٦م.

٩- حيـاة بدر قرني وآخرون، هـل تمثل المواقع الإلكترونية غير الحكومية بديلاً عـن الإعلام الرسمي في مجتمع

المعرفـة «دراسة في الإعـلام البديل» بحث مقدم في مؤتمر الاتحاد الدولي للبحـث الإعلام، ٢٣ - ٢٨ يوليو ٢٠٠٦ م، القاهرة.

١٠- نسرين حلس، خبراء ومحللون أمريكيون يرون أن الشبكات الاجتماعية تفتقر إلى المصداقية.

١١- إبراهيم فرغلي، من الثورة إلى الرقابة الشعبية، مجلة العربي، عدد مايو ٢٠١١م.

١٢- وليد رشاد زكي، من التعبئة الافتراضية إلى الثورة، مجلة الديمقراطية، العدد ٤٢، السنة الحادية عشرة، أبريل ٢٠١١ م، مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية القاهرة.

١٣- محمد مشير باسيل عون، الثورة العربية، ثورة في العقل أم ثورة في الآلة.

الحلم الكبير
- مشروع مترو مدينة دمشق -

سمية اليونس غانم ✪

المشروع الهندسي الكبير حول مقترح مترو دمشق هو حلم يطلبه الجميع، وهو بحاجة إلى دراسات عديدة في جميع فروع العلوم الهندسية- المعمارية والمدنية والميكانيكية والكهربائية، حتى تكتمل المعالم الأساسية لهذا المشروع الضخم، وذلك باستخدام التقنيات الحديثة، وما يتطلب ذلك من دراسة تحليلية لتحديد المسارات الجيولوجية والهندسية والاقتصادية والاستثمارية لتحقيق مردودها الاجتماعي.

وقد أصدرت الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة - كتاباً خاصاً من تأليف الدكتور (المهندس غسان راغب الجابي) عنوانه «المشروع الهندسي الكبير- مقترح مترو مدينة دمشق».

وما إن بدأت أقلب صفحات الكتاب أو بالأحرى هذه الهدية الثمينة، حتى تراءى لي وأمام ناظري الازدحام السكاني، وأرتال السيارات التي تحيط الطريق على جانبيه، وأصوات المركبات، ووسائل النقل، وتلوث البيئة بدخان السيارات والحافلات.

ورغم أنني لست من الدارسات لعلم الهندسة بأي من فروعها، ولكنني ممن أحبوا هذا العلم لما له من نتائج مباشرة على المدينة، كما أن علم الهندسة يحتاج إلى ذكاء ومهارة وقدرة متميزة للتصميم والتنفيذ والمتابعة، ليصبح الخيال حقيقة وكما يقال: («الفراغ مسكون»).

والآن لنبدأ الرحلة مع هذا الكتاب للوصول إلى الحلم الذي راود الكثيرين ممن أحبوا مدينة دمشق.

✪ محامية وباحثة من سورية.

أقدم مدينة في التاريخ. سواء كان من أهاليها أو من القاطنين فيها، أو الزائرين لها، لما لهذه المدينة العريقة عبر التاريخ من أهمية عالمية وحضارية.

وطالما سورية أعطت ولا تزال تعطي الحضارة العربية والعالمية المزيد من العمران البشري لأبنائها الذين غزوا العالم بعلمهم، وتفوقهم، وتميزهم في جميع المجالات وهناك تساؤل:

لماذا تأخرت سورية بالإعداد لهذا المشروع الضخم (مترو مدينة دمشق) حتى تحذو بذلك حذو العواصم العالمية التي أنجزت هذا المشروع الضخم؟

وتعود بي الذاكرة لسنوات خلت، عندما رأيت مترو باريس أثناء زيارتي إلى أولادي (رنوة وبيان) فترة دراستهما في فرنسا. باريس.

وكنت في كل مرة أقف مدهوشة أمام عبقرية الإبداع، وعيناي محدقتان بإعجاب أمام الخرائط الجدارية التي ترسم في كل موقف من المواقف العديدة شرحاً واضحاً عن معالم الطريق الذي أنت تسلكه الآن، فتزغرد في أعماقك لقدرة العقل البشري وروعة إنجازه إذا ما سخر هذا الإبداع في سبيل خير البشرية، وتردد ما أروع فكر الإنسان وهو يبحث في أعماق الأرض من أجل تنفيذ هذا المشروع لحفر الأنفاق اللازمة له!

وكم كانت دهشتي كبيرة مع شعوري برهبة المكان وأنا أصعد درجات السلم الكهربائي والتي بلغ عددها ستين درجة في أعماق النفق لأسير قليلاً ثم أصعدها في الطرف المقابل حتى أصل إلى نافذة الطريق لأتابع السير في محطات أخرى مماثلة، ولا تزال اللوحة الفنية في المخيلة وأنا أسافر عبر المانش من باريس إلى لندن برفقة ابنتي (رفيف) التي كانت تدرس هناك، وكيف شعرت بدوار مفاجئ، ورعشة كبيرة لفت جسدي عندما قال قائد القطار: إننا الآن ضمن بحر المانش وستستمر الرحلة (خمساً وسبعين دقيقة)، وتملكني خوف كبير من الغرق ونحن ضمن هذا القطار الكبير حتى وصلنا بأمان، وفي طريق العودة، ابتعدت عني الرهبة، وتملكني حب الفضول لمعرفة شيء عن هذا العلم، ومتى سيتحقق هذا في سورية ؟!..

وكم كانت سعادتي كبيرة عندما وصلتني هذه الهدية كتاب (د م غسان راغب الجابي)- المشروع الهندسي الكبير (مقترح مترو مدينة دمشق) الذي عرض دراسة تحليلية لتحديد مسارات شبكته في (٢٥٣ صفحة) ولا يسعني إلا أن أشكره وأهنئه على ما استطاع من

توضيح وشرح أوجزها في عشرين فصلاً مع ملاحقه الستة. ومع رسوم وخرائط هندسية وبيانات وقوائم إلخ...

ومع إعجابي واعتزازي بهذا الكتاب الأوَّل من نوعه والغني بالمعلومات الهندسية الهامة فما أزال أتصور وأحلم بتنفيذه، وسأعرض فيما يلي شرحاً مختصراً:

ففي الفصل الأوَّل وصف للوضع الراهن لنقل الركاب في المدينة (مدينة دمشق) تبعه إيضاح المبررات الفنية والاقتصادية والبيئية والعسكرية.

وقد استنتج أن التأخير في استخدام هذا النظام النقلي يحتم علينا دفع الثمن باهظاً فنياً واقتصادياً وبيئياً وعسكرياً (ص٢٨).

كما بيَّن الفصل الثاني الدراسات الأولية المتعددة لتحديد مساراته حتى تاريخه وتصوره لتنفيذه.

والفصل الثالث يتضمن الدراسة الجيولوجية لأرض شبكة أنفاق مدينة دمشق، استنتج منها رسم قطاع طولي لمسار النفق للمرحلة الثانية من الخط الأوَّل حسب تصوره. وقال: وبذلك نرى أنه تمَّ تغطية معظم أماكن الاختناق في وسط المدينة، وفي مراكز التجمعات الخدمية الكبيرة مع الإشارة إلى أن هذه الشبكة ليست هي الشبكة الأخيرة إلى أن يتم اعتمادها بشكل نهائي من قبل السلطات المهنية والبيوت الهندسية صاحبة الخبرة في هذا المجال. (ص٤٣)- وقد بيَّن في الفصل الرابع المرحلة الأساسية للبدء بتنفيذ حفر النفق ثم عدد من الرسومات التوضيحية للمراحل العشرين لبناء محطة الركاب إضافة إلى إنشاء مرآب للسيارات الخاصة للركاب في منطقة محطة المترو ص٦٠-٦١-٦٢-٦٤ إلخ..

وقد أعطى الأهمية الكبرى للأعمال المتضافرة والمخططة بشكل دقيق في الفصول (٩-١٧). لإنجاز هذا المشروع الضخم ووضع مدة زمنية تقارب العشر سنوات. كما أعطى مقارنة بين هذا المشروع المقترح وبين تنفيذ أنفاق المانش وأنفاق مترو القاهرة وفي كل من الفصول الخامس والسادس والسابع الآلات والمعدات اللازمة. عدد المعدات والآلات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع أسوة بالمشاريع المماثلة. واقترح إنشاء معمل لإنتاج الحلقات البيتونية المسبقة الصنع (ص١٠١).

أمَّا الفصول المتبقية فهي متابعة ما يلزم للمشروع والطاقة الكهربائية اللازمة للمشروع كما ورد في الفصل التاسع (ص١١٠).

إلى جانب تزويد النفق بالتهوية المؤقتة أثناء الحفر والدائمة أثناء الاستثمار ومتابعة تركيب المحطات اللازمة لضخ المياه

خلال حفر النفق، ومحطات خاصة للطوارئ في الفصل العاشر (ص١٣٣). واستمر المؤلف في البحث عن الأعمال التالية: صالة مركزية للمراقبة والاتصال والتوجيه والتحكم، وتشكيل مجموعة للإطفاء والإسعاف خلال التنفيذ (ص١٤٣). أمّا كل من الفصول ١٣-١٤-١٥-١٦-١٧ وهذه الفصول تتضمن الأعمال المتممة للأنفاق، تأمين مكان لارتداء الملابس- التعاقد على التصنيع وإنتاج القضبان، تمديد السكك الحديدية بعد تنفيذ المشروع. ورش النظافة والإصلاح.

والدراسة للجدوى الاقتصادية تلقي الضوء على أهمية هذا المشروع المادية والمعنوية والحضارية... سواء من حيث الإيرادات المادية وحسن الاستثمار، إلى جانب الحد من التلوث والاستفادة من الخبرات المحلية، بتشغيل اليد العاملة والمساهمة في التخفيف من البطالة ومع الملاحق الستة التي جمعت المعلومات المتوافرة لدى الجهات المختلفة واللازمة لإعداد دراسة الجدوى الاقتصادية المتكاملة. والجهات الرسمية المعنية بمقترح مشروع شبكة مترو دمشق ومجال التعامل معها. مع ذكر الأسئلة والتوصيات المستوحاة من الندوة العلمية الأولى لمقترح شبكة مترو مدينة دمشق، وشرح لمترو القاهرة، وعرض بعض خصائص شبكات المترو في العالم. مع إيضاح مفصل لبيان جداول الجدوى الاقتصادية.

– لقد تميز المؤلف بالأمانة العلمية وبلطفه.

١- لشكره كل من ساعده في هذا المشروع الضخم من أساتذة ومسؤولين كما ورد (ص١١-١٢).

٢- إلقاء الضوء على الدراسات السابقة كما ورد في الفصل الثاني تحديد مسار الأنفاق.

٣- دراسة مؤسسة فكوستوري أكبوت (الاتحاد السوفييتي).

ب- الشبكة المقترحة من قبل الشركة العامة للدراسات.

ج- الشبكة المقترحة من قبل د.جوزيف صيدناوي.

د- الشبكة المقترحة من قبل د.م غسان الجابي (ص٢٩).

كما أن المؤلف عرض أثناء دراسته لمحة عن شبكات المترو في العالم والتي بلغت ما يقارب ٤٧ شبكة مترو في القارات التالية: الأميركية -الأوروبية- الآسيوية - الأفريقية.

الدولة	المدينة	التاريخ	طول الخطوط	
			الإجمالي	الموجود تحت الأرض
إنكلترا	لندن	١٨٦٣	٤٠٩كم	١٦٩كم
الولايات المتحدة	برستون	١٨٩٧	١٢٥كم	٢٤كم
الولايات المتحدة	نيويورك	١٩٠٤	٣٨٩كم	٢٤٦كم
فرنسا	باريس ـــ المدينة	١٩٠٠	١٩٩كم	١٨٩كم
ألمانيا	برلين	١٩١٢	١٠٨كم	٩١,١كم
الاتحاد السوفييتي	موسكو	١٩٣٥	٢٦١كم	
اليونان	أثينا	١٩٠١	٢٥كم	٣كم
اليابان	طوكيو	١٩٢٧	٤٣١كم	١٩٧,٧كم
مصر	القاهرة	١٩٨٧	٦٨,٢كم	٣٠كم

ويتبين مما سبق أن أول شبكة للمترو في العالم كانت عام ١٨٦٣م. في انكلترا . لندن وتلاها أميركا مدينة برستون ١٨٩٧م، وتلاها بقية عواصم العالم وأن أطول شبكة هي في اليابان إذ يبلغ طولها ٤٣١كم، إلا أن أطول شبكة تحت الأرض هي في نيويورك إذ يبلغ طولها الإجمالي ٣٨٩ منها ٢٤٦كم تحت الأرض، وأول دولة عربية بدأت بتنفيذ (شبكة المترو) كانت مصر (القاهرة) عام ١٩٨٧م. (ص٢٣٠) يقول المؤلف عندما يصل إلى الفصل العشرين وهو الخاتمة: (هذا غيض من فيض رغم وجود عشرات المجلدات الموثقة، والمئات من الرسوم التوضيحية) (ص٢١١).

ولا بدّ من الإشادة بالدقة والموضوعية والأمانة العلمية للمؤلف أثناء عرض مراحل المشروع. وأضاف إلى المقترحات الكثيرة التي عددها من أجل التنفيذ، «إن الهدف الأسمى لهذه الدراسة هو وضع حجر الأساس لزملائنا في مختلف الاختصاصات كي يختار كل منهم الموضوع الذي يراه مناسباً له كذلك نترك الاقتراحات التخصيصية لهم، وبعد دراسة تفصيلات المشروع من أجل أن يكتمل بيان هذه الدراسة» (ص٢٠٦).

كما طلب من الزملاء تزويده بمراجع جديدة لتكون مفيدة أيضاً إلى جانب المراجع التي اعتمدها في دراسته واختتم القول: (إن

يد الله مع الجماعة) (ص٢٠٩).

وبعد عرض الأمور الهندسية وطلب الاستعانة من ذوي الخبرة للإحاطة بكل جوانبه إلا أنه هناك عقبة أساسية لهذا المشروع الهام هو (التمويل). ومن هي الجهة المختصة بذلك؟

وأظن أولاً يجب إدراجه في الخطة الخمسية القادمة للموازنة الاستثمارية، وتحديد الجهات المختصة والمعنية لاعتماد هذه الدراسة بعد تدقيقها.. وفق الأصول.

وبعد رصد الاعتمادات اللازمة، والسعي للتعاون مع الشركات المتميزة في هذا المجال، للتنفيذ والمتابعة وتأمين الاستثمار الناجح لها على خير وجه.

ولاسيما أن هناك العديد من المشاريع الهندسية الضخمة والصعبة تم تنفيذها بإشراف بيوت الخبرة العالمية والمتخصصة في هذا المجال، ونذكر على سبيل المثال «سد الثورة العظيم،نفق السادس من تشرين،نفق مياه عين الفيجة، ونفق الثورة وباب توما.. إلخ. ومنشآت كبيرة ومتعددة وموزعة ساهمت في تنفيذها اليد العاملة الوطنية» (ص٢١٣).

وأخيراً أهنئ (د.م غسان الجابي) على جهده المنتج الذي كانت حصيلته اقتراح هذا الكتاب القيّم وأرجو أن يكون موضع دراسة وتنفيذ من الجهات المختصة وإدراجه في الخطة الخمسية القادمة،ورصد الاعتمادات اللازمة له من الموازنة الاستثمارية وتقسيم هذا المشروع الضخم إلى مراحل كما أفاد المؤلف ومتابعة التنفيذ والاستفادة من الخبرات والتجارب السابقة، في هذا المجال. ليصبح الحلم حقيقة وتبقى سورية الحبيبة زاخرة بأبنائها البررة الحريصين على عزتها وكرامتها وتفوقها العلمي والحضاري..

غسيل الأدمغة البشرية.. المفهوم والأساليب

د. حسان القيسي*



يذكر أن أصل هذا المصطلح يعود إلى الكلمة الصينية «هسي ناو» والتي تعني عند الصينيين «إصلاح الفكر» أو «إعادة التشكيل الأيديولوجي»، حيث تمَّ استخدامهما ضمن برنامج «التثقيف السياسي»، وقد عرفت المجتمعات المدنية والعسكرية، هذا العمل منذ القدم إلا أنه يختلف عنها حالياً، في الوسائل والأساليب التي تستخدم لتحقيق الأهداف المخطط لها، إلى أن قام الصحفي الأمريكي «إدوارد هنتر» بترجمة هذه الكلمة إلى مصطلح جديد هو «غسيل

* كاتب سوري.

العمل الفني: الفنانة منى القداد.

الدمـاغ»، وقد أطلق عليـه البعض «غسيل المـخ» أو «المذهبة» أو «إصـلاح التفكير» أو «إعـادة التشكيل الأيديولوجـي» أو «إعادة التثقيف»، وقد ظهر هـذا المصطلح بشكله المعاصر (غسيل الدمـاغ) للمرة الأولى عام ١٩٥١م، وأخـذ من مفهـوم عملية تنظيف الدمـاغ، التي كان يقـوم بهـا الصينيون، والتي تستخـدم بقصد تخليص الأفراد من المعتقدات القديمة، كي يتمكنوا من التعايش بسلام مـع طبيعة الحياة والنظـام السائد آنـذاك، وكانـت الوسيلـة المستخدمـة في ذلك، هـي طريقة الإقناع والضغوط أحياناً بمختلـف أشكالهـا. وتهدف هـذه العملية للوصـول بالإنسـان المستهـدف إلى درجة يصبح معها فاقد الإحساس بالواقع، مشوش التفكـير، شاعراً بالمهانـة والإذلال، ضعيفاً في المقاومـة والتحـدي، سهـلاً للإذعان، مشلول الإرادة، قابلاً للإيحاء، متقبلاً لما قد يملى عليه، مستعـداً للاستجابة لتنفيذ ما يطلب منه، سهلاً للتلقـين والإقناع، جاهزاً لاستنكار الماضي واستقبال الفكر والسلوك الجديـد. أي إن الهدف النهائي هو «إنهاك القوى الجسدية والنفسية والعقلية» من أجل «الاستحواذ علـى المشاعر والفكر والسلوك والاتجاهات».

تعريف مفهوم غسيل الدماغ

علـى الرغم مـن المحـاولات الواسعة لإيجاد معنى واحد أو تعريف موحد لمفهوم غسيل الدماغ إلا أن هذه المحاولات لم تنجح تماماً بعد، ولكن التعاريف في مجملها تتجه نحو موضوع واحد.

- **التعريـف النفسي**: وهو يعني تخليص الفرد من أفكار وسلوك مكتسب والتعويض عنه بأفكار جديدة، أي إنه يدل على عملية تطهير وطرد عادات وأفكار وميول اكتسبها عقل الإنسـان في وقت معين، ويعرف أيضاً بأنه كل وسيلـة تقنية مخطط لها ترمي إلى تحويـل الفكر أو السلوك البشري ضد رغبة الإنسـان أو إرادته أو سابق ثقافته وتعليمه. وعمليـة غسيل الدمـاغ تتخذ هنـا طابع التعذيـب النفسي للفـرد أو الجماعة تحت برنامـج مخطط وبأسلـوب علمي مدروس، يهدف إلى تدمير سمات الشخصية الإنسانية من أجل غرس سمات ومميزات جديدة.

- **التعريـف السياسـي**: يكـون بمثابـة محاولات مخططـة وأساليب سياسية معينة لإقناع طرف بأفكار سياسية جديدة، وترك ما سبق من أفكار ومفاهيم سياسية، فينشط غسيـل الدمـاغ في الحـروب وخصوصـاً

في الحروب الباردة، وكذلك في ميادين سياسية أخرى ويتبع في تحقيق ذلك وسائل مختلفة تتركز على إثارة الجهاز العصبي، وهناك نفقات هائلة تنفقها الدول الكبرى في مصلحة هذا الجانب، حيث تنفق على الإذاعات والمؤلفات والنشرات والأشرطة من أجل التغيير في قائمة الدول التي لا تقف في صفها أو تدور في فلكها السياسي.

- **التعريف الاجتماعي:** يعني أن الدعاية وأساليب وتغيير الآراء والاتجاهات التي تشنها دولة ضد دولة ماهي إلا نوع من غسيل الدماغ ويتم بشكل جماعي للشعوب.

- **التعريف الثقافي:** حيث يتضمن نقطتين:

١ - الاعتراف بخطأ الفكر والسلوك السابق.

٢ - إعادة التعليم والتثقيف.

- وهذان العنصران متشابكان بشكل كبير بسبب تأثيرهما المزدوج في تغيير الاتجاهات للفرد في المجتمع ويتضمن ذلك النواحي الثقافية. ويمكن الاستنتاج من التعاريف السابقة أنها تتضمن جانبين هامين:

أ - تعريض الفرد لمؤثرات مختلفة فعَّالة تضعه في حالة يمكن معها أن يتخلى عن أفكاره ومعتقداته القديمة التي اكتسبها من الجماعة التي عايشها سابقاً، وهنا يحدث الشق الأول من عملية غسيل الدماغ حيث يطهر الدماغ من الأيديولوجيات السابقة.

ب - وحتى تتم عملية غسيل الدماغ بشكل مكتمل، فيجب أن نغرس أفكاراً ومفاهيم جديدة في عقل الإنسان بدل التي أزيحت في الشق الأول.

أيديولوجيا عملية غسيل الدماغ

من المعروف أن نشاط الدماغ الإنساني يقف وراء كل أنماط السلوك المختلفة، وبذلك فقد احتل الدماغ أهمية كبيرة، فالدماغ يقوم مقام الشاشة البيولوجية فينعكس عليها ما توصله الحواس ولا يكتفي بذلك بل تتم هناك تفاعلات وتهذيب للصور المتبلورة للحوادث ضمن الأطر الزمنية المتتالية، وكل خلية عصبية تعمل وفقاً للقوانين السائدة في الكائن الحي ككل، حيث الدافع ثم اختيار إحدى احتمالات الاتصال الممكنة ثم تحليل النتيجة وأخيراً الإجابة المطلوبة، ومن المعروف أن الدماغ يحوي ١٤ مليار من النيرونات ويحوي احتياطاً آخراً من النيرونات ينشط عند الضرورة حيث أن لكل نيرون (النيرون وحدة الخلايا

الدماغية) خمسة آلاف قناة اتصال، وهناك أجهزة تدعى المكروإلكترونات بإمكانها تسجيل ورصد الشحنات الكهربائية التي تتم في الخلايا العصبية، والأفكار الإنسانية -وهي غير المادية وليس لها حيز- تختزن في هذا الجهاز المعقد (الدماغ)، ومن هنا جاءت فكرة غسيل الدماغ الإنساني، أي تخليص هذا الجهاز المادي المكون من مليارات النيرونات من شيء لا مادي يكمن فيه ويؤثر على سلوك الفرد وهو مجموعة الخبرات والأفكار والمعتقدات، من هنا كانت ضرورة فهم الخلفية الثقافية للفرد الذي يراد غسيل دماغه وفهم الطريقة التي يفكر بها وخبراته المكتسبة وهي التي في مجموعها تكون الأيديولوجية التي تحدد أنماط سلوكه.

أما السمات النفسية والعقلية التي لها علاقة بعملية التفكير فتلعب دوراً هاماً في مساعدة وإنجاح عمليات غسيل الدماغ، فالرموز التي يستخدمها الدماغ كوسيلة لخزن الخبرات هي من أهم الخصائص التي يعتمد عليها العقل في التفكير وعملية الاتصال، فالدماغ من أجل تبسيط المفاهيم والخبرات الآتية عن طريق الحواس، فإنه يقوم بتحويلها إلى رموز من أجل عملية تبويبها، وهذه الرموز في تراكمها تكوّن ما يعرف بالخبرات ويستغل هذا في عملية غسيل الدماغ حيث يمكن استغلال الرمز بشكل معين يؤدي إلى انتشار الاستجابة العاطفية القوية لدى الأفراد القوية لدى الفرد، وبما لها من ارتباط حتمي بين الرمز وعملية تبسيط وتنظيم الأفكار. كما وأن لاستغلال الاستجابات العاطفية الغريزية أهمية في عملية غسل الدماغ وتغيير المعتقدات عند الأفراد، وتلاقي العملية نجاحاً إذا كان الأفراد ينتمون لمجتمع يسوده التخلف الثقافي والتربوي، حيث يكون مجمل أنماط سلوكه قائماً على إشباع الحاجات الغريزية، وليس على الدوافع المهذبة، كذلك تستفيد عملية غسيل الدماغ من استغلال استجابات الأفراد للدوافع الغريزية.

أسس ومراحل عملية غسيل الدماغ

تستند عملية غسيل الدماغ على مجموعة من الأمور يتم اتخاذها للوصول إلى الهدف الرئيس وهي:

- إجراء دراسات على شخصية الفرد المستهدف للكشف عن الجوانب النفسية والعاطفية والاجتماعية والسياسية

والاقتصادية والفكرية والدينية، من أجل الكشف عن المواضع الحساسة عنده، والدخول من خلالها.

- التعرف على البيئة الاجتماعية التي تحيط به، كالعائلة والأصدقاء والحزب الذي ينتمي إليه باعتبارها هي التي تشكل إطاره المرجعي، ثقافةً وعقيدةً وفكراً وسلوكاً.

- تحليل ما لدى الفرد من تلك المعتقدات والأفكار وما لديه من تقاليد وطبائع وذكريات ومواقف.

أمّا مراحل غسيل الدماغ، فهي:

١ - **مرحلة التذويب**: ويقصد بها تفريغ ما لدى الفرد المستهدف من أفكار ومعتقدات، باستخدام وسائل وأساليب تصل به إلى حالة من الخوف والهلع، وبالتالي وضعه في حالة من «التمزق النفسي».

٢ - **مرحلة التغيير**: ويقصد بها تغذية الفرد المستهدف بالأفكار والمعلومات والاتجاهات، من خلال الدروس الفردية والجماعية، من أجل إعادة تشكيل فكره وسلوكه واتجاهاته.

٣ - **مرحلة التثبيت**: ويقصد بها متابعة جميع الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على مستوى التغيير الذي حصل عند الفرد المعني ومستوى تقبله لهذا التغيير، وتتراوح المتابعة بين الترهيب والترغيب أو بين الثواب والعقاب، ويجري ذلك في ضوء مدى التقدم الذي يحصل في مستوى تقبل الفرد للأفكار والسلوك والاتجاهات الجديدة، أو مستوى رفضه لها وإصراره على العودة إلى مخزونه الماضي.

أساليب غسيل الدماغ

إن عملية غسيل الدماغ ليست عملية عشوائية، بل هي عملية يتم التخطيط لها من ذوي التخصصات والخبرات في هذا المجال كالخبراء العسكريين والعلماء في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا وعلم الفسيولوجيا، إضافة إلى ما يتوافر لدى القائمين عليها من استعدادات وقدرات فردية. وتتلخص أساليب غسيل الدماغ بما يلي:

- **العزل الجسدي**: ويعني عزل الفرد المستهدف، بعيداً عن أي اتصال مع عناصر البيئة الطبيعية والإنسانية، أي وضعه في حبس انفرادي ينقطع عن الأصوات والحركة والشمس والهواء والأهل والأصدقاء والكتب، حتى يصل إلى مرحلة من الشعور

بالوحدة والانعزالية والحرمان وفقدان الحس الإنساني.

- **الحرمان:** وهو حرمان الشخص المعني من أهم الحاجات الأساسية الإنسانية مثل: الأمن النفسي والجوع والعطش والجنس والنوم، فالإنسان تقل مقاومته، إذا لم يتم إشباع حاجاته البيولوجية والنفسية.

- **التعذيب الجسدي:** إذ يتعرض المستهدفون إلى أشكال متنوعة من التعذيب كالضرب والعمل الشاق المتواصل والوقوف الطويل والربط بالسلاسل والجنازير.

- **التعذيب النفسي:** إذ يوضع الفرد المستهدف في حالة من التهديد الدائم وتعريضه للمواقف المرعبة، إضافة إلى تكرار الإهانات، وتهديده بأفراد عائلته أو أي طريقة توصله إلى فقدان الشعور بالأمن وبالتالي إحساسه بالرغبة في التخلص مما هو فيه.

- **الصدمة الكهربائية:** تستخدم الصعقات الكهربائية في الجسد والرأس وبعض الأماكن الحساسة للوصول بالفرد إلى حالة من الرعب والقلق وبالتالي الاستسلام لرغبة أعدائه.

- **العقاقير والأدوية المهلوسة:** يتم اللجوء إلى استخدامها لإيصال الفرد إلى حالة من الإدمان، لا يستطيع بعدها الاستمرار في المقاومة، فيلجأ إلى طلب هذه الأدوية أو العقاقير ولا تعطى له إلا بشروط، فيستسلم لتلك الشروط، كاستخدام عقار الهلوسة (LSD).

- **استفزاز مشاعره:** عن طريق تزويده بالنشرات والصور والتقارير المفبركة عن أهله وأصدقائه وأعضاء حزبه.

- **تكرار الضغوط:** يتم تكرار الضغوط الجسدية والنفسية مرات عدة، باستخدام الترهيب أحياناً والترغيب أحياناً أخرى بما يتناسب وردة فعله.

أمّا عن مدى استمرارية التأثير أو التغيير الناتج بسبب غسل الدماغ لم يعرف تماماً، ولكن هناك عوامل أساسية تؤثر، منها موضوع العملية، ويعنى بها الأفراد أو الجماعات الذين ستشملهم العملية فخبرات هؤلاء وتربيتهم ونشأتهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم وثقافتهم كلها تشكل في مجموعها أو تراكمها محددات النجاح للعملية، كذلك سماتهم السيكولوجية تلعب دوراً أساسياً، فمدى قدراتهم العقلية ووعيهم يؤثر في العملية بدرجة أكبر مما لو كانت ثقافتهم ومعتقداتهم تقوم على أسس غيبية، كذلك مدى انتماء الفرد للجماعة ومعتقداتها ومدى التزامه بأيديولوجية ما يؤثر في مقاومة نجاح العملية.

بعد فوكوشيما..
هل الطاقة الشمسية هي البديل؟

ترجمة: محمد الدنيا ✪

يبدو أن مشاريع الطاقة كلها عادت إلى نقطة البداية بعد حادثة محطة فوكوشيما النووية في اليابان. انتعش بشكل غير متوقع الطموح إلى استغلال الطاقة الشمسية، النظيفة واللا محدودة وغير الخطرة في الوقت نفسه. ذلك خصوصاً وأن مشروعات المحطات الشمسية يمكنها أن تنتج من الكهرباء بقدر ما تنتجه محطات الطاقة النووية، ولكن ليس من دون شروط..

بدأت تساؤلات تطرح من جديد منذ نيسان ٢٠١١م في مكاتب الوكالة الدولية للطاقة (AIE) حول مصادر الطاقة، لتنتقل بعد ذلك إلى أرجاء العالم كله. وقلما تترك هذه المؤسسة القوية، الموجودة على مقربة من برج إيفل في باريس، مكاناً للعواطف. هنا، لا جدال حول المصادر الأساسية (البترول، والغاز، والفحم، والنووي)، وتبدو اتجاهات الطاقة المرسومة للـ ٣٠ سنة القادمة أنها لا تتزعزع. ولكن ها هي هذه السيناريوهات الكوكبية كلها التي صيغت بتأن مرشحة لأن ترمى في سلة المهملات... بسبب كارثة مفاعل فوكوشيما النووية التي وقعت في ١١آذار ٢٠١١م وأدت إلى تلاشي الثقة بالذرة في الواقع. اتخذت ردود الفعل الرسمية المتلاحقة شكل الحدث: جذرية وغير متوقعة. أرادت اليابان، المصدومة، إعادة النظر بسياستها الطاقية كلها؛ ووعدت ألمانيا صراحةً بسحب متسارع للطاقة النووية لصالح الطاقة الشمسية بشكل خاص؛ وتخلت إيطاليا، التي كانت تطمح إلى تغطية ربع حاجاتها من الطاقة بوساطة الذرة عام ٢٠٣٠م، عن المغامرة النووية؛ وعززت إدارة

✪ باحث ومترجم سوري.

الطاقة في الولايات المتحدة ميزانية الأبحاث حول الفلطائية الضوئية؛ وربما تكون الصين قد أجرت مراجعة لزيادة مشاريع طاقتها الشمسية خلال خطتها الخمسية الثانية عشرة.. كل ذلك من دون معرفة أكيدة حول الطاقة البديلة التي ستعتمد، بلا مخاطر! ولكن، ربما تكون الطاقة الشمسية هي البديل الأفضل، حسب بعض محللي الوكالة الدولية للطاقة.

لا يمكن لأية طاقة أن تنافسها

طاقة شمسية لتشغيل بلد كامل مع صناعاته؟ لو ظهر هذا العرض منذ ٢٠سنة لأثار الاستغراب. كان من غير الممكن أن يكون هذا الشكل من الطاقة نظيفاً وبلا مخاطر. أما اليوم، فالوضع مختلف، إذ تبنى الآن «محطات شمسية» حقيقية في كاليفورنيا وإسبانيا وغيرهما. فضلاً عن ذلك، أصبحت قدراتها قريبة من قدرة محطات التوليد بالغاز أو بالفحم (٤٠٠ ميغاواط)، بانتظار أن تضاهي ذات يوم قدرة المفاعلات النووية (١٠٠٠ ميغاواط). ولكن يبقى أن كهرباءها أغلى بـ ٣ إلى ٤ مرات من سعر السوق.. حالياً على الأقل.

الخبراء جميعاً متفقون حول نقطة اليوم: بانتظار الطاقة الشمسية مستقبل مذهل، على الأمد القريب أو البعيد، بل ستسود العالم، حسب رأي البعض. ليس ذلك فقط لأنها طاقة نظيفة، بل لأن سطح الأرض يتلقى من الشمس، في كل ساعة، ما يعادل.. سنةً من الاستهلاك العالمي من الطاقة! بعبارة أخرى، لا يمكن لأي مصدر آخر للطاقة أن ينافسها. من المعلوم أن كل متر مربع من الأرض يتلقى بشكل مجاني خلال السنة ما يعادل طاقة ٢٠٠كغ من الفحم! مع هذه الوفرة كلها، لا تساهم المنشآت الشمسية في الوقت الحاضر بأكثر من ٠،٢٪ من الكهرباء العالمية (٠،٠٣٪ من مجموع الطاقة).

يفيدنا التاريخ أن الصناعة بحثت دائماً عن الطاقة بشكلها الأوسع كثافة، ولم تكن الأبحاث غائبة عن مثل هذه المشاريع. وهكذا، تضاعفت الأداءات مئة مرة منذ اختراع البطارية الفلطائية الضوئية pile photovoltaïque الأولى عام ١٩٥٤م – ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد! جعل منها هذا التقدم الباهر حالةً فريدة في قطاع الكهرباء. وقد ظهرت أيضاً تقنيات أخرى، تستخدم مرايا، وتستند تحديداً إلى تركيز الأشعة الضوئية، الذي لم يرتق في الواقع إلى مستوى الاعتمادية الحقيقية إلا عام ٢٠١١م، مع الجيل الجديد من هذه الأفران الشمسية، التي غدت محطات ممكنة في الوقت الحالي.

دعم سياسي ضروري

إذن، كثيرة هي الذرائع التي تصب في صالح الطاقة الشمسية: من دون أكسيد الكربون تقريباً، وبلا مخاطر بالنسبة للسكان، ووفيرة جداً، ويمكن أن يصبح استخدامها واسع النطاق خلال زمن غير بعيد.. وفي بداية ٢٠١١م، أطلقت الولايات المتحدة برنامجاً للطاقة الشمسية شبيهاً ببرنامج «أبولو» يهدف إلى جعل سعر الطاقة الفلطائية الضوئية بمستوى سعر الفحم؛ وتفكر ألمانيا منذ عام ٢٠٠٩م بتخصيص مبلغ ٤٠٠ مليار يورو من الآن وحتى عام ٢٠٥٠م لالتقاط الضوء الباهر السائد في الصحاري الأفريقية؛ هناك أيضاً المشروع الياباني الأخير المتعلق بإقامة محطة شمسية في الفضاء، لا يتأثر بعوامل الجو وتعاقب الليل والنهار. من جانبهم، يؤكد خبراء أبحاث التطورات المستقبلية، مثل الأمريكي «راي كورتزويل» Ray Kurtzweil، المعروف بفرضياته حول «الإنسان – الآلة»، أنه سيمكن لأشعة الشمس أن تلبي حاجاتنا ١٠٠٪ من الكهرباء منذ العام ٢٠٣٠م. إلا أن العديد من الاختصاصيين يرون أن هذه المهلة مستبعَدة جداً نظراً للصعوبات المتوقعة. مع ذلك، بدأت الهيئات الدولية المعنية تفكر جدياً بالفرضية الشمسية: «يمكن لهذه الطاقة أن تمثل ٢٠ إلى ٢٥٪ من إنتاج الكهرباء العالمي عام ٢٠٥٠م!»، يقول «سيدريك فيليبير» Cédric Philibert من «الوكالة الدولية للطاقة»، ولكن شرط أن يتوافر دعم سياسي قوي – الدعم الذي سيترك تأثيراً كبيراً على فاتورة الكهرباء. هل يمكن أن يتحرك هذا الدعم بفعل الاضطراب الذي أعقب الكارثة اليابانية؟ هذا ما يستشف من بعض الإشارات. على كل حال، أصبحت الخطط التي ترسم مجتمعاً شمسياً مطروحة، مع مشاريع محطات بقدرة مشابهة لقدرة مفاعل نووي.

٥ مشروعات لاستبدال النووي

١- المحطة الفلطائية الضوئية

قدرة النموذج الأولي المثالي منها هي ٢٠٠٠ ميغاواط، وإنتاجه السنوي ٢،٨ تريليون واط ساعي، ويمكن أن يغذي ٤٣٠٠٠٠ مسكن، مع كفاية ١٣٪، وتصل كلفة بنائه إلى ٤ مليار يورو، وتصل مدة حياته إلى ٣٠ سنة، وتحتاج منشآته إلى مساحة ٥٠كم٢.

المبدأ

«بحر فلطائي ضوئي» يتشكل من ١٤ مليون لوح وينتج من الكهرباء أكثر من مفاعل أوروبي مكيف الضغط EPR. هذا المشروع هو في متناول التكنولوجيات الحالية: باتت المحطات الأكبر، في إسبانيا وفي كاليفورنيا تقترب من قدرة مئة ميغاواط. وفي الصحراء

المغربية أو الصحــراء الكاليفورنية، أطلقت منشآت محطات شمسية بقدرة ٥٠٠ ميغاواط ستنتشر على امتداد عشـرات الكيلومترات المربعة. وحولـت الصين من جانبها مشروعَ محطة شمسية عملاقاً إلى مشروع رسمي في منطقة «منغوليا الداخلية».

التقنية

تلتقـط الألــواح الفلطائيــة الضوئيــة الفوتونــات الحاملــة للطاقــة الشمسيــة. تحدث هذه الفوتونـات فرق جهد كهربائي بين طبقتي سليكون شبه موصلتين في اللوح الشمسي: وهذا مـا يولّد التيار الكهربائي. يمكــن للألواح في بعض المحطات أن توصل بمفاصل وتدار كي تكون في مواجهة الشمس في كل وقـت، مثل نبتـة دوار الشمس. من الممكــن أيضاً دمــج مكــبرات أو مرايا في الألواح لتجميــع الأشعة الشمسية في خلايا ذات مردودية عالية جداً.

٢- المحطة الشمسية الحرارية

قدرة النمــوذج الأولي المثــالي من هذه المحطة هي ١٠٠٠ ميغاواط، مع إنتاج سنوي ٥،٨ تريليون واط ساعــي لتغذية ٩٠٠٠٠٠ مسكن، وكفاية ٣٠٪، وتبلغ كلفة بنائه بين ٣ و٧ مليار يورو، ومدة حياته ٣٥ سنة، ويحتاج سطح استخدامه إلى مساحة ٤كم٢.

المبدأ

حقــل مــن ١ مليون مرآة صغــيرة تركّز الطاقــة الشمسية على أبراج بارتفاع ١٥٠م لإنتاج كهربــاء يعادل إنتــاج مفاعل نووي. الطاقــة الشمسية الحراريــة موجودة منذ ثمانينيــات القــرن الماضــي. تستخدم هنا مرايا على قواعد، متراصفة باتجاه الشمس. وتوجــد منذ وقــت مضــى مشروعات قيد التنفيذ في أريزونا (الولايات المتحدة) بقدرة تقدر بنحو ٤٠٠ ميغاواط، وفي إسبانيا أيضاً، مع تخزين للحرارة يدوم طوال الليل.

هناك مشروعات أخــرى قيد الدراسة، مثــل مشــروع DESERTEC مــع قدرة ١٠٠ جيغاواط من المقــرر أن تغذي أوروبة بالكهرباء المنتجة في الصحراء الكبرى.

التقنية

تعمل كل محطــة بالطريقة نفسها: تتبع المرايا مسار الشمــس، فتعكس ضوءها من أعلــى بــرج مركزي. في داخل هــذا البرج، ضمــن دنّ شفــاف، يتسخن سائــل من نوع خاص قوامهُ أمــلاحٌ ذائبة تصــل حرارته بالتسخــين إلى أكثر مــن ٥٠٠ درجة. تنتقل هذه الحرارة بعد ذلــك إلى ماء ينتج بخاراً تحــت الضغط فيديــر البخار عنفــةً تنتج كهرباءً. تتيح خزانات الأملاح الذائبة أيضاً تخزين الحرارة لإنتاج الكهرباء خلال خمس عشرة ساعة حين غياب الشمس.

٣- المدخنة الشمسية

قــدرة النموذج الأولي المثــالي منها هي ٤٠٠ ميغاواط، مع إنتــاج سنوي ٢ تريليون واط ساعي، لتغذية ٣١٠٠٠٠ مسكن، بكفاية ٠,٥ إلى ١,٥٪، وتصــل كلفة بنائه إلى ٧٠٠ مليون يورو، ومدة حياته إلى ٨٠ سنة، ويحتاج استخدامه إلى سطح بمساحة ٤٠كم٢.

المبدأ

تعمل مدخنةٌ مبنية من الإسمنت والفولاذ، بارتفــاع ١,٥كــم، على إنتــاج الكهرباء من خلال تيــار هواء صاعد هائل تقوم المدخنة بتوليده من خلال فارق الحرارة بين قاعدتها وقمتهــا. وقد برهن نموذجٌ أولي إسباني عن صلاحيــة هــذا المفهوم منذ عــام ١٩٨١م. واليوم، تقــوم شركــة Enviromission الأسترالية بدراسة مشروع بالحجم الطبيعي بارتفــاع ١كم في ولايــة أريزونا في الولايات المتحدة. ويتصور مشروع آخر جنوب أفريقي إيصــال المدخنة إلى ارتفــاع ١,٥كم ليغذي عاصمة دولة ناميبيا بالكهرباء. يبقى أن يتم الحصــول على المال الــلازم لبناء مثل هذه المشاريع العملاقة.

التقنية

إن الارتفــاع هو الذي يمكّــن البرج من إنتــاج الكهرباء: محاط بــ «قميص» قطره ٧كــم تصعد الحــرارة تحته بشــكل ضخم بنتيجــة مفعول الدفيئة. تكون الحرارة نحو ٢٠ درجة في أعلى البرج وقرابة ٧٠ درجة في أسفلــه. يحدث هذا الفارق في الحرارة تيارَ هواءٍ صاعداً: يحــرك مراوحَ وعنفات تنتج الكهرباء. تختزن احتياطياتٌ من الماء والتربة قسماً من الحرارة ممــا يتيح الاستمرار في إنتــاج قليل من الكهربــاء خلال الليل (نحو عشْر القدرة القصوى).

٤- الغلاف الشمسي

قدرة النموذج الأولي المثالي منه هي ٥٠٠ ميغاواط، مع إنتاج سنوي ٠,٥ تريليون واط ساعي، لتغذية ٨٠٠٠٠ مسكن، بكفاية ٨ إلى ١٠٪، وتبلغ كلفــة إنشائه بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ مليــون يورو، مع مدة حياة ٢٠ سنة، ويحتاج استخدامــه إلى سطــح بمساحــة ١٠كم٢ (المدينة بمساحة ٢٠ كم٢).

المبدأ

تصــوروا مدينــة ذات جــدران ونوافذ وأرصفــة مغلفة بقشــرة فلطائيــة ضوئية شفافة وطرية، تتحول معها عاصمة بكاملها إلى محطة كهربائية! هــذا السيناريو، الذي تصوره باحثون من اليابان والولايات المتحدة منــذ عام ٢٠٠٣م، هو في طريقه لأن يصبح في حيز الإمــكان بنتيجة التطورات العلمية الأحدث. ففــي مدينة سان فرانسيسكو، في الولايات المتحدة، اجتازت شركة Konarka مؤخــراً أوّل خطوة من خلال تغليف موقف حافلات على هذا النحو. وفي فرنسا، يعمل

مشروع Armor على ابتكار أغلفة تتيح تغليف مساحات تزيد على ١٠كم٢. وتسعى الشركة إلى التطوير على نطاق واسع منذ العام ٢٠١٤م.

التقنية

تتركب هذه القشرة (الغلاف) من مسحوق بوليمري عضوي يحوي جزيئين: الـ P٣HT، الذي يحرر إلكترونات عند اصطدامه بفوتون من الضوء، والـ PCMB الذي ينقل الإلكترونات إلى سطح القشرة. وعندما يتخفف المسحوق في مذيب عضوي ويصبح سائلاً، ينضغط بين قشرتين من الإلكترودات électrodes الطرية والشفافة، وهو ما ينتج تياراً كهربائياً. يمكن أن يطبق هذا المجموع، الذي تبلغ ثخانته بضعة مكرومترات ويصنَّع بالجملة بكميات كبيرة، على السطوح بكاملها (الواجهات الزجاجية، والباطون..)، بواسطة دحروجة طلّي أو مرشّة رذاذ.

٥- الطاقة الشمسية الفضائية

قدرة النموذج المثالي (ألواح فلطائية ضوئية) هي ١٠٠ ميغاواط، مع إنتاج سنوي ٠،٩ تريليون واط ساعي، لتغذية ١٤٠٠٠٠ مسكن، بكفاية ٣٠٪، وتتراوح كلف البناء بين ٢ إلى ١٠ مليار يورو، مع مدة حياة تصل إلى بضع عشرات من السنوات، وتحتاج منشآتها إلى مساحة ١٠٠م٢ على الأرض و٠،٢٥ كم٢ في الفضاء.

المبدأ

إنتاج الطاقة الشمسية ٢٤/٢٤ ساعة في أية نقطة من الأرض؟ هذا ممكن.. من الفضاء!. الفكرة موضع اهتمام كبير منذ سبعينيات القرن العشرين وقد بدأت تتجسد من خلال أبحاث ملموسة أكثر من قبل. وهكذا، تتصور وكالة الفضاء اليابانية Jaxa وشركة Solaren الأمريكية محطةً فضائية ضخمة بقدرة ١ جيغاواط لتغذية مدينة بكاملها. أما Astrium، الفرع الفضائي من شركة EADS، فإنها تتصور وضع أقمار صناعية صغيرة في الفضاء تقوم بتزويد مناطق معزولة أو خطرة بالطاقة.

التقنية

تقوم التقنية على استخدام أقمار صناعية مجهزة بألواح فلطائية ضوئية عالية الكفاية جداً؛ تعمل على تحويل الطاقة الضوئية إلى كهرباء. يجب أن تكون هذه الألواح، التي هي أقل قدرة من محطة شمسية، مجمعة بالمئات في شبكة من أجل إرسال أشعة تحت حمراء إلى لاقطات فلطائية ضوئية بمساحة ١٠٠م٢ تقريباً على الأرض. جانبها السيئ: لا يخترق الليزر السُحُبَ بشكل جيد. هناك حل آخر: بناء محطة فضائية ضخمة واستخدام

موجات مكروية للنقل إلى الأرض. لكن ذلك سيتطلب هوائياً بارتفاع ١كم، وحيز استقبال بمساحة ١كم٢ وعمليات وضع في المدار أكثر تعقيداً بكثير.

نجاح وعوائق

كـي يمكن للمجال الشمسـي أن يصبح طاقـة عملاقة، فإن عليه مع ذلك أن يواجه أربعة تحديات حقيقية. هـا هي تفسيراتُ حالة بحالة.

الطاقة الشمسية تعني غابة من الألواح الشمسية، وحشداً كبيراً من المرايا، ومداخن مهيبـة، وخلايا فلطائية ضوئية غير مرئية، وأقماراً صناعية بمثابة محطات كهربائية.. تجعلنـا مشاريع المجتمع الـذي تنميه أشعة الشمس في حالة حلم. هل هي وهم أم واقع؟ في الحقيقـة، «لا نؤمن كثيراً بالمحطات الشمسية الفضائية، ولا بالمداخن الشمسية التـي تتسم بعوائق تقنيـة متعددة»، يكشف «سيدريك فيليبـير». إلا أن التقنيات الأكثر وعـداً، سـواء تعلق الأمر بتقنيـات الألواح الفلطائيـة الضوئية أم بمحطـات المرايا، تفرض انتشارها بسهولة كبيرة في الكوكب. وكما يشرح «جـان – أود مونكومبل» Jean Eudes Moncomble –، مـن «الوكالة الدولية للطاقة»، «تنطوي منظومات الطاقة على عطالة كبيرة جداً ومن الوهم الاعتقاد بأننـا في العـام ٢٠٣٠م سنعمل جميعاً على الطاقة الشمسيـة». يجب أن ندرك بأنه لن يتم بين ليلة وضحاهـا إغلاق ٥٠٠ مفاعل نووي ولا آلاف المحطات العاملة على الفحم أو الغـاز – تقـوم الصـين بتدشين محطة حرارية كل أسبوع! لاسيما وأن هذه المصانع تنتـج في الوقت الحالي بكلفة هـي أدنى بـ ٤ مرات بالمقارنة مـع الكهرباء الشمسية.. وبالطبع، هناك تطبيقات مؤكدة تستغل فيها الأشعة الشمسية: «يمكن لمعظم الماء المنزلي الساخـن، في كل مكان من العـالم، أن يأتي من مسخنات ماء شمسية»، يقول «سيدريك فيليبـير»: هذا ما أدركتـه دول عديدة، من بينهـا الصين وقبرص بشـكل خاص. ولكن عندما يتعلق الأمر بالكهرباء تظهر الجهود المطلوب بذلها عملاقةً كي تفرض المحطات نفسها، فضلاً عن أن أنصارها غير متفقين دائماً فيما يخص إستراتيجية فتح الشبكة الكهربائية.

تقييم القدرة الحقيقية للطاقة الشمسية

وفرة الطاقـة الشمسيـة خادعة؛ لأنه إذا كانـت الأرض تتلقى مـن الشمس طاقة تزيد ٧٥٠٠ مرة عما تستهلكه البشرية منها فإن الشـروط ليست متضافرة في كل مكان لإتاحة التقاط فعّال للأشعة الشمسية. وفي حـين يتلقى كل متر مربع على شاطئ البحر الأحمـر ٣٠٠ واط طوال العـام، فإن الحد

الأقصى في بريطانيا الضبابية هو ١٠٥ واط/م٢. من المؤكد أن الألواح الفلطائية الضوئية تتكيف مع السماء الغائمة، وأن السطوح المتاحة لالتقاطها في أوروبة متوافرة. ولكن نظراً للكفاية الضعيفة لهذه التقنية، فإن كمية الكهرباء المتولدة ستبقى غير كافية إلى حد كبير. يتصور الباحثون بذلك اللجوء إلى استخدام محطات واسعة بإنشاءات مزودة بآلاف المرايا. «إلا أن هذه التقنية تتطلب شمساً مباشرة في سماء صافية تماماً»، يحسم الخبير الفرنسي «جيل فلامان» Gilles Flamant. لا نجد مثل هذه الشروط إلا في المناطق القاحلة أو شبه القاحلة.

يصف «جان دفلاندر» Jean Deflandre، خبير البرنامج الشمسي الفرنسي، هذه المشاريع بأنها خادعة. ولكن هذا الحكم متسرع قليلاً في الواقع، ولو أن التدابير المتخذة على الأرض مخيّبة للآمال: «في الإمارات العربية المتحدة مثلاً، تبين أخيراً أن الجو غير صاف بصورة كافية لاستخدام هذه المحطات القائمة على تركيز الضوء»، يروي «سيدريك فيليبير»، الخبير الفرنسي الذي يعمل في الإمارات العربية المتحدة. السبب؟: الرياح الرملية التي يتشبع بها الهواء المحيط. وهذه ظاهرة يمكن أن تتمخض عن كلف تنظيف ضخمة جداً.

يمكن القول إذاً إن مناطق الكثبان مستبعدة. هناك صعوبة أخرى في الصحراء: تبريد هذه المنشآت الشرهة إلى الماء البارد، حتى مع إمكان تبريدها بالهواء، وفي ذلك ما يفقدها جزءاً من فعاليتها.

تأمين التسيير

رغم هذه العناصر المجهولة العديدة، «تكمن حقول مذهلة في صحراء أتاكاما (في التشيلي) وموجاف (في الولايات المتحدة) وكالاهاري (في جنوب أفريقيا) ومصر العليا».

يقول «سيدريك فيليبير» معارضاً: المكان المتاح في هذه المناطق غير المسكونة ليس مشكلة. ولكن يبقى أن هذه المناطق بعيدة جداً أحياناً عن مراكز الاستهلاك. ولكن، ما بعد ٨٠٠كم، لا تعود خطوط التيار المتناوب قابلة للنجاح مادياً وتقنياً. منذئذ، ما السبيل إلى تسيير هذه الوفرة الشمسية؟ «سيلزم اللجوء إلى خطوط التيار المستمر الذي ينبغي رفع مستوى توتره إلى ٨٠٠٠٠٠ إن لم يكن إلى مليون فولت» بهدف التقليل من الخسائر بظاهرة «جول».

يشرح «فيليب آدم» Philippe Adm من «شبكة نقل الكهرباء» الفرنسية. توجد اليوم خطوط يتجاوز طولها ٢٠٠٠كم؛ ويبنى حالياً في البرازيل مشروع خط بطول ٢٣٠٠كم، ويبدو أن بالإمكان تصور مد

خطوط بطول ٢٠٠٠كم. وهذه زيادة غير متوقعة «لأن ٩٠٪ من سكان العالم يتواجدون على مسافة تقل عن ٢٠٠٠كم من الصحراء»، يقول «سيدريك فيليبير» متحمساً: أن تتغذى باريس وبرلين من خلال الصحراء الكبرى، ونيويورك من الصحراء الكاليفورنية، وموسكو من كازاخستان، فذاك حلم شمسي (مكّلف) يمكن أن يصبح واقعاً. ذلك بشرط أن ترتب بعض التفاصيل.. الجيوسياسية.

زيادة القدرات الإنتاجية

تبدو الظاهرة، التي قيست منذ عام ١٩٧٦م، أنها لن تتوقف: كلما تضاعفت الاستطاعة الفلطائية الضوئية القائمة، هبطت كلفة الألواح بنسبة ٢٠٪، وهو ما يذكّر جداً بتطور الشاشات المسطحة، التي ما تزال مقبولة وعالية الأداء! وهذا واعد بالأحرى إذا تصورنا أن الكهرباء الشمسية هي أغلى اليوم بأربع مرات من سعر السوق. مع ذلك، التقدم المأمول لا يقنع الجميع.. وحسب «جيل فلامان»، فإن «ثلاثة عوامل هنا تؤخذ بعين الاعتبار: التطورات التقنية، والإنتاج المتسلسل الكبير للمكونات، والحجم المتنامي للمحطات التي تبنى».

نعم، إلا أن التأثيرات التي تخص كلاً منها متشابكة إلى درجة تصعب معها الرؤية بوضوح. ويرى «دومينيك فينون» Dominique Finon، من «المركز الوطني للأبحاث العلمية»، أن «التطور التقني يبدو راكداً منذ سنوات عدة. أرى بالأحرى أن الانخفاض الحديث في الأسعار ناتج عن الإغراق الاجتماعي الذي ينظمه الصينيون الذين يسيطرون على سوق الفلطائية الضوئية». واليوم، تتراوح كفاية ألواح السليكون على المستوى التجاري بين ١٠ و٢٠٪. هذا قليل جداً. من هنا، راجت فكرة: تركيز الضوء على هذه الألواح بوساطة مرايا لرفع الكفاية إلى ٣٠٪. صحيح، ولكن ليس أكثر، عندما يكون استخدام مواد نانوية، قادرة على التقاط عدد أكبر من الفوتونات، واعداً ببلوغ حاجز الـ٤٠٪. نعم، غير أن هذه القفزة قد لا تحدث قبل عام ٢٠٥٠م. عدا ذلك، تتسم المحطات الشمسية ذات المرايا بصعوبات خاصة ينبغي التغلب عليها: «يتطلب ازدياد الكفاية رفع حرارة البؤرة (هناك سعي لإيصالها إلى ١٠٠٠ درجة) وبالتالي العثور على مواد قادرة على مقاومتها»، يشرح «جيل فلامان». يجب أن نعمل حسابنا لانتظار عقد كامل من الدراسات لتحقيق ذلك. خلال هذا الوقت، يمكن العمل على توسيع معامل الصناعة (الصينية) وتكبير المحطات (وهو ما يطرح مشكلات تقانية ضوئية شائكة بالنسبة للمرايا). ولكن في الحقيقة، ما يزال الجميع بانتظار ظهور حدث تقاني جديد.

حل مشكلة تعاقب الليل والنهار

يعاني الميدان الشمسي من عائق واضح: في الليل، لا تسطع الشمس! وفي النهار، يمكن أن تغيب فجأة خلف السحب. وحتى الريح المتقلبة، التي تدوّر محركات الرياح، تولد من الكهرباء مقداراً أكبر بمرتين وسطياً في أغلب الأحيان. إلا أن اختصاصيي أشغال الكهرباء لا يقتنعون إلا بإنتاج ممكن التوقع وقابل للتحكم.. لا يتوافق مع عالم شمسي ١٠٠٪. «يلزم، ابتداءً بنسبة ١٠٪ من الطاقة الشمسية في الشبكة، فما فوق، إجراء ترتيبات وتوقّع السعات الإنتاجية المساعِدة بهدف ضمان استقرار المنظومة»، يقرّ «سيدريك فيليبير». هذه الكهرباء الشمسية تناسب سلامة الشبكة، ولكن يجب أن تكون مفيدة أيضاً. بوضوح، يجب إطلاقها في الوقت الأنسب. إذا كانت ذروة الاستهلاك تحدث في خضم النهار في البلدان الحارة، بسبب التكييف، فإن هذه الذروة تقع في بلدان أوروبة في الشتاء بعد مغيب الشمس.

مجال التخزين

تصور الباحثون تقنيات تخزين لا تحصى، مثل مراكمة الهواء المضغوط في كهف تحت الأرض. لكن ذلك لم يكن مقنعاً بالفعل. مع ذلك، لم يهمَل تصور التزويد بالطاقة الشمسية ٢٤/ ٢٤ ساعة. وليس إرسال ألواح إلى الفضاء الخيار الوحيد المتصور. تتصور الوكالة الدولية للطاقة في الواقع أن تتمكن بعض المنشآت الشمسية الأرضية عام ٢٠٣٠م من إنتاج الكهرباء من دون انقطاع بكلف تنافس إنتاج المحطات العاملة بالفحم. ذلك لأن المحطات العاملة على تركيز الأشعة الضوئية تطلق في ذروة حر النهار فائضاً من الطاقة يمكن تخزينه. كيف؟ على شكل حرارة ضمن أوعية أملاح ذائبة (مزيج من البوتاسيوم والصوديوم). ومع حلول المساء، تتيح هذه الحرارة تدوير عنفة المحطة. في الوقت الحالي، تؤمن هذه المهارة ساعتين إلى أربع ساعات إضافية من الإنتاج، تحل محلها بعدئذ محطة تعمل بالغاز الطبيعي.

أحد المشاريع الإسبانية (Gemasolar) واعد اليوم بخمس عشرة ساعة تخزين من خلال استبدال مياه دارات التبريد بأملاح ذائبة. إذا كانت كلفة هذا النموذج الأولي عالية جداً، مع بقاء القدرة ضعيفة، فإن فكرة الإنتاج الشمسي من دون انقطاع تبقى جذابة. ستتابَع إذن.

عجز عن الحلول محل البترول

هل تشكل الشمس مستقبلاً لوسائط النقل؟ إذا ما نظرنا إلى الطائرة الشمسية المسماة Solar Impulse فسيكون من المسموح أن نشك في الأمر: يتطلب حمل طيار واحد جناحين فلطائيين ضوئيين

بسعة ٦٤م! أمّا فيما يتعلق بالمنافسات التصويرية لسيارات مكسوة بألواح شمسية، فإنها لا تدفع إلى تفاؤل أكبر.. هنالك مع ذلك أمل بالتسيير بالطاقة الشمسية قبل عام ٢٠٥٠م: الضوء قادر على إطلاق تحلل كهربائي électrolyse للماء فينتج بذلك الهيدروجين الذي يمكن أن يغذي سياراتنا. تعمل عدة فرق في العالم على هذا الأمر، لكن التوقعات لا تعطي سوى موقع هامشي جداً لهذه «الوُقُد الشمسية»، المكرسة فقط لتدوير بضعة عنفات غازية. في النهاية، الأمل الوحيد بأن نركب سيارات بوساطة الشمس قد يكمن فقط إذاً في مجيء السيارات.. الكهربائية.

تأمين سلامة التوزيع الجيوبوليتيكي

لا يرسم اللجوء المكثف للطاقة الشمسية بالضرورة عالماً من المحبة والسلام والأمن الطاقي. ذلك لسبب بديهي: أفضل الموارد القابلة للاستغلال مركزة جغرافياً. من بين المواقع المستقبلية المحتملة، هناك الولايات المتحدة مع كاليفورنيا، وأفريقيا الشمالية، والهند، والتشيلي، وأستراليا. وكما هو الحال بالنسبة للبترول والغاز، ستظهر إذاً ظواهر تبعية. هنالك نموذج بارز يرتسم الآن بين أوروبة وشمال أفريقيا. يعتزم مشروعان أوروبيان، أحدهما ألماني (Desertec) والآخر فرنسي (Medgrid) التقاط الأشعة الشمسية من الصحاري الأفريقية لتسيير قسم كبير منها إلى أوروبة من خلال كابلات تحت بحرية. «من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن هذه الطاقة البديلة، المفترض أنها محلية أصلاً، قد تضعنا في نهاية الأمر تحت رحمة مناطق غير مستقرة أحياناً»، يقول «مايتي يورغي - نودين» Maïté Jaureguy-Naudin، الباحث في «المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية».

المصدر

Science & Vie, juin 2011

«العلم والحياة» الفرنسية حزيران ٢٠١١م.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✿

هذه باقة جديدة من الأخبار الثقافية والفنية تتميز بغنى مضمونها وتنوع مادتها، نقتطفها من حدائق الفنون والثقافات، عبر منافذ المواقع الإلكترونية، ووكالات الأنباء، ونضعها بين يدي قراء المعرفة، بهدف التواصل والتفاعل مع المشهد الثقافي، والحركة الثقافية، عسى أن يجد فيها عشاق المعرفة، الفائدة العلمية، والمتعة الجمالية.

✿ ✿ ✿

العطار تقلد محمد محفّل وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة:

قلدت الدكتورة نجاح العطار (نائب رئيس الجمهورية) المؤرخ الدكتور محمد محفّل وسام الاستحقاق السوري الذي منحه إياه السيد الرئيس بشار الأسد، من الدرجة الممتازة تقديراً لإنجازاته في مجال دراسة تاريخ سورية وبلاد الشام وإبراز دورها في تشكل الحضارة الإنسانية.

وأكدت الدكتورة العطار في كلمة لها بهذه المناسبة: إن تكريم الرئيس الأسد للدكتور محمد محفّل هو تكريم لكل الذين عملوا ويعملون على جبهة الفكر، وتقدير ورعاية لجميع المثقفين والمبدعين والباحثين الذين هم جديرون بمثل هذا التكريم.

ونوهت الدكتورة العطار في كلمتها بالباحث والمؤرخ محفّل باعتباره أحد الأعلام الروّاد الذين وهبوا عمرهم للعمل على جبهة الفكر والدرس، وأغنوا بدراساتهم واستكشافاتهم مسيرة حضارية بهية وأمضى ردحاً من حياته باحثاً في طوايا الماضي البعيد، بالمفهوم الإنساني الشمولي، ليضيف إلى سفر هذه

✿ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

الحضـارات المجيد، ما استخرجه من حقائق وصور وحكايـا، للتعريف بالـتراث الإنساني الحضاري الذي كانـت سورية موطناً له على امتداد العصور.

وأشارت الدكتورة العطار إلى دور الدكتور محفّل وإسهامه في تأسيس لجنة كتابة التاريخ العربي، ومتابعة عملها، حرصاً على التعريف بتاريخ بلاد الشام، والوطن العربي، والنهوض بمسؤولية مجلة «دراسات تاريخية»، وفاءً لحق الوطن على باحثيـه في الكشف عن مكونات تاريخهـم، وجوهـر حقيقتـه، بمصداقيـة البحث، التزاماً وطنياً قومياً، ودفاعاً عن قيم المعرفة، وتصدياً لمحاولات اغتيال حضارتنا، وتزوير تاريخنا، والانتقاص منه إلى جانب ما قدمـه الكاتب من أعمـال الترجمة والتأليف ودراسة اللغات التي أصبحت مراجع للباحثين والدارسين.

وفي كلمة له قال الدكتـور محفّل.. «أقف اليوم في حضرة سدة الرئاسة وقد عهد السيد رئيس الجمهورية إلى رفيع مقامكم في تقليدي وسام الاستحقاق السوري الذي تكرم بإصدار مرسومـه، فإلى السيد الرئيـس فائق الشكر والامتنان».

وأضـاف: «إني أهـدي هـذا الوسام إلى جامعة دمشق هـذا الصرح العلمـي الوارث الشرعي للجامعة السورية وإلى أرواح أساتذتنا الذين أصبح بعضهـم أعضاء في مجمع اللغة العربيـة من حسنـي سبح إلى جميـل صليبا وكامـل عيّـاد وعبد الكـريم اليـافي وسائر شيوخنـا.. ومن واجب طالب العلم أن يعترف بفضل أساتذته».

وأكد عدد من أعضاء مجمع اللغة العربية أهمية هذا التكريم علـى أنه تكريم للمجمع ودعـمٌ للغـة العربيـة والفكر العربـي وقال الدكتـور مروان محاسني رئيـس مجمع اللغة العربية: إن تكـريم الدكتور محفّل «هو تكريم للمجمع على اعتبار أننا جميعاً في خدمة اللغة العربيـة، وعضوية محفّل في المجمع تؤكد أننا نهتم باللغـات العربية القديمة لنجعلها جزءاً من تاريخنـا وننظر إليهـا كمكتسب حقيقي حضاري على مد التاريخ».

يشـار إلى أن الدكتور محمـد محفّل ولد في حلـب عام ١٩٢٨م وحصل علـى الشهادة الثانوية عـام ١٩٤٩م وعلى إجازة في التاريخ عام ١٩٥٣م وكان الأول بين الخريجين فأوفد عـام ١٩٥٤م إلى جامعـة السوربون لتحضير الدكتوراه في التاريخ القديم وفي فرنسا. درس العديـد من اللغـات ثم استكمـل دراسته في جنيف حيث تعلم اللغة الألمانية ثم درّس اللغات اليونانية والآراميـة في جامعة عمان وساهم في تأسيس لجنة كتابة التاريخ العربي ثم درّس في جامعة دمشق وقدم عدة مؤلفات أكاديمية

لطلاب قسم التاريخ فيها كتاريخ الرومان والمدخل إلى اللغة اللاتينية ومن أعماله أيضاً تاريخ العمارة لطلاب هندسة العمارة.

وترجم محفّل كتباً ودراسات كثيرة يدور أغلبها حول الصهيونية وتعريتها كما ترجم كتباً تظهر دور العرب في نشر الحضارة العربية في الغرب وهو من دعاة إعادة النظر في كتابة التاريخ وقد ترأس مجلة دراسات تاريخية وانتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية عام ٢٠٠٨م.[١]

مختارات من الفن الأفريقي:

أقام اتحاد الفنانين التشكيليين في سورية معرضاً فنياً بعنوان مختارات من الفن الأفريقي ضم قرابة مئة لوحة عكس من خلالها مجموعة من فناني القارة السمراء ملامح من التراث الأفريقي والبيئة الأفريقية والحياة الاجتماعية المستقاة من بعض الدول مثل السنغال وأثيوبيا والكونغو.

وقال الدكتور حيدر يازجي رئيس اتحاد الفنانين التشكيليين السوريين: إن هذا المعرض يعكس المدارس الفنية الموجودة في أفريقيا، والاتجاهات الفنية السائدة هناك، إذ إنه يتضمن أعمال مجموعة من الفنانين من أكثر من دولة أفريقية ما أدى إلى وجود مجموعة من المدارس الفنية والتيارات المختلفة لفناني القارة السمراء ما يعطينا نظرة شبه واقعية نتعرف من خلالها على هذا الفن.

وأشار يازجي إلى وجود الكثير من القواسم المشتركة بين الفن السوري والأفريقي أهمها: الجانب الإنساني والحياة الاجتماعية والمرأة التي نراها في هذا المعرض تعمل في الأرض مثلها مثل المرأة الريفية السورية مع وجود فارق في التعاطي التشكيلي إضافة إلى المعالجة اللونية التي تفرض نفسها وتحدد إلى أين تنتمي هذه الصورة.

من جانبها أشارت الفنانة التشكيلية هبة سعيد رئيسة المعارض في اتحاد الفنانين التشكيليين إلى أن المعرض يهدف إلى تحقيق نوع من المثاقفة الفنية بين فنانين من أفريقيا والفنانين السوريين عبر مجموعة لوحات تعكس التراث والتطور الحاصل في القارة الأفريقية المعروفة تشكيلياً بالمنحوتات والأعمال التصويرية وما يتضمنه ذلك من العادات والتقاليد والرموز وغيرها.

بدوره قال زكريا جبارة جامع لوحات المعرض: إنه اختار الفن الأفريقي بحكم إقامته الطويلة في عدة دول أفريقية مبيناً أن فكرة إقامة المعرض جاءت بعد جمعه لتلك اللوحات بسبب هواية شخصية جعلته ينتقي اللوحة التي يشعر بالانجذاب نحوها من حيث موضوعها أو ألوانها.[٢]

القدس تنشئ متحفاً للفنون البصرية:

تسعى مؤسسة «حوش الفن الفلسطيني» وهي مؤسسة ثقافية إلى إنشاء متحف للفنون البصرية يكون الأول من نوعه في مدينة القدس.

وقالت روان شرف مديرة المؤسسة: «لقد وضعنا هدف إنشاء متحف للفنون البصرية نصب أعيننا ونحن نعمل على توفير الدعم المالي اللازم لإنشاء هذا المتحف الذي يهدف إلى عرض المساهمة الفلسطينية في الفنون البصرية على مدى عشرات السنوات الماضية».

وأوضحت شرف أنه: «إضافة إلى سعينا لإنشاء المتحف فإننا نسعى إلى بناء سوق للفن في فلسطين وإشراك القطاع الخاص الفلسطيني في ذلك وخلق ثقافة شراء الأعمال الفنية، مضيفة أن ما نقوم به في مدينة القدس من جهد لإحياء الفن والحياة الثقافية فيها هو جزء من المعركة الثقافية خصوصاً في ظل ما تتعرض له من حملة إسرائيلية ممنهجة لتهويدها وطمس هويتها الثقافية والحضارية وعزلها عن محيطها الفلسطيني».

وجاء في نشرة ضمت اللوحات المعروضة في المزاد «نعمل في القدس لأنها مدينتنا وانطلاقاً من إيماننا بدور الثقافة والفن في الحفاظ على الإنسان المقدسي وكيانه وكرامته وهويته... نسعى لإعادة الدور المركزي للمدينة في إنتاج الثقافة واحتضانها وتنميتها». وتمتلك مؤسسة «حوش الفن الفلسطيني» مقراً لها على بعد مئات الأمتار من أسوار البلدة القديمة في مدينة القدس ولكنه لا يتسع إلى إقامة متحف دائم فيه للفنون البصرية.(٣)

أمين معلوف في مقعد ليفي ستروس:

انضم الكاتب اللبناني الفرنسي أمين معلوف رسمياً إلى الأكاديمية الفرنسية، وأصبح بذلك ثاني عربي ينتمي إلى «مجمع الخالدين» بعد الكاتبة الجزائرية آسيا جبار.

وألقى معلوف، كلمة بهذه المناسبة، أثنى فيها على سلفه ليفي ستروس، وقال: اليوم هناك جدار في المتوسط بين الفضاءات الثقافية التي أنتمي إليها (...) طموحي هو المساهمة في هدمه، لطالما كان هذا هدف حياتي وكتابتي وسأواصل السعي إليه إلى جانبكم، تحت نظر ليفي ستروس العاقل.

وبدخول معلوف إلى الأكاديمية يؤكد «الخالدون» (أعضاء تلك الأكاديمية) بذلك رغبتهم في انضمام أدباء من أصول أجنبية إلى صرحهم، الذي يضم ٤٠ عضواً، بعد انتخابهم هكتور بيانكوتي المولود في الأرجنتين، وفرنسوا تشنغ المولود في الصين وآسيا جبار المولودة في الجزائر.

وكان معلوف قد انتخب في حزيران ٢٠١١م في المقعد رقم ٢٩ في الأكاديمية الفرنسية خلفاً لعالم الأنتروبولوجيا الفرنسي الشهير كلود ليفي ستروس، الذي توفي في ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٩م.

يشار إلى أن معلوف أصدر أول أعماله بالفرنسية «الحروب الصليبية كما رآها العرب» سنة ١٩٨٣م، ثم أصدر عدة أعمال روائية من أبرزها «ليون الأفريقي» التي نال عنها جائزة الصداقة الفرنسية العربية و«صخرة طانيوس» التي أهلته لنيل جائزة غونكور الأدبية الفرنسية الرفيعة سنة ١٩٩٣م، كما أصدر روايات وأعمالاً أخرى مثل «سمرقند» و«حدائق النور» و«رحلة بالداسار» و«الهويات القاتلة»، وينتظر أن تصدر له في أيلول الجاري رواية جديدة عن دار نشر غراسيه بعنوان (التائهون)، تحكي عن رحلة مؤرخ منفي عاد إلى لبنان.(٤)

وفاة المفكر الفرنسي روجيه غارودي:

توفي المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي صاحب كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» في منزله بإحدى ضواحي العاصمة الفرنسية عن عمر ٩٨ سنة.

ولد غارودي في ١٧ يوليو/تموز ١٩١٣م في مرسيليا وحصل على درجة الدكتوراه الأولى سنة ١٩٥٣م من جامعة السوربون عن النظرية المادية في المعرفة، ثم حصل على درجة الدكتوراه الثانية عن الحرية عام ١٩٥٤م من موسكو.

وفي ١٩٣٣م انضم غارودي المجاز في الفلسفة والدكتور في الأدب، إلى الحزب الشيوعي. وفي ١٩٤٠م سجن ثلاثين شهراً في معسكر في الجزائر إلى جانب جمهوريين إسبان. وفي ١٩٤٥م، انضم إلى اللجنة المركزية للحزب وفي ١٩٥٦م إلى المكتب السياسي.

وانتخب غارودي نائباً في ١٩٥٤م ثم أصبح عضواً في مجلس الشيوخ. وبصفته أستاذاً للفلسفة، تولى من ١٩٦٠م إلى ١٩٧٠م رئاسة تحرير مجلة «كاييه دو كومونيسم» (دفاتر الشيوعية) الناطقة باسم الحزب، ومركز الدراسات والبحوث الماركسية (١٩٦٠-١٩٧٠م).

واعتبر غارودي «رجل حوار الحضارات»، واستأثر طوال عقود باهتمام أوساط المثقفين ووسائل الإعلام الفرنسية التي قدرت مؤلفاته الفلسفية وشجاعته السياسية، وانحسر كل ذلك لدى اعتناقه الإسلام في ١٩٨٢م واختياره اسم رجاء وحملاته على الصهيونية، وقد جعل من غارودي كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» منبوذاً في المجال الإعلامي السياسي، حيث دانته محكمة استئناف باريس عام ١٩٩٨م لإنكاره وقوع جرائم ضد الإنسانية

والتشهير العرقي والتحريض على الكراهية العرقية، وقد حكم عليه بالسجن تسعة أشهر مع وقف النفاذ وبدفع غرامة كبيرة، وفي هذا الكتاب تطرق غارودي إلى «أسطورة إبادة ستة ملايين يهودي التي أصبحت عقيدة تبرر كل تجاوزات(إسرائيل) في فلسطين» وشكك في وجود غرف الغاز.(٥)

رحيل باري أنسويرث:

عن عمر ناهز ٨١ عاماً، غيب الموت كاتب الخيال العلمي باري أنسويرث الذي فاز بجائزة البوكر عام ١٩٩٢م، عن روايته «الجوع المقدس» مناصفة مع الكاتب مايكل أونداتجي مؤلف رواية «المريض الإنجليزي».

ولد أنسويرث عام ١٩٣٠م، وعرف عنه حبه المستفيض للبحث، والولع بالحدث التاريخي، وتوظيفه في فهم واستيعاب الراهن بتداعياته المختلفة، وهو ما عبر عنه من خلال شغفه بكتابة الرواية حيث نشرت له أولى رواياته الجوع المقدس عام ١٩٦٦م، وهي رواية تناول فيها أنسويرث موضوع العبودية في القرن الثامن عشر في منطقة المحيط الأطلسي، واتخذ منه إطاراً لاستخدامه أحداثاً وقعت في الماضي بهدف إسقاطها على الحاضر، ومن رواياته الأخرى رواية بعنوان «هناك مرادف لها باليونانية»، وقد عبر أنسويرث عن رؤيته وسبب كتابته الروايات التاريخية فقال: «اللذة في كتابة الروايات التاريخية هي أن الأشياء كانت مختلفة وفي الوقت نفسه مشابهة لها في الزمن الراهن».(٦)

وفاة مؤلف فهرنهايت ٤٥١:

توفي كاتب روايات الخيال العلمي راي برادبري عن عمر ناهز ٩١ عاماً في مدينة لوس أنجلس الأمريكية.

ولد برادبري في إلينوي وانتقل مع عائلته وهو في عمر المراهقة إلى لوس أنجلس، حيث ظل يكسب قوته لثلاث سنوات بعد تركه المدرسة من بيع الصحف، والكتابة في أوقات فراغه، ومنذ مطلع الأربعينات بدأت قصصه القصيرة في الظهور في مجلات مثل «حكايات غريبة» «خيال علمي مدهش» و«كابتن فيوتشر».

وفي عام ١٩٤٧م نشر أول كتاب له وهو «كرنفال معتم»،حيث بدأت شهرته الأدبية تتسع مع نشره مجموعة قصصية حملت عنوان «تواريخ مريخية» عن مجموعة رجال ذوي نزعة مادية بشعة يستعمرون المريخ ويقومون باستغلاله بشكل مدمر.

وخلال حياته المهنية كتب برادبري مئات الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات وسيناريوهات الأفلام السينمائية والتلفزيونية، ومن أشهرها على الإطلاق روايته «فهرنهايت٤٥١» التي نشرت عام

١٩٥٣م وحظيت بشهرة كبيرة، وتصور الرواية مجتمعاً مستقبلياً تمنع فيه قراءة الكتب.

وقال داني كارابيتيان حفيد برادبري: إن جده أثر في العديد من الفنانين والكتّاب والمعلمين والعلماء» وأضاف «أن ميراثه يعيش في الكم الهائل من كتبه وأفلامه وأعماله للتلفزيون والمسرح، بل والأكثر أهمية في أذهان وقلوب كل من يقرأه، لأن قراءته تعني معرفته جيداً، فضلاً عن ذلك فقد كتب برادبري عدداً من الأعمال للسينما والتلفزيون، وكتب سيناريو فيلم موبي ديك الذي أخرجه جون هيوستن إضافة إلى عدد من المسلسلات التلفزيونية ومن بينها «تشويق» و«ألفريد هيتشكوك شو» و«منطقة الشفق».(٧)

افتتاح مؤسسة ساراماغو في لشبونة:

قررت البرتغال تكريم الكاتب المعروف خوسيه ساراماغو وذلك بتخصيص مبنىً في العاصمة لشبونة يضمُّ مكتبة تحتوي على عدد كبير من مؤلفاته، ومركزاً للبحوث والدراسات الخاصة بأعماله ومسيرته الأدبية الثرّة والغنية، وذلك بمبادرة من بلدية لشبونة التي قررت إطلاق اسم مؤسسة خوسيه ساراماغو على مبنى «كاسا دوس بيكوس»، القديم الذي يعود تأريخه إلى أكثر من ٤٠٠ عام، تخليداً وبعثاً لروح خوسيه ساراماغو، الكاتب الوحيد الناطق باللغة البرتغالية والحاصل على جائزة نوبل للآداب فيه.

وبينت أرملة ساراماغو «بيلار ديل ريّو»، أن هذه المؤسسة: «لن تكون مؤسسة أدبية، تتخصص بأعمال ساراماغو، لأن هذا من اختصاص دور النشر، وأن ما يراد من هذا المركز أن يخدم ما جاء بين ثنايا كتب ساراماغو، من أفكار، ووجهات نظر»، وأكدت ريو أن مبنى «مؤسسة ساراماغو» سيكون مركزاً ثقافياً من طراز خاص جداً، ويتضمن فعاليات ونشاطات ثقافية وفكرية، وسيحتوي على مكتبة، وقسم خاص بالبحوث والدراسات يتم فيه حفظ النسخ الأصلية، والمراسلات، وملاحظات الكتّاب البرتغاليين. ويحتوي المبنى أيضاً على المكتب الذي كان مخصصاً للكاتب، الذي داهمه الموت قبل أن يستعمله، في خضم إجراءات التحضير لذلك، والتعديلات التي شهدها المكتب وآلة الطابعة التي كان يستعين بها ساراماغو لكتابة أعماله الأدبية الأولى.

وكان الكاتب والروائي والشاعر والصحفي والمؤلف المسرحي خوسيه دي سوزا ساراماغو قد ولد في ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٢م في البرتغال، وتوفي في ١٨ يونيو/ حزيران ٢٠١٠م في إسبانيا، وحصل على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٨م. ومن بين أبرز أعماله رواية

«مذكرة الدير» ١٩٨٢م، «وعام موت ريكاردو» ١٩٨٤م، و«الإنجيل كما يرويه المسيح» ١٩٩٢م، و«كل الأسماء» ٢٠٠٢م، ورواية «العمى» ١٩٩٥م، والمجموعة القصصية «كل الأسماء» ١٩٧٨م.[٨]

اكتشاف أوّل مسرح عُرضت عليه روميو وجوليت:

أعلن متحف الآثار في لندن عن العثور على بقايا مسرح «كورتين» أي الستارة في منطقة شرقي العاصمة البريطانية لندن، حيث عرض الأديب الإنجليزي الكبير ويليام شكسبير على خشبته العروض الأولى لأعماله مثل «روميو وجولييت» و«هنري الخامس».

وكان تحديد موقع المسرح قد بقي لغزاً شغل أذهان علماء الآثار على مدى عقود من الزمن، وعلى الرغم من إدراكهم أن المسرح يقع في المنطقة المجاورة لمسرح «غلوبوس» الفاعل حالياً، إلا أن كل الجهود التي بذلت سابقاً لم تثمر بشيء. ولجأ المنقبون إلى المختصّين اللغويين لاستخلاص المعلومات التي ساعدتهم في الاستدلال على الموقع الفعلي للمسرح، فبعد قراءة الأعمال من جديد وجديد والمذكرات المعاصرة لويليام شكسبير، وإجراء مقارنات لأوصاف من كتابات ومذكرات معاصرة لشكسبير، اعتبروا أن المسرح الضائع أسس في عام ١٥٧٧م لتعرض على خشبته أعمال ويليام شكسبير واستمرت العروض حتى عام ١٥٩٩م عندما افتتح مسرح «غلوبوس». وحدد الباحثون آخر تدوين تاريخي يذكر مسرح «كورتين» في عام ١٦٢٢م، حيث ذكر أنه أحرق في عام ١٦١٣م مما أوقف نشاطه المسرحي. إضافة إلى اشتباههم بأن تجسيداً لهذا المسرح نقش على مخطوطة «منظر على مدينة لندن من الشمال إلى الجنوب» والتي تعود إلى تاريخ ١٦٢٨-١٦٢٩م.

وكان قد عثر خبراء الآثار التابعون للمتحف خلال قيامهم ببعض عمليات التنقيب وعلى عمق ثلاثة أمتار، على بقايا حفظتها التربة بحالة جيدة وكان من بينها خشبة المسرح الأصلية والباحة الرئيسة والجدران الخاصة بالمسرح، وتستمر أعمال التنقيب والبحث لمزيد من الوقت في شارع «شورديتش» في العاصمة البريطانية والذي يقع على بعد أمتار قليلة من مسرح «ثيتر» الذي تمّ العثور عليه عام ٢٠٠٨م ويعتقد أنه شهد قيام شكسبير لأوّل مرة بالتمثيل وحيث قدّم أولى أعماله.

وصرح «دومينيك درامغول» المدير الفني لمسرح «غلوبوس»: «أنا في غاية السعادة لأننا نتخلص من الغموض تدريجياً ونستعيد معالم لندن الجميلة والمعاصرة لحقبة الملكة فكتوريا»، وأضاف درامغول إنه سعيد بحقيقة «إننا نحفر

لندن، ونزيل ببطء الأكداس البائسة من عصر فكتوريا وعصر الإمبراطورية، ونرفع الغطاء عن لندن الجامحة، الفوضوية البهيجة التي تكمن تحت السطح». وقال: إن ذلك يذكره بمنطقة زاكالو في العاصمة المكسيكية حيث تغوص كل القصور الإسبانية ببطء في الأرض وتنبثق معابد حضارة المايا إلى السطح.

وقال مايكل بويد مدير فرقة شكسبير الملكية إن من الملهم أن يكون متحف آثار لندن قد اكتشف أسس مسرح «ذي كرتن»، وإنه يتطلع «إلى لمس الطين والحجر إن لم يتسن لمس الخشب وتحسس وجود ذلك الفضاء الذي تركت فيه أعمال شكسبير الأولى، بما فيها التاريخية، مثل هذا الأثر الذي لا يُمحى».(٩)

فاس القديمة تجدد ملامحها:

أطلقت الجهات المحلية في مدينة فاس مشروع تأهيل وإنعاش المدارات السياحية بما فيها مدار الصناعة التقليدية بالمدينة العتيقة لفاس، الذي يندرج في إطار مشروع «الصناعة التقليدية وفاس المدينة» الذي تموله مؤسسة تحدي الألفية.

ويهدف هذا المشروع، إلى تشجيع النمو الاقتصادي والمساهمة في تنمية قطاع السياحة والصناعة التقليدية وتعزيز ورد الاعتبار للمعالم التاريخية والثقافية والمعمارية للمدينة العتيقة، وسيسهم في تعزيز الروابط القائمة بين قطاع الصناعة التقليدية والموروث الثقافي والتاريخي والمعماري للمدينة العتيقة لفاس، وكذا القطاع السياحي، من خلال المساهمة في تحسين دخل الصنّاع التقليديين وخلق المزيد من فرص العمل بالقطاع.

وأوضح محمد مفكر، الكاتب العام لوزارة الصناعة التقليدية المكلفة بتنفيذ المشروع، أن الهدف من تأهيل وإنعاش المدارات السياحية للمدينة العتيقة لفاس يتمثل في «تمكين زوّار المدينة من الاطلاع عن كثب على الأعمال المتميزة التي أنجزها الصنّاع التقليديون داخل ورشاتهم الفنية والتراثية».(١٠)

معرض في متحف بوشكين:

افتتح متحف بوشكين في العاصمة الروسية موسكو معرضاً بمناسبة الاحتفال بمئويته، ضم مجموعة فنية مستعارة من ٤٦ قطعة من سبعة وعشرين متحفاً عالمياً، من بينها متحف «تيت» و«الأكاديمية الفنية الملكية» و«اللوفر» ومتحف «برادو» ومتاحف أخرى.

وقالت إيرينا أنتونوفا، مديرة متحف بوشكين، التي تتولى منصبها منذ عام ١٩٦١م: إن المعرض أتاح للزوار رؤية أعمال لم تكن من مقتنيات متحف بوشكين، من بينها على سبيل المثال أعمال لفرانس هال ويوانيس فيرمير.

وكان متحف بوشكين افتتح في أواخر أيار من العام الجاري باعتباره متحفاً للفنون

الجميلة، وسمي بمتحف الإمبراطور ألكسندر الثالث ضمن إطار جامعة موسكو. وفي عام ١٩٣٢م سمي بالمتحف الوطني للفنون. وفي عام ١٩٣٧م سمي بمتحف بوشكين تيمناً بالشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين. يضم هذا المتحف كنوزاً تبدأ من آثار الحضارتين الفرعونية وبلاد ما بين النهرين وانتهاء بفنون القرن العشرين.

وتمّ في الشهر الماضي إطلاق مشروع فني جديد، حيث تمّ ربط متحف بوشكين للفنون الجميلة بالإنترنت عبر موقع «غوغل». وعبّر متحف الفنون الجميلة عن سروره بالمشاركة في المشروع الذي تبنته شركة «غوغل» حيث صار في إمكان أي شخص أن يزور عبر الإنترنت كل قاعات المتحف، ويتمتع بمشاهدة كل لوحاته التي تمّ تصويرها بكاميرات بانورامية عالية الجودة.[11]

اللوفر وبرادو يحتفيان برافاييل:

نظم المتحف الإسباني «برادو» بالتعاون مع متحف اللوفر أوّل معرض مكرس للمرحلة الأخيرة من حياة رافاييل الرسام الإيطالي الكبير في مرحلة النهضة.

وأكد مدير متحف برادو، ميغيل ثوغاثا خلال تقديم المعرض أن رافاييل هو الفنان الذي يجسد بالطريقة الفضلى مُثُل النهضة، وشدد على أن المعرض هو من أكثر المشاريع تعقيداً في السنوات الأخيرة، مشيراً إلى أنه تضمن مجموعة كبيرة من الأعمال تعود إلى السنوات الأخيرة من حياة الفنان.

وقال ميغيل فالومير المسؤول عن قسم اللوحات الإيطالية والفرنسية (حتى العام ١٧٠٠م) في متحف برادو: إنها وسيلة للإيفاء بدين اتجاه رافاييل، فعندما فتح متحف برادو أبوابه في العام ١٨١٩م كان رافاييل نجمه الأكبر، موضحاً أن فيلاسكيز طغى عليه بعد ذلك مع تطور ذوق الجمهور.

ويهدف المعرض الذي أقيم في العاصمة الإسبانية مدريد وتضمن ٤٤ لوحة، و٢٨ رسماً تأتي من أربعين مجموعة من بينها مجموعات اللوفر وبرادو إلى تسليط الضوء على «مرحلة غير مفهومة جيداً من حياة الفنان» حسب ما قاله توم هنري أحد مفوضي المعرض، إذ إن التسلسل الزمني للوحات العائدة إلى تلك الفترة يصعب تحديده، خصوصاً أن الرسام الكبير لم يكن يوماً يعمل بمفرده، حيث اختار مفوضو المعرض تغطية مرحلة تبدأ في العام ١٥١٣م «عندما كان رافاييل يعمل في روما منذ خمس سنوات في تزيين قاعات الفاتيكان الضخمة، إلى جانب فنانين إيطاليين كبار، أمثال مايكل أنجلو»، وتنتهي في العام ١٥٢٤م بعد أربع سنوات على وفاة رافاييل ليضم المعرض لوحات أنجزها تلاميذ له.[12]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»	WWW.SANA.ORG.
٢- موقع البوابة	WWW.ALBAWABA.COM
٣- موقع عرب أونلاين	WW.ARABONLINE.CO.
٤- موقع بوابة الشرق	WWW.BAWABATALSHARQ.AE.
٥- موقع ميدل إيست أون لاين	WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO
٦- موقع بي بي سي	WWW.BBC.CO.UK/ARABIC
٧- موقع إيلاف	WWW.ELAPH.COM
٨- وكالة رويترز	WWW.REUTERS.COM
٩- شبكة المعلومات العربية المحيط	WWW.MOHEET.COM.
١٠- وكالة المغرب العربي للأنباء	WWW.MAP.CO.MA.
١١- أنباء موسكو /نوفوش	AR.RIAN.RU
١٢- موقع ياهو	WWW.YAHOO.COM.

سيمون دوبوفوار وجان بول سارتر

فلسفة في الوجود .. تمرد في الحياة.. وتفرد في الإبداع

عرض وتقديم: حسني هلال ٭

قلما نصادف إنساناً، لم يسمع بـ«سارتر» و«بوفوار» أو مثقفاً، لم يقرأ «الغثيان» و«الجنس الآخر»..

لقد ارتبط اسما «جان بول سارتر ١٩٠٥-١٩٨٠م» و«إرنستين لوسي ماري برتراندي بوفوار المختصر بـسيمون دو بوفوار ١٩٠٨-١٩٨٦م». معاً، في ذاكرة القارئ العربي، ليس فقط كعاشقين يذكرانه بليلى وقيس وعزة وكثيّر وعبلة وعنترة، وغيرهن وغيرهم. بل وكفيلسوفين وجوديين، وأديبين متنوعين عاشا شتّى ظروف الحياة.. زارا معظم دول العالم.. جرّبا سائر العلاقات بالآخر، وكتبا في مختلف أنواع الأدب.

كاتبان شاملان

في نهاية الحرب العالمية الثانية، تبوّأ سارتر وبوفوار، على نحو سريع، مكانة



عالية. بوصفهما مفكرين حرّين وأديبين شاملين، أعملا الفكر والقلم في الأجناس الأدبية كافة: (المسرحيات.. الروايات.. الدراسات الأدبية والفلسفية.. قصص

٭ أديب وصحافي سوري.

الرحــلات.. السيرة الذاتيــة.. المذكرات.. التراجم.. والصحافة).

وقد شكلت رواية سارتر الأولى «الغثيان» حدثــاً هامــاً في عــالم الروايــة الفرنسية المعاصـرة. وغــدت مسرحياتــه : الجلسة السريــة.. الأيــدي القــذرة.. الدوامــة.. مذنب التونا.. لا مخرج.. البغي الفاضلة.. وغيرها، حديث الموسم المسرحي في باريس، خاصة مسرحية «الذباب» التي كتبت ومثلت أثنــاء احتلال الألمــان لباريــس (في عهد فيشي) كونها تعرضت لأحوال فرنسا تحت الاحتلال النازي. مع نهاية عام ١٩٤١م.

الاحتــلال الذي قاومــه سارتــر وحمل السلاح ضده. فألقــي القبض عليه ونُقل إلى معتقــل «ترايِر» في ألمانيــا، حيث سجن لأكثر مــن عام، ثم أطلق سراحه بسبب عماء إحدى عينيه. وعاد إلى باريس ليؤسس مجلة «الأزمنة الحديثــة» ويتعرف إلى فيلسوف العبث «ألبير كامو» . وتبــدأ علاقة صداقــة بينهما تمتد طويلاً، يخرج له كامو خلالها عدة مسرحيات ويمثل أدواراً في بعض منها..

كانت علاقــة سارتر مــع كامو علاقة حميمة، شابتهــا خلافات، أدت إلى قطيعة بينهمــا عــام ١٩٤٨م. اخترقهــا سارتر في مقالة مؤثرة له عن صديقه كامو بعد وفاته، نشرها في كتابه «أدباء معاصرون».

لقد أحدثــت دراسات سارتر الفلسفية: «مــا الأدب».. «نقد الفكــر الديالكتيكي» و«الوجــود والعــدم»، الذي يعتــبر سجلاً مركزيــاً لفلسفتــه الوجوديــة، صدمة في الوسط الثقافي الفرنسي آنذاك. إلى جانب بحثــين أدبيين عن جــان جينيه وغوستاف فلوبــير. وعــدة مجموعــات قصصيــة كـ«الجــدار» وسواهــا. لكنه ربمــا سيُذكر على نحو أفضل من خــلال سيرته الذاتية «كلمــات». الكتاب الذي حــاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤م، ورفضها سارتر.

وسترتبط بوفوار دائماً بكتابها الهام «الجنس الآخــر» وبمذكراتهــا وبرواياتهــا اللامعة «المندريــن» التي استحضــرت فيها أجواء أوروبية بعد الحــرب العالمية الثانية. فنالت عنها جائــزة «غونكور» وكرستها روائية من الطراز الأوّل.

درست بوفوار الفلسفة في جامعة «أكول نورمال سوبراير» وتخرجت في عام ١٩٢٩م فدرّســت فترة في ثانويــات باريس وبعدها عملــت كبروفيســور «أستــاذة جامعية» في السوربون.

غدت بوفوار كاتبــة المذكرات العظمى في جميع الأوقات. وتعكس كتاباتها بطريقة ما حياتها الخاصة. فقد كتبت، إضافة إلى المجلدات الأربعة المتضمنة مذكراتها، حول

رحلتها إلى الصين «المسيرة الطويلة»، روايتها الأولى «المدعوة» وكتاباً عن موت أمها «موت سهل جداً» وآخراً عن سنوات سارتر الأخيرة «الـوداع» وروايتين مبنيتين على سيرتهما الذاتية «المندرين» و«أتت لتبقى». الأخيرة التي انقسمت الآراء حولها. إذ عدها بعضهم عملاً لا أخلاقياً وفضائحياً، في الوقت الذي اعتبرها آخرون، عملاً وطنياً شجاعاً ومقاوماً.

تأريخ وتبويب

صدر حديثاً، عن الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة- دمشق- ٢٠١٢م. كتاب بعنوان «سيمون دوبوفوار وجان بول سارتر: وجهاً لوجه» تأليف «هازل رولي» وترجمة «محمد حنانا».

يقع الكتاب الذي صمم غلافه «عبد العزيز محمد» في ٤١٦ صفحة من القطع الكبير ويشكل للقارئ العربي، مادة ثقافية معرفية دسمة ومتنوعة (تاريخية/ فلسفية/ اجتماعية/ وأدبية). يحتاج هضمها، لوافر من الجهد والوقت والانتباه.

قسمت المؤلفة «رولي» كتابها مثار عرضنا، إلى مقدمة و/١٣/ قسماً. اكتفت بتثبيت عام /١٩٢٩م/ في رأس الصفحة الأولى من القسم الأول، فيما أعطت الأقسام التالية عناوين مصحوبة بالتواريخ:

- الاتفاقية- ١٩٢٩- ١٩٣٢م.
- أولغاكوز اكيفيتش- ١٩٣٢-١٩٣٧م.
- توقّع الحرب- ١٩٣٩-١٩٤١م.
- الحرب- ١٩٣٩-١٩٤١م.
- باريس المخيّلة- ١٩٤١-١٩٤٤م.
- الشهرة- ١٩٤٤-١٩٤٧م.
- وبانسيا أفينو، جاز، وزازو الذهبية- ١٩٤٧-١٩٥٠م.

بداية ونهاية

ولدت بوفوار عام ١٩٠٨م في أسرة كاثوليكية ثرية، وعاشت مع أختها الصغرى في كنف والدهما المحامي «جورج دوبوفوار» الذي كان يملك أسهماً محترمة في «لوكسمبورغ»، خسر معظمها في الحرب العالمية الأولى. عُرفت بوفوار مع صديقة طفولتها وزميلتها «زازا» بأنهما من التلميذات الأوائل في مدرسة سان جيرمان:

كانت زازا وسيمون أفضل صديقتين منذ سن العاشرة، حين نافست كل منهما الأخرى، بصفتهما تلميذتين لامعتين في مدرسة كاثوليكية مختصة بالفتيات في سان جيرمان، التي كانت تركز على التربية أكثر من الصلاة والتعاليم الدينية والتقوى..

لقد رغب السيد بوفوار الملحد، أن ينقل ابنتيه، إلى مدرسة مدنية (غير

دينيــة)، تتلقيــان فيها تربيــة أفضل، ولا يضطــر إلى دفع أجــور، لكن سيمون لم ترد مفارقة صديقتها، فقد كانت تحبها إلى حدّ العبادة.

كانت بوفــوار تلميذة جبانــة وساذجة ومطيعــة، في حين كانــت زازا، ذات الشعر الأسود، مبكرة النضــج ومتمردة.. في تلك الفترة من حياة بوفــوار، أطاح البولشفيون برأس القيصر في ثورة درامية؛ حُوِّلت أسهم شركة «سكة الحديد والمناجم الروسية» إلى أوراق بــلا قيمة. ما شــكل ضربة قاصمة، لجورج دوبوفوار الذي كان قد استثمر معظم ثروته في شراء أسهم في تلك الشركة.

ولــد سارتــر في باريس عــام ١٩٠٥م، لأم اسمهــا «آن ماري شفايتــزر» من أسرة بروتستانتيــة من الألزاس، وأب ضابط في الجيش اسمــه «جان باتيست سارتر»، توفي ولابنــه من العمر، سنة وثلاثــة أشهر. وما أن أتمّ سارتــر الثانية من عمره، حتى فقد معظم بصر عينه اليمنى:

بعد موت والــده، عاش سارتر في كنف جده، محاطاً برعاية تامة واهتمام بالغ من والدته. كان كل واحــد منهما يروي للآخر متاعبــه. كانت تقرأ له وتعزف على البيانو من أجلــه. وفي الآحاد الماطرة، كان الاثنان يتجادلان بجدية، حول الذهاب إلى السيرك أو دار السينما..

في عــام ١٩١٦م، حــين كان سارتر في الحادية عشرة، تزوجت أمــه ثانية، وشكّل ذلــك كارثة بالنسبة إلى سارتر، فقد تحطم قلبــه. كان الغريب الذي سرق أمه، ويدعى «جوزيف مانيس» مهندساً بحرياً. وقد ظل سارتر يكن له الكراهية إلى يوم وفاته.

في السوربــون عــام ١٩٢٩م، تعــرّف سارتــر إلى سيمون ذات الـ٢١ ربيعاً (أصغر طالبــات الجامعــة اللواتي يحضّــرن لنيل شهــادة الأستاذية في الفلسفة). دأب سارتر ورفاقه خلال المحاضرات المملة، على تسلية أنفسهــم برسم اسكتشات ساخرة، تعبر عن وجهة نظرهم، حول فلاسفة معينين، وحول فلسفتهم، وقد اختار سارتــر رسماً وقحاً، كتب عليه إلى مدموزيل دوبوفوار، في ذكرى ليبنتز. وطلب من صديقه «ماهو» أن يمرره لها، ففعل.

بعد ذلــك اقترح سارتر علــى صديقيه «ماهو» و«نيــزان» أن تنضم سيمون إليهم، من أجل التحضــير للامتحانات الشفوية، بسبب معرفتها الجيدة بـ ليبنتز، إضافة إلى ذكائهــا الحاد. ثم بدأت بينهما قصة عشق استمرت -من دون زواج- حتى وفاة سارتر يوم ١٥ نيسان ١٩٨٠ في باريس. حيث رقد

في مثواه الأخير منتظراً عشيقته «بيفر(كما كان يناديها)» لتلحق به في يوم -١٥ نيسان- أيضاً، عام ١٩٨٦م وتدفن إلى جانبه.

في أمريكا

يشير في الكتاب إلى أنه:

في مرحلة الشباب، تأثر سارتر وبوفوار بالأدب الأمريكي، خصوصاً أعمال همنغواي، دوس باسوس، شتاينبك، فوكنر. ومن خلال قراءتهما هؤلاء الأدباء، افتتنا بالبلد نفسه.

تقول بوفوار: أمريكا كانت المستقبل السائر قدماً، كانت فيّاضة واسعة الآفاق، أمريكا الجاز وناطحات السحاب والأقلام والأسماء الساحرة. مثل ممفيس ونيو أوليانز وشيكاغو.

كانت أمريكا بالنسبة إلى بوفوار وسارتر كليهما، البلد الذي لن يستطيعا الانتظار طويلاً للذهاب إليه.

وقد وجد سارتر الفرصة لتحقيق أمنيته تلك في زيارة أمريكا، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. إذ تكفلت وزارة خارجية الولايات المتحدة بدعوة ثمانية من صحافيي المقاومة الفرنسية لقضاء شهرين في الولايات المتحدة، يقومون خلالها بكتابة تقارير عن الجهد الحربي الأمريكي.

في ساعة متأخرة من مساء السبت في ١٤ كانون ثاني ١٩٤٥م، غادر سارتر إلى أمريكا، في رحلة استغرقت ثلاثة أشهر. وهناك تعرف إلى فرنسية جذابة اسمها «فانيتي» وهي المترجمة المكلفة بمرافقة الوفد الصحفي الفرنسي في أمريكا.

قامت علاقة إعجاب ثم عشق بين سارتر والمترجمة، طلبت الأخيرة إنهاءها، عندما علمت بإبقاء سارتر على علاقته مع بوفوار. وذلك لعدم استطاعة فانيتي قبول امرأة أخرى تشاركها في عشيقها. وقد أهدى سارتر معشوقته فانيتي مقدمة العدد الأول من مجلة «الأزمنة الحديثة».

في أمريكا دعي الفريق الصحفي الفرنسي الذي شارك به سارتر، إلى قضاء أمسية مع الرئيس الأمريكي آنذاك «روزفلت» الذي وصفه سارتر بالقول: ما يصدم المرء قبل كل شيء هو جاذبية وجهه الطويل القاسي والناعم في وقت واحد، والتماع عينيه اللتين تنمان عن ذكاء. إنه يحب فرنسا، ففي شبابه تجول على دراجته في طرقها.

في الاتحاد السوفييتي

بعد تنديده بالاجتياح السوفييتي لهنغاريا عام ١٩٥٦م، دهش سارتر حين تلقى دعوة من اتحاد الكتّاب السوفييت لزيارة بلادهم. في عهد «نيكيتا خروتشوف» آنذاك، كانت

البــلاد تجتاز فترة ما دعي بفترة الانفراج. إذ أدان خروتشوف الانتهاكات والتطهيرات التي جــرت في صفوف الحــزب، في عهد ستالين.

انطلــق سارتر وبوفــوار إلى موسكو في ١حزيران عــام ١٩٦٢م، كانت «لينا زونينا» التــي سترتبــط بعلاقة عشق مــع سارتر، الدليلة والمترجمة التي استقبلتهما في المطار ووضعــت نفسها تحت تصرفهما طوال مدّة إقامتهما هناك.

في هذه الزيارة تحرر سارتر من الولائم الرسمية، التــي فرضت عليه عام ١٩٥٤م. كان يدعى مع بوفوار إلى منازل الناس، حيث يستطيعان التحدث بحرية.. تمشيا بجانب نهــر النيفــا.. ووقفا أمام قصــر الشتاء.. واصطفّا برفقــة «لينا» مع الموسكوفيين في الطابور.

بعد انتهــاء رحلتهما هــذه، وعودتهما إلى باريــس. سافر سارتر ثانية إلى موسكو، هذه المــرة وحده، قصد موسكــو ليشارك في مؤتمــر السلام العالمــي فيها /١٠ تموز ١٩٦٢م. ومــرة ثانية كانــت لينا مترجمته ومرافقته الخاصة ومن ثم شريكته في سريره في الغرفة رقــم ٦٠٦ من الفندق الذي كان ينزل فيه، الغرفة التي كانت بمثابة منزلهما المشترك.

في العلاقات

لئــن اتخذ كل من سارتــر وبوفوار غير قليل من المعشوقــات والمعشوقين.. فتبقى «وانــدا» هي الوحيدة بين معشوقات سارتر التــي تركت ندبة غائــرة في حياة كليهما - أي سارتر وبوفــوار- وذلك بسبب العلاقة التي أقامتهــا واندا فيما بعــد مع صديق سارتــر «كامــو». لكن ذلك لم يمنــع سارتر من الإبقاء علــى مودته لوانــدا والذهاب معها في رحلات ثنائية، إلى جانب أنه كتب مــن أجلها ٦ مسرحيات واشــترى لها شقة خاصة عام ١٩٦٥م. كمــا أن واندا لم تكفّ عن الشعور بالغيرة من نساء سارتر، خاصة منهن «بوفوار».

في ٢١ حزيران عــام ١٩٧٩م وبمناسبة ميــلاد سارتــر الــ٧٤. أرسلــت الروائية الفرنسيــة فرنسوا ساغــان رسالة حب إلى سارتر. تقــول فيها. إنها معجبــة به كاتباً وإنسانــاً، لقد كتب أفضل الكتب في جيله.. دافع عن الضعفاء والمظلومين.. جسّد روح السخاء.. أحب ووهب الحب الغاوي، وكان على استعداد دائم ليكون مغوياً. لقد تجاوز سارتــر وإلى حــد بعيد، جميــع أصدقائه، بحيويته وذكائه ولمعانه.

عندما توفي سارتر، كانت عنده معشوقته «إيكايم» وما إن علمت بذلك بوفوار. التي

كانت قد غادرته لساعات فقط. حتى أسرعت إليه باكية ناحبة، لتنام إلى جانبه لآخر مرة، قبل أن تلتحق به وتنام قربه إلى الأبد.

كلمة ختام

ينوس كتاب «سيمون دوبوفوار» و«جان بول سارتر» من حيث جنوسته، ما بين السيرة الذاتية والرواية والمذكرات. بيد أنه يشتمل على كثير من المعلومات المأخوذة من كتبهما وكتاباتهما، المنشور والمعروف منها، سابقاً، والنادر غير المعلن قبلاً. ما يغني الكتاب ويعطيه خصوصية، لجهة إثراء المكتبة العربية، واطلاع القارئ العربي، على مزيد من نتاج أديبين وكاتبين شاملين «دوبوفوار» و«سارتر» اللذين عرفا بعبقريتهما ومنافحتهما عن حقوق وحرية الدول والشعوب، وبموقفهما الشجاع ضد الاستعمار والحروب، في الجزائر وفيتنام وسائر بقاع الأرض.

لقد عرفت وجودية سارتر بنزوعها الماركسي الحرّ. بيد أن ذلك لم يحل دون وقوفه ضد تدخل الاتحاد السوفييتي في هنغاريا عام ١٩٥٦م وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨م.

أمّا أن يحتوي كتابنا هذا، على جرعة عالية، من حميميات بطليه «إذا جازت تسميتها كذلك» سواء منها ما يخصهما كليهما. وتدور أحداثه بينهما، أو تلك التي تخص علاقاتهما الحميمية، مع آخرين وأخريات. على حساسيتها القصوى. والتي لم يخفياها، عن بعضهما بعضاً، ولا عن الآخرين. فلعل ذلك بأساسياته لا يخرج عن إطار تربيتهما وأخلاقهما الغربية، هذا من جهة. ولا عن خصوصيتهما كمبدعين من جهة ثانية.

بل لعل ذلك، إلى جانب ما يميز شخصيتهما وحياتهما الغنية والمشتركة أعطى بوفوار وسارتر قيمتهما الناهضة، وهالتهما الواسعة. وتحضرني هنا، كلمات أديبتنا العتيدة غادة السمان، حيث تقول: المبدع كبير بنقاط ضعفه، كما الماسة جميلة بشرخ صغير فيها، أو ضمور في ضوئها. وفي ذلك ما يميزها عن الماس الصناعي.

من أقوالهما

إلى جانب ما يزخر به كتاب «هازل» الذي بين أيدينا، عن «بوفوار وسارتر» من وقائع وأحداث بل ومشاكل، وسمت حياتهما المشتركة. هناك غير قليل من العبارات والأقوال التي وردت في السياق تحمل طابعاً استنتاجياً وبعداً فلسفياً. لجدارتها نثبت هنا بعضاً منها:

• سارتر: الإنسان محكوم بأن يكون حراً.

• بوفوار: كنت أتمنى أن أكون صريحة ومتوازنة في وصف ميولي الجنسية.

• سارتر: مَنْ لم يصبحْ شهيراً في الثامنة والعشرين، ينبغي أن يتخلى عن حقه في المجد إلى الأبد.

• بوفوار: ثمة رعب من الخيار الحاسم، ليس لارتباطه بالحاضر، بل بالغد، ذلك ما يجعل الزواج منافياً للأخلاق.

• سارتر: لحسن حظي.. تتدخل الظروف المستقلة عن إرادتي في الوقت المناسب لتعيد لي (بعد شيء من الهزيمة) عزيزتي الحرية.

• بوفوار: لقد امتلكنا سارتر وأنا جميع ميزات الحياة المشتركة من دون عوائقها ومزعجاتها.

• سارتر: من الطبيعي ألا ينجح أحد في كل شيء، ولكن ينبغي عليه أن يريد كل شيء.

• بوفوار: في فرنسا اليوم، لم يعد من الجائز للكاتب أن يقف متفرجاً، وأن يعزل نفسه في برجه العاجي.

• سارتر: إن الموت من حيث الجوهر، في التاسعة عشرة من العمر، ليس أكثر عبثاً، من الموت في الثلاثين.

• بوفوار: كنت أخادع حين اعتدت أن أقول بأننا (سارتر وأنا) كنا شخصاً واحداً، فالانسجام بين شخصين لا يُمنح أبداً. ينبغي أن يُكتسب دائماً على الرغم من العقبات.

• سارتر: هل تعلمين يا طفلتي «زيغل» أن لدي، ما عدا بوفوار وسيلفي تسع نساء في حياتي؟

• بوفوار: استعددت للخروج قبل ثلاث دقائق. منحني سارتر ابتسامة لا يمكن وصفها وقال: إذن هذه هي طقوس الوداع. لمست كتفه من دون أن أجيب. ظلت الابتسامة والكلمات معي مدة طويلة. أوحت لي كلمة وداع بمعنى أبعد، معنى سيتحقق بعد عدة سنوات.

• سارتر: في بعض الحالات تجد نفسك مجبراً على اللجوء إلى مفتاح أخلاقي مؤقت.

• بوفوار: ما أضيق عالمي الصغير، إذا ما قيس بعالم سارتر.

آخر الكلام

رئيس التحرير

معركة بواتييه

على الرغم من مرور /١٢٨٠/ سنة على معركة «بواتييه» التي حدثت بين العرب وأوروبة في جبال «البيرينيه» عام ٧٣٢م، فإن الكتابات والدراسات والأبحاث مازالت تقوم بتحليلها ودراسة نتائجها وآفاقها المستقبلية فيما لو نجحت، ويعتبرها المؤرخون الأوروبيون معركة فاصلة في التاريخ الأوروبي، فيذكر المؤرخ «إدوار جيبون»: «أن العرب لو تحقق لهم الانتصار في تلك المعركة لانتشرت الحضارة والفنون والعلوم في باريس ولندن». ويذكر كتاب «العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى» لمؤلفه «جون دوانبوزت» عن هذه المعركة: «إن معركة بواتييه، التي نشبت بين عبد الرحمن الغافقي، وشارل مارتل في وسط فرنسا، وانتهت بتقهقر العرب، كانت أعظم عامل في تقلّص ظل الحضارة العربية عن الغرب، ولو انتصر العرب في هذه الموقعة الكبرى لكانت أوروبة اليوم عبارة عن مقاطعة عربية إسلامية من دون شك».

والحديث عن هذه المعركة، عربياً، مازال يبعث في النفوس ذكرى ساحرة مؤلمة لأن أجدادنا جربوا فتح أوروبة ولم يوفّقوا وارتدّوا خاسرين، لأسباب عديدة، وقبل الحديث عن الظروف والأسباب التي أحاطت بتلك المعركة وأدت إلى هذه الخسارة

الحاسمة والقاسية والمفصليّة في التاريخ العربي والأوروبي، لابدّ من التوقف عند سيرة قائد هذه المعركة ونعني عبد الرحمن الغافقي.

لم تتحدث كتب التاريخ العربي كثيراً عن سيرة الغافقي الأولى، وما نعرفه أنه كان من كبار التابعين الذين دخلوا بلاد الأندلس، ثم نراه بعد ذلك من كبار اليمانية، وكبار الجند، ونراه في سنة /١٠٢/ هجريه، على أثر موقعة «تولوشار»، ومقتل القائد «السمح بن مالك» يتولى قيادة الجيش العربي وإمارة الأندلس لعدة أشهر، ثم لا نسمع عنه شيئاً بعد ذلك، حتى يتولى إمارة الأندلس للمرة الثانية، بتكليف من خليفة المسلمين في دمشق سنة /١٠٣/ هجرية، ومما عرف عنه أنه كان جندياً عظيماً ظهرت مواهبه وقدراته الحربية والقيادية في كثير من المعارك التي خاض غمارها، وكان حاكماً قديراً بارعاً في شؤون الحكم والإدارة، ومصلحاً مستنيراً، مما جعل من رصد سيرته يعتبره أعظم ولاة الأندلس، وأقدرهم جميعاً..

في تفاصيل معركة «بواتييه» تقول المصادر التاريخية: في مطلع عام /٧٣٢م/ سار القائد عبد الرحمن الغافقي إلى الشمال مخترقاً موقع «آراغون» أو ما يسمى «الثغر الأعلى» أو «نافار» ودخل فرنسا في ربيع هذه السنة، واستولى على مدينة «آرل» لتخلّفها عن أداء الجزية، بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف نهر الرون، ثم سار غرباً وانتفض العرب على ولاية «أكونين» والتقى الفريقان على ضفاف نهر «الدوردون» فهزم الدوق «أودو» هزيمة فادحة، ووصل الغافقي إلى عاصمته «بوردو» واستولى عليها بعد حصار قصير، وفرّ الدوق إلى الشمال وسقطت ولاية «أكونين» كلها في يد العرب المسلمين، ثم ارتد الغافقي ليخترق الجيش العربي مجموعة من المدن والبلدات، ووصل جيشه حتى مدينة «سانس» التي تبعد عن باريس نحو /٤٠٠/ ميل، وارتدّ عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف نهر اللوار، ليتم فتح هذه المنطقة، ثم يقصد عاصمة الفرنجة، وقام بافتتاح نصف فرنسا الجنوبي في بضعة أشهر فقط، وكان ملك الفرنجة آنذاك «تيودريك الرابع» وسلطته لم تكن قوية، بينما كان «شارل مارتل» هو القائد الحقيقي، وصاحب النفوذ القوي، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه، وكان منذ استفحل خطر الفتح العربي الإسلامي، يتخذ أهبته ويحشد قواه.

وتتابع كتب التاريخ وصف ما حدث: لقد حشد «شارل مارتل» الجيوش من مختلف الولايات والمناطق الأوروبية والجرمانية، وقام بتوحيدها تحت قيادته، وسار بجيشه نحو الجنوب لملاقاة العرب، وكان الجيش العربي قد اجتاح كل أراضي منطقة «أكونين» وأشرف على مروج نهر اللوار، ونفذ إلى قلب فرنسا..

لقد كان من الصعب تحديد مكان هذا اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب لكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتي «بواتييه» و«تور»، وقد استولى العرب على «بواتييه» ثم هجموا على مدينة «تور» الواقعة على ضفة نهر «اللوار» اليسرى، واستولوا عليها.. في ذلك الحين كان جيش الفرنجة قد انتهى إلى اللوار من دون أن يشعر به العرب، وأخطأت الطلائع تقدير عدده وعدته، فلما أراد عبد الرحمن الداخل أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على الضفة اليمنى للنهر، فاجأه «شارل مارتل» بمجموعة جرارة، ووجد الغافقي جيش الفرنجة يفوقه في العدد، فارتد إلى السهل الواقع بين «تور» و«بواتييه»، وعبر شارل مارتل نهر اللوار، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش العربي، بأميال قليلة..

كان الجيش العربي الإسلامي في حال تدعو إلى القلق والتوجس، فالشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر، وكانت تتوق إلى الانسحاب بغنائمها الكبيرة، وقدّر الغافقي خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شيء منها، لكنه لم يشدّد على ذلك خشية التمرد، وكان العرب قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة منذ دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم في كثير من القواعد والمدن المفتوحة، ولكن الغافقي تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة، على الرغم من أن خصمه كان يفوقه عدداً وعدّة.

بدأت المعركة في اليوم الثاني عشر من تشرين الأول عام /٧٣٢م/ الموافق أواخر شهر شعبان /١١٤هـ/ فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدة سبعة أيام، وفي اليوم الثامن أو التاسع، نشبت بينهما معركة عامة فاقتتلا بشدة وتعادلا، حتى دخول الليل، واستأنفا القتال في اليوم التالي، ولاح النصر لجانب العرب، وحدث حينذاك

أن افتتح الفرنجة ثغرة في معسكر الغنائم العربية وخشي العرب من سقوطه بين أيدي الفرنجة، وحدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول في مراكز الجيش الإسلامي بأن معسكر الغنائم يكاد يقع في أيدي الفرنجة، فارتدّت قوة كبيرة من الفرسان العرب من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف، وعبثاً حاول الغافقي أن يعيد النظام ويهدئ روع الجند، وبينما كان يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، أصابه سهم من الأعداء، فسقط قتيلاً من فوق جواده، وعمّ الذعر والاضطراب، واشتدت وطأة الفرنجة على العرب المسلمين، وكثر القتل بين صفوفهم لكنهم صمدوا بوجه العدو حتى جنّ الليل، وافترق الجيشان..

هنا احتدم الجدل والنقاش بين قادة الجيش العربي الإسلامي، وسرى التوجس وهاجت الخواطر، ورأى الزعماء أن كل أمل بالنصر قد غاص فقرروا الانسحاب، وفي الحال غادروا مراكزهم وارتدوا في جوف الليل نحو قواعدهم في «سبتمانيا»، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم، غنيمة للعدو، وفي فجر الغد، لاحظ شارل مارتل، أنّها خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب، وخشي «مارتل» الخديعة والكمين فاكتفى بالانسحاب ولم يجرؤ على مطاردة العرب، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال..

ويرى الدكتور أنيس الأبيض، أستاذ التاريخ في الجامعات اللبنانية في تحليله لهذه المعركة، أنها كانت أعظم لقاء بين الشرق والغرب، ففي سهول بواتييه وتور فَقَد العرب سيادة العالم بأسره، وتغيّرت مصائر العالم القديم، وارتدّ تيار الفتح الإسلامي، ولولا فشل العرب أمام شارل مارتل لتبدّل وجه التاريخ، ولما تأخرت الحضارة العالمية في الظهور مئات السنين.. فالعرب كانوا يحملون معهم في فتوحاتهم العلوم والفنون والمعارف والآداب الراقية.